
انتحار برائحة القرنفل
الطبعة الثانية
"إن الطاهر في مدينة الخطيئة هو المذنب الوحيد"
عمرو الجندي
رواية
منشورات الرمل

جروب بيت الكتب للمصريات

عمرو الجندي

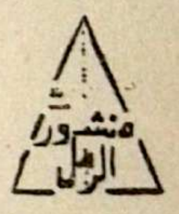
انتحار برائحة القرنفل

رواية

Rabna ygm3ny beky
doniawasra
Esraa
Love you my bbe [sh]

الكتاب: انتحار برائحة القرنفل / رواية
المؤلف: عمرو الجندي
عدد الصفحات: 384 صفحة
الترقيم الدولي: 9-69-6483-977-978
رقم الإيداع: 2016/10726
الطبعة الأولى: 2016
الطبعة الثانيــة: 2016

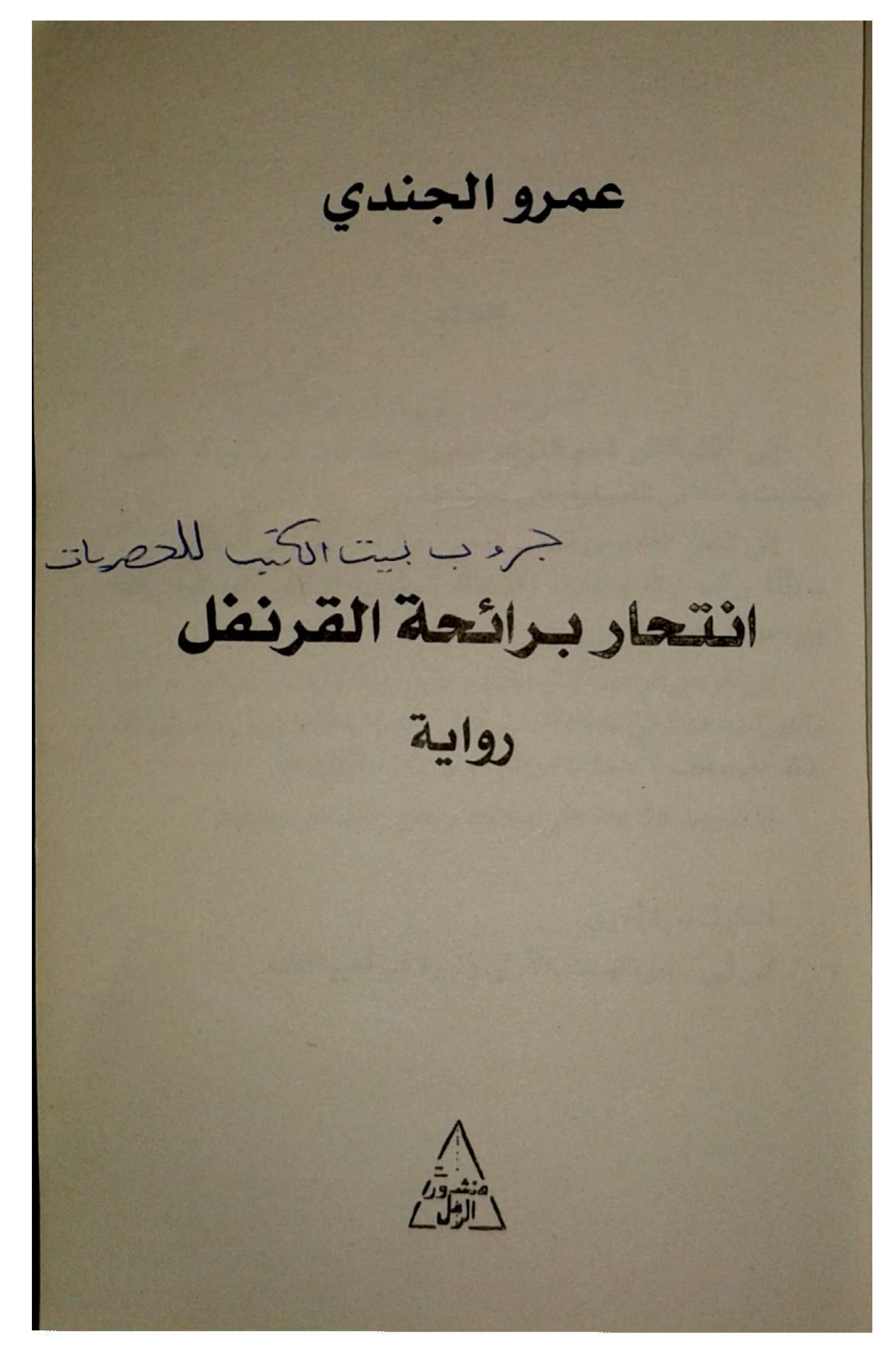
الناشر:



منشورات الرمل - مصر

مصر: القاهرة-وسط البلد-19 عبد السلام عارف (البستان سابقًا)-الدور 8-شقة 82

توزيع دار التنوير
بيروت - القاهرة - تونس
cairo@dar-altanweer. com
www.dar-altanweer.com



عمرو الجندي

انتحار برائحة القرنفل

رواية

إهداء

إلى ذلك الذي قاوم الموت عشرين عامًا دون أن ييأس أو يتأفّف وتشبّث بأحلامي الصبيانية حتى تجسّدت..

إلى البطل القادم من العصر الذهبي، والراحل بعزة من العصر العَفِن، مخلّفًا وراءه تراثًا وصلابة وضحكة أسطورية تتراقص لها الجدران، ويرهبها الرجال حتى في موته..

إلى الرجل الوحيد الذي تمرّدت عليه تمردًا يشبه تمرّده على الرجال والثورات، هناك في مثواك الأخير الذي اخترته بدقة في يوم يشابه ميلادك بدقة أيضًا، أقف لأمنحك اعترافًا: «كنت أتمرّد لأشبهك».

الآن وبعد 95 عامًا على ميلادك وعامين فقط على رحليك..

أشكرك لمرة أخرى.

إلى أبي.. لمرة ليست بالأولى ولمرة غير أخيرة أيضًا.

شكر خاص

أود أن أتقدم بالشكر لـ«أمنية».

الحبيبة والصديقة والزوجة التي تحمّلت وقاست مرارات وتقلّبات مزاجي المثارة على الدوام، وكان لها الفضل الأعظم في خروج هذا العمل على هذه الصورة..

إلى أمنية.. كل الأماني التي أنشدها هنا وهناك..

«ليس مدعاة للكثير من الدهشة أن الاغتصاب واحد من أقل الجرائم المُبلغ عنها، علها الجريمة الوحيدة التي تصير فيها الضحية متهمة، وهي في الواقع من يجب عليها أن تبرهن على ما تتصف به من سمعة طيبة وسلامة عقلية واحتشام لا تشوبه شائبة».

فريدا أدلر (1934)، مؤلفة أمريكية،

أخوات في الجريمة، الفصل التاسع (1975)

جروب بيت الكتب

«الانتحار جزء حقيقي من الحياة نرتكبه أحيانًا في حق أنفسنا، حينما نقرر أن نُميت الحب داخلنا، من دون أرق، أوخوف،أو لسعة ضمير، فتصبح حياتنا خيبة كبيرة، ذكرى في بلد بعيد لا نعود إليه أبدًا ونبقى كما نحن ميتين».

مقدمة الكاتب، مؤلف مصري،

انتحار برائحة القرنفل، (2016)

جروب بيت الكتب

حروب بيت الكتب

الفصل الأخير

ليس عليّ أن أقص لك الحكاية كاملة، هذا أمر مؤسف، لكن دعني أسألك سؤالًا، ماذا يمكن أن نخسر بعد أن خسرنا كل شيء؟ في الحقيقة، ليس كل شيء فقط، بل خسرنا كل ما يمكن كسبه أيضًا في المستقبل. أسمع جيدًا الصراخ الصادر عني، أسمع كل تأوه، كل نفس يقتلني، الإيقاع المرتبك للأقدام حولي، القوة المتحمِّسة والمضادة لإنهاك ما تبقى مني، لأصبح فريسة سهلة، لا تسبب ذلك الملل لقاتلها، ولا تستنفد طاقته المتأهِّبة لفعل واحد فقط وهو القضاء عليَّ مستمتعًا، من دون تلك الضربات الطفولية الصادرة عني، وهو يحزم جسدي ويطوِّقه بشهوانية مفرطة. أستطيع أيضًا أن أميِّز الروائح حولي في الظلام.. أضحت كريهة للغاية، رائحة الحشائش الخضراء المغطَّاة بالندى، طعام طازج ورائحة ورود قريبة أيضًا، حتى رائحة القرنفل المثيرة الخلَّابة صارت تثير اشمئزازي. وبصدقٍ تام أستطيع أن أشمها دائمًا، حتى إنها تهاجمني عندما أضع ذلك العطر الباريسي الذي بات كرائحة الكولونيا على جثة جاهزة تمامًا للدفن.

لم تكن لديَّ القوة الكافية لأخبر العالم أني أموت، ولا تجبرني على قول الحقيقة كاملة، لأنني بالفعل ميتة..

ميتة جدًا..

كل ما يشغلني الآن تلك النصيحة التي تركها لي كاتب في إحدى رواياته والتي تقول:

«قبل تناولك السم عليك أن تتناول قطعة حلوى صغيرة، فإنها تساعد جسدك على امتصاصه بهدوء وسرعة، ما يجعل من الموت إحساسًا يشبه تناولك للشوكولا».

أتدرك ما يشغلني حقًا وما يجلعني متحيِّرة مشتتة ومتسائلة وأنا أتناول الشوكولا، كيف يكون الموت سريعًا ولذيذًا أيضًا كما تذوب الشوكولا في الفم إن لم يكن هناك دافع قوي ممزوج بالسعادة الاستثنائية؟!. وكيف يمكن للانتحار أن يصبح مسبوقًا بدافع مناقض كالسعادة؟! أمر غريب! لن أعرفه، لأنني سأكون بالطبع ميتة، أعتقد أيضًا أن الانتحار هو التصرف الأكثر شجاعة الذي يمكن أن يُقدم عليه شخص ما. هو ليس جبنًا، ولا يأسًا، في الحقيقة هو تصرف شجاع، مُتخم بالحياة، ولكن قليلين هم من يقدمون عليه، قليلين من يملكون تلك الجرأة المسروقة من الزمن، قليلين بالفعل، سأدهشك بالتفاصيل، لكن دعني أغمض عينيَّ الآن.

جروب بيت الكتب

الفصل قبل الأخير

الجو بارد تتخلله صفعات رياح هائجة، أشعر بقشعريرة تسري في جسدي، تلسع شرارتها أنفي مسببة رغبة في العطس، لكن شيئًا لم يأتِ. ليلة معتمة بلا قمر، بلا نجوم، لا شيء سوى إنذار بالسوء، فالليالي المعتمة بالنسبة لي كالقبر الغارق في الوحل، مشحون بالخوف والترقب والألم، ودعنا لا ننس الغموض الذي لولاه لانتحر سكان المقبرة الكبيرة، العالم.

هل كانت ترغب تلك الليلة في إثبات شيء ما لي؟! لا أدري! ولكني في الطريق مع المجهول تدفعني الرياح الملفعة بأفكار مجوَّفة غير منطقية، المباني من حولي مصمتة وكأنها جدران عازلة عن الوطن، وعن الأمان، بينما الطريق يبدو بلا نهاية.

إضاءة خافتة تأتي من تلك النافذة البعيدة في الطابق السادس بينما على جانبيّ تمتد الأراضي الزراعية التي تبدو لي في العتمة كحُفَرٍ أو حيوانات ستلتهم من يقترب منها، نعم أتذكر جيدًا تلك الإضاءة البعيدة الآن وأتساءل: لمَ تبدو تلك الإضاءة أكثر وضوحًا لي كلما تذكرتها، بينما من المنطقي أن ينسينا الزمن الألم؟! أن يخفّفه إن لم يستطِع القضاء على ذكراه في نفوسنا؟! يبدو لي الزمن متآمرًا، هل خُدعت بشكل ما طيلة هذه المدة؟! فلا أستطيع نسيان الإضاءة في تلك النافذة في الطابق السادس! لأني أيضًا أتذكّر - وبشكل واضح - تلك الخطوات الرتيبة التي تسير خلفي وكأنها ظل لخطواتي، هناك أيضًا رائحة كريهة تأتي من مكان ما، ربما من جثة ميتة لكلب سحقته سيارة يقودها شخص متهور،

ربما من مقلب قمامة لا أستطيع رؤيته في هذا الظلام الموحش، كما أن مواء القطط وعواء الكلاب يدلّان على أن هناك شيئًا عفنًا يثيرها. تسمّرت مكاني لحظة مرّت ثقيلة، وهاجمتني أفكار مشوشة، «ماذا لو كانت تلك الرائحة مصدرها هذه الخطوات؟!» اعترتني قشعريرة وتَقَبُّض قوي، عطست بسبب البرد المفاجىء الذي أصابني، ارتجفت وشعرت برغبة قوية في النظر خلفي، لكن رعدة خوفٍ انتابتني فعدلت. مشيت بخطوات أسرع قليلًا حتى لا أظهر لظل خطواتي خوفي في هذا الظلام. تلعثمت وتخبطتُ، ولكن شيئًا غريبًا كان يدفع قدميَّ للاستمرار، بل للاندفاع بأقصى ما أمتلك من قوة. وفي اللحظة التي تسارعت فيها خطواتي تسارعت الخطوات الأخرى محاولة اللحاق بي. ماذا؟ ملاحقتي؟! لقد بدت لوهلة كخطوات لمجموعة أشخاص. ارتعدت، شعرت بانقباض في صدري، عوت الكلاب وماءت القطط بأصوات مقبضة، تخبطت أفكاري في منطقة سوداء، أحسست بحجر ضخم ثقيل يجثم على صدري، أنفاسي تجيش ببكاء شديد، معدتي تنقبض وأحس برغبة في التقيؤ، لكن لا وقت لذلك الآن، فالفرصة الوحيدة للنجاة تتلخص في القضاء على كل تلك المخاوف الطفولية.

كنت أتساءل وأنا أقف في مواجهة شرفتي المطلة على شارع الوحدة بإمبابة، ماذا يمكن أن يكون قد حدث بعد تلك السقطة التي على إثرها شعرت بدوار فظيع، ولمحت وجهًا لم أستطِع تبيّن ملامحه؟ كان أسود، أسود للغاية، كسواد كل شيء بعد ذلك اليوم. الشيء الوحيد الذي أتذكره من عمري الذي فات منه 25 عامًا و15 يومًا و7 ساعات و4 دقائق وربما 30 ثانية الآن، هو ذلك السواد.

بعد مرور وقت لا أستطيع حسابه أفقت بصعوبة، وتملكتني رغبة عارمة في الموت. في الحقيقة لم تكن إفاقتي مثل الاستيقاظ من سريرك الدافئ في كل صباح، ولكنه في النهاية كان الاستيقاظ المتاح، كنت ملقاة على ظهري، مستلبة الإرادة من شدة الخوف والإحساس بالضياع والفراغ

في داخلي، رأيت بصعوبة بالغة وبشكل مشوَّش ساقيَّ منفرجتين، شخص ما يتحرك بكامل قوته بين فخذي بعد أن أزاح لأعلى تنورتي القصيرة الكحلية فأضحت تغطّي بطني، وبالكاد استطعت تمييز شخص يرتمي بكامل ثقل جسده عليّ. شعرت بألم فظيع يدكّني ويخترق أحشائي. كانت تلك الرائحة العفنة تملأ أنفي. تمنيت لو أن ذلك الحيوان الرهيب يلتهمني دفعة واحدة. كانت يداه تضغطان على صدري فأحس بأظافر تخترقني فتخرج من ظهري.

رائحة القرنفل تتحوَّل إلى رائحة كريهة!

اجتاحتني رغبة عارمة في السؤال: هل ما يحدث حقيقي؟ قولوا لي بأنني ما زلت أحاول الاختفاء بين الجدران المصمتة! قولوا لي بأنه لم تكن هناك رائحة عفنة تلاحقني! انتظر إنني أشمها الآن، إنها رائحة القرنفل التي صارت فجأة كريهة. إنها تصدر عنه، ذلك الذي أذل كل شيء حتى الدموع.

اختنقت وأنا أحاول جاهدة الصراخ، ولكن هناك شيئًا كان يمنعني، شيئًا يطوّق فمي، يمنعني من الصراخ ويُصمت أذنيَّ قليلًا. صرخاتي المكتومة باتت أنينًا، في ما كان وجه ذلك الوحش يبتسم فتظهر أسنانه مرعبة تملأ وجهه الأسود المرعب، حاولت رفع جسدي لأتمكن من الخلاص منه، جحظت عيناي حينما أدركت أني لن أستطيع النهوض، حاولت ضربه بيديَّ المطوقتين أيضًا، شرعت تلك الابتسامة التي تشبه ابتسامة البهلوان المريبة ذات الأسنان شديدة البياض تهاجم وجهي حينما تأكد له ضعفي، جحظت عيناي بحسرة وسالت دموع وغلبتني دهشة. لقد كانت ملامحه سوداء، مصمتة، حتى عينيه بدتا سوداوين وحمراوين. كانت صورته كصورة الشيطان المرسومة في خيالي. وجه كريه ينحني مكشّرًا عن أسنانه لتقطع في لحمي، ليتلذذ بصيده الثمين. شعرت بدوار يسحقني، أنفاسي وصرخاتي مكتومة، أنيني ضعيف، دموعي فائرة تعسة،

قلبي ينبض بعنفٍ حتى يكاد يخرج من صدري. حاولت المقاومة بلا أمل.
تمنيت الموت لكنها كانت أمنية صعبة المنال.

تلاشت مقاومتي الضعيفة. أغمضت عينيّ، لم أكن أبكي أو أتألم، لم أكن أشعر بشيء، لقد أدركت أن لا شيء سيمنع كل ذلك. دعوت الله أن يعجّل في موتي. أن يساعدني! صار جسدي ضعيفًا وهو يقاوم الألم فغبت عن الوعي.

بعد فترة زمنية لا أستطيع حسابها صحوت من صمتي مذهولة، مأخوذة، تحت تأثير الصدمة، لقد كان كابوسًا مخيفًا وقاسيًا، لن أحلمه مرة أخرى، أليس كذلك؟ سأطلب من الملائكة الحارسة أن تطلب من ربّها ألّا يرسله مرة أخرى؟! فأنا وحيدة في الظلام.

وحيدة جدًا..

الدم.. الدم يخبرني بأن هناك حادثًا ما وقع لي، تحيَّرت لمنظره ثم ارتبكت، خفت لحظة، لمسته بعد تردد ممزوج بالذعر وكأني ألمس دمًا يخص شخصا آخر، أردت أن أبكي لكنني لم أستطِع. أردت أن أصرخ صرخة مجنونة تجوب نفسي وتطالب بحريتها لكن الصرخة انحشرت داخلي. ألم عنيف بين فخذيّ، ودوار عنيف يرجّ رأسي، شيء ما يطوِّق فمي. يداي حرَّتان لكنهما ثقيلتان، ماذا يحدث؟!

آه، لقد تذكرت للمرة بعد اللانهائية في وقت سبق...

لقد تم اغتصابي...

جروب بيت الكتب

عصام الرشيدي

كانت الساعة تقارب الثامنة مساءً عنما كنت أحضّر نفسي للخروج.

لم أكن بمزاج رائق للخروج من البيت. وكنت قد رفضت طلب زوجتي أن نخرج بلا مبرر واضح، ولكني في النهاية عدت واستسلمت لرغبتها.

أسكن في إحدى البنايات القديمة بالعجوزة منذ طفولتي. تزوجت في نفس الشقة التي ترعرت فيها بعد أن فقدت أبي وأمي. أمي رحمها الله ماتت وأنا في الحادية عشرة من عمري تقريبًا، فترك رحيلها ندبة كبيرة وعميقة في قلبي لم يستطع الزمن محوها. فارتباطي بها كان حديث كل من يعرفنا، ولكن النهايات تأتي من دون أن تطلب الإذن منّا. ومات أبي أيضًا، لواء الشرطة محمود الرشيدي، ميتة طبيعية إثر إصابته بجلطة مفاجئة منذ سنة تقريبًا.

وقفت أمام المرآة أتأمل ملامحي ثواني دون تفكير في شيء محدَّد، سمعت صوت طارق ابني ذي الست سنوات وهو يناديني من خلف الباب، شقاوته وبراءته تملآن الجزء الأجمل من وجودي في هذا العالم.

يا الله... كم تمر الأيام سريعًا وكأنها سحابة تظلل مشهد حياتنا، ولكنها أيضًا سرعان ما تختفي لتحل محلها سحابات أخرى، أتذكر في هذه اللحظات وقوفي خلف باب الحمام لألاعب أبي رحمه الله وأنا في نفس السن تقريبًا، وأذكر وجهه البشوش وذراعيه القويتين حينما تحاصراني فلا أشعر إلا بالزهو متمنيًا أن أصبح مثله يومًا فأتطلع إلى المرآة رافعًا ذراعيّ

محاولًا تقليد حركاته التي تعكس ثقته بنفسه وأضحك. كما أذكر صوت أمي الناعم الرقيق وهي تحاول إضفاء نوع من الجدية على صوتها بقدر المستطاع لكي تُرهبني لأترك أبي وشأنه، بينما يعترض هو ويكمل اللعب معي بسعة صدر لا تخلو من رقَّة، معبرًا عن سعادته التي لا تُضاهى بالوقت الذي يقضيه معي رغم شقاوتي التي لا تنتهي.

في لحظاته الأخيرة الصعبة قبيل رحيله، طلب مني ألا أترك العالم يغيّرني، وأن أمحو كل ذكرى سيئة سببتها لي الأيام، لأننا في النهاية سنترك خلفنا كل شيء، أحلامنا ومخاوفنا وذكرياتنا ولن يتبقى لنا أي شيء إلا السلام والطمأنينة نختم بهما حياتنا، والذكرى التي نتركها خلفنا.

نظرت إلى عينيّ طارق مبتسمًا وأنا أمسك ذراعيه برقة، ثم نظرت نحو زوجتي سارة التي كانت تضع لمساتها الأخيرة على ثوبها، وتذكرت الليلة التي رأيتها فيها لأول مرة في عرس أحد أصدقائي الضباط، وعرفت فيما بعد أنها ابنة العميد مراد السيوفي. والغريب بالنسبة لي أنه رغم الصداقة التي تجمع أبي بالعميد مراد السيوفي إلا أنها المرة الأولى التي رأيت فيها ابنته سارة، بل إنها المرة الأولى التي عرفت فيها بأن لسيادة العميد ابنة بهذا الجمال النادر. سارة هشَّة وتبعث على الفضول بشكل مثير، وعلى الرغم من نحولها الشديد إلا أنها تملك من الغواية ما لا يملكه العديد من النساء. لها وجه شبه مستدير وشفتان رقيقتان وعينان مثل لوزتين شديدتي السواد، وصدرها رغم صغره يعكس جاذبية غريبة لأنه يبدو نافرًا بسبب بطنها المشدود ووسطها الذي تزينه من الخلف مؤخرة صغيرة لكن شديدة الاستدارة.

حذَّرتني بنظرة نارية حينما حاولت مشاكستها، ضاربًا بعرض الحائط كل ما يتعلق بأبيها ومركزه وصداقته مع أبي أيضًا. ماذا لو اشتكت لوالدها واشتكاني هو لأبي؟ ماذا سيقول عني أبي الذي يعتبرني شابًا صالحًا مستقيمًا لم يُقدم على تصرف يسيء لنفسه أو لعائلته يومًا؟ فأبي لا يدرك

حقيقة أني كنت الطالب الأكثر شغبًا في كلية الشرطة رغم تفوّقي، ولا يعلم أيضًا أني قضيت أسعد أيام شبابي في اللهو مع الأصدقاء والنساء أيضًا، كم ألعن تلك الأيام وأتوق إليها في نفس الوقت، لأنها تحمل بعدًا آخر يدفعني إلى الابتسامة الخفية والخوض في الذكريات التي تحضرني كلما مر أمامي موقف يذكّرني بحدث هنا أو هناك، ألعنها وأحبها في نفس الوقت، أستبعدها وأتوق إليها أحيانًا. ذلك الجانب من الغواية في هذه الذكريات لا أستطيع التبرؤ منه فأبقيه في داخلي رغم محاولات لا تُجدي لنسيانه، أعتقد أنني حريص على الإبقاء على ذلك الجزء مني في حكايات الأصدقاء الذين أقابلهم من وقت لآخر لأستعيد تلك الذكريات المثيرة التي تأخذني بعيدًا عن عالمي الصارم اليابس بعدما صرت ضابطًا.

بعد زواجي اختلفت حياتي تمامًا، أو بمعنى أدق لم أعد إلى تلك الأوقات المسروقة من الزمن، كما لا يمكنني أيضًا إنكار حقيقة أني لم أكن مستهترًا بشكل ظاهرٍ أو معيب، كنت دومًا أضع لنفسي حدودًا في كل شيء أقدم عليه، فلا أحرم نفسي، ولا أغرقها أيضًا في النزوات، أرتشف من البهجة الرخيصة جرعة لكن سرعان ما أبصقها سريعًا لتبقى منها مجرد ظلال ذكرى، تبهجني كلما اختليت بنفسي أو كلما احتجت إلى مخفف لحياتي الصارمة.

شعرت بانقباض في صدري وأنا أرتدي ملابسي، كان الإحساس بالانقباض يجعلني أفكر في عدم النزول، وأن أبقى بعيدًا عن الصراعات السياسية وأحوال البلد التي تدور في دائرة مفرغة مجهولة منذ قيام ثورة 25 يناير. كان ينتابني قلق مخيف، وغالبًا ما تحوّل شعوري بالقلق إلى هلع غير مبرَّر، شيء غريب فيَّ لا أعرف له سببًا. وما يزيد من قلقي أنني غالبًا، ومنذ صغري، حينما أشعر بانقباض في صدري يقع حادث ما.

كنت أشعر بالانقباض ذاته يوم توفيت أمي، لم تكن مريضة أو تعاني من مرض يهدد حياتها، لكنها فارقت الحياة فجأة بعد أن صدمتها سيارة

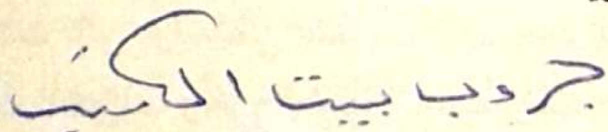
مسرعة وهي تهم بالنزول من سيارتها بينما كنت جالسًا إلى جوارها، وقد ترك ذلك الحادث في نفسي أثرًا عميقًا ودفينًا بالذنب، فقط لأني لم أخبرها بذلك الانقباض في صدري. لربما غيَّرت رأيها فلا تترجل من سيارتها. كذلك كنت أعلم بأن حادثًا مروعًا سيقع قبل وفاة أبي، لن يصاب هو تحديدًا، ولكن ذلك الانقباض كان مماثلًا للذي شعرت به قبل وفاة أمي، حتى بعض الأمور السيئة التي لا تحمل كل ذلك الجانب من الأهمية، والتي حدثت لي على طول حياتي كنت أشعر باقتراب وقوعها بشكل أو بآخر، ولكن الغريب أني أظل ساكنًا في مكاني من دون حراك أو حتى من دون أن أخبر أحدًا بما أشعر به وكأن شيئًا غريبًا مجهولًا يمنعني من النطق والتصريح بما يدور في داخلي من صراع مجهول لا مبرّر له.

وقفت منفعلًا في مواجهة سارة. كانت أحاسيس متداخلة تدور في ذهني: ماذا ستقول إن فاجأتها بعدم رغبتي في الخروج بعد أن نزلت عند رغبتها بعد إلحاح وجدل طويلين؟! ستغضب وتتهمني بالجنون، سارة لا تفهم أشياء كثيرة عني رغم محاولاتي شرح بعض طباعي الغريبة لها. أنا قد أحب شيئًا ما ثم أكرهه في وقت لاحق، والعكس أيضًا يحدث كثيرًا. قد أكون على عجلة من أمري وفجأة أتقاعس بلا أسباب، وأحيانًا تتملّكني الحماسة ثم فجأة تخبو وكأنها لم تكن. لا أستطيع أن أقول إنني أتصرّف على نحو متناقض، فأنا لا أرغب بالشيء ونقيضه في آنٍ، بل هو شيء يحل محلّ شيء آخر. هناك شيء غريب فيَّ أنا نفسي لا أفهمه وهذا الشيء سيبقى لغزًا على ما أعتقد إلى يومي الأخير.

لم أستطِع أن أخبرها بما يدور في ذهني، أو يجيش في صدري، ولكنها لاحظت هدوئي المريب المشوب بقلق واضح، وعبوسي الغريب وانفعالي الذي ظهر فجأة في كل تصرف أو أي كلمة تصدر عني، ولكنني في النهاية، ورغم كل ذلك، خرجت. وصرت خلف مقوَد سيارتي وإلى جواري سارة وفي الخلف يجلس طارق وفي يده هاتف أمه مشغول بإحدى الألعاب، ويصيح بحماسة.

لم أتفوّه بكلمة خلال الطريق. كنت أحاول إبعاد الأفكار السيئة عن ذهني، كنت أحتسي شايًا بالقرنفل حينما عرجت بالسيارة متجهًا إلى الطريق الصحراوي (القاهرة - الإسكندرية) وفاجأتني سيارة نقل ظهرت من العدم وانطلقت النيران باتجاه سيارتي من كل جانب. لم أستوعب المفاجأة ولكني، ومن دون وعي، ضغط بقوة على دوّاسة البنزين لتنطلق السيارة بكامل سرعتها، صوت صراخ طارق المرتعد يخرق أذني وكذلك سارة التي استحوذ الرعب على ملامحها، أخرجت مسدسي الميري وشرعت في إطلاق النار بشكل عشوائي محاولًا بقدر الإمكان تشتيتهم، وصحت في سارة وطارق طالبًا منهما الانحناء بقدر ما استطاعا أسفل مقعديهما، لاح أمامي مشهد سارة وهي تمدّ جسدها لتحتضن طارق وتُطمئنه، بينما صوت الرصاص ينهمر حولنا من كل صوب. تحطّم زجاج السيارة كله تقريبًا وسارة تصرخ وتحتضن طارق. تتعرّض سيارتي لصدمة كادت تقلبها ولكن الحمد لله استطعت تفادي انقلاب السيارة، واستمرت الصدمات في جانب السيارة الخلفي فاختلّ توازنها وأنا أحاول تفادي انقلابها، تحوّل لون كل شيء، وبسرعة رهيبة، إلى رمادي غير واضح. الرصاص وأصوات المكابح، فاجأتني رؤى سريعة متداخلة، وأصوات ما بين البكاء والعويل وتداخلت معها رائحة القرنفل، ثم ارتطام قويّ تبعه سكون ثقيل أخير، لم يعقبه شيء سوى الظلام.

لقد انعدمت الرؤية.. انعدمت تمامًا..



مصطفى الشريف

السماء ملبّدة بالغيوم وتنذر بالشر، تبدو لي وكأنها تستبسل لتكظم غيظها وقد استحال لونها رماديًا قاتمًا أقرب إلى السواد، هناك رائحة كريهة تأتي من مكان ما، الزحام الشديد في واشنطن أكرهه بشدة، لا أحد يهتم مهما حدث حتى لو اندلعت الحرب العالمية الثالثة الآن، لن يهتم أحد لو قُتلت ولن يتحرّك أحد للدفاع عنك في ما أحدهم يسلبك مالك أو كرامتك ولا تأتي الشرطة فور وقوع الحادث، أو قبله، كما يصوّرون في أفلامهم التي تحمل في جانب منها الكثير من الكذب والتلفيق لتظهر أمريكا كأعظم دولة تطبق القانون وتحمي مواطنيها. في حين أن الجرائم هنا منتشرة: السرقة والقتل والاغتصاب والسطو المسلح أيضًا، فالدولة العظيمة تتصدر قائمة أكثر الدول استهلاكًا للمخدرات التي تقتحم أسوارها الوهمية بطرق مختلفة لتُهلك شبابها كل يوم، وكثرة المصحات المنتشرة فيها أكبر دليل على ذلك.

لقد جئت إلى واشنطن منذ أن كان عمري 11 عامًا برفقة أبي الطبيب عادل الشريف وأمي الطبيبة الجميلة سناء منتصر، وتلقيت أفضل مستويات التعليم، وتخرجت في جامعة بوسطن كطبيب، ثم تخصّصت في علم التشريح. لم أهتم في حياتي بشيء آخر سوى الدراسة والطب، ولم أكتشف ذلك إلا بعد تخرجي بكل أسف، سؤال غريب ألحّ على عقلي فجأة؟! فاجأني بلا أدني تفكير حينما رأيت شابًا وفتاة يتبادلان القبل بشغفٍ في وسط شارع يضج بالزحام والسيارات، بدا وكأنهما نسيا

العالم تمامًا. باغتني السؤال كغريزة طبيعية لأي شاب في سني، أين أنا من حياتي الآن؟! كيف لم أقع في الحب حتى هذه اللحظة رغم كل من التقيتهم من فتيات طوال حياتي ودراستي الطويلة داخل أسوار الجامعة المكتظة بالفتيات من كل جنس ولون؟! وكيف يصبح الإنسان مغيبًا إلى هذا الحد ناسيًا كونه يملك قلبًا وحياة خاصة بعيدًا عن العمل؟! أسئلة كثيرة مزّقتني وجعلتني في حيرة من أمري، بل شكّكتني في نفسي، وما زاد الطين بلة شعوري العميق بأني لا أنتمي إلى هذا المكان، لا أنتمي لأمريكا ولا لتقاليدها وأعرافها ولا لتلك الحياة الصاخبة المزيفة التي لا تشبهني.

لم أنسَ مصر يومًا، إنها في مخيلتي دائمًا. حاولت بكل طريقة ممكنة أن أحافظ على بعض الصور القديمة المشوَّشة التي أحتفظ بها في ذاكرتي ولكن عبثًا لم أستطِع! حافظت على علاقة ببعض الأصدقاء من مصر. قابلت بعضهم على صفحات التواصل الاجتماعي التي أعتبرها نعمة بالنسبة لمن هم في مكاني وحالتي. كما أنني متابع جيد لما يدور في مصر من أحداث أولًا بأول. تابعت الثورة على الحكم الظالم الذي طال البلاد وخرَّب التعليم والمبادئ والكرامة، فأسقطته الثورة المجيدة التي قام بها شعبنا بكل فئاته. ولكن عبثًا، لقد ضاع كل شيء بسبب جشع الجماعات المتاجرة بالدين، وبسبب الأحزاب التي لا يهمها سوى مصالحها الخاصة. ولكن هذا سيجعل نهايتهم سريعة.

أنا أعمل في إحدى المصالح الحكومية الأمريكية رفيعة المستوى، في مكان متخصّص في الجرائم الغامضة التي يصعب الوصول إلى مرتكبيها. لا أستطيع أن أنكر مدى دقة نظامهم واهتمامهم وخبرتهم في اقتفاء آثار الجرائم، وفي مراقبة الحياة هنا، خصوصًا في الأماكن التي تكثر فيها هذه النوعية من الجرائم. ولكن هيهات كشف هذا الكَمّ الرهيب من الحوادث المفزعة التي تحدث كل يوم.

وظيفتي هي تشريح الجثث التي تصلني وتحليل وتفسير أسباب

الوفاة، ثم كتابة تقرير كامل طبقًا لرؤيتي ونظرتي الخاصة لما أعتقد أنه قد حدث قبل الجريمة وأثناءها، كما أنني أضع تفسيرًا من وجهة نظري عن مواصفات القاتل وصفاته البنيانية وسماته الشخصية الأخرى إن أمكن. أشارك أيضًا في بعض التحقيقات لأتحرّى الدقة في المشتبه بهم، جزء من عملي له جانب كبير متعلّق بعلم النفس، ولكن في الحقيقة حتى الآن لم أكن مفيدًا سوى في قضية واحدة استطاع فيها حدسي فك العقدة حول قضية قتل لأربع فتيات قُتلن بنفس الطريقة.

في حياتي المتناقضة بين السلام والجريمة هناك جانب آخر هو عائلتي، التي أرى فيها عقدة أحاول تفكيكها وفهمها: أبي عادل الشريف رجل حاد الطباع، لم أره يومًا يداعب أمي أو يلاطفها، ساكن معظم الوقت ويعيش في عالمه الخاص، لا يناقش ولا يستطيع أحد مجادلته، متفوّق في عمله كطبيب جراح. هو لا يلتقي بأمي طبيبة الأسنان إلا على وجبة الغداء التي تعدها عاملة فلبينية، وبعدها يفترق كل منهما إلى حياته الخاصة، أبي إلى قراءاته وأبحاثه التي لا تنتهي، وأمي إلى صديقاتها الأمريكيات المولعة بهن منذ أن وطأت أقدامنا هذه البقعة من الأرض. ولا أستطيع أن أتذكر أن أبي أو أمي ناقشاني يومًا في أي شيء يخصني، أو تصدّيا مثلا لقرار اتخذته يومًا مهما بلغت خطورته، حتى إن كان ذلك القرار سيؤثر على مستقبلي، ولا يعود ذلك لتمسّكهم بمبدأ ترك الحرية لي الذي من خلاله أتعلم من أخطائي، إنما لانشغالهم بحياتهم الخاصة أو ربما من باب أن حياتي ستسير سيرًا حسنًا، فطالما أن المال متوفر وندرس في أفضل المدارس ونتلقى أفضل تعليم ونرتدي أفضل ثياب ونملك فيلا كبيرة وثلاث سيارات فاخرة فما حاجتنا لأي شيء آخر بعد كل ذلك؟! ببساطة تامة هذه هي الحياة من وجهة نظرهم، ولكن من وجهة نظري فإن الأمر ليس أكثر من ترف مزيّف خال من قيمة الحياة. ومع ذلك فإنهما يتدخّلان في بعض الأحيان بطريقة مفاجئة.

أما أختي ياسمين، فهذه أحبها حبًا خاصًا لأنها الوحيدة في هذا المنزل

التي تهتم لأمري وتسعد لسعادتي وتحزن لحزني، لم تتأخر يومًا عني في أي شيء أطلبه منها، وفي الغالب ياسمين هي الوحيدة التي أطاحت بكل أفكار أبي وأمي وألقتها أخيرًا في سلة اللامبالاة من دون أن تشعر بأي نوع من الذنب تجاههم، ودومًا تفسر كل قرار تتخذه لنفسها بقولها «همَّ عايشين حياتهم بطريقتهم، أنا كمان هعيش حياتي بطريقتي»، كنت معجبًا بشخصيتها كثيرًا، وكانت تدهشني بردودها عليهم، ردود كانت تُسكتهم في كل موضوع يتعلق بها، لا أعرف عنها الكثير ولكني متأكد من أنها بارعة في ما تفعل، إنها تدرس في كلية الفنون الجميلة بعد أن أطاحت بكبرياء أبي بضربة واحدة حينما أخبرته بأنها لن تلتحق يومًا بكلية الطب التي يتمناها لها، وحينما اتخذ والدي مقعده متحفزًا تقذف عيناه الشر قالت له ببرود لا يخلو من تحدٍّ واضح:

- بص يا بابا أي محاولة في إنك تجبرني على شيء مش بحبه فخليك متأكد إني مش هعمله مهما عملت.

صاح والدي بغضب عارم في تلك الأثناء كعادته حينما لا يعجبه كلامنا أو رأينا في شيء ما:

- ما بقاش إلا إنتِ يا مفعوصة اللي هتعرفيني المصلحة فين؟! إنتِ تسمعي الكلام وبس.

رددت ببرود وفتور غريب وكأن الكلمات تخرج من شخص آخر:

- أنا مش بعرّفك المصلحة فين.. أنا بقولك مصلحتي أنا فين.
- وإنتِ من إمتى بتعرفي تحددي مصلحتك فين ومش فين؟! والله وكبرنا وبقالنا صوت في البيت ده.

نهضت ياسمين من مكانها وبقسوة ومن دون تردد قالت بصوت ما زال يطن رنينه في أذني حتى الآن:

- أنت عمرك ما سمعت إلا اللي عايز تسمعه ولا بتخلينا نحب إلا اللي أنت عايزنا نحبه وبس وكأننا عرايس ماريونت في إيديك،

أنت حتى ما تعرفش إحنا بنحب إيه وبنكره إيه وكل اللي يهمك
إن الحياة تمشي زي ما إنت راسمها وبس وغير كده مش مهم..
المهم إنك تحس دايمًا إن العصاية السحرية في إيدك أنت بس..
طيب تقدر تقولي عيد ميلادي إمتى، وبحب إيه وبكره إيه، ومين
أصحابي، وإيه اهتماماتي، وإيه اللي بحلم بيه؟ تقدر يا بابا؟!

لاذ أبي بالصمت وهو ينظر لعينيها المتحديتين غير مصدِّق لما يسمعه،
ارتسمت على وجهه علامات مختلطة بالاستفهام والاستنكار والصدمة
وكأنه مرغم على مواجهة حقيقة يدركها ولكنه يتملص منها دائمًا بينه وبين
نفسه لعدم قدرته على تحديها، رأيت في عينيه مزيجًا من الأسى والغضب
الذي نشعر به حينما يواجهنا أحدهم بحقيقتنا التي طالما دفناها. ما ذكَرته
له بالفعل لا يعرفه ولم يسبق له ولو لمرة واحدة أن فكر فيه!!

غابت نظراته تمامًا ثم قال وكأنه يحدّث نفسه:

- مش هصرف عليكِ بعد كده.

ابتسمت أختي ابتسامة منتصرة ثم قالت وهي تنصرف من أمامه:

- وأنا مش عايزاك تصرف عليّا.

بعد تلك المناقشة الحادة التي دارت بينه وبين ياسمين لم ينزعج أبي
كعادته ولم يكن متحفزا ضدنا كما كان يفعل حينما نفعل ما يعكر صفوه،
شيء ما كان يعتمل في صدره وكأنه يُعيد حسابات جار عليها الزمن
وصارت كأوراق مهترئة لا طائل من محاولة إصلاحها.

بعد الذي حدث صارت ياسمين بالنسبة لي بطلًا قوميًا وقف في
وجه العدوان وواجه جبروته حتى اضطر للتسليم بقوة مُنافسه ومن ثم
التراجع. ولم تهتم أمي بما حدث لأن لا شيء يهمها في كل ما يحدث
تحت سقف هذا المنزل طالما أنه بعيدًا عنها. لا أكره أبي ولكنني لا أحبه
كما يحب الأبناء ذويهم، أحترمه ولكني صرت لا أخشاه بعد أن كسرت
ياسمين شوكته أمامي فانفتح باب جديد داخلي لم أكن أعلم بوجوده.

صار بإمكاني أن أمنح حياتي ولأول مرة الاستقلال التام من عبودية العائلة.

شرعت في تغيير مظهري المضحك والذي طالما سخر منه زملائي في العمل، لقد كنت دائمًا أختفي خلف نظارة طبية كبيرة سميكة فأطل على العالم مثل متخصِّص في علم الحشرات يحتاج لوضع تليسكوب دائمًا أمام عينيه ليكتشف عالمه الصغير غير المرئي. كنت طوال فترة شبابي أرتدي ملابس لا تناسب عمري. دومًا ملابسي غامقة.. معظمها قمصان كبيرة وسراويل واسعة لا تناسب جسدي وأكاد أضيع فيها، شعري مجعّد لا أضع عليه أي نوع من الكريمات ولا أصففه أبدًا فيبدو كليفة استحمام خشنة بائسة، كما أنني أرتدي غالبًا نوعًا رديئًا من الأحذية المفلطحة من الأمام ولا أهتم أبدًا بتنظيفها كما يفعل الجميع.

لا أعلم، لم أتعجب من كوني لا أملك حياة خاصة؟! أي فتاة تلك التي ستقبل بي؟! ماذا لديَّ من مميزات تلفت نظر تلك الفتاة الرائعة التي يصوِّرها لي ذهني الموهوم الحالم؟! لقد استعنت بأختي ياسمين التي تعمل الآن في إحدي المطاعم كنادلة وترسم اللوحات وتبيعها أيضًا لتستطيع سد احتياجاتها بعد أن تركت البيت من أجل حلمها، لكن شيئًا غريبًا ما زال يختلج في صدري، شيء ناقص رغم التغيير الذي طرأ على مظهري، ما الذي أريده بالفعل؟ ما الهدف من كل هذا التغيير الظاهري وأنا ما زلت مستسلمًا لقوانين والدي الديكتاتورية؟ وكيف لشاب مثلي في آخر العشرينات، ويعيش في أمريكا، أن يمكث كل هذا الوقت مع عائلته كطفل صغير لا يستطيع الاعتماد على نفسه؟ في الحقيقة أعتقد أني ما زلت خائفًا، أمرّ بالمرحلة الأولى التي يخرج فيها الجنين من رحم أمه ليواجه العالم، ولكني أحتاج لدافع حقيقي يلفظني من تلك المرحلة إلى مرحلة أعلى أستطيع فيها الصراخ ومن ثم الحبو والمشي، ربما حينها أستطيع أن أقفز وأتسلق دون رهبة حتى أصل إلى قمة الجبل لأصرخ في العالم كله بأني حرٌّ.

جروب بيت الكتب

الفصل 19

خطوة.. خطوتان.. ثلاث خطوات، لا داعي للخوف، ستجلس هـ
لتسمعني قبل صعودي على ذلك الكرسي، ستسمعني حتى النهاية، حتى
ينفتح ذلك الباب الموصد بعد دقات عنيفة لضباط لا أعرفهم ولكنه
يعرفونني جيدًا، لا داعي للذعر، فلن أقتلك ولن أقطع لسانك الذي سيقص
قصتي كاملة، لن أفعل كل ذلك لأنك ببساطة وحدكَ مَنْ تبقَّى، والبقاء ل
دومًا أسبابه التي تبدو منطقية ولكنها مزعجة. وللأسف لا شيء في الحيا
يبدو منطقيًا بل كل شيء في هذه الحياة مزعج للغاية، هل تسمعني؟!

خطوة.. خطوتان.. ثلاث خطوات..

صفعة قوية على وجهك.. انتبه لما أقوله أيها البائس؟!

لست مستعدة لضربك مرات أخرى، يدي تؤلمني من كثرة التلوي
لمن يأتي لينقذني من هذا العالم البائس، لكن لم يأتِ أحد؟! أتعتقد أنه
تعمّدوا إيذائي؟! لا أعتقد أنك تفهم شيئًا ولكنك هنا لتسمع قصتي كاملة
قد يستغرق الأمر بضعة أيام، أو ربما أسبوع، وعلى أقصى تقدير تسعة أيا
حتى يكتشفوا وجودنا هنا. سأقوم بالتجربة مرة أخرى.

خطوة.. خطوتان .. ثلاثة..

الكرسي لن يسقط ويسقطني معه، لن يتحرك حينما أجري باتجاه
وأصعد عليه، لن يكون الشبّاك مغلقًا، سيظل مفتوحًا طيلة هذه الأيام
أنت القصة الأولى والأخيرة، بالمناسبة اشتريت هذا الكرسي خصيصً

لهذه المناسبة، إنه كرسي ممتاز، مصنوع من خشب الزان الأحمر، قوي بما يكفي لأن يتحملنا معًا لو فكرت في أخذك معي في رحلتي الخاصة والأخيرة، الخطوة الأولى خطوة عادية تجاه الكرسي كما ترى.

الخطوة الثانية هي ثني ركبتك للصعود فوق الكرسي المستند إلى الجدار الذي يحوي الشباك الوحيد في هذه الغرفة.

الخطوة الثالثة: بسيطة للغاية، وهي القعود على حافة الشبّاك. ولكن سأخبرك بصدق أن تلك الحافة هي حافة الحياة بأكملها وليس عليك في هذه اللحظات إلا أن تترك جسدك يهوي فيهوي معه كل شيء، وتلك الخطوة الأخيرة هي الخطوة الرابعة ولكن دعني أؤجلها قليلًا.

لا تقلق لن آخذك معي، فليس لديّ الوقت الكافي لفك قيودك، أعدك بأن أفك الكمّامة عن فمك في اليوم الخامس، ربما لأستمع لأنفاسك الأخيرة الفرحة بالنجاة، لكن صدقني لن تنجو مني، لن تنجو من تلك الحياة الزائفة، فصاحب الكرسي العجوز لا يصدق شيئًا عن قتلي لشخص يشبهك من قبل رغم أني أخبرته بالحقيقة همسًا وأنا أبتسم، دعنا نقول إن ابتسامتي أفزعته أكثر من اعترافي، ربما اعتبرني مجنونة ولكنه كان سعيدًا بالتخلص مني، سعيدًا إلى الدرجة التي دفعته ليعطيني الكرسي من دون ثمن ولكني أبدًا لا أقبل ذلك، فتلك هديتي الأخيرة في هذه الحياة ولا بد أن أدفع ثمنها كما دفعت ثمنًا لكل شيء حصلت عليه، حتى البالونة التي اشتراها لي ذاك الشاب وأنا صغيرة لا أتعدي ست سنوات، أتذكر جيدًا لمسات أصابعه بين فخذيّ، وأتذكر أيضًا البيت المهجور الذي قادني إليه، أتذكر حينما أخذ يدي ليدسها في فتحة سرواله وترك يدي لتعبث هناك بعد ما طلب ألا أتركه، أتذكر وأتذكر وأتذكر... ما زلت أيضًا أتذكر ولا أستطيع النسيان.

لا تتعجب من كون كلمة «الأخيرة» تأتي تباعًا بين جُملي، فكل شيء ينتهي يعتبر الأخير حتى الابتسامة، فالابتسامات لا تشبه بعضها أبدًا، ولا

تصدق تلك الفتاة التي ستخبرك يومًا بأن لديك خمس ابتسامات مختلفة، فنحن نحمل عددًا لا نهائيًا من الابتسامات التي تموت بمجرد عودة ملامحنا لحالها الأول المكوّن من البؤس والألم وانتظار ابتسامات مؤقتة قادمة بلا معنى، وقد لا تأتي.

خطوة.. خطوتان.. ثلاث خطوات..

كل شيء جاهز..

لقد قرأت في كتاب لطبيب مختصّ في علم الجريمة أن الجسد حينما يهوي من الطابق العلوي سيكون كالقذيفة المتهوِّرة والسعيدة أيضًا لأنها استعادت حريتها، سيشعر الجسد بصفعات قوية متتالية ومؤلمة من أثر الضغط لاختراقه طبقات الهواء بين السماء والأرض. سيقل الهواء مع كل طابق أمر به ولكن ستزداد سرعتي، أؤكد لك بأنني سأرى مشاهد رائعة من أعلى، ربما سأجد رجلًا يهتز فوق امرأة من فرط النشوة، أو قد أرى طفلًا صغيرًا يبكي من الجوع بينما والدته تنظر له بنفاد صبر لتستجمع قواها التي أنهكها، قد أرى أيضًا أحدهم نائمًا في سريره ويحلم بالسقوط في الجنة، ربما.. للأسف وفي الواقع لن أرى كل ذلك لأننا للأسف في منطقة مهجورة نائية، لكني أؤكد لك بأني وقبل الطابقين الأخيرين لن أشعر بشيء، ستكون النهاية، سينعدم الهواء أو يكاد، سيصبح سقوطي حرًا بلا قيود، بلا أصوات تؤرِّقني أو ذكريات مريرة تلاحقني أو ثمن أدفعه لأنني حصلت على ابتسامة من هذه الحياة الرخيصة. حينها فقط.. سينتهي كل شيء، ستنتهي حياتي كما ينتهي شعاع النور وقد علمونا ونحن صغار بأن الشعاع يبدأ بنقطة وينتهي بسهم يشير إلى المالانهاية، ولم يخبرونا بأن السهم بالفعل ينتهي، ينتهي بالظلام والموت، لقد كانوا مجرمين، أؤكد لك بأنها الحقيقة، فالنهايات موجودة بالفعل، توجد في شعاع النور، وفي شروق الشمس، وفي نور القمر المظلم، في دوران الأرض... ألم أقل لك بأنهم جميعًا مجرمون؟! ألم أقل لك أيضًا بأنه سيكون سقوطًا ممتعًا؟!

لكن أرجوك أغلق النافذة بعد انتهاء كل شيء، لا أريد أن أراك وأنت تنظر إليَّ تلك النظرة الطويلة التي ستكون حتمًا مشتتة حائرة وعاجزة أيضًا، فأنا أكره النظرات الفضولية المتسائلة.. ببساطة لأني حينها لن أستطيع الرد.

انظر.. إنه القمر.. نصفه منير، تلمع عينه الوحيدة بينما الأخرى مفقوءة، السماء صافية، الجو تلسعه صفعات الرياح، العمارة التي نقطن فيها خالية تمامًا، إنها تحت الإنشاء، لم يسكنها أحد بعد، نحن في الطابق الرابع عشر، أعتقد أننا بعيدون كفاية عن الأرض، قريبون من السماء.. نعم أريد أن يسمعني الله بلا تشويش، بلا عائق، بلا أصوات بشرية مللتها، لا تقاطعني بتأوهاتك تلك..

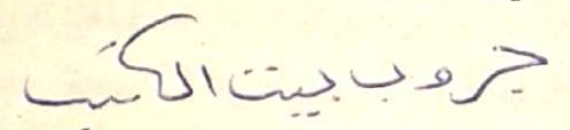
صفعة جديدة.. قلت لا تؤلم يدي..

لنجرِّب مرة أخرى..

خطوة.. خطوتان.. ثلاث خطوات..

لتبدأ حكايتي...

دعنا أولًا نشغل المسجِّل الصغير كي أستعيد التفاصيل جميعها ولتظل شاهدًا على حكايتي التي حتمًا لن تنساها..



الفصل 18

فكرت في كل الاحتمالات بشكل مشوّش وأنا لا أدري كيف يمكن التصرف بعدما انعدمت أمامي السبل التي تقودني إلى الخلاص ولكن الخلاص ممّ؟! وممّن؟! أنا مغتصبة! لم أكن أدري هل كان سؤالًا ا حقيقة؟! ماذا سيفعل بي أهلي إن علموا بخطيئتي التي ارتكبتها رغ عني؟! ماذا ستكون العواقب؟! هل سيكفهرّ وجه أبي ثم ينهال عل بالصفع واللكمات والضربات في بطني حتى يصرعني فأموت وتنته قصتي وكأنها لم تكن؟! هل ستولول أمي بعد أن تصيبها الصدمة وتظل ساكنة مشدوهة محاولة بقلبها الطيب تدارك الحدث ومحاولة استيعابه؟! هل ستنطفئ عيناها الضعيفتان للأبد من شدة بكائها على ابنتها الوحيدة والتي صارت مغتصبة؟! هل سيهرع أخي الذي يصغرني بعام واحد إلى المطبخ منفعلًا ويأتي بسكين وقد تحجّرت عيناه بنظرات قاسية وارتجف جسده من فرط الغضب على شرفه المغتصب ثم يغرزه في أحشائي ليتأكد من كوني لا أحمل سفاحًا؟!

احتشدت الأفكار السوداء في رأسي بشكل عشوائي فلم أستطع الخروج بفكرة محددة منها. أحس بنقاط دماء ساخنة تسيل بهدوء وبطء بين فخذيّ حتى وصلت إلى منتصف ساقي، دوار عنيف يهزّ رأسي من وقت لآخر فأشعر بأني على شفا السقوط ولكن شيء ما يدفعني إلى التقدم، شيئًا خفيًا في مكان ما داخلي يُنبهني لضرورة مغادرة الإضاءة في الطابق السادس.

أمطرت السماء فجأة فرفعت رأسي لأشاركها البكاء وأنا أجرجر قدميّ بصعوبة بالغة وقد خلا الشارع من الناس تقريبًا وكأنهم يُفسحون لي مجالًا للمرور من دون حرج من عارٍ وخزي سأعيش معهما حتى اليوم الأخير من عمري الذي بدا قريبًا للغاية.

وجدت نفسي أقف في مواجهة منزل أحمد الجرّاح، هذا ليس لقبه ولكنه يعمل جراحًا وهو بعد في مقتبل العمر. لقد كان الحاج فتحي البسيوني والده في مقام العمدة، يُذعن له الكبير احترامًا وينحني له الصغير تبجيلًا، يملك منزلًا كبيرًا - له حديقة واسعة - على حدود مدينتنا يغط في الهدوء والوحدة، لا أعلم كيف وصلت وماذا حدث خلال الطريق ومن قابلت! كل ما أدركه جيدًا أن السماء أبرقت وهدرت مرارًا ولم تتوقف عن البكاء، واختفى القمر تمامًا من السماء وكأنه شعر بضآلته أمام الغضب السمائي فتوارى عن الأنظار، اجتهدت السماء في حزنها الغاضب فأجبرت الجميع على الاختفاء داخل منازلهم.

لقد أصبحت مبتلّة تمامًا. تشرَّبت ملابسي القذرة الماء والوحل فتساقطا مني وكأني أمطر أنا الأخرى. وأنا في مواجهة البوابة الحديدية الكبيرة للمنزل الكبير الرابض كوحش في الظلام، فكرت في طرق الباب ولكني عدلت عن ذلك. ورغم تفكيري المشوش أمسكت بحقيبة يدي المتسخة والتي تساقطت منها قطرات ماء مخلوطة بالطين، فتحتها فوجدت هاتفي، أخرجته بيديّ المتسختين، نظرت له محاولة استيعاب ما يحدث وقد تصوّر لي أن ما يحدث كأنه يحدث لشخص آخر وليس لي. كنت أشعر بأني أتصرف وأفكر كشخص آخر أو بأنني أشاهد فيلمًا غريبًا أراه لأول مرة بهذه التفاصيل الدقيقة المدهشة والثقيلة.

اتصلت بأحمد الذي ردَّ بسرعة وكأنه ينتظر اتصالي، في صوته طمأنينة أحتاج إليها، أحسست برغبة مُلحّة بالبكاء ولكني لم أستسلم لها ولا أستطيع أن أفسّر كل تلك الأحاسيس حين سماعي صوته إلا بمشاعر الحب، لا أدري لم فكرت فيه تحديدًا ولم أحاول ولو للحظة أن أذهب

إلى بيتي أو إلى قسم الشرطة مثلًا؟! هل خفت من الفضيحة؟! نعم خفت منها بقدر ما تخاف الفتاة على شرفها، لقد كانت الأفكار تأتيني تدريجيًا والرؤية تظهر غريبة مشوشة وغير كاملة من وقت لآخر ولكن كان هناك شيء واحد يفزعني، صوت حفيف ثقيل وكأنه شبح يتلاعب بي من خلف أشجار اليوسفي والبرتقال والموز داخل حديقة المنزل الكبير فيُحدث صوتًا تهتز له فرائصي، تخيلت مغتصبي مرة أخرى فشعرت بدوار وبأني بالفعل موشكة على الانهيار لمرة أخيرة، كلما تذكرت تلك الليلة أراها وكأنها حدثت لشخص آخر، كأنها قصّة لم تحدث لي على الإطلاق ولكني سمعتها من شخص بطريقة تمثيلية بارعة أقرب ما تكون إلى الحقيقة. لا أدري كيف تترك المرأة أهلها لتتلحف بكساء الحب وتتمسك بحباله وكلها ثقة بأنه لن يُخذلها، ولا تدري، أو يخطر في مخيلتها، أن تلك الحبال قد تقطّع أوصالها وأن ذلك الكساء قد يعرّيها؟! فبالنسبة لي الحب هو الستر الوحيد الذي تخيلته من كل الفضائح التي يمكن أن يتعرض لها شخص ما، إن لم يكن الحب سترًا فماذا سيكون إذًا؟!

دقائق وكان الجراح على الخط. أخبرته بصعوبة بالغة وبصوت متلعثم متهدج عن مكاني خارج منزله الكبير، بدا على صوته الهلع فأنهى المكالمة سريعًا، كنت أعلم أنه أحس بأن مكروهًا ما أصابني ولكني واثقة أنه لا يتخيل حجم المكروه الذي طالني. لا يدري حقًا حجم الألم الذي سيصيبه في مقتل. أليست تلك هي الحقيقة؟! أليست تلك الحياة بمعاناتها وعذاباتها؟ أليست تلك هي اللحظة التي يظهر فيها معدن الإنسان؟ حتى هذه اللحظة لا أعرف حقًا إجابة واضحة ومريحة لهذه الأسئلة!

أنا وأحمد نعرف بعضنا منذ أن كنا تلاميذ في المدرسة الابتدائية، ولقد أحببته حبًا عميقًا وقويًا. بعد المدرسة التحقت بكلية التجارة بينما التحق هو بكلية الطب، وانتقلنا إلى القاهرة للعيش هناك، لم يتركني لحظة واحدة، عشنا خلال هذه الأعوام كل معاني الحب التي تتغنّى بها القصائد وتطرب لها المسامع، عدت إلى مدينتي بعد انتهاء دراستي في الجامعة

بينما ظل أحمد ليكمل دراسته في القاهرة لمدة ثلاث سنوات مرت عليّ ثقيلة قاسية رغم قصر المسافة بين الشرقية والقاهرة إلا أنني لم أكن أراه بالشكل الذي اعتدت عليه إبّان أيام دراستي، كان حبي له عاصفًا وخياليًا، وبالطبع أنت تدرك ذلك جيدًا.

صعوبة لقاءاتنا التي صارت متقطعة، جعلتني أكثر تعلّقًا به. طوال تلك الفترة تابعت نضجه وعقله الراجح المتزن رغم قسوته المستترة وحكمه المسبق على الأمور دون أن يلتفت إلى الدوافع التي أدت بإنسان ما مثلًا إلى السرقة أو القتل، وكنت أحسّ أنه ورث هذه القسوة عن والده. هو يؤمن بالنظرية التي تقول بأن المجرم مجرم بطبعه وأن المذنب يمكنه تدارك الذنب من البداية لو أنه لم يفكر فيه. وكان يفسّر معارضتي لموقفه بأني طيبة ولا أعرف شيئًا عن الحياة الحقيقية التي تعج بالمجرمين والقتلة وبأنهم في النهاية لا يستحقون منا أيّ شفقة.

وقفت في مواجهة عينيه المشدوهتين والممتلئتين بكم رهيب من الأسئلة حينما رآني بهذا المنظر الغريب المزري كأني متسوّلة لا تملك مكانًا تبيت فيه. اقترب مني بخطوات متمهّلة متسائلة وأنفاس متصارعة متسارعة وهو ينظر إليَّ بعمق وكأنه يستخرج الإجابات مني من دون أن يسأل. بكيت بشدة وشعرت بأن قدميّ لا تستطيعان حملي أكثر من ذلك فهويت على الأرض بركبتيّ فانكفأ عليَّ وأمسكني من تحت إبطي بيديه وهو ينظر لي نظرة تملؤها الشفقة المخلوطة بشيء من التحفز والحيرة والفزع أيضًا، حملني إلى حديقة المنزل ووضعني أسفل شجرة موز كبيرة وأسند ظهري لها، لا يمكن أن يدخلني المنزل بهذه الصورة أمام أهله، ماذا سيقول لهم؟! ماذا سأقول لهم؟! لا أعلم حتى الآن كيف فلتت مني تلك الكلمات ولكنني دفعتها بصعوبة وأنا أصيح باستنكار موجع مع هدير الرعد:

- اغتصبني يا أحمد.. اغتصبني..

وانهرت باكية.

نظر إليَّ نظرة مشدوهة مملوءة بالصدمة فارتميت بين ذراعيه محاولة الاختباء فيه من العالم بأسره وكأن ذراعيه هما الأمان الوحيد لي في هذه اللحظات من بؤس العالم وجبروته، أتذكر جيدًا ضمَّته الباردة في تلك اللحظة. هل تفهَّم ما أرمي إليه؟! بالتأكيد تفهَّم.. فالأمر ليس بهذا التعقيد ولكن ما حدث يوحي بغير ذلك، كان حضنه باردًا بشكل أكثر قسوة من برد الطبيعة، رد ردًا فاترًا لا أستوعبه حتى الآن:

- اغتصبك.. مين ده، واغتصبك إزّاي يعني؟!

رجعت برأسي للخلف محاولة استيعاب ما يقوله بالضبط! لم تكن هناك صورة واضحة لما يدور حولي، ولم تكن عندي ولو مجرد فكرة واحدة واضحة عن الشخص الذي اغتصبني فكل شيء مشوَّش. أجبته بصوت متردِّد فزع وكأن استنطاقه لي دفع بي إلى إخراج هذا الألم من داخلي:

- طلع عليَّا واحد وجري ورايا.. وضربني على راسى.. مش فاكرة بس هو طويل وأسود.. أيوه.. مش فاكرة.. أغمى عليَّا.. بس أنا فقت ومش فاكرة إمتى.. إمتى؟! أيوه... أهو بفتكر..

- اهدي... بقولك اهدي.

قالها بحزم، بصوت يشبه هزيم الرعد وهو يمسكني من كتفي ويهزني وينظر إلى عينيّ الغاربتين ليوقظني من فزعي. أجهشت بالبكاء وانهرت تمامًا وأنا أعوي بصوت غريب ومهيب مفزع أيضًا مردِّدة: «آه.. اغتصبني الكلب.. أنا عاوزة أموت.. يا رب أموت».

حينها نهرني أحمد مرة أخرى بصوتٍ قاس لا يبدو منه أنه يريد تهدئتي أو تنبيهي، ثم وقف في مكانه وقد بدا لي أنه استجمع أفكاره بعد الصدمة، وراح يستطلع منزله المضاء في أماكن متفرقة وكأنه يخشى أن يراه أحد ثم ساعدني على الوقوف قائلًا بفتور:

- إنتِ جيّالي هنا ليه؟! روحي بلّغي عن اللي اغتصبك ولّا روحي لأهلك يشوفولك صرفة.

كنت مشدوهة غير مصدقة ما يقول، احتجت لمزيد من الوقت لأتقبّل صدمتي، هل ما سمعته صحيح فعلا؟! وانهالت على رأسي فجاة الذكريات المتداخلة التي حدثت بيني وبينه وكأنها شريط سينمائي يمر سريعًا أمام عيني في قاعة سينما خاصة.

«كل البنات بتجري ورا عريس كويس لكن إنتِ يا ياسمين غير، إنتِ بتجري ورا الحب».

«أنا بحبك يا ياسمين لأنك مش شبه البنات، البنات كلها كوم وإنتِ كوم لوحدك».

«مهما حصل عمري ما هسيبك يا ياسمين، هي الحياة تسوى إيه وإنتِ مش جنبي».

رمقته بنظرة مستفهمة غير مستوعبة، محاولة بقدر الإمكان تأكيد عدم فهمي لما قاله منذ لحظات، وبأني بالفعل مغيَّبة وقد تصور لي ذلك بسبب عقلي المتهالك الموشك على السقوط بفعل الأحداث الأخيرة المأساوية، لكنه سحبني من يدي ومشى بخطوات عصبية وأنا خلفه أسير بصعوبة، ثم اتجه نحو البوابة وهو ينظر حوله مستطلعًا حتى لا يراه الجنايني أو حارس المنزل الذي يغط بالتأكيد في نوم عميق. أذعنت له وأنا لا أصدق ما يحدث وكأني في كابوس طويل لا ينتهي، مشيت خلفه وجسدي يهتز من شدة الألم والصدمة، فتح البوابة الحديدية حتى أصبح بابها مواربًا وأخرجني بهدوء ولم يخرج معي ولكنه بقى في الداخل، ثم قال بهمس مسموع لا يخلو من الغضب:

- امشي من هنا.. إنتِ جاية تلبّسيني تهمة؟! ما تروحي تجيبي حقك من اللي اغتصبك.. ده لو كان فعلًا اغتصبك..

نظرت إليه بعينين فيهما الغضب والانكسار وسرعان ما انهارت كل معنوياتي تمامًا، شعرت بأن الأرض تميد من تحتي واختنقت بالدموع في اللحظة التي لم أسمع فيها سوى صرير الباب الحديدي المفزع وهو ينغلق، فانتفضت في مكاني وأحاطتني وحدة مخيفة ثقيلة لم ولن أشعر بمثلها.

عصام الرشيدي

الصداع يقوى في رأسي ولا سلطة لي عليه، دوار غريب ومهيب يتملك مني كلما حاولت فتح عينيّ، جسدي ثقيل للغاية به وخز غريب، رغبة جارفة تدفعني لإفراغ كل محتويات بطني ولكني لا أستطيع، الدقائق تمرّ طويلة ثقيلة ومؤلمة، فتحت عينيّ بصعوبة بالغة بعد محاولات فاشلة وبعدما آلمني وقع النور أكثر من مرة، يبدو أنني ممدد هنا منذ مدة طويلة.. ولكن أين أنا؟! مع ذلك السؤال في رأسي خرجت من عالم غامض إلى عالم آخر تفاصيله غائمة. السؤال الوجودي الذي حول أشياء كثيرة لها معنى حقيقيًا إلى أشياء بلا معنى، بلا قيمة وبلا حياة أيضًا، ما ضرورة السؤال إذا كانت الإجابة مبتورة قاسية لا طائل منها؟! وما قيمة الحياة بلا إجابات محددة تدفعنا للاستمرار؟!.

- حمدًا لله على السلامة يا عصام باشا.

مع أني سمعت تلك الكلمات جيدًا، إلا أنني أحسستها آتية من مكان بعيد. كأنها تأتي من مذياع أو تليفزيون في غرفة قريبة مجاورة. تلفّت حولي بما أُتيح لي من قوة متفقدًا مصدر الصوت ومحاولًا بقدر الإمكان تركيز حواسي المشتتة في منطقة واحدة. لقد كان أحدهم يقف بجواري يرتدي معطفًا أبيض ويضع نظارة طبية ذات إطار أسود سميك ويرسم ابتسامة رائقة لا تخلو من الشفقة.

- بص هنا كويس وحاول تركز.

شرع في تحريك إصبع السبابة من يده اليمنى ببطء أمامي في ما يشبه مساحات السيارة فتابعتها لا إراديًا من دون وعي مني أو إدراك لما يحدث.

ثم قال، وقد بدا لي وكأنه ينادي من بعيد:

- حمدا لله على السلامة يا عصام باشا.. الحمد لله العملية نجحت وقدرنا نطلع الرصاصة.

- طارق؟! طارق فين؟!

سألتُ بصعوبة بالغة، بصوت ضعيف مبحوح شبه خافت، فنظر إليَّ نظرة متململة وسكن لثوانٍ وقد بدا عليه بأنه ينتقي كلماته:

- طارق بخير والمدام كمان بخير.. ما تقلقش عليهم.. ارتاح أنت بس دلوقتي وكل شيء هيبقى تمام..

- أيوه بس هما فين؟! فين طارق وسارة؟!

- موجودين بس أنت ممنوع من الزيارة دلوقتي لحد ما صحتك تسمح.. وبعدين أنت يدوب لسه فايق.

- أنا عاوز أشوف طارق.

حاول الطبيب في هذه اللحظات أن يبتسم ولكن باءت محاولته بالفشل، فأعطاني ظهره بعد أن ربَّت عليَّ وأعطى أوامره للممرضة التي لم ألحظ وجودها إلا الآن، ثم انطلق خارجًا في طريقه. أصابتني نوبات متعاقبة من السعال أرهقت صدري وسببت لي أوجاعًا غائرة خصوصًا في المنطقة المصابة، ولكن سرعان ما أسعفتني الممرضة بحقنة ارتحت بعدها وذهبت في نوم عميق ثقيل.

حينما أفقت من نومي للمرة الثانية نظرت حولي فلم أجد أحدًا، لا الطبيب ولا الممرضة، ولم تكن سارة أو طارق موجودين أيضًا، شعرت بانقباض في صدري. نهشتني الأسئلة والخيالات المفزعة الكئيبة مدة دقائق مرت ثقيلة للغاية، نظرت إلى نفسي فوجدت في أعلى صدري من اليمين بجانب الكتف جرحًا قد تم تضميده حديثًا، حاولت تحريك كتفي

ولكنني شعرت بألم رهيب جعلني نادمًا على ما فعلت، درت بعيني في الغرفة التي أنام بها، لم يكن هناك شيء يستحق الوصف، غرفة تقليدية في مستشفى، بعض الأجهزة إلى جواري، أسمع طنينها الغريب وأرى جيدًا معدل ضربات قلبي على شاشة، كما يوجد بجواري وعلى بعد خطوتين كرسي وثير أمامه منضدة دائرية بلاستيكية صغيرة ويوجد أيضًا تلفاز معلق في مواجهتي موضوع بشكل جانبي يُمكّن الجالسين في الغرفة من متابعته، بينما لا يوجد شيء آخر يستدعي ذكره سوى بابين، أحدهما باب الحمام والآخر باب الخروج.

دخل عليَّ في هذه اللحظة رجل يرتدي مريولًا أبيض، اجتهدت محاولًا تذكره، حتى أيقنت بأنه نفس الطبيب الذي رأيته عندما أفقت للمرة الأولى وقد كان مبتسمًا ولم يترك لي مجالًا للحديث. لوح بيديه سعيدًا وهو يقول:

- بسم الله ما شاء الله.. واضح إن فيه تحسن كبير..

ثم أمسك بسجل خاص معلق في نهاية السرير الذي أنام عليه ونظر فيه نظرة متفحِّصة ثم قال:

- أنت كده عديت مرحلة الخطر يا عصام باشا.

- هو إيه اللي حصل يا دكتور؟!

خرج مني السؤال مندفعًا كالبارود وكأني أبحث عن حقيقة يكفي التهرّب منها إلى هذا الحد، نظر لي الطبيب نظرة طويلة متفحصة وزم شفتيه وكأنه يفكر في إجابة:

- ولا حاجة يا بطل.. أنت جيت مصاب بعد محاولة اعتداء عليك لكن عناية ربنا موجودة الحمدلله.

- وفين ابني ومراتي؟!

- موجودين.

- موجودين فين؟! وليه مش بيجوا يزوروني أو يطّمنوا عليَّا؟!

لاذ الطبيب بالصمت في هذه اللحظات ولاح على وجهه تعبير حزين ثم تنهد بعمق مفكرًا وقد أطل الحزن في عينيه.

- في إيه يا دكتور قلقتني؟! هوّ فيه حاجة أنت مخبيها عني؟!

تململ الطبيب في مكانه ثم قال بود لا يخلو من الحزن:

- أنا هسيبك دلوقتي ترتاح وأرجوك ما تجهدش نفسك في التفكير.. أنت محتاج للراحة.

أحسست بوخزة ثقيلة في صدري وبأن أحدهم اعتصر قلبي في قبضته، ملأني الغضب وتشوَّهت مخيلتي بمشاهد مفزعة قاسية فاحتوتني الحيرة والقلق والأفكار السيئة في اللحظة التي اقتحم فيها زاهر - أمين الشرطة الذي لم يتركني أبدًا منذ اليوم الذي توليت فيه الخدمة كضابط شرطة - الغرفة وهو يقول بأسى:

- ألف لا بأس عليك يا عصام باشا.

- زاهر.. أنت هنا؟! فين طارق وسارة يا زاهر؟!

اقترب مني وقد اغرورقت عيناه بالدموع ثم تطلع إليّ بنظرة تملؤها الشفقة قائلًا:

- بخير يا باشا.. ما تشغلش نفسك دلوقتي علشان تقوملنا بألف سلامة.

حينها تملكني الغضب ولم أقوَ على تحمل كل هذا السخف وهذه الدرجة من التكتم فقلت منفعلا:

- ما تنطق يا زاهر؟ قولي في إيه؟!

نقل زاهر بصره بيني وبين الطبيب الذي وقف متحفزًا في هذه اللحظات يتابع الشاشة التي تعكس دقات قلبي أمامه، كانت عينا زاهر تعكسان بؤسًا غريبًا وألمًا عميقًا واعترافًا يخشى الخروج، فقال مترددًا:

- طارق باشا.. طارق باشا..
- طارق ما له.. انطق؟!
- طارق باشا تعيش أنت، وسارة هانم في المستشفى هنا.. ما عادتش بتتحرك برجليها! يا باشا.. شد حيلك..

نظرت طويلًا لزاهر غير مستوعب ما يقوله، بالتأكيد إنه يهذي، لقد أصيب بالجنون ويجب وضعه في الحجر الصحي، تململ زاهر ونكّس رأسه والدموع تسيل من عينيه في صمت وقد اكفهر وجهه من محاولاته البائسة لإخفاء حزنه، نظرت للطبيب وكأني أستحثه على تكذيب ما يقوله زاهر المجنون المختل الذي يتصور أشياء لا تحدث، ولا يمكن أن تحدث! نقلت بصري لزاهر مرة أخرى وقد انحشرت الكلمات في حلقي، العديد من الأفكار السوداء أطلت أمامي لكنها لم تكن مكتملة، حاولت العودة بذاكرتي إلى الوراء بلا جدوى وكأن كل شيء قد مُحي فجأة، العالم توقف فجأة، الحياة نفسها لم تعد لها قيمة، كانت الصدمة كبيرة لدرجة أني لم أستطع حتى رفضها بصراخ أو عويل أو حتى مجرد بكاء صامت عاجز، لقد أُلجم لساني وتاهت عيناي في متاهات غير واضحة ما بين الحاضر السقيم المفزع والمستقبل المقطوع الميت، نظرت أمامي بعد أن أيقنت في لحظة مؤلمة قاسية لم ولن تمر على حياتي مرة أخرى مهما حدث أن زاهر ليس مجنونًا وأن الطبيب لن ينفي الحقيقة التي باتت الشيء الوحيد الحقيقي في حياتي.

جرب بيت الكتب

مصطفى الشريف

تنفيذًا لمخطَّطي الجديد لتغيير حياتي بشكل كامل، كنت في اليوم السابق لليلة رأس سنة 2013، أقف بصحبة أختي ياسمين داخل أحد المحلات الشهيرة للملابس أنتقي قميصًا وبنطالًا. لمحت فتاة غاية في الجمال لدرجة أني تَسمَّرت فجأة في مكاني وتوقَّفت عن الحديث مع أختي وأنا أتابعها بعيني حتى توقفتْ على بعد خطوات منا ثوان معدودة. بدا وكأنها في حيرة من أمرها. حيرتها زادتها جمالًا. لحظات وذابت داخل الزحام وكأنها لم تكن. بدا لي الموضوع غريبًا وغامضًا لدرجة أزعجتني، لكن أختي أطلقت ضحكة صاخبة أفقت عليها، نظرت لها بانزعاج واضح مستفهمًا عن سبب الضحكة التي لا تناسب الموقف على الإطلاق فأشارت وما زالت ضحكتها الصاخبة ترن في أرجاء المكان إلى ماكينة صغيرة توجد على جانب المحل وقريبة من المكان الذي نقف بالقرب منه. كانت تشير إلى ماكينة الصرف الآلي «ATM» التي لم أنتبه لها لأنني غبت تمامًا تحت وقع تأثير جمال الفتاة التي أفقدتني تركيزي وسلبت انتباهي. الغواية الأثيرية في مشيتها أسدلت غشاوة مفعمة بالرغبة على عقلي. لقد ابتسمت لأختي ابتسامة خرقاء محاولًا بها إخفاء الحزن العميق والإرباك اللذين أصاباني بقدر ما استطعت.

خلال المدة السابقة، ومع انتهاء الخريف الكئيب، كانت ياسمين قد تركت المنزل. لم يعكر صفو قرارها القلق أو الخوف من الأحداث المستقبلية، ولم تُعِقها تهديدات أبي وحنقه المصحوب دائمًا بصياحه

المبحوح المتحشرج الذي أصبح في الحقيقة بلا معنى بعد أن انكسرت شوكته في نفوسنا. فصار بالنسبة لنا جميعًا، حتى أمي، قصة فولكلورية أسطورية أخافتنا في الماضي، تشبه تلك القصص التي يستخدمها الآباء لتخويف الأطفال حتى يذعنوا لأوامرهم، لم تبد ياسمين أيضًا أي نوع من الندم رغم إدراكها أن والدنا غاضب عليها ومتحسّر على تربيته التي باءت بخيبة الأمل ولن يسامحها مهما فعلت أو أبدت من ندم.

شعرتُ بوحدة قاتلة بعد رحيل ياسمين عن المنزل، فقد كنت أُفضي لها بكل ما يجيش في صدري. ولكن تبقى شيء واحد لم يستطع أحد سلبه مني، خيالاتي الجامحة، أحلام اليقظة ومغامراتي الخفية التي صارت أكثر لهيبًا ومرحًا عن ذي قبل، في السابق لم أكن أملك القدرة على تخيل نفسي في رفقة فتاة لأني لا أعرف كيف تسير هذه النوعية من العلاقات ولا أدري كيف تتم اللقاءات العاطفية أو تلك المغازلات التي يتم فيها التمهيد للقاء عاطفي مع فتاة ما، كما أني لا أعرف كيف ينمو التواصل والعلاقة فيما بعد، على الجانب الآخر أعرف جيدًا كيف أعامل زميلاتي الفتيات في عملي رغم ندرة تعاملي معهن، الجميع يتحاشاني حتى الرجال منهم، أعتقد أن لديهم كل الحق في ما يعتقدونه فيَّ، لو اعتقدوا بأنني مهووس هارب من مصحة نفسية أو شرقي متخلف يعيش بقوانين وعادات موروثة منذ ألف سنة لن ألومهم. حينما أنظر إلى صوري القديمة الملقاة هنا وهناك في غرفتي أتخيل مشاعر كل من نظروا في وجهي العابس الذي يملؤه الغضب والانقباض طوال الوقت وكأن أحدهم وضع قفلًا لفمي فلا أبتسم ولا أتكلم.

قديما كنت أتخيل نفسي أقف في مواجهة فتاة جميلة ذات أنوثة طاغية ثم أجذبها نحوي بقوة فتتلوى من فرط قوتي وتذوب بين يديّ، ولكن حينما تأتي تلك اللحظة الفاصلة لتقبيلها تنقشع خيالاتي كأنها لم تكن، كأنها تلاشت في جوف بحر أو ذابت فجأة من فرط حرارتي، في هذه اللحظات كنت أخجل بشكل مبالغ فيه، لا أدري له سببًا أو تفسيرًا رغم

معرفتي الواسعة بعلم النفس وكل تلك العلوم النظرية التي تصف الإنسان وخواصه وتعقيداته التي لا تنتهي، لكنني أدركت في وقتنا الحاضر وبعد طيف التغيير الذي بدا يحلق في الأفق داخلي أن النفس البشرية ليست كما اعتقدت في السابق بل هي أكثر تعقيدًا مما يتخيل الخواجة فرويد وأمثاله من علماء النفس، فالخواجة فرويد مثلًا لا يرى المرأة إلا من خلال نظرية مجوفة يخبرنا فيها ببساطة أن المرأة لا يرضيها إلا الجنس، وأن حياتها برمتها تدور في فلك الاستمتاع الجنسي الذي يحوّل ذبولها إلى حياة، ويحوّل المرأة اليابسة الجافة إلى فتاة نديّة رطبة. ولكن عن أي امرأة كان يتحدث فرويد؟! عن السمراء أم البيضاء؟! الطويلة أم القصيرة؟! الموهوبة أم العادية؟! العربية أم الغربية أم الآسيوية؟! لقد خسر فرويد أهم تحدٍّ أمام ناظري ولا أعلم من أين يمكنني البدء لأجد حلا لحالتي تلك التي صارت أكثر تعقيدًا؟! ولكنها أكثر لذة واستمتاعًا عن ذي قبل.

إن خيالي الآن ينضح بكل فنون الغواية الحقيقية، بلا خوف، وبلا حاجز تصطدم فيه شهقات لذتي حينما يحاصرني أثير المتعة، يعجبني ذلك الخيال إذ يجعلني فارسًا إنجليزيًا من عصر قديم يهاجم الأشرار بلا خوف أو تردد لينقذ الأميرة المختطفة من الاغتصاب والقتل، فألقنهم جميعهم درسًا أمام عينيها ثم أجذبها نحوي بفتوّة محارب واثق من نفسه بينما عيناها تنضحان بكل معاني الامتنان، وقد أتخيلهما أيضًا دامعتان من فرط الإعجاب والتقدير فأنظر مباشرة إلى عينيها بصوت هادئ متهدّج مفعم بالفخر والحماسة: أنتِ في أيد أمينة الآن يا سيدتي. وحين أعود بها وهي تجلس خلفي فوق فرسي البيضاء المغوار تهطل الأمطار بشدة فنحتمي في داخل أحد الكهوف ونشعل النار لتدفئنا ولكنها لا تشتعل. وبلا سابق إنذار تلتقي أعيننا وكأن القدر قد رتب لنا كل ذلك فيشتعل جسدانا بنار الرغبة وتثور ثائرتي بلهيب الرفض النبيل لما هو مخالف لقيمي ومبادئي كفارس، فلا يجوز أبدًا مطارحة أميرة الفراش داخل كهف لمجرد أني أنقذتها من بضعة أشرار لا يعنون شيئًا لفارس مثلي، لكن يسقط كل ذلك حينما يهوي

وتطارحني الغرام الملتهب
فستانها المتقطع وتنقض عليّ برغبة جامحة
وتشاركني الدفء والأحلام.

لم يمر يوم منذ شهرين تقريبًا، إلا وأنا أمارس العادة السرية بانتظام
في الحقيقة لم أكن أعي أو أتخيل أن فيها هذا الجانب الكبير من اللذة، ربما
لا أدري كيف تكون هزات الجماع لكن تلك اللذة التي تمنحها لي العادة
السرية تكفيني لأدرك في صمت مدى غبائي والسبب الحقيقي خلف ثورة
ياسمين وعدم ندمها على ما فعلت بتركها المنزل، هل تركت ياسمين
المنزل من أجل الجنس رغم العادات الشرقية الصارمة التي تربينا عليها في
مجتمع غربي يسمح بممارسته دون زواج؟! هذا السؤال لا أستطيع إجابته
ولكن على كل حال لقد اكتشفت شيئًا جديدًا رائعًا كطفل مفعم بالحماس
وجد مخلوقًا غريبًا في الحديقة الخلفية لمنزله. اكتشفت عالم الجنس
الذي يتسم تمامًا بشعور يحاكي معايشة الأساطير إن لم يكن أجمل.

في هذه اللحظات دق جرس هاتفي الخاص الذي لا يرن إلا من أجل
العمل، في الحقيقة كنت عاريًا تمامًا وأشعر بشيء من الخجل ولكني
كنت وحيدًا في غرفتي والساعة تدق الواحدة صباحًا، كان من الغريب أن
أسمع رنين هاتفي في هذا التوقيت ولكني اقتربت من الهاتف ورفعته قائلًا
بتوجس: ألو..

على الجانب الآخر كان صوتًا نسائيًا، لم تكن ياسمين ولا أمي، إنه
صوت يتأوه بشكل ما، تنبعث منه حرارة خفية، صوت ربما سيغير كل
شيء.

الفصل 17

لم يكن هناك حل واضح بالنسبة لي، بل لم يكن هناك حل على الإطلاق.. عوت الكلاب وتداخل عواؤها مع مواء القطط وحفيف أوراق الشجر فاهتزّت فرائصي، وضعت يدي بين فخذيّ من فوق ملابسي الممزقة، فزعة ومشتتة، هطلت الأمطار بشدة وبرقت السماء وهدرت بلا توقف، هل يمكن للزمن أن يعود قليلًا إلى الوراء ليمنحني فرصة ثانية لأقتل نفسي بيدي؟! ليتسنّى لي على الأقل فرصة الاختيار حتى وإن كان ذاك الاختيار ما بين موتين! لم أكن أدري أن هناك ما هو أكثر إيلامًا من الموت! مشيت بصعوبة بالغة أجرّ قدميّ بينما ألم رهيب يسري في كل جزء من جسدي، أترنح من الإعياء من حين لآخر ولكني أكافح لأتماسك بأقصى قوة بقيت لديّ، أقاوم الأمطار وخوفي وهواجسي المرعبة، هاتفي يهتز مُصدرًا صوتًا مكتومًا داخل حقيبتي، فتحت الحقيبة بصعوبة وقد أصبحت مبللة تمامًا، أخذت الهاتف وقد ملأني أمل ضعيف في أن يكون أحمد، حتى إنني همست وقد تسلل إليّ أمل كاذب: «أحمد» ولكن للأسف أصبت بخيبة أمل، لم يكن سوى أخي الصغير الذي ربما يشعر أن عليه أن يطمئن على أخته الوحيدة في مواجهة الظروف القاسية.

نظرت إلى شاشة الهاتف نظرة طويلة بينما يظهر اسم أخي وصورته التي يطل فيها مبتسمًا مفعمًا بالأمل والتي خصصتها له لتظهر حين اتصاله، لكم أحبه رغم المشاحنات والمشاجرات التي تحدث في ما بيننا، على طريقة ملبسي، على عدم ارتدائي للحجاب، على الماكياج وعلى عملي

الذي أنسى نفسي فيه فأعود متأخرة بسببه إلى منزلنا، أستغرق وقتًا لا بأس به من الزقازيق عاصمة محافظة الشرقية حتى أصل إلى بلدتي التي أقطن بها السنبلاوين، لم يكن يعجبه حالي ولا علاقتي بأحمد التي يعرف بها معظم من في بلدتنا الصغيرة، كنت أكره تجبّره كرجل وتحكمه الذكوري الذي يشبه فيه والدي تمامًا وكأنه نسخة مصغرة منه. عشت أحارب وأتمرّد على قيم المجتمع وأعلن على الملأ، ومن دون خوف، حق الأنثى الذي لا يقل عن حق الرجل في كل شيء، نعم، لقد كنت مخطئة بشدة بشأن كل تلك الأفكار النظرية التي لا تمت لواقعنا بصلة، فأنا أعيش ببساطة في عالم الذكر فيه هو المخلوق الوحيد الذي يمكنه العيش والقادر على الوقوف في مواجهة تعسف وقسوة المخلوقات الأخرى التي تعيش حولنا.

رأيت العالم غابة كبيرة يُفترس فيها الصغير والضعيف ويعيش فيها الكبير والقوي مُفاخرًا بجبروته وقوته، شعرت بانقباض بين فخذيّ تبعه ألم شديد فتأوّهت بصوت مسموع وأطبقت بقبضة يدي على ملابسي الملطخة بالدماء والماء والطين، بلا شعور أو تفكير ألقيت الهاتف من يدي وتركت حقيبتي تهوي بلا مبالاة على الأرض ثم تلفتّ حولي وكأني أستعيد وجودي الضائع ثم مشيت متوجهة إلى هدف أمامي يظهر بشكل مهزوز مشوّش في عقلي المضطرب.

وصلت أسفل منزل صديقتي المقربة شيماء، كنت أعلم أنها تبيت تلك الليلة وحدها فقد سافرت أمها لزيارة أختها المتزوجة بالإسكندرية والتي أنجبت حديثًا، أما والدها فقد توفاه الله وليس لها أخوة آخرون، طرقت الباب بعد تردد لم يطل، وبعد انتظار دام دقيقتين- مرتا وكأنهما ساعات - كنت خلالها على وشك السقوط من فرط الإعياء - انفتح الباب على وجه شيماء فصرخت بمجرد رؤيتي بعد أن ترجم عقلها في ثوانٍ معدودة المشهد كاملًا ولكنها سرعان ما احتوت صدمتها وكأنها تداري فضيحتي وهلعها معًا.

أدخلتني بسرعة. ولم تسأل عن شيء. لماذا تسأل والإجابة واضحة؟! ولمَ الفضول في شيء لا يحتاج لتوضيح؟! مغتَصبة، مكسورة ومتهدمة تمامًا حتى النهاية، هذه هي الإجابة بكل بساطة وبلا مماطلة أو تجميل للحقيقة المشوَّهة.

أدخلتني الحمام سريعًا. كانت دموعها تسيل بصمت رغم محاولاتها أن ترسم ولو ابتسامة واحدة على ملامحها حتى تهوِّن عليَّ. لكنها كانت تدرك بما لا يقبل الشك أن لا شيء في هذا العالم يمكنه أنه يهوِّن أو يخفف من وطأة ما أعانيه، قدّمتْ لي بطيب خاطر كل ما طلبته منها من دون نقاش، أحضرت لي فوطة صحية ومُطهّرًا وملابس داخلية وتركتني وحيدة داخل الحمام والذعر لا يفارق ملامحها كما الدهشة المختلطة بالصدمة التي تفقدنا النطق والحسرة التي لم تفارق عينيها أيضًا.

وقفت تحت رشاش الماء وشهقت شهقات متقطعة إذ باغتتني من دون مقدمات مشاهد متقطعة من الاعتداء عليّ مختلطة بمشاهد أخرى للقائي بأحمد، ارتجف جسدي بشدة رغم سخونة الماء وأجهشت بالبكاء دفعة واحدة وكأن الدموع المحبوسة قد تم الإفراج عنها فاندفعت جميعها تجري. عويت وصرخت وانتحبت وصحت بمرارة مفعمة بالدموع مستنكرة ما حدث لي.

أي حياة تلك التي تُنتهك بهذا الشكل؟! وكيف يصبح الموت أكثر رقة ورحمة من الحياة؟! وكيف يصبح الحب مزيفًا فاحشًا كالخطيئة؟! دوار رهيب أصابني مع تدفق التساؤلات التي ظلت تلهو وتنهش في عقلي، اضطربت مشاعري وتداخلت معها مشاهد متكررة قاسية من الماضي البعيد والقريب، صرخت صرخة مدوية لم أشعر بعدها بأي شيء.

حينما أفقت من الإغماء بعينين نصف مفتوحتين، وبعقل مشتت من فرط الضغط العصبي، وجدت نفسي ممددة على أريكة في الصالة بشقة شيماء وقد بدا أن بكاءها اختلط بالذعر والهلع الواضحَيْن على ملامحها.

ابتسمت ومسحت دموعها حينما أحسّت بعودتي إلى العالم مرة أخرى، تمنيت من أعماق قلبي أن يكون الأمر برمته مجرد كابوس رهيب محالٍ للواقع بالدرجة التي جعلتني أجلس الآن في شقة شيماء شبه مغيبة عن الوعي ممددة على الأريكة، كانت نبرة صوتها مرتعشة والكلمات تسابق بعضها بعضًا:

- حمدًا لله على السلامة يا ياسمين.. أنا كنت هموت من القلق عليكِ.. على فكرة أخوكِ اتصل بيا وكان باين من صوته إنه مرعوب عليكِ بس قلتله إني ما شفتكيش.

رمقتها بنظرة مستفهمة لا تخلو من قلق وكأني أحاول تجميع الخيوط الضائعة، كما أحاول أيضًا استعادة وجودي الضائع، أسفرت تلك المحاولات في النهاية عن نهوضي فجأة من مكاني بانفعال وكأن أحدهم صعقني وأنا أصيح:

- فين الهدوم اللي قلت لك عليها يا شيماء؟

تلعثمت شيماء ولم تدر ماذا تفعل مع رد فعلي المفاجئ. تسمَّرت في مكانها للحظات وهي تنظر مشدوهة نحوي ثم هرعتْ إلى غرفتها التي أحفظ كل ركن فيها حتى أحلامنا البناتية التي طالما تشاركناها. أحلام كانت تهاجم ذاكرتي وتضغط على رأسي بقوة في هذه اللحظات، المسافات الطويلة التي قطعناها حتى نصل إلى ما نحن عليه الآن، تمسكنا بآرائنا التي تحدانا فيها الجميع مرددين المقولة الشهيرة: «ما بقاش إلا إنتو اللي هتغيروا الكون وتمشوه على مزاجكوا.. كان غيركوا أشطر». كنا نغتاظ بشدة حين نسمع هذه الجملة وننظر لبعضنا بعضًا بنظرة سرية كشفرة لا يستطيع أحد فك طلاسمها، فنضحك في النهاية وقد اعترانا إحساس بالنصر لن يعكر صفوه أي شيء. رأيت جزءًا مكسورًا في شيماء، في طريقة نطقها للكلام ونظراتها بعد ما رأته فيَّ منذ قرعت بابها في هذه الليلة الكئيبة الطويلة التي لا تبدو لها نهاية، تلك النظرة التي ترمقني بها تحمل خليطًا

من الأسئلة المليئة بالغضب والخوف أيضًا على حقيقة كل ما آمنا به من حرية وحقوق وآمال ومستقبل لنا كل الحق فيه رغم أنف وتسلط وذكورية الجميع.. ماذا سيحدث بعد ذلك؟! سؤال لا أحد منا نحن الاثنتين يملك إجابته، سؤال غامض صار بلا قيمة، وبلا معنى، صار ميتًا بلا حياة أيضًا.

ارتديت قميصًا أبيض وبنطلون جينز أزرق غامقًا ولبست بالطو أسود ودسست بطاقتي الشخصية في جيبي التي لحسن حظي، كانت في جيب تنورتي حينما وقع لي الحادث، كل ذلك وشيماء تحدجني بنظرة قلقة وعيناها تنطقان بقلق وترقب لا يخلوان من الرعب. الألم يحاصرني وإجهاد رهيب يتملكني، لكني مقدمة على ما انتويت الإقدام عليه، مقدمة ولا ضمير يؤلمني أو أفكار تراجيدية تدفعني للبقاء، ولا نظرات تنهشني أو تجبرني على الركوع والإذعان وطلب الغفران كخاطئة ملوثة ماجنة. سأذهب بلا عار، ستختلف الأقاويل وسيتنافسون في سبّي وتمزيق شرفي ودهسه بالأقدام بكل ما أوتوا من ضمير غائص في الوحل وأخلاق منحدرة.. قد تكون هربت لأن الشيطان أغواها، قد تكون هربت لأنها تدّعي التحرر وترفض العيش في بلدة صغيرة، قد يقولون أيضًا إنها هربت بعد أن أخطأت وغرقت في الحرام، لكنه سيظل احتمالًا ضمن مجموعة كبيرة، قاسية، من الاحتمالات.

لكن أنا، نعم سأهرب..

رغم آلامي ومعاناتي وهواجسي المشتعلة والتي تزداد اشتعالًا مع كل لحظة كان لا بد لي من الانتباه، وأن أظل يقظة حتى يتسنى لي الخروج من البلدة على خير، المشكلة الوحيدة التي تواجهني كانت في إيجاد سيارة تقلني إلى الزقازيق، ومن هناك لن يكون الأمر مشكلة كبيرة.

كنت أقف تحت شجرة أتستّر بها، حين لمحت شيماء وهي تقف في بلكونة منزلها وقد تدثرت بمعطف أعرفه جيدًا بل إنني اخترته لها، كنت أستطيع أن أتخيل دموعها وهواجسها رغم معرفتي بأنها لم تستوعب

الأمر بعد وكأنها داخل حلم يقظة مرير لم تصحُ منه، غالبتني دمعة سقطت وانقبض صدري وندت عني أنّة، بلا وعي اشتدت قبضة يدي وكأني أعصر شيئًا أو أحكم شيئًا داخلها حتى إن أظافري تركت علامات واضحة في راحة يدي، لمحتني من مكانها فرفعت يدها بعد تردد ولوّحت لي، وقد بدت لي كشخص يسير نائمًا أيقظه خلال نومه مشهد غريب.

كانت مشاعري متضاربة متهدِّمة، وأفكاري وصلت جميعها إلى نقطة واحدة هي الانتحار في اللحظة التي وصلت فيها إلى موقف السيارات بالسنبلاوين، كان هذا خطأً فادحًا بكل تأكيد، فمن ضمن الأماكن التي سيبحث فيها أهلي، موقف السيارات، ربما يحسبون أنني لم أصل حتى الآن وهرعوا من شدة القلق منتظرين على أمل عودتي قريبًا، تلفتّ حولي بترقب وخوف لكنني لم أجد هناك سوى سيارة ميكروباص ليس فيها أي راكب، ولا حتى السائق أيضًا، اقتربت من السيارة بهدوء ونظرت إلى الخاتم الذي أعطتنيه شيماء، ربما لا يساوي الكثير ولكنه سيكون سندًا لي في محنتي القادمة التي لا أستطيع رسم تصور لها وأنا في هذه الحالة المزرية.

أنا أيضًا أملك سلسلة ذهبية لكني لا أعلم أين ذهبت منذ الحادث الكئيب، وضعت يدي على صدري أتحسسه وأبحث عن السلسلة، وفي تلك اللحظة دوى صوت صفير مكابح سيارة توقفت بجواري على بعد ثلاثة أمتار تقريبًا. أصبت بالهلع وجحظت عيناي وأنا أحاول بحذر معرفة هوية قائد السيارة وسبب توقفه الغريب والمفاجئ في هذه البقعة بالتحديد.

لقد كان ياسين، زميلي في المدرسة، كنت أدرك أنه يحبني منذ نعومة أظافرنا، ولكن كان قلبي بكامله ملكًا لأحمد ولا يستطيع أحد حتى منافسة هذا الحب ولو من بعيد، ياسين ابن بارّ بأبويه حتى إنه لم يأبه لشهادته في الاقتصاد والعلوم السياسية التي تخرج فيها، بل عمل في كنف والده التاجر لكي يساعده، وقد حاز احترام الجميع لإقدامه على مثل هذا التصرف

النبيل.. نظراته حملت الكثير من الأسئلة حتى إن أفكارًا سيئة رأيتها منعكسة في عينيه، لم تكن أفكارا متعلقة بإلحاق الأذى بي، فلا يمكن لعاشق أن يؤذي حبيبه مهما كانت الأسباب رغم أن ذلك الاعتقاد الأخير بات مشكوكًا فيه بعد تصرّف أحمد. ركبت السيارة دون تردد أو تفكير، نظرت أمامي مباشرة، لم أتفوّه بكلمة واحدة وحتى السلام ألقيته بارتباك، كنت أحس باندهاشه وقلقه وأسئلته التي تغزوه وتنهشه وهو يرمقني بتلك النظرة المستطلعة والمتشككة التي تنتظر الإجابات، فقلت بطريقة آلية:

- وصّلني القاهرة.

كان أمرًا أكثر منه طلبًا، لم أدرِ كيف خرجت مني الكلمات بنبرة أقرب ما تكون للوقاحة رغم إحساسي المختلف بالانكسار الذي يتزاحم في داخلي حتى صار مسيطرًا على كل شيء فيَّ. تحركت السيارة بعد دقيقتين مرتا ثقيلتين وسيطر خلالهما الصمت على كل شيء واجتاحني الهلع خوفًا من أن يجدني أحد من أهلي، لم ينبس ياسين بكلمة واحدة ولم يعلق بأي شيء بعد أن سألني سؤالا واحد فقط:

- ياسمين إنتِ كويسة؟!

حينها أومأت برأسي بالإيجاب وأنا أزم شفتيّ محاولة بقدر الإمكان كبح دموعي وردعها حتى لا تفضحني، انقشعت من أمامي كل الصور الإيجابية المحببة التي تدفعني للعيش والاستمرار في هذه الحياة، بدا كل شيء سوداويًا ومظلمًا وقاسيًا أكثر من أي وقت مضى حتى ياسين الذي يجلس بجواري منشغلًا بمسح الزجاج الأمامي للسيارة ومنتبهًا بكل ما يستطيعه من تركيز حتى تتسنى له الرؤية والوصول بسلام إلى القاهرة في ظل هذا الطقس الماطر الموحش، لم يكن أكثر من عدو يجب القضاء عليه، كرهته كما كرهت كل شيء فجأة، لم أكن أتصور ولو للحظة واحدة أن الإنسان يمكن أن تتحول أحاسيسه للنقيض بهذه السرعة وعلى هذا الشكل! ولم أكن أتصور أن الآلام ليس لها حدود وأن تحديها مجرد

عبث، ارتجف جسدي بشدة وأنا أتذكر أمي المُعلمة التي، رغم حنانها، كانت قاسية لا تقبل المجادلة في أي شيء يخص حقوق المرأة رغم أنها امرأة، أمي ترى الحياة من منظور المجتمع وأعرافه التي صارت كالقانون السماوي لا مناقشة ولا جدال فيه، تقول دومًا إن الرجل هو الرجل بامتيازاته جميعها، له الحق في كل شيء حتى الخيانة، فالرجل يحتاج إلى الخروج عن المألوف أحيانًا لأنه مختلف عن المرأة ويكره الروتين، وفي النهاية لن يجد سوى منزله ليرتاح ولن يجد مؤنسًا في غير زوجته فيعود إليهما، وحينما أعارضها كانت تتشدد في قسوتها وعقابها معللة ذلك بأني صغيرة ولن أفهم ما ترمي إليه إلا حينما أتزوج. أمي قاسية رغم طيبتها، ترى البنت دائمًا وكأنها اعوجاج في الجسد، خلل في النظام، نشاز في النوتة الموسيقية.. وهذا كله يحتاج إلى تقويم. ترى أن زواج البنت راحة من بلائها الذي لا ينتهي بل إن زواج البنت هو الستر الوحيد الذي لا بديل له وبأن البنت ستظل قنبلة موقوتة طالما أنها ما زالت في بيت أهلها من غير زواج.

اعتراني الهَمّ وأنا أتطلع أمامي وأسير إلى المستقبل المجهول، حمدت الله في أعماقي لأني لن أواجه أبي الذي لن يتوانى عن قتلي في لحظة غضب جارفة حينما يعلم بخطيئتي التي لم أرتكبها، ومصيبتي التي لا يد لي فيها ولا طاقة لي على حملها، سيتنازع أبي وأخي على السكين المتاح في مطبخنا، من سيضرب ضربته الأولى؟! من سيكون له السبق الشرفي بإعدامي، ومن سيكون سكينه أكثر حدة وأكثر عمقًا في أحشائي؟! من ستكون له الغلبة في القضاء على المصيبة حتى يستريح المجتمع منها ومن قرفها؟!

انقبض قلبي وأنا أتخيل صورهما في الجرائد وبينهما صورتي وقد تزيّن العنوان بكلمات نافذة قاتمة لكنها تدفع من يراها لقراءة الخبر كاملًا، نظرت جانبًا واتكأت برأسي على زجاج الباب المجاور لي وكأني سأنام ثم فلتت مني دمعة حارة وتأوّه هامس.

مر الوقت وأنا أصارع أفكاري وهواجسي حتى وصلنا إلى القاهرة، حينما وجدت زحامًا شديدًا في أحد الميادين لم أنتظر لحظة. طلبت من ياسين أن يوقف السيارة فورًا، وانصاع لي من دون أي نقاش، نزلت من السيارة ونظرت إليه نظرة طويلة امتلأت بالعديد من الكلمات التي لا أستطيع التفوه بها، لم يفهم شيئًا بكل تأكيد ولكنه أحس بأن هناك خطبًا ما لكنه آثر الصمت وابتسم ابتسامة لا تخلو من القلق ثم قال بنبرة صادقة ودودة:

- مش محتاجة حاجة؟!

نظرت له نظرة أخيرة وكأني أودع من خلاله أهلي وجيراني وبلدتي. أودع حياتي القديمة بتقلباتها وبساطتها وحبها وأمانيها وجنونها وتطلعاتها التي لم تنتهِ يومًا. ودعت معه الضحكات والنجاحات والأحزان. ودعت تلك الصبيّة التي في عينيه لأنني لم أعد أنا. أغلقت باب السيارة وتطلعت أمامي لبرهة ثم بهدوء مشيت بخطوات وئيدة حتى تسارعت وذبت في الزحام.

عصام الرشيدي

حدث هرج ومرج وصياح واستغاثات وصراخ وتناهى إلى مسامعي أيضًا الكثير من جمل الاستجداء لكي أتوقف عن ضرب الطبيب الذي تولى عملية زوجتي، كنت غاضبًا بشكل يستحيل معه أن أتوقف رغم الألم الشديد الذي أحسه في كتفي الأيمن، منفعلًا إلى درجة يصعب معها رسم صورة واضحة لحقيقة ما أفعله، ما ذنب الطبيب إذ لم يستطع إنقاذ فتاتي من العجز؟! لقد كانت إصابتها خطيرة، فالسيارة انقلبت عدة مرّات بنا نحن الثلاثة، غافلتني ذكرى الحادث الكئيب أكثر من مرة وسمعت صوت الرصاصات يخترق أذني وبشكل مشوش أطلت الوجوه الملثمة للمجرمين أمامي، شكل السيارة التي استخدموها، حالة الاكتئاب التي أصابتني فجأة، شقاوة وضحكات طارق البريئة التي استحالت إلى هلع ودموع، جاذبية زوجتي وابتسامتها الرقيقة التي استحالت إلى صراخ وتوسّل، نظرتها الحالمة التي تحوَّلت إلى نظرة فزعة تحثني على إنقاذنا من الموت، وكل ذلك تلفَّع برائحة القرنفل التي أضحت كريهة بالنسبة إليَّ.

نجح زاهر تحديدًا - رغم رجال الأمن المخوَّلين بحراستي - في تطويق جسدي ببنيانه الضخم وذراعيه القويتين حيث جاء مسرعًا وكأنه يعلم بما لا يقبل الشك بأني المتسبب في تلك الفوضى العارمة، لأني قبل ذلك بقليل أرسلته في مهمة بدت وكأنها تمويه أو حجة لإبعاده عن المستشفى، ولم يكن زاهر بكل هذا الغباء، حاول تهدئتي بكل السبل الممكنة، لعنته وقذفته بكل الشتائم المقذعة محاولًا التملص منه ولكن

بلا جدوى، حملني حتى غرفتي ووضعني على سريري من دون أن يذعن لأوامري أو يأبه بتهديداتي أو يتأفف من طريقتي العدوانية ومحاولاتي المستميتة في الخلاص منه، كنت أشبه بصبيّ صغير مائع يرفس بقدميه ويتلوَّى بكامل قوته متظاهرًا بالحزن والغضب لكي يعوضا عنه لعبته التي كسرها، في النهاية انسل الدواء داخل جسدي من خلال حقنة غرزها أحد الأطباء في ذراعي بعد أن ثبتني زاهر، وشرعت قوتي تخور رويدًا رويدًا وأنفاسي تهدأ كثور مرهق حتى ذهبت في نوم عميق ثقيل.

حينما استيقظت من نومي وجدت زاهر يقف في مواجهتي وعلى وجهه ابتسامة ودود لا تخلو من إشفاق، عادت بي ذاكرتي إلى الوراء وأنا أتذكر اليوم الذي جاء فيه والدي بزاهر ليكون عونًا ورفيقًا لي على الدوام، زاهر من مواليد قنا، صعيدي لكنه يتكلم بلهجة لا يستطيع أحد تحديد هوية صاحبها، من أين أتى وأين عاش لكي يكتسب تلك اللهجة المتمدنة، التي لا تخلو من بقايا لهجة ريفية وكأنها إناء لم يحسن غسله فبقت رائحة غريبة عالقة به. يبلغ من العمر 48 عامًا، من الصعب تحديد عمره نظرًا لقوته الجسمانية ومظهره الفتيّ، ما زال يحتفظ بشعره الأسود الكالح والكثيف المجعَّد تمامًا، يستخدم نوعًا رديئًا من الفازلين لتصفيف شعره فيبدو دائمًا وكأنه مشحمًا مزيتًا بينما توجد بعض الشعيرات الملتصقة بجبهته في شكل غريب مقزز ومخيف في بعض الأحيان، له عينان واسعتان خضراوان جميلتان ورثهما، بحسب قوله، عن جده الذي لا ينفك عن التباهي به، فإن حدث مصادفة وقام أحدهم بالتعليق على عينيه، فإنه يهبّ مترحمًا بأسى وحزن واضحين على جده ثم يمصمص شفتيه وتغيم عيناه في الذكريات ثم يقول بفخر: «الله يرحمه كان وحش وما فيش مَرَة شافته إلا وكان نفسها فيه» رغم طريقته الغريبة في وصف جده والتي لا تنمّ إلا عن عقل غائص في الشهوات إلا أن زاهر عكس ذلك تمامًا، غير متزوج ويلعن موضوع الزواج من الأساس إن ذكره أحد أمامه. لا أحد يعلم الحقيقة خلف رفضه للزواج لكن هناك بعض الأقاويل التي تدّعي بأن زاهر أحب يومًا امرأة

جميلة جدًا من الصعيد، عشقها حد الهوس لكنها تزوجت من رجل آخر وسافرت معه خارج البلاد ويبدو أنها أخذت قلب زاهر معها، لا أحد يعلم الحقيقة تحديدًا لكن لا يستطيع أحد إقناعي بأن هذه القوة الهائلة مصابة بالعجز الجنسي كما يدّعي آخرون.

زاهر يعشق الوحدة والحشيش أيضًا، أعتقد أن جميع الحشاشين يميلون إلى العزلة والهدوء بطبعهم والزواج لا يحقق هذه المعادلة، يملك زاهر أيضًا حاسة شم قوية فوق العادة، فهو يستطيع أن يشم بأنفه المفلطح أبعد الروائح وأعقدها ككلب صيد مدرّب، ففي مرة استطاع أن يتعرف إلى متّهم ويقبض عليه من رائحة ثيابه وقد أعجب الجميع به وهللوا له بينما وقفت في مكاني أبحث عن تفسير ما حدث وكيف احتفظ برائحة المجرم حتى تعرف إليه بهذه البساطة إلى أن أقر المتهم بجريمته. الحكاية ببساطة أنه ذات يوم استغاثت بنا امرأة تتجاوز الأربعين دخلت إلى مكتبي منفعلة تتنفس بصعوبة لتبلغنا عن سرقتها بالإكراه في شارع جانبي قريب خالٍ ومظلم وقد أصابها المتهم بجرح عميق في يدها وهو يحاول سرقة الأساور الذهبية وتمليصها من يدها بالإكراه، طوّقنا المنطقة سريعًا وانتقل عدد من رجالنا للبحث عن المجرم حتى وصلوا إلى إحدى محطات المترو القريبة ووسط الزحام أوقف زاهر شابًا لا يزيد عمره عن 23 عامًا وجره جرًا إلى القسم بعد أن انهال عليه بضرب مبرح بينما بانت على الشاب علامات الاستهجان والدهشة لما يحدث له من دون سبب ولا مقدّمات حتى إنني أوقفت زاهر عما يفعل منفعلًا صائحًا فيه بغضب لكنه أقسم لي بأن هذا الشاب هو المجرم المطلوب، ثم التصق به منفعلًا وشرع في شمّه بطريقة غريبة للغاية أشبه بطريقة الكلاب، وسرعان ما نهضت المرأة من مكانها بعد أن تعرفت إلى الشاب بعد تشكك لم يطل وانهالت عليه بالضرب.. فيما بعد وحينما سألت زاهر عن كيفية معرفته الأكيدة بالمجرم قال ببساطة:

- يا باشا الست حاطة ريحة حلوة أوي.. أول ما دخلت المحطة

شمّيتها.. عرفت ساعتها إن الواد اللي عمل كده موجود في المحطة فدورت عليه لحد ما لقيته ابن الهرمة.

زاهر يعمل منذ أعوام كثيرة، منذ أن كان شابًا صغيرًا، لدى والدي. وعندما تخرجت في كليتي ولّاه أبي رعايتي، بداية رعايته لم تكن عندما تخرّجت لأن زاهر في الأساس كان يعمل طيلة الوقت في كنف والدي قبل أن ينتقل إلى خدمتي، فقد كان هو المكلّف بحراستي إبَّان الدراسة الثانوية ولكم سخرت وضجرت منه ومن ملاصقته لي في أي مكان أذهب إليه ورغم معاملتي القاسية غير الآدمية له أحيانًا إلا أنه لم يتأفف ولو لمرة واحدة مني ولم تتغير معاملته نحوي.

- حمدًا لله على السلامة يا عصام باشا.

لم أرد على زاهر، رأسي ثقيلة وأشعر بوخز في كتفي المصابة، حلقي جاف تمامًا، رائحته كريهة، وهناك زغللة غريبة لا تستطيع عيني التخلص منها، اتكأت على يدي لكي أجلس على السرير فهرول زاهر وأعانني على النهوض، لم تبدر مني أي ردة فعل لمنعه عن ذلك أو التملص من مساعدته، استسلمت له وأنا أتذكر بصعوبة ما حدث قبيل ذهابي في هذا النوم الثقيل.

كانت هناك جروح متناثرة في جسدي ولكن يبدو أنها ليست خطيرة كما هو حال الجرح في أعلى صدري بجوار كتفي والذي فهمت فيما بعد أنه ناتج عن رصاصة أصابتني، تَقبُل ما يحدث لم يكن يسيرًا بأي شكل، ففكرة أني خسرت كل شيء له قيمة في حياتي بضربة قاسية قاضية أشبه بالعبث،فكرة قبول بأن هناك أشخاصًا ظلوا في حياتي لسنوات ثم فجأة اختفوا كالحلم ولن يعودوا ثانية كانت أشبه بالخيال المرعب الذي لا يمكن تصور العيش معه للحظة واحدة وليس لعمر كامل قادم بائس.

الرضا بمسألة القدر وتلك الكلمات الجوفاء عن أهمية استمرار الحياة والبلاء الذي يصيب المؤمنين وغيرها من تلك الأفكار التي تفسد

مشاعرنا بهدف تحقيق التوازن لاستكمال الحياة كانت بالنسبة لي أشبه بعجوز خَرِف يقص حكاية خرافية لأطفال صغار سيعرفون حين يكبرون بأن كل ما سمعوه في ماضيهم من حكايات لم يكن أكثر من أساطير أبطالها أساطير لا تربطها بالواقع صلة.

وقفت خلف باب غرفة العناية المركزة وكأني أقف داخل حلم ثقيل سخيف أرمق سارة زوجتي وهي نائمة كملاك من خلال الشباك الصغير في أعلى الباب، العديد من الأجهزة تتصل بجسدها والإبر مغروزة في يدها، جهاز التنفس على فمها وصدرها الذي يعلو ويهبط بشكل لا يكاد يُلحظ وقد بدا عليها وهن واضح، وجهها شاحب ذابل ونظرها غائم في مكان غامض لا أعرفه. بجواري كان زاهر يرمقني بنظرة مترقبة لا تخلو من حزن عميق صادق. وكذلك الطبيب الذي وقف يشرح لي كيف تمت العملية والمحاولات التي قاموا بها لإنقاذها، كل ذلك بدا وكأنه يحدث لشخص آخر غيري لا أعرفه، ولكنني آراه وفي نفس الوقت لا أستطيع التعاطف معه أو الشعور بالحزن تجاهه، جرجرت في النهاية قدميّ بصعوبة وقد أصبت بانفعال داخلي من تواتر الأحداث وتتابعها بشكل سريع يستحيل من خلاله استيعابها بسهولة، وصلت إلى غرفتي وجلست على السرير بعد أن رفضت رؤية جثة ابني طارق، كان في موته مخالفة لكل القوانين التي عرفتها، غدر واضح لكل أحلام الحياة التي حلمت بها يومًا، من الصعب أن أعلق كل أفراحي وآمالي على شخص واحد فقط ثم يسقط هذا الشخص أمامي من دون مقدمات، بخيانة واضحة ومن دون إنذار مسبق. يختفي تمامًا وعليّ، بكل بساطة، أن أهيئ نفسي للحياة من دونه وكأن شيئًا لم يحدث، كأن طعنة في الصدر لم تنفذ، وكأن حكمًا بالإعدام لم يتم إقراره، كان في موت طارق خيانة واضحة لي، لم أستطع تصديق موته أو تقبله ولم أبكيه إلا بعد شهر كامل من موته حتى حينما دفنته بيديّ في مقابر العائلة أحسست أني أدفن شخصًا آخر لا أعرفه، خلال مراسم العزاء وقفت أمد يدي للمُعزين كإنسان آلي يقوم بمهمة محددة بُرمج من أجل القيام بها. أشكرهم على

وجودهم بعقل شارد وأردّ على تعزيتهم برد هامس واضح مستنكر في أعماقي «شكر الله سعيكم»، لم يكن بمقدوري الاستماع إلى النصائح التي تتعلق بالرضا والصبر عند الشدائد وكل تلك النصائح التي تطلب مني شكر الله على نعمته وفضله عليّ! أي نعمة؟! أإنه أنقذني من الموت؟! ولماذا لم ينقذ طارق وسارة ما دام بهذه القدرة الفائقة؟! لا أعرف الإجابة ولا أعرف الذنب المفجع الذي اقترفته ليُسلب مني أعز ما أملك! كيف أصبر على مصيبة كتلك؟! وكيف يتسنى لي تقبّل الأمر بهذه البساطة والرضا؟! أما الشكر، فلو شكرته بلساني لن يشكره قلبي الحزين المكروب على ما ألحقه بي من مصيبة ستزيدني كربًا مع كل يوم.

الفصل 16

لم أكن أدري في أي شارع أنا ولا كم الساعة لكن الجو دافئ. أفضل من الشرقية، ولا يوجد ما يوحي بسقوط الأمطار وكأني بدلًا من سفري للقاهرة سافرت خارج مصر كلها داخل سيارة ياسين، لم أكن في حالة ذهنية يقظة بل على العكس تمامًا، كنت مشوَّشة، مأخوذة، وكأني غائبة. شعرت لحظة بأن لا أحد يراني، بأني صرت مخفية بشكل أو بآخر، نوع من السحر الأسود تمت ممارسته عليَّ. بعد برهة من الوقت، وكنت حينها أسير وسط الزحام وقد داخلني شعور بالطمأنينة بعد أن آمنت بأني مخفية، فجأة أصابتني رهبة غريبة ارتجف على إثرها جسدي وشرعت أنقل بصري بفزع وتوجُّس وكأن أحدهم يراقبني، شعرت أن السحر انقشع فجأة وبَطُل عمله، وأن الجميع يعرفونني ويدركون ما حلّ بي، ويعلمون بفضيحتي، ويتناقلون سيرتي وقصة اغتصابي كمادة لذيذة للتسلية وقتل الملل، في الظاهر يعضون شفاههم ليظهروا تعاطفهم وتضامنهم، لكنهم في الحقيقة شامتون يلقون اللوم عليّ، ينحدرون أكثر بتفكيرهم الذكوري المريض ويفسرون القصة كاملة على طريقتهم وطبقًا لهواهم المشوّه، يتزاحمون بقدر الإمكان،بل ويتبارون، لتقديم المبررات المختلفة التي جعلتمني مجرمة، لو أنها لم تسافر ليلًا وتتأخر، لو أنها ارتدت ملابس أكثر حشمة، لو أن هناك من يعتني بها ويشكمها، لو أنها لم تضع رأسها برأس الرجال وتحشر أنفها في ما لا يعنيها، لو أنها تربّت جيدًا لجلست في بينها تنتظر نصيبها حتى تخرج من منزل أهلها مرفوعة الرأس.

نفرت من نظراتهم الوقحة وأصابني رعب شديد من تلك النظرات التي تتفرَّس جسدي، الهمسات بين الشباب الجالسين على المقاهي القريبة ثم إطلاق الضحكات المختلطة بالتفرُّس فيّ وكأني حيوان أليف يسهل الاحتفاظ به. كنت بلا حماية، عارية في الخلاء بلا عائل أو مؤنس، هدف يسهل التسديد عليه. أحسّ أني أحترق بنيران أعينهم وسلاطة لسانهم في أحاديثهم الجانبية السرية، أأتخيل ما يدور حولي أم أنه يحدث حقًا؟ مشتتة ضائعة بلا هوية. خائفة مترقبة بلا مأوى. لم يكن لي مَن ألجأ إليه في القاهرة، حتى عندما درست هنا امتنعت عن تكوين علاقات صداقة لأن أحمد لم يسمح لي خلال فترة دراستي أن أكوّن صداقات مدّعيًا بشكل متخلف وغريب بأن فتيات القاهرة لا تصلحن للصداقة، وبأنهن يفسدن صديقاتهن القادمات من الأقاليم، وبأنهن ساحرات شريرات لا يأتي من ورائهن سوى المشاكل والقرف. كان تفكيره مريضًا غريبًا بلا حجة في هذا الموضوع، لم أحبه لكنني فسرته بالغيرة على نحو ما، ولأني أحبه كثيرًا تقبّلته وتقبّلت كل شيء.

أحسّ بجوع شديد، وبطني يؤلمني وكأن يدًا خفية تعصرها. شعرت بسائل مالح على شفتيّ، أدركت بعد لحظات قليلة أنها دموعي، لم أكن أشعر بها، فقد كنت وصلت لحالة من السوء أفقدتني الإحساس كما أفقدتني القدرة على التفكير السليم، لقد كان جسدي يتحرك منفردًا وكأنه جزء منفصل عني، أُذعن لأوامره بلا نقاش بل إنني أيضًا أتفاجأ بقراراته وكأنه أعلن استقلاله بعدما أدرك حقيقة عجزي عن الدفاع عنه بعد أن تم انتهاكه وتدنيسه، لم أُلمه ولا أستطيع أن ألوم أي أحد أو شيء في هذا العالم سواي. طوال الوقت لا يغيب الألم بين فخذي، حارق متأجج، يأتي ويعود كيفما شاء، ينسل كالثعبان يلدغني ثم يختفي داخل جحره، مع كل لدغة ينتفض جسدي ويصعد الألم إلى رأسي، جلست على أحد الكراسي في الشارع وأمامي ترابيزة بلاستيكية وبعد ثوانٍ تخللها الألم والأفكار السوداء المشوشة وقف أمامي شاب يبدو صعيديًا من لهجته:

نفرت من نظراتهم الوقحة وأصابني رعب شديد من تلك النظرات التي تتفرَّس جسدي، الهمسات بين الشباب الجالسين على المقاهي القريبة ثم إطلاق الضحكات المختلطة بالتفرُّس فيّ وكأني حيوان أليف يسهل الاحتفاظ به. كنت بلا حماية، عارية في الخلاء بلا عائل أو مؤنس، هدف يسهل التسديد عليه. أحسّ أني أحترق بنيران أعينهم وسلاطة لسانهم في أحاديثهم الجانبية السرية، أأتخيل ما يدور حولي أم أنه يحدث حقًا؟ مشتتة ضائعة بلا هوية. خائفة مترقبة بلا مأوى. لم يكن لي مَن ألجأ إليه في القاهرة، حتى عندما درست هنا امتنعت عن تكوين علاقات صداقة لأن أحمد لم يسمح لي خلال فترة دراستي أن أكوّن صداقات مدّعيًا بشكل متخلف وغريب بأن فتيات القاهرة لا تصلحن للصداقة، وبأنهن يفسدن صديقاتهن القادمات من الأقاليم، وبأنهن ساحرات شريرات لا يأتي من ورائهن سوى المشاكل والقرف. كان تفكيره مريضًا غريبًا بلا حجة في هذا الموضوع، لم أحبه لكنني فسرته بالغيرة على نحو ما، ولأني أحبه كثيرًا تقبّلته وتقبّلت كل شيء.

أحسّ بجوع شديد، وبطني يؤلمني وكأن يدًا خفية تعصرها. شعرت بسائل مالح على شفتيّ، أدركت بعد لحظات قليلة أنها دموعي، لم أكن أشعر بها، فقد كنت وصلت لحالة من السوء أفقدتني الإحساس كما أفقدتني القدرة على التفكير السليم، لقد كان جسدي يتحرك منفردًا وكأنه جزء منفصل عني، أُذعن لأوامره بلا نقاش بل إنني أيضًا أتفاجأ بقراراته وكأنه أعلن استقلاله بعدما أدرك حقيقة عجزي عن الدفاع عنه بعد أن تم انتهاكه وتدنيسه، لم أُلمه ولا أستطيع أن ألوم أي أحد أو شيء في هذا العالم سواي. طوال الوقت لا يغيب الألم بين فخذي، حارق متأجج، يأتي ويعود كيفما شاء، ينسل كالثعبان يلدغني ثم يختفي داخل جحره، مع كل لدغة ينتفض جسدي ويصعد الألم إلى رأسي، جلست على أحد الكراسي في الشارع وأمامي ترابيزة بلاستيكية وبعد ثوانٍ تخللها الألم والأفكار السوداء المشوشة وقف أمامي شاب يبدو صعيديًا من لهجته:

- تطلبي إيه؟

تطلعت في ملامحه بترقب لا يخلو من خوف ثم تطلعت حولي، وأدركت أنه محل كُشَرِي. هذا هو المكان المطلوب، طلبت طبق كشري من الحجم الكبير، رغم الإعياء والخوف اللذين كنت أشعر بهما إلا أنني كنت في أمسّ الحاجة لإشباع جوعي، فقد وصلت إلى مرحلة من الاضطراب الذهني اختلط فيها الحلم بالواقع والخيال بالحقيقة، لقد أصبحت كل الوجوه حولي سوداء، قدماي ثقلت وعزيمتي ثَبُطَت وازداد هلعي، التهمت الطبق التهامًا بسرعة لم أعهدها أبدًا في نفسي دون أن أرفع بصري، اكتشفت خلال تناول الكُشَرِي بأني كنت جائعة بشكل كبير قاسٍ، كلما أكلت شعرت بأن روحي تستيقظ من مكمنها وتعود لي وعقلي يتحرّك ببطء ويرتب أفكاره مرة أخرى وأستعيد ذهني، انتهيت من الطعام ثم دلفت داخل المحل - حيث كنت أجلس على ترابيزة خارجه - بعد أن سألت عن مكان الحمام وبمجرد دخولي وإغلاق الباب على نفسي بكيت بشدة، بكيت وكأن هناك شيئًا اكتشفته لتوي، قاسيًا محبطًا ومفزعًا أيضًا لقد اكتشفت بأني مغتصّبة ووحيدة وبلا مأوى في الظلام.

****

دسست يدي في جيب الجاكيت الذي أرتديه وكأني أدس يدي في جيب شخص آخر وأخرجت كل ما أملكه بعد ما أفلتّ الخاتم التي أعطتـ إياه صديقتي شيماء للتصرف فيه وقت الحاجة، كنت أملك مبلغًا لا بأس دسّته شيماء في جيب المعطف. كان المبلغ الذي أملكه لا يتعدى ثلاثما جنيه مصري رغم أني كنت أملك من المال ما يتعدى ألف جنيه ولك للأسف لقد رميت حقيبتي من دون أن أفكر بأخذ المال، إذ كنت أريد أتخلص من كل ما يرتبط بتلك الذكرى. خرجت من المطعم وقد استعد جزءًا من قوتي بعد ليلة طويلة متعبة قاسية وحتى هذه اللحظة لم أكن أد أين أنا تحديدًا من القاهرة؟! هل كنت أمشي في كابوس طويل لا نهاية له أم أنني تخيلت كل ما حدث؟!

وجدت أمامي محطة للمترو ولكنها كانت مغلقة فالساعة قد تعدت الثانية عشرة ليلا، مشيت بخطوات متمهّلة في محاولة بائسة للتفكير في مكان للمبيت حتى ينقشع الليل ويُشرق النهار، خلال مسيري الهائم في الشوارع، كنت أحاول أن أكون دومًا وسط حشد من الناس، شعرت بأن هناك حركة غريبة خلفي فاستدرت بكامل جسدي على مصدرها والهلع يتملك مني، ثلاثة شباب يتعقبونني ولا أعلم بالطبع منذ متى يتعقبونني وهل بالفعل يتعقبونني أم أنني أتخيل ذلك من فرط الانفعال والاضطراب؟! كل ما أعرفه أنهم توقفوا وقد صدمتهم مفاجأة استدارتي لمواجهتهم، لمحت على امتداد بصري كوبري تمر عليه السيارات وفكرت لحظة أن عليَّ أن أذهب تجاهه حتى يتسنى لي الحصول على وسيلة مواصلات تأخذني إلى أي مكان بعيد عن هنا؟! فكرت في الصراخ وعمل بلبلة حتى يبتعد عني الشباب ولكني خفت وانتابني العديد من الأفكار السوداء، رسم لي عقلي مزيجًا متداخلًا من التكهنات البشعة فمثلًا ربما جرجرونا جميعًا إلى قسم الشرطة وهناك ربما تقودني الأحداث للفضيحة واكتشاف بأنني لم أعد عذراء وأعرف جيدًا، ورغم الإعياء الذي أشعر به، بأنه في القاهرة من تصرخ من أجل الحياة يباغتها الموت.

هرولت مسرعة باتجاه الكوبري، كانت أقدامي تتسابق في حوار عنيف مقبض عنوانه الهلع، المشكلة أنه كلما اقتربت من الكوبري قلَّت أعداد الناس والأنوار المحيطة والضوضاء بينما ازدادت الظلمة وانسل السكون الثقيل بشكل أكبر واختفى الناس رويدًا رويدًا، حتى صرت لا أسمع سوى وشوشة ودمدمات من خلفي بينما يزداد وقع السكون مع كل خطوة أخطو فيها نحو المجهول في قلب الظلمة والسكون.

في النهاية لم أجد بدًا من الجري مسرعة وقد اختنقت بالدموع وحاصرني ألمٌ عميق في كل جزء من جسدي، شهقت شهقات متتالية وأجهشت بالبكاء وقد حوصرت بزخِم كبير من الرعب وعاودتني رغبة ملحة في إنهاء حياتي وعذاباتي التي بدا لي أنها قرَّرت أن تبدأ من دون

أن تنتهي، لكن الطبيعة البشرية التي نجد فيها دومًا ذلك البصيص المتعلق والموارب على الحياة والذي يدفعنا كقوة جبرية خفية على الاستمرار، جريت بكل ما أملك من قوة ولكن ويا لتعاستي التَوَت قدمي فوقعت على الأرض وارتطمت بها بشدة حتى أدركت بما لا يقبل الشك بأن جزءًا مني قد نزف حيث كان الألم رهيبًا في ساقي اليمني وجانبي الأيمن أيضًا من شدة الارتطام بالأرض، بكيت بصوت مسموع من دون مقدمات ليس من وقع الارتطام والألم اللذين أشعر بهما ولكن لأني الآن ممددة على الأرض في انتظار مجهول أسود.

اقترب مني الثلاثة وهم يلهثون وقد تراصّت أسنانهم البيض تحت الأنوار الخافتة التي لا تقل عن الإضاءة الصادرة من النافذة في الطابق السادس.

في مواجهتي كذئاب ليلية أنهكها البحث عن فريسة طالت مطاردتها، اقتربت ظلالهم مني حتى ضاقت الدائرة عليَّ ثم قال أحدهم بصوت غليظ استعراضي:

- الليلة ليلتك يا حلوة..

أغمضت عينيّ. أغلقتهما بإحكام وأنا أرتجف من فرط الرعب، ولم أصدر كلمة واحدة ولا أي نوع من الاستغاثة أو أي كلمات متوسّلة تترجاهم بأن يتركوني لحالي، كنت أعرف تمام المعرفة، ودموعي تتساقط وجسدي يرتجف، بأنه لن يرحمني إلا الله رغم كل ما مررت به وتجرّعته من آلام، ظهر فجأة صوت عميق قويّ على إثره هرول الثلاثة كالمجانين بعد أن تأوّه أحدهم بشدة. حدثت بلبلة وضجيج لم يطل وصيحات متداخلة لم أفهمها. شعرت بلمسة دافئة على جسدي لكني لم أصدقها فارتجفت وارتدت تلك اللمسة سريعًا إلى مكمنها، فتحت عيني ببطء لا يخلو من خوف وأنا ما زلت أرتجف:

- قومي يا ياسمين ما تخافيش.. قومي بسرعة قبل ما يجوا تاني.

حينها عيني وجدت ياسين أمامي مبتسمًا ابتسامة حزينة ودودًا لا تخلو من إشفاق، لم يحاول لمسي مرة أخرى.. لم يزل جسدي يرتجف من فرط الخوف لكن أخذت أنفاسي المتسارعة تهدأ رويدًا رويدًا، ودقات قلبي المتسارعة تتثاقل، وبعد دقائق عاد كل شيء إلى حالة من السكون المترقب لأي حدث آخر.

مشيت بجواره وأنا أسرق النظرات كقطة خائفة من بطش صاحبها، ألتفت من وقت لآخر حولي بينما تمتمة ياسين لم تتوقف. ركزت قليلًا فوجدته يقرأ شيئًا من القرآن فآمنت واستكان فؤادي بدرجة كبيرة حيث شعرت بأن الله أرسل لي عنايته، لم أعاتب الله ولكنني بلا شك أو تضليل لنفسي أو أي نوع من إرباك الحقيقة غاضبة منه، غاضبة بشدة.

مصطفى الشريف

ذهبت إلى عملي سريعًا في هذا الوقت المتأخر من الليل بعد ما علمت بأنهم يطلبونني في أمر لا يقبل التأجيل، حينما وصلت كان جميع أفراد الطاقم الذين أعمل معهم متوجسين بشكل غريب وقد اعتراهم قلق مختلط بحزن وأسى مقلقين، قابلتني لورين بنظرة متحمسة مشوبة بأسى وجاءت مسرعة باتجاهي وقد علا وجهها تعبير مختلط بالحزن والدهشة، لورين مساعدتي في المشرحة الخاصة بالحالات التي تستأهل التشريح والدراسة، والقائمة بدور المراجعة والتقصّي داخل قسم التشريح، لقد درستُ كل شيء يخص الجسد وردود أفعاله وخصوصًا العنيفة منها حتى يمكنني التكهن برد فعل الضحية عندما تتعرض للقتل، وكيف قام القاتل تحديدًا بجريمته ووضع احتمالات لحالته النفسية والذهنية وقت وقوع الجريمة، ومن خلال كل ذلك يمكن للمحقق تخمين شخص القاتل ورسم خطوط عريضة له تُمكّنه من تضييق دائرة الشك حتى يصل إلى هوية القاتل الحقيقية في بلد يعج بالقتلة والمجرمين.

لقد كانت لورين هي التي اتصلت بي في ذلك الوقت المتأخر من الليل، لورين فارعة الطول تكاد تصل لطولي الذي يصل إلى 185 سم لكنها جذابة ببشرتها البيضاء وعينيها الزيتونيتين الواسعتين ولكنهما جامدتان صلبتان غامضتان من الصعب سبر أغوارهما، على الجانب الآخر لورين ليست من أولئك النساء اللواتي يجذبن العيون عند مرورهنّ في مكان ما نظرًا لمشيتها العسكرية وجسدها الجاف الذي لا يحمل استدارة واحدة تعطيه

الشكل الجذاب لأية امرأة، لكن هناك شيئًا خفيًا مغريًا في وجهها يجعل من الصعب تجاهلها، في رنة صوتها وطريقتها في عرض أفكارها بشكل أشعر معه بأن هناك شيئًا ناقصًا رغم صراحتها المطلقة، شيء يجعلني دومًا في حالة بحث وترقب عما عنته مثلًا بجملة أو رأي عادي أطلقته فجأة، بحة صوتها كانت تثيرني في الفترة الأخيرة ربما بسبب التغيّر الذي دب حديثًا في حياتي فجعلني أتنبه لأشياء لم ألحظها من قبل وربما صرت فجأة أرى كل النساء جميلات على نحو ما.. في الحقيقة لا أعلم.

في النهاية علمت بأن أحد المحققين الذي يعمل معنا قد تم قتله في ظروف غامضة، وقد أصابني الخبر برعب بالغ حتى إنني لم أستطع تحمل الخبر فجلست في مكاني تجتاحني الأفكار السوداء المختلطة بخيالات جامحة دموية، كان من الضروري تشريح جثته وفهم الظروف التي أدت إلى وقوع الجريمة ومعرفة متى وكيف تمت عملية القتل بهذه الصورة الوحشية، كما يجب وضع تصور مبدئي للجريمة وشكل القاتل من الناحية الجسمانية والمعلومات الأخرى عن حالته النفسية والذهنية وقت وقوع الجريمة إن كان ذلك ممكنًا.

شرعت في العمل بعد جهد جهيد في محاولة إقصاء كل العوامل العاطفية التي تعوق إتمام العمل كما تعلمت في هذا القسم الذي أشهد له بالتفوق والبراعة. ما كان يحزنني حقًا أن القتيل كان أحد أكثر الزملاء تودداً وأكثرهم مساعدة لي حينما التحقت بالعمل هنا، لم يبد يومًا أي نوع من الضغينة أو السخرية مني أو من مظهري الممل شديد الغرابة أحيانًا كما فعل الجميع، كان دائمًا يضحك ويقول: «لا عليك يومًا ما ستتغير الأمور، فالقردة تطورت وأصبحت بشرًا»، لم أكن أدري تحديدًا ما يخفيه خلف تلك الكلمات ولكنني اعتبرت مقولته بعيدة عن السخرية من خلال ملامحه التي تسودها دومًا ابتسامة صادقة وهو يتلفّظ بتلك الجملة، ولذلك طردت سوء النية واحترمته بصمت، والآن كل شيء تغير بالفعل وصرت في طريقي إلى حصد كل ما تصل له يداي من عوامل وأسباب حتى تكون

جسرًا لأعيش حياتي وأعوّض ما فات منها تحت وطأة الخوف والتردد والقهر الاجتماعي.

خلال عملي ذبت داخل ذكريات قديمة حينما كنت في مدرسة الإخلاص الابتدائية للغات في مصر، أتذكر بشكل مهزوز للغاية شكل المدرّسة والمدرسين وزملائي، رنين صوتي عند تحية العلم في الصباح يرن في أذني، صوت صياحنا وشقاوتنا أثناء النسحة المدرسية تتراءى أمامي، الضحكات والمشاغبة وزيّنا المدرسي الأنيق الذي لم يسلم يومًا مني بسبب المشاحنات الطفولية المستمرة فأعود بملابسي متسخة فتوبخني أمي بشدة، حتى شكل الغبار المتصاعد من شقاوتنا في فناء المدرسة يطوّق المشهد في مخيلتي الآن.

أطرقت رأسي برضا لا يخلو من المرارة وأنا أمد مشرطي في صدر زميلي المقتول وقد اعتراني هم ثقيل وكدر حينما تذكرت كيف كان يعاملني والداي بقسوة وشدة، لم يحاولا مناقشتي يومًا في أي شيء بل كانت القرارات جاهزة دومًا وما عليّ سوى تنفيذها كما رُسم لي، كنت أشعر أحيانًا بأن حياتي لها خطة مسبقة وضعت ولا يملكها أو يعرف تفاصيلها سوى أبي، وما عليَّ سوى تأديتها كما وُضعت بالضبط. شعرت بالحنق عليه فانتابني غضب واهتز جسدي من فرط الانفعال ففلت المشرط مني قليلًا إلى اليمين فأحدث جرحًا في الجثة الباردة الملقاة أمامي، لقد تحولت حياتي بشكل غريب وسريع حتى صارت بلا طعم ولا لون يميزها، صرت أنا بكاملي بلا هوية تُذكر، انحنت عليّ لورين في هذه اللحظة ومسحت جبهتي التي يتصبب منها العرق بمنديل وقد ارتسم على وجهها تعبير بالقلق مشوب بشيء من الحزن، فَطِنتُ إلى أن هناك شيئًا ما يدور بخلدي وربما تخيلت أن الأمر متعلق بزميلنا القتيل.

للحظة سرت في جسدي قشعريرة مفاجئة إذ أحسست بأنفاسها الحارة على وجهي. كانت الغرفة تموج في الصهد وقد غلفها هواء ثقيل لقلة

الأوكسجين بها كما أن رائحة الجثة وشكلها العام يعكس اكتئابًا شديدًا. قالت وقد اعترى صوتها هدوء غريب لم أتعوّد عليه حيث اختلطت نبرتها الرنانة المعتادة دائمًا برعشة ضعيفة في صوتها تكاد لا تُلحظ وكأنها تبذل جهدًا كي تدفع الكلمات خارجًا:

- القتل شيء بشع بس الوحدة شيء أكتر بشاعة.

لم أنظر إليها لكني لمحتها بطرف عيني من دون أن أرفع بصري عن الجثة أو أتوقف عن العمل فاسترسلت في حديثها بنبرة حزينة غامضة:

- عارف يا مصطفى؟! أنا عشت 35 سنة تقريبًا واكتشفت إني ما ليش أصدقاء حقيقيين أو راجل يحبني بجد، تخيل أنت لو مت وحيد زي زميلنا اللي ممدد أدامك، مات من غير ما حد يبوسه بوسة أخيرة على جبينه وهو بيلفظ أنفاسه الأخيرة. كويس كده - وأشارت برأسها على الجثة ثم استطردت بصوت متهدج حزين

- عاش لوحده ومات لوحده.. ما يفرقش كتير عن البؤساء.. مات لوحده في شقته وسكينة نافذة في صدره.. ما فيش حد يدافع عنه.. ما لقاش اللي يحط إيده على جرحه ويطبطب عليه ويمسح له دموعه الأخيرة علشان يحسسه بالأمان والعطف في لحظاته الأخيرة.. صدقني يا مصطفى لو قلتلك إنه مات من ألم الوحدة مش من مجرد طعنة نفذت في صدره.. الوحدة من وجهة نظري قاتل متسلسل ما بيرحمش ضحاياه.

ساد صمت ثقيل بيننا حيث تركت العمل وانتبهت لها مفكرًا في كلماتها غارقًا داخل حياتي المسلوبة مني منذ ولادتي، حياتي المرسومة بقلم لا أملكه وبحكمة لا أعرف كنهها. اشتد وقع الذكريات الثقيلة عليّ مختلطة بخيالات مرعبة لمستقبلي، في تلك اللحظة تحديدًا اقتربت مني لورين وطبعت قبلة خفيفة على شفاهي ثم عادت للوراء ونظرت في عينيّ المشدوهتين للحظة وكأنها تستطلع نتيجة فعلتها ثم سرعان ما عادت

والتهمت شفتي بقبلة طويلة حارة ملتهبة، لم أكن أبادلها التقبيل ولكني كنت مأخوذًا عاجزًا عن التصرف. كنت كالمسحور، تعجبت من الأمر تمامًا في بدايته وشعرت شعورين مختلفين أحدهما مفعم بالتعجب والقلق بينما الشعور الآخر غامر بشعور رطب مشرق منعش، حينما انتهت القبلة كنت مغمضًا عيني وكأنني مخدر تمامًا، إحدى يديّ متدلية تقبض على المشرط بينما يدي الأخرى مرفوعة بشكل جانبي.. فتحت عينيّ بهدوء لأجدها تنظر لي نظرة اختلط فيها الخجل بالتفكير والترقب بينما ارتسمت ابتسامة خفيفة شقية على شفتيها سرعان ما زالت وتبدلت بملامح جادة يشوبها الندم ثم قالت متلعثمة:

- خلينا نخلص شغلنا.. أنا آسفة.. ما عرفش عملت كده إزاي!! أنا متوترة أوي اليومين دول.. الظاهر إن حياتي ماشية في سكة غلط والواضح إن ده بدأ ينعكس على شغلي.. حقيقي أنا آسفة.

لم أدرِ لمَ احتضنتها في هذه اللحظات بهذه القوة، إحساس غريب قوي زاخر بالإثارة دفعني لتقبيلها مرة أخرى، ولكن هذه المرة بقوة وحرارة وكأنني أتأكد من وقع القبلة وتأثيرها الذي تركته عليّ في المرة الأولى، كأنني نجحت في اكتشاف شيء جديد بعد تعب وانتظار مضنيين وأسعى الآن لإثباته، كطفل أعطوه لعبة طالما حَلِم بها ولدهشته الممزوجة بالحماسة لحصوله عليها شرع في لمس كل أجزائها ليتأكد من وجودها بين يديه.

حينما انتهينا من القبلة الطويلة الثانية نظرت للوردين لأتأكد من وقع القبلة عليها، هل أصابها الإحساس الغريب المنعش الذي أصابني؟! هل سرت لسعات متكررة سريعة كالبرق وعميقة كالكهرباء في جسدها كما حدث لي؟! وجدت وجهها متوردًا بحمرة أثيرية جعلتها تبدو كصبية صغيرة، كأنني لأول مرة أراها بينما احمرت شفتاها وأطلت من عينيها نظرة خجلى راضية. لم يكن لعقلي أن يخمن أو يفهم حقيقة شعور المرأة

حينما تتحول بهذا الشكل جراء قبلة، درست وأبحرت في العلوم ولكن عالم المرأة ظل غامضًا بالنسبة لي.

شرعنا في العمل مرة أخرى وقد تحول الجو الخانق فجأة ومن دون مقدمات إلى جو رائع منعش، وقد نسيت تمامًا أمر زميلي المقتول وتعارض ذلك تمامًا مع الحالة الكئيبة التي من المفترض أن تسود العمل، تحوّل فكري كاملًا إلى ما حدث بيني وبين لورين بينما أعمل، لم أكن مشتتًا على الإطلاق بل كنت أكثر تركيزًا عن ما سبق، يملأني الشغف وتحاصرني الأسئلة. كنت أدندن وكأن شيئًا غريبًا وخفيًا يدفعني لذلك، تعجبت لورين لأمري وأطلقت أكثر من مرة ضحكة خافتة مع تعليقات جعلتني أبتسم ابتسامات صافية صادقة.

عندما انتهينا من العمل خرجت بصحبتي وكان ضوء النهار قد احتل الأرض تمامًا لكن لم يكن هناك أي أثر للشمس في مثل هذا الجو الشتوي الثقيل، لكن كان هناك شيء غريب يتسلل داخلي ولم أستطع أو لم أرغب في القبض عليه وطرده خارجًا، لسبب ما لا أدركه شعرت بأن شيئًا ثقيلًا جثم على صدري، حينما ابتعدنا أنا وهي عن مكان العمل وصرنا في مأمن عن عيون زملائنا وأفلتنا من قوانين العمل التي تقضي بألا يتورط اثنان من طاقم العمل في علاقة عاطفية وإلا تحول الأمر إلى كارثة. كنا ننظر لبعضنا بعضًا كتلاميذ في مدرسة نخشى أن يرانا أو يعرف بأمرنا أحد ويبلغ مدير المدرسة فيطلب إحضار أولياء أمورنا وقد يتفاقم الأمر ويصل إلى الإقالة. ورغم السعادة الممزوجة بالحماسة والحذر إلا أن ذلك الشعور الثقيل المصحوب بالخلل ظل هناك داخلي بل تمدد وصار أكثر عمقًا، لا أرى مصدره ولا أستطيع فهم كنهه، ما الأمر إن كنت حصلت على شيء طال انتظاره؟! ما الذي يجري لي إن كانت الصحراء انشقت فجأة وأخرجت شجرة ظليلة تأويني من حرارة شمس حياتي الحارقة؟! لم أجد تفسيرًا وجاهدت نفسي كثيرًا حتى لا أظهر أي خطأ في وداعي للورين التي تحولت فجأة من امرأة جافة إلى امرأة يانعة متفجرة بالحياة.

الفصل 15

وقفت على باب شقة ياسين في القاهرة وقد تملّكني التردد والرعب، «يا رب»، قلت في نفسي، كانت نبرتي الداخلية توحي بإقرار كامل بالهزيمة والإذعان، الشقة تقع في شارع متفرع من جسر السويس، لم أكن أعرف أكثر من ذلك، يملك ياسين هذه الشقة ليبيت فيها حينما تستدعي أموره البقاء في القاهرة من أجل إتمام عمليات تجارية أو شراء بضائع أو أي شيء يخص العمل، هكذا أخبرني خلال الطريق، لا أعرف عنه أكثر مما يعرفه أهالي السنبلاوين، كما أنني لم أكن آبه على الإطلاق بحياة شخص يحبني بينما لا أحبه، لست من تلك الفتيات المولعات بمواصفات معجبيهن حتى وإن كان مرفوضًا.. تقلبت في رأسي الذكريات القريبة حينما حاول ياسين أن يغير الموضوع بمجرد أن ركبت سيارته لمرة أخرى، لم يتحدث بخصوص ما رآه بعينيه ولم ينتظر مني شكرًا على انقاذه لي حتى هذه اللحظة، أخبرني قليلًا عن حياته بنبرة مهزوزة مشوبة بشيء من الحزن، أحسسته مشتتًا في بعض الأحيان، يحاول بقدر الإمكان ردع فضوله واهتمامه الذي ينعكس في عينيه، كان لديَّ هاجسًا خفيًا يخبرني بأن ياسين لا يقل عن تلك الذئاب التي هاجمتني ولكن بطريقة ذئبية أكثر ذكاء ومكرًا، وفي نفس الوقت داخلني شعور غريب بالانتقام منه لأنه لم يتركني للموت، لقد كانت النهاية آتية بلا ريب ولكنه حال دونها وصرت لمرة أخرى حية بلا حياة.

تمنيت لو قتلته، وأفلتت مني نظرة محتدة ساخطة لأنه نظر إليَّ طويلًا وسأل بتوجس:

- ما لك يا ياسمين فيه حاجة؟! إنتِ بتبصيلي كده ليه؟!

خرجت فجأة من هواجسي السوداء المعتمة على سؤاله الذي تكرر، كانت أنفاسي مسموعة من فرط الانفعال ثم نظرت أمامي وهززت رأسي بالنفي من دون أن ألفظ كلمة واحدة. وبعد برهة سادها صمت ثقيل، سألته بنبرة مرهقة:

- إحنا رايحين فين؟!

- الشقة اللي قلتلك عليها.. هخليكِ تباتي فيها على الأقل للصبح وبعد كده اعملي اللي إنتِ عاوزاه.

لا أعرف السبب الذي جعلني لا أعارضه في هذه اللحظات، هل كان يأسًا خفيًا بعد شعوري بالإعياء الشديد وليلة طويلة لا تريد أن تنتهي؟! هل شعرت بالأمان تجاهه بعد ما فعله من أجلي من دون أن يسألني أي سؤال؟! هل شعر قلبي، ولسبب خفي داخله، بالأمان لياسين الذي أعرفه مهذبًا يحترمه الجميع؟! هل كانت رغبتي في النوم كبيرة إلى هذا الحد ولا أستطيع مقاومتها بعد كل ما لاقيته في ليلة لن أنساها؟! أم أنه الهرب وتمنّي الدخول في غيبوبة ربما لا أفيق منها وتنتهي بالموت الذي ينتهي معه كل شيء؟! الأسباب كثيرة وغامضة ولا أعرف الإجابة تحديدًا.

كل ما أعرفه أنني مددت رأسي من الباب المفتوح الذي أقف أمامه وألقيت نظرة سريعة على الشقة وكأني أستكشفها، ربما أجد ذلك الإحساس بالطمأنينة التي لن أستعيدها يومًا، دخلت بعد تردد طويل ولم يحاول ياسين الواقف على مسافة خطوتين داخل الشقة أن يجبرني أو يُلح عليَّ بالدخول، لم أشعر بأي نوع من الطمأنينة ولكن لا حيلة لي، أنا متعبة للغاية وجسدي يتألم ويؤلمني معه، كنت أرتجف من فرط الخوف والتعب معًا لكنني تمالكت نفسي حتى لا أبدو هشّة أكثر مما أنا عليه، أغلق الباب فأصدر صريرًا رتيبًا منفرًا فانتفضت في مكاني وعاودتني ذكريات سيئة جثمت على صدري فانهرت بلا إنذار باكية في مكاني من دون أن

أجلس، للغرابة لم يندهش ياسين وأبدى إشفاقًا كبيرًا إذ وقف أمامي وقد ملأه التردد وشعرت للحظة بأنه مقدم على فعل ما كأن يحتضنني أو يربت عليّ ولكنه كان ذكيًا فتراجع عما انتواه وقال بصوت هادئ رقيق يختلط فيه الإشفاق بالأسى:

- ياسمين بلاش تعيَّطي.. أيًا كانت المشكلة هتتحل لكن أرجوكِ بلاش تعيَّطي.. اهدي وكل حاجة إن شاء الله هتتحل.. أنا مستعد أساعدك في أي حاجة وربنا يقدّرني.. ما تقلقيش ربنا كبير..

لم يكن لكلماته معنى داخلي، لا وجود لها من الأساس.. فمن الصعب أن أفسح المجال لشيء لم أعد أؤمن به، لم أعد أؤمن بتلك المسلمات التي لا يوثقها أي فعل يثبت وجودها، ظل ياسين يتحدث بينما غرقت في هواجس مفزعة وأسئلة كثيرة بلا إجابة، ماذا سيحدث لي؟! أين أذهب؟! كيف سأعيش بعد أن تركت خلفي كل شيء يمثل الأمان في هذه الحياة؟! لقد تركت موطني وأهلي وأصدقائي، تركت عالمي فجأة لأعيش في عالم لا أعرف عنه شيئًا ولا أستطيع تدبّر أمري فيه بمفردي، شعرت بأني منفية من بلدي وتلك ليلتي الأولى الموحشة في بلد آخر لا يتحدث لغتي ولا يفهم صمتي ولا يتألم ألمي.. شرعت المرارة تنغص عليّ وتصيبني بالانفعال وعدت إلى الوجود مرة أخرى وكان صوت ياسين يأتي وكأنه قادم من مذياع عالِ الصوت فجأة بينما تحاول الأفكار والهواجس الخبيثة والحقيقية التسلل داخلي فصرخت في وجه ياسين صرخة مدوية وأنا أصيح قائلة:

- اسكت.. اسكت بقى.

جحظت عينا ياسين وقد علا وجهه تعبير بالدهشة الممزوجة بالتساؤل عما أصابني فجأة، كانت المفاجأة ثقيلة عليه لدرجة أنه أخذ وقتًا غير قصير في استيعاب ما حدث بينما انهرت بالبكاء بشدة وبصوت مسموع خلال هذا الصمت الذي لم يقطعه سوى بكائي وخطوات ياسين وهو يبتعد حتى

فتح الباب وأغلقه خلفه، نزلت بركبتيّ على الأرض مطأطأة الرأس أبكي بشدة وقد وضعت يديّ على وجهي، كلما شعرت بأني سأهدأ انفعلت أكثر وانتحبت بشدة وتخللت ذلك شهقات قوية من شدة البكاء بصوت مسموع قد يصل إلى الجيران، بكيت وكأن كل ما سبق من دموع لا يمثل أكثر من بروفة استعدادًا للعرض الكبير، لم أدرِ ما حدث بعد كل ذلك لأني حينما استفقت من النوم وجدتني ممددة على الأرض في صالة شقة لا أعرفها ولكن ما أعرفه تحديدًا من البطانية التي تغطيني والطعام الموضوع والإسعافات الأولية على السفرة بأن أحدهم كان هنا.

دخلت جميع الغرف بحذر لا يخلو من خوف وأمسكت بيدي عصا المقشة بعد أن خلعتها بانفعال وكأني أبحث عن لص اقتحم منزلي، بمجرد اطمئناني بأني وحيدة في المنزل ذهبت سريعًا إلى الحمام وقمت بغسل وجهي وأنا أشعر بالغثيان كلما تذكرت ما دار أمس، كان الحرقان بين فخذيّ يطن في هذه الأثناء، لم أكن بحال جيدة على الإطلاق، منهكة وأشعر بأن جسدي ثقيلًا لا أقوى على حمله، ترنحت أكثر من مرة وشعرت بالجوع، تلفّت حولي بخوف ثم فتحت كيس الطعام الموضوع على السفرة فوجدت سندوتشات فول فالتهمتها التهامًا بسرعة ومع نهاية تناولي للطعام نظرت إلى الإسعافات الأولية المكونة من شاش وقطن ومطهر ثم قلت حركتي السريعة وخفت إحساسي بالأمان، فتحت الكيس الشفاف بهدوء وأفرغت محتوياته، سرحت بعيدًا مستعيدة ذكريات ليلة أمس، قاسية، مرعبة، أكاد لا أصدقها من فرط قسوتها، شعرت بأني استعدت كابوسًا حلمت به في ليلة عاصفة كئيبة، لكن كيف وأنا هنا في هذه الشقة التي لا أعرفها، تذكرت ياسين وما فعله معي، لم أشعر بالامتنان لما فعله من أجلي، هو الآخر لن يتوانى عن سحقي إن توفرت له الظروف المساعدة لذلك، سينقض عليّ هو الآخر كالذئب ينهشني بلا رحمة، سرت أفكار وحشية مرعبة تسري في عقلي، زاد إحساسي بالنفور والقرف، مشيت بخطوات غاضبة باتجاه غرفة النوم وأنا ممسكة بعصا المكنسة وحينها لمحت صورتي المنعكسة

في مرآة التسريحة توقفت أمامها وقد باغتني وجهي الشاحب بنظرات
عيون منكسرة مقهورة، لون أسود يرتسم تحت جفنيّ فبدوت كمريضة في
مصحة نفسية، جسدي الذي فقد نضارته فجأة يطل بأسى عليَّ وقد وضح
عليه بأنه فقد شيئًا مهمًا، ذلك البريق المعهود في ملامحي خبا تمامًا ولم
يعد له مكان، نزلت على ركبتيّ أمام التسريحة مستندة بيدي إلى المنضدة
المنخفضة ذات الأدراج والتي تعلوها المرآة، لم أكن أصدق بأن تلك التي
تنظر لي هي أنا، هناك جرح طفيف في وجهي أيضًا، نهضت من مكاني
مأخوذة متهدمة، ولمست وجهي، ففككت أزرار السروال وأنزلته من مكانه
بهدوء ونظرت لساقي فوجدتها مجروحة هي الأخرى جرحًا عميقًا ويبدو
أنه من السقطة الشديدة التي سقطها ليلًا قبل أن ينقذني ياسين، نظرت
لرأسي فوجدت جرحًا آخر غائرًا وقد جفت الدماء عليه بعد أن التصقت به
العديد من الشعيرات في رأسي، لمسته بهدوء وحذر فآلمني بشدة، لبست
السروال مرة أخرى بسرعة وكأني أداري جريمة ما، أدرايها عن نفسي،
وليس عن أي مخلوق آخر، أعلم أني أخاف مواجهة الحقيقة التي طلع
عليها أول نهار في عالم جديد لا تتضح ملامحه ولا يبدو له مستقبل مبشر
بأي نوع من الخير.

قررت في نفسي ألا أخبر ياسين بأي شيء، لا يمكنني أن أهدم بضربة
واحدة كل ما تعبت وعانيت من أجله، لقد تركت خلفي أهلي وأصدقائي
وبلدتي لكي لا يقتلوني أو يلاحقني العار والفضيحة، استغنيت عنهم جميعًا
حتى أوفر عليهم غسل عاري بأيديهم، فما ذنبهم في أن يزج بأحدهم في
السجن لمجرد أن الغضب تملك منه فأقدم على جريمة لم يتخيل يومًا بأنه
سيرتكبها؟! كيف لي أن أمكث في بلدة صغيرة سيكثر فيها القيل والقال
عن أخلاقي التي ستتشوه بمجرد معرفة القصة كاملة؟! ولا سر يظل سرًا
في بلدة مثل بلدتي، لذا من المستحيل أن أخبر ياسين بأي شيء، سأكمل
طريقي حتى النهاية، سأخرج الآن وأهرب بعيدًا أكثر فلا يستطيع أن يجدني
أو ينتزع إجابة مني عما حدث.

هندمت نفسي سريعًا وأخذت في يدي كيس الإسعافات الأولية، أمسكت بمقبض الباب وأنا لا أدري إلى أين سأذهب، فتحته بعد تردد لم يطل وانطلقت في طريقي، نزلت على الدرج مسرعة وأنا أعرج بعض الشيء، متسللة خائفة كأني هاربة من شيء ما، حينما وصلت إلى الطابق السفلي وجدت البواب واقفًا أمام باب العمارة يغسل سيارة ياسين، للحظة تكهنت بأن ياسين ليس بعيدًا عن هنا، تردَّدت قليلًا مفكرة ثم بهدوء تسللت، وفي اللحظة الأخيرة التي أعقبت خروجي من العمارة ألقى عليّ البواب السلام:

- حمدًا لله على السلامة يا مدام.. ياسين بيه راح مشوار قريب وجاي أهو.. أنا بغسله العربية.

ابتسمت ابتسامة متوجسة باهتة وهززت رأسي كنوع من التأكيد على كلماته، ثم انطلقت مهرولة بصعوبة إلى أعماق الشارع المزدحم. وبمجرد أن لمحت ميكروباص ينادي على وسط البلد حتى ركبته سريعًا وأنا أتلفَّت ورائي، انطلق الميكروباص ثم توقف لثوانٍ ليركب أحدهم، خلال هذه الثواني لمحت ياسين و لمحني هو الآخر أيضًا وجرى خلف الميكروباص ليلحق بي لكنه فشل، نظرت خلفي فوجدته ينظر يمينًا ويسارًا وسط الزحام وقد غمرت ملامحه الحيرة والتفكير والضيق في نفس الوقت لقلة حيلته أمام ما يحدث، كلما ابتعدت عنه ازداد شعوري بالهدوء والسكينة اللتين لم أعرفهما طوال الساعات الطويلة المنصرمة، لم يكن شعورًا كاملًا بالطمأنينة، ولكنه ذلك الشعور الذي يتخللنا حينما نتخلص من ضيف ثقيل الظل قرر فجأة زيارتنا، أخذت نفسًا عميقًا وتنهدت تنهيدة حزينة. نظرت أمامي وهلة، مأخوذة ومتحيرة، ثم تلفتّ حولي وكأني أرى القاهرة لأول مرة، وكأني أستعيد إحساسي بالمكان والزمان. ولكن عاد إليّ ذلك الإحساس الثقيل فغرقت لمرة غير أخيرة في أفكار سوداء.

حروب بيت الكنش

عصام الرشيدي

نظرت لسارة نظرة بائسة مفعمة بالشجن في تلك الليلة وأنا أدلف داخل المنزل، لم تكن سارة تتكلم تقريبًا لكن كانت نظراتها تطاردني من حين لآخر وسرعان ما تذوب في غمامة غامضة غير مرئية لي وكأني غير موجود. أتذكر جيدًا حينما أعلموني بأنها استفاقت من البنج ويمكنني إلقاء نظرة عليها بعد أن تم نقلها من غرفة العناية المركزة إلى غرفة أخرى ستوضع فيها تحت الملاحظة حتى تتماثل للشفاء تمامًا. لم أكن أدري عن أي شفاء يتحدثون وقد أضحت قعيدة مشلولة! بشكل غريب لا أستطيع معرفة كنهه أو مصدره لم أكن أشعر بذلك الأسى والهم الذي يشعر بهما الرجل حينما تصاب زوجته بمكروه، أشفقت عليها ولكن شرخًا كبيرًا في داخلي كان ينفرج من تلقاء نفسه ويزداد اتساعه مع كل دقيقة تمر وأنا أتذكر وفاة ابني الوحيد طارق.

لقد سرق مني الزمنُ الحياةَ فجأة من دون مقدمات أو خطوات تمهيدية نرى فيها النهاية. لم يمرض طارق أو يشعر ذلك الشعور الغامض المبهم بالإعياء الذي على إثره ينتقل إلى المولى، لم يهبني الزمن تلك الفترة التي تسبق الألم والحزن، لم يمهلني وقتًا كافيًا لكي أبكيه في صمت ومن ثم يصعد نفسه الأخير في صمت أيضًا، موته كان مؤلمًا بشكل لا أتقبله، ضربة قصمت ظهري تمامًا وزعزعت إيماني بكل شيء، لم يمنحني حق إغلاق عينيه للمرة الأخيرة وأنا أقص له وهو بين يدي قصته المحببة التي تسبق النوم الأخير، رفض وبكل وقاحة أن أسحب الغطاء فوقه ثم

أشهق تلك الشهقات المتكررة حتى أنفجر في النهاية وأجهش بالبكاء كي أعبّر عن حزني العميق فيستريح قلبي، لقد سلب مني طارق حتى في موته حقي كأب له حقوقه وآدميته التي يجب احترامها ولكن ما ذنب طارق؟! إنه القدر الذي خطط وناور وانتظر اللحظة المناسبة حتى رفع يده التي تمسك بالهراوة وهوى بها على رأسي فجأة ففقدت على إثرها كل شيء حتى إيماني نفسه.

لسبب ما كنت أرى أن سارة مخطئة بشكل أو بآخر، مذنبة، لها يد في كل ما حدث، لماذا لم تمنعني من النزول في ذلك اليوم؟! لماذا أصرت على الخروج رغم الضيق الذي بدا على ملامحي والرفض الذي عبّرت عنه أكثر من مرة؟! فهي تعرفني جيدًا وتعلم حقيقة ضيق صدري بلا سبب وما يحدث وراءه، لقد أخبرتها عن موت أمي وأبي أيضًا وما شعرت به قبلها، أحسبتني أتخيل أو مريضًا نفسيًا تزاحمت آلام الفراق على قلبه فتصور أنه مذنب بشكل أو بآخر؟! ألهذا تنظر إليّ تلك النظرات الغامضة التي لا أفهم منها شيئًا، لا أعرف إن كان عتابًا مختلطًا بالحزن أم أنه اتهام صارخ مؤلم بذنب لا يد لي فيه؟! كرهت نظراتها وكرهتها ولكني أشفقت عليها بقدر ما سمح لي حزني بذلك.

بالتدريج خلال الشهر الذي أعطته لي الداخلية كعطلة أتعافى خلالها شرعت علاقتي بسارة تزداد ضعفًا يومًا تلو الآخر، لم تكن لديّ الطاقة لكي أعيد حساباتي وأراها بشكل آخر وأحيانًا كنت أتعمد عدم خوض أي حديث معها خصوصًا بعد أن ندر حديثها وبَهُت إقدامها على الحياة، ترك طارق قنبلة موقوتة سرعان ما انفجرت تلقائيًا بمجرد غيابه، تلاشى أو كاد فجأة وبلا تفسير منطقي كل شيء جمع بيننا، وكأن ما جمعنا يوما لم يكن زواجًا بل معاهدة تنص على الإنجاب تبددت واختفت مع اختفاء ثمرتها، لذلك لم يكن هناك داعٍ لتزييف الحقائق والتلوّن تحت مسمّيات وهمية لا طائل منها، لم يكن هناك داعٍ لتبديد طاقتنا في مسرحية هزلية رُسمت أدوارها بشكل تراجيدي سخيفٍ، ما كان يؤلمني حقًا رؤيتها وهي تسير

على الكرسي المتحرك الذي صار بدوره جزءًا لا يتجزأ منها فبدت كوردة دهستها الأقدام بلا رحمة، أحيانًا تخيلتها تقوم بدور في مسرحية درامية وستنهض بمجرد انتهاء العرض لأصفق لها وأهلل لأدائها المبهر، ولكن ذلك لم يحدث، فقدت رونقها وإيمانها بالحياة رغم انكفائها على القرآن ليل نهار، سمعتها مرات عديدة تنتحب في غرفتها وقد أغلقت على نفسها الباب وتوارت عن الأنظار المتطفلة التي جاءت بحجة مواساتها، أدركت بما لا يقبل الشك أن سارة لن تعود وسيخيم ظلال الحزن والألم على شبابها حتى يومها الأخير الذي لا يبدو بعيدًا.

جاء والدها اللواء مراد السيوفي يوم الأحد الموافق 17 من يناير عام 2013 إلى منزلنا وقبل عودتي إلى العمل بأسبوع لكي يطمئن علينا، جلس في رفقتي بعد أن دلف إلى غرفة ابنته ومكث معها حوالي ساعة كاملة يتبادلان أطراف الحديث، نظر في وجهي طويلًا وكأنه يبحث عن الكلمات المناسبة ثم تنحنح وقال بصوته المجوف العميق:

- عامل إيه يا عصام؟
- الحمد لله يا مراد بيه.. ماشي الحال.
- شد حيلك كده يا بطل وقول يا رب.. طارق هيكون شفيع ليك بعد عمر طويل إن شاء الله.

هززت رأسي بأسى من دون أن أجيب وقد تسلل إليّ الغضب والرفض وقلت في نفسي: «شفاعة إيه اللي هدوّر عليها بعد ما خسرت كل حاجة؟»، سخرت في أعماقي بمرارة حين سمعته يقول:

- شوف يا عصام أنت مش جوز بنتي.. أنت زي ابني بالظبط وأبوك الله يرحمه كان بمثابة أخ.. وصّاني عليك زي ما وصاني على سارة بالظبط اللي كان بيعتبرها بنته.

شعرت بأن هناك شيئًا يمهد له من خلال حديثه المنمّق لذلك التزمت الصمت واكتفيت بهز رأسي فاستطرد يقول:

- أنا عايز سارة معايا يا عصام.. سارة ما بقتش تنفع تكون زوجة.. لا هتقدر تقوم بواجباتها كزوجة ولا حالتها النفسية مؤهلة إنها تكمل.

عقدت حاجبيّ محاولًا بقدر الإمكان استيعاب ما يقوله السيوفي وقد علت ملامحي نظرة دهشة ممتزجة بالتساؤل عما يقصده تحديدًا فقلت وكأني أحدّث نفسي:

- مش فاهم تقصد إيه؟! هي سارة اشتكت من حاجة؟! أنا جايبلها خدامة في البيت وكمان ممرضة موجودة تقريبًا طول الوقت لرعايتها ومش مقصر في أي حاجة.

تململ السيوفي في مكانه وتردد وقد بدا على وجهه الشجن والإشفاق ثم ربت على كتفي وهو ينتقل من مجلسه، وجلس بجواري على الأريكة الكبيرة في الصالة وقال بنبرة ودود صادقة:

- يا عصام يا ابني أنا فاهمك كويس وعارف حالتك النفسية عاملة إزاي.. أنا شايف إنك محتاج لفترة هدوء من دون أي ضغط عليك.. أنا ما قلتش لا سمح الله إني هاخدها ومش هرجّعها بس أنت وسارة محتاجين تغيروا جو في الفترة دي..

- يا مراد بيه..

قاطعني السيوفي بحنان أب قائلًا:

- خلاص يا عصام أنا قلت اللي عندي.. إوعى تكون فاكر إن فراق طارق هين عليّ.. ربنا اللي عالم غيابه ساب جوايا فراغ عامل إزاي.. أنت أدامك أسبوع وهترجع شغلك.. وراجع في أيام ما يعلم بيها إلا ربنا.. احتفالات نكسة 25 يناير قرَّبت وأنت لازم تكون في كامل تركيزك وتكسر الحاجز النفسي اللي سببه ليك الحادث.

شردت فجأة وأنا أتذكر ما حدث قبل أسابيع قليلة، تذكرت ابتسامة

جروب بيت الكتب

مصطفى الشريف

خرجت في صحبة أختي ياسمين في عطلتها الأسبوعية وقد اعتراني شعور ذاهل كئيب، مشتت وتملأني الأسئلة، تموج الاستفسارات في عيني فبدتا تائهتين غائمتين في مكان لا أعرفه، كنت مشتاقًا لها وللحديث معها بشدة. لطالما كانت حكيمة وذكية وتعرف عن الحياة وألغازها المعقدة ما لا أعرفه رغم أنها تصغرني بخمسة أعوام كاملة، ها أنذا أطرق باب الثلاثينات من عمري بسرعة البرق وقد اعتقدت يومًا بسذاجة طفل أن الحياة رتيبة مملة لا تمر أيامها ولا تنقضي ساعاتها، كنت مخطئًا غبيًا ولا أستطيع أن أجزم بأني ضحية لشخص ما. إنني ضحية صنعتها بنفسي حينما انسقت خلف أوامر أبي من دون أن أبدي أي نوع من الاعتراض، خلقت السجن لنفسي وعشت بين جدرانه الكئيبة بملء إرادتي وكأني خُلقت من أجل أن أموت بدلًا من أن أحيا. حوصرت بالتوجيهات والنصائح حتى تراكمت وتضخّمت وصارت كالمارد أرتعد لمجرد فكرة مخالفتها. أغلقت كل أبواب التجارب الحياتية حتى صرت فأرًا لا يصلح حتى لتجربة عالم متهوّر، انسقت خلف مخاوفي ورضخت حتى انكسرت تمامًا وها أنذا أفتح على استحياء يشوبه الخوف والتردد الباب، أنظر من النافذة ولكن الشمس حارقة تؤذي عينيّ. الحقيقة مؤلمة لكن لا بأس، سأكسر كل تلك الحوائط حولي والتي فاض الكيل عنها، سأتحدى المارد وأذيقه من نيران صمتي الطويل المدفون وليحدث ما يحدث.

أدركت ياسمين القلق الذي ينتابني والتغيير الذي طرأ عليَّ رغم

محاولاتي البائسة لتغطية حالتي المتعثرة، انتظرتُ أن أفك وثاق وجداني وأعطي له الإشارة بالانطلاق حتى تتسنى له الراحة التي طال انتظارها بعد مشوار طويل مجهد قاس، لقد كانت لقاءاتي بلورين قليلة بعد الذي حدث بيننا في العمل، قابلتها ثلاث مرات خارج العمل، لم نستعد ما حدث بيننا على الإطلاق لكن كان هناك شيء ما ثقيل مختفٍ في أحاديثنا، ثمة تفاصيل مهمة كان لا بد من ذكرها في كل مرة نلتقي فيها ولكننا آثرنا باتفاق غير معلن عدم خوض تلك المناقشة، تواطؤ خفي وقّعنا معاهدته، كانت هناك حالة من اللاسلم واللاحرب تدب بيننا لكنها لم تكن مريحة، والحقيقة أنها كانت مضنية ومنهكة بشكل لم أستطع أن أذوق طعم النوم معه أو التركيز في عملي حيث غالبني القلق والتوتر وسيطرا عليّ خلال الأسبوع الأخير المنصرم.

- ما لك يا مصطفى؟! حَسّاك غريب وساكت أوي النهارده!

هرشت في رأسي ناظرًا لها ثم زممت شفتيّ مفكرًا، كنت على وشك النطق لكني أشحت بناظرى وقد لَحِق بي كدر وهم فسَكنت ثواني، ساورها القلق. فوضعت يدها على ظهري وربّتت عليّ بحنو قائلة بصوت رقيق:

- أنت هاتخبي على ياسميتك حبيبتك! هو إحنا لينا إلا بعض يا مصطفى.. قل لي بس ما لك؟!

اندفعت كلماتي بعصبية فجأة وقد فاض بي الكيل:

- مش عارف يا ياسمين! كل حاجة متلخبطة وحاسس إني زي العيل الصغير مش فاهم أي حاجة.

ابتسمت ياسمين ابتسامتها الرقيقة وكأنها أم تفهم جيدًا حالة طفلها ثم عاودت بهدوء تسترسل وهي تنظر مباشرة إلى عينيّ:

- تفتكر يعني في حد في الدنيا يقدر يفهم كل حاجة يا مصطفى؟! المسألة كلها إننا عند كل مشكلة بنكون فاهمين إن ما لهاش حل بس لما بنهدى ونقعد نفكر بالراحة بنلاقي للمشكلة مليون حل.. الفكرة كلها إنك بتمر بمرحلة صعبة وتغيير مفاجئ لحياتك بعد ما

اكتشفت أخيرًا إنك ما كنتش عايش، فأيًا كانت مشاكلك دلوقتي صدقني أحسن مليون مرة من كونك كنت عايش في الضلمة زي اللي محكوم عليه بالموت، لا هوّ قادر يستمتع بالحياة ولا هوّ حتى عايش.

أخذتُ نفسًا عميقًا مفكرًا في كلماتها التي بدت لي مؤلمة لأبعد مدى، ذُبت في ذكرياتي القريبة مستعيدًا ما حدث بيني وبين لورين، أخذتني التفاصيل وتذكرت بعض الأشياء بنشوة وأشياء أخرى تذكرتها على مضض، لم أكن أفهم ولم يكن هناك سببًا واضحًا أمامي لما أمر به لكني استرحت بمجرد خوض الحديث مع ياسمين، كنت أدرك أن مفتاح السكينة والسلام النفسي بيدها، رَويت لها كل شيء بالتفصيل الممل وقد تصببت بالعرق محرجًا وأنا أروي لها الحادث الشهير للقُبل التي تبادلناها. وحكيت لها أيضًا مشاعري التي راودتني، شرحت لها إحساسي كاملًا من دون أن أغفل أيّ تفصيلة مهما بدت صغيرة.

أطرقت ياسمين لثوانٍ وقد علا وجهها تعبير عميق يعكس التفكير ثم نظرت إليَّ وابتسمت ابتسامة اجتهدت كي ترسمها على ملامحها وقالت بنبرة جادة:

- اسمعني يا مصطفى يا حبيبي كويس.. أنت كنت في عالم ودلوقتي داخل على عالم جديد تمامًا عليك، يعني بدأت تغير من شكلك ولبسك وطريقة حياتك، اللي أنت حاسس بيه طبيعي جدًا.. كل اللخبطة الأخيرة دي واكتشافك لحاجات ما كنتش شايفها وفجأة ظهرت كلها شيء طبيعي يعملك صدمة ويبقى صعب عليك تستوعبه مرة واحدة.. أنت مش بتحب لورين ولا حتى منجذب ليها.. كل الحكاية إنك محروم من حاجة مهمة في حياتك، الحب.. أنت عمرك ما حبيت ولا حتى كان ليك علاقة بأي بنت وأنت صغير ولا خضت تجربة حب المراهقة اللي طبيعي أي شاب بيمر بيها.. دلوقتي، وفجأة بيظهر كل ده أدامك وبتجري الأحداث بشكل صعب

أوي تستوعبه، أنت جميل يا مصطفى بس إدي لنفسك فرصة، إنما
المهم تدي الفرصة دي في المكان الصح.. لورين أكيد ارتبطت
قبلك برجّالة كتير وما تنساش إنها أكبر منك في السن بكام سنة..
هي كمان متلخبطة ومش عارفة هي بتعمل إيه.. أنا بنت وأعرف
كويس، أفهم البنت اللي زيي.. لورين مش لاقية حد يطبطب عليها
وواضح إنها بقالها فترة وحيدة، فكانت مشاعرها وخداها أوي
ويمكن يكون حادث زميلكو في الشغل هو السبب.. فخبطت فيك
أنت بالصدفة.. يعني أنت كنت البني آدم الغلط في المكان الغلط
وأنا واثقة إنها كمان لما فاقت ما قدرتش تقولك حاجة ويمكن
كمان قالت في نفسها وماله مش يمكن أنت اللي تعوضها عن اللي
فات.. لكن اللي أكيد برضه إنها مش بتحبك ولا حتى بتميل ليك
وإلا كان ظهر عليها من يوم ما اشتغلت معاك.. ما تحيّرش نفسك يا
مصطفى كتير وقل لها الحقيقة.. قولّها إنك مش بتحبها..

تسرَّبت راحة خفية إلى أعماقي مع كل كلمة نطقتها ياسمين، شَرَحَتْ مشاعري التي عجزت لفترة غير قليلة على فهمها وتحليلها بهذه الطريقة، أشارت لي ببساطة وبالضبط على المكان المصاب ووصفت طريقة العلاج، هذا بالضبط ما أشعر به ولم أستطع الوصول له رغم أنه أمامي وفي مواجهتي تمامًا طيلة هذا الوقت، كان كالماء أمسكه بيديّ وسرعان ما ينسلّ فلا أجد في النهاية إلا خواء فتضطرم وتهيج مشاعري وتتداخل فتصير معقّدة وتزداد تعقيدًا في كل مرة أجوب فيها ذلك الموضوع الثقيل، أنا لا أحب لورين ولا تستهويني، أنا لست أكثر من محروم منذ سنوات طويلة من النساء، وفجأة فتح العالم ذراعيه وأهداني إحداهن ولكنه أخطأ الاختيار والتصويب فارتميت في أحضان الشك والقلق.. غادرت ياسمين وانطلقتُ دون تردد وقد اعتراني شعور رائع منعش مختلط بحماسة صادقة لذيذة إلى منزل لورين كي أخبرها الحقيقة، كي أخبرها بذوق وهدوء حقيقة مشاعري حتى ينتهي كل هذا السخف الذي أضناني على طول الأيام السابقة.

جروب بيت الكتب

الفصل 14

انتزعت كمامته فصرخ، تركته يصرخ ومشيت بهدوء الثلاث خطوات المعتادة حتى جلست على حافة النافذة، إنها تشبه كثيرًا النافذة التي تصدر منها الإضاءة في الطابق السادس، كانت صرخاته تجلب في نفسي نوعًا من المتعة والأريحية على نحو غريب، فتحت علبة التونة الصغيرة وشرعت في مد أصابعي داخلها وتناول محتوياتها وأنا أرفع رأسي للسماء مبتسمة وصوت الصراخ يأتي ليقطع ذلك الصمت الربّاني المدهش، فتبدو اللوحة بالكامل مبهجة تفتن من يرى تفاصيلها الحقيقية، أدركت أن جزءًا مني قد مات وإن لم أكن مخطئة فإن جزءًا واحد فقط يحيا على أمل الموت.

أرهقه الصراخ وطلب النجدة، لكننا في منطقة نائية ما زالت تحت الإنشاء، توقف العمل بها منذ وقت غير قصير ولن يعود العمل لها إلا بعد وقت طويل وأنا لا أحتاج الكثير، عشرة أيام وربما أقل من ذلك وسينتهي كل شيء، مر يوم كامل وأشرق يوم جديد أحتاج فيه لطاقة كبيرة كي أقصّ قصتي على ذلك البائس الذي قذفته الأقدار في طريقي الشائك.

لقد هدأ تمامًا الآن، يبدو عليه الإرهاق، فلأستكمل قصتي.

اقتربت من المسجل الصغير.. فتحته.

دعنا نستكمل ما لا ينتهي.

****

دار القضاء العالي، شارع 26 يوليو الممتد أمامي بلا نهاية، الباعة

الجوالون المنتشرون في كل مكان رسموا لوحة مشوَّهة لا تتناسب مع
رقي وجمال وبساطة المباني العتيقة التي تميز وسط البلد وتعكس شكل
قاطنيها الذين بالتأكيد يتمتعون برقيّ لا نراه إلا في الأفلام الكلاسيكية،
فِرش الكتب المتناثرة على الأرصفة، المحال العتيقة التي تكاد تصرخ من
إهمال أصحابها، الزحام المعهود لوسط البلد، اختلط كل ذلك في عيني
فكوَّن لوحة غريبة تداخل فيها القديم مع الحديث بشكل منفر بدلًا من
أن يُحدث انسجامًا يجمع العراقة بالحداثة، صارت لوحة وَجَب إحراقها
لتدنّي ذوق من رسمها.. القاهرة، بلد البؤساء وملتقى الهاربين بدافع
الحرية وتحقيق الأحلام، كم شخصًا دهسته المدينة الشمطاء بلا رحمة؟!
وكم حلمًا تمزق واختفى وكأنه لم يكن وسط زحامها اللا منتهي منزوع
الرحمة؟! العروس المبهرة من الخارج والساحرة العجوز في الباطن،
لم أحبها يوما ولم يستهوني البقاء فيها رغم إقامتي لمدة أربع سنوات بين
أسوارها، أتذكر جيدًا حينما كنت أتلفَّظ بالشهادة همسًا في كل مرة أغادرها
وكأنه تم إنقاذي من الموت، شردت للحظة وكادت سيارة تدهسني وأنا
منساقة خلف أفكاري، ذائبة داخل هواجسي كالسكر في قهوة شديدة
المرارة، من يجفل في القاهرة يغافله الموت كعقاب لا رد له، جزعت
لثوانٍ لم تطل، تدثرت بمعطفي شاعرة بالبرد وسرت بخطوات متململة
مفكرة في الخطوة التالية.

للحظة انتابني خوف عارم غامض فتلفتّ حولي سريعًا، ربما خفت
من تتبع ياسين لي حيث بدا مُصرًّا على ملاحقتي عند هروبي، لم أجد
شيئًا، وحيدة، مشتتة وضائعة، هرولت وأنا أنظر من وقت لآخر خلفي
وكأني هاربة من جريمة ما وأحدهم يلاحقني، وصلت إلى أعماق شارع
طلعت حرب، المحال كثيرة على جانبَيْ الشارع، الفرشات متناثرة أمامها
تصدر الضجيج، لم تكن وسط البلد بهذا الشكل قبل ثلاث سنوات، قبل
قيام الثورة، لم يكن أحدهم يجرؤ على فرش بضاعته بهذا الشكل وبهذه
البساطة وإلا اقتادوه إلى قسم الشرطة، لقد كان كل شيء نظيفًا على نحو

ما في وسط البلد رغم تفشّي الفساد في العهد السابق، لكن كانت هناك مسلّمات لا يمكن العبث بها ومسائل لا يمكن الإضرار بها مهما تفشّت وطالت الأيدي الفاسدة.. الآن، لا ضابط ولا رابط، مدينة تغرق في الوحل وتنقاد بسرعة جنونية نحو الهلاك، عبث السلطة وجنون القيادة وحرب الوجود التي يقودها رجال عسكريون ودينيون ويدفع ثمنها شعب تشوّهت ملامحه، وأنا أكبر دليل على ذلك.. يا الله.. كم يقتلني الإعياء، شعرت بوهن شديد فأجبرت نفسي على الاستمرار وجرجرت قدميّ حتى وصلت أمام جروبي، نظرت يمينًا ويسارًا وأنا أفكر في أهلي وما يفعلونه بعد أن تأكدوا من أن مكروهًا وقع لي، وصلت إلى مقهى البستان الواقع خلف مقهى ريش الشهير والعريق، جلست على كرسي بلاستيك أخضر اللون في مواجهة ترابيزة دائرية بلاستيكية بيضاء ونظرت حولي بهدوء ولما استكانت نفسي أغمضت عينيّ وذهبت في حلم يقظة.

بعد برهة استفقت على صوت النادل فطلبت حليبًا بالقرفة التي أعشقها، تحسّست الكوب الساخن على أمل أن يتسلل الدفء إلى داخلي لكن بلا جدوى، باغتتني رائحة كريهة منفّرة، رائحة القرنفل النفاذة، سطعت أمامي فجأة ذكريات مؤلمة، ندت عني أنّة، أغفلت جفنيّ وأحداث أمس تصطرع في رأسي، سقط الكوب مني دون قصد تحت وطأة الانفعال وحاسبت النادل على الحليب والكوب المتكسر بعدما اعتذرت متلعثمة ثم سألته عن أي فندق قريب بسعر معقول في وسط البلد، كنت أحتاج بشدة للاختلاء بنفسي بعيدًا عن الناس والضجيج، وبحاجة ماسة للراحة دون أن يكون في صحبتي أحدهم، أحتاج لترتيب أفكاري. ملأتني الدهشة وأنا أسير حسب الوصف الذي شرحه لي، كيف تسنى لي تحمل كل ما حدث بل وأقف ببأس الآن على قدمي؟! فكرت في الذهاب لطبيب لكن سرعان ما تراجعت عن تلك الفكرة، وقفت في مواجهة محل يبيع الذهب في شارع 26 يوليو، دلفت المحل على استحياء بعد تردد لم يطل، قدمت لصاحب المحل الخاتم فرمقني بنظرة متشككة، تطلع فيَّ وتفرّسني من

رأسي حتى أخمص قدمي، سألني عن فاتورة الخاتم لكني زممت شفتي وتلعثمت ثم طأطأت رأسي دون أن أرد، لم يأخذ ثوانيَ بعد ما رمقني بنظرة أخيرة على إثرها قام بوزن الخاتم ثم نفحني النقود فذهبت من دون علمها، لم أكن آبه بشيء وكل ما يشغلني هو إيجاد مكان للراحة والمبيت، اتجهت سريعًا حسب وصف النادل مرة أخرى إلى الأوتيل الذي أخبرني عنه، نيو أوتيل، هذا هو اسم الفندق، حمدًا لله .. تكلفة الغرفة بحمام داخلي في الليلة 120 جنيه، دفعت مقدمًا ثلاث ليالٍ، الأوتيل لا بأس به، عتيق، لكن ما زال يحتفظ بمسحة أرستقراطية لا تخطئها العين، قريب من شارع 26 يوليو، وعلى بعد شارع واحد من شارع طلعت حرب، دلفت إلى غرفتي وأغلقت على نفسي، جلست على السرير وبكيت مفكرة في ما سيحدث لي، لم أكن أشعر بأي شيء سوى الألم والحزن، وضعت رأسي على الوسادة وأنا ما زلت أبكي ودون شعور ذهبت في نوم عميق.

استيقظت من نوم ثقيل مقلق انتابني خلاله خليط من الكوابيس المخيفة، كنت محاصرة بالعرق تمامًا حتى إن ملاءة السرير تشرّبته فصارت رطبة، جسدي ورأسي ثقيلان، لم أكن أستطيع النهوض أو مجرد الوقوف على قدمي وسقطت بمجرد المحاولة مرة أخرى. بلا وعي ذهبت في نوم عميق وثقيل لمرة أخرى، حينما استيقظت تلفت حولي محاولة استعادة وجودي، أخذت وقتًا طويلًا حتى استعدت أحداث الليلة السابقة التي بدت دهرًا، طلبت الاستعلامات وبصعوبة سألت عن الساعة لأنه لم تكن هناك أية وسيلة لمعرفة الوقت، عرفت أن الساعة السابعة والنصف بعد المغرب من اليوم الثاني لي بالأوتيل، لقد نمت ما يقارب 27 ساعة متواصلة ربما تخللها استيقاظي على فترات متقطعة لا أتذكر منها شيئًا، لم أكن أشعر بالجوع ولكن جسدي ورأسي ما زالا ثقيلين للغاية بشكل موجع، دلفت إلى الحمام وأنا أحاول التركيز بقدر ما استطعت حتى يتسنى لي التفكير في مستقبلي الغامض، لم أحاول إثارة مشاعري باستعادة تفاصيل الحادث الذي تغير على إثره كل شيء.

كانت هناك نقاط دم متناثرة جافة على لباسي الداخلي وكذلك بين فخذي، اغتسلت، شعرت بجفاف عينيّ من الدموع، كنت ناقمة، حزينة ومقهورة وقلبي يعتصره الأسى والاكتئاب، انتبهت أني لم أخلع ملابسي منذ وطأت هذه الغرفة، جلست على السرير قليلًا ولم تكن هناك فكرة واضحة لأي شيء، مجرد تشويش وأفكار متداخلة غير واضحة تحوم بعقلي، فاقدة التركيز تمامًا، هويت برأسي الثقيلة على الوسادة وذهبت مرّة أخرى في نوم عميق لم تتخلله كوابيس أبدًا.

استيقظت في اليوم التالي صباحًا ورأسي ثقيل، دخلت الحمام ووضعت رأسي تحت الماء البارد وكأني أنعش سكرانًا أفقدته الخمر وعيه، فكرت في النزول إلى الشارع ولكن مخاوفي كثيرة ولا وقت أضيعه فأنا لا أعرف أحدًا هنا قد يخف لنجدتي أو مساعدتي، كما أني لا أستطيع من الأساس طلب المساعدة من شخص أعرفه، لا ينبغي أن يراني أو يعرف بي أحد لكن خوفًا عميقًا في داخلي يحجبني ويمنعني عن مواجهة الشارع مرة أخرى، تعجبت من نفسي واندهشت حينما أطلت بعض المشاهد السابقة التي مرت على خلال اليومين الأخيرين وكيف تسنى لي الاحتفاظ برباطة جأشي حتى وصلت إلى هذه النقطة! كيف كنت بهذه الشجاعة؟! كيف استطعت أن أتحمَّل هذا الكم من الألم والمعاناة والتحدي بعد كل ما حدث؟! ورويدًا رويدًا صارت الذكريات أكثر وضوحًا والأحداث أطلت على عقلي نقية دون أن تصيبها رجَّة الصدمة، أخرجت النقود المتوفرة معي فوجدتها تقريبًا تزيد على ألف وثلاثمائة جنيه، مبلغ قليل في مواجهة حياة جديدة صعبة، قررت أن أهندم نفسي وأنزل للبحث عن عمل لكن الألم في بطني شل تفكيري وقدرتي على الحركة بشكل كبير، إنني جائعة لم أتناول شيئًا منذ ليلتين كاملتين، تركت الغرفة واتجهت نحو الأسانسير القديم، نظرت يمنة ويسرة وتأملت الفندق ذا السقف العالي والشبابيك الكبيرة والأفاريز المعمارية المتناثرة هنا وهناك وأنا أشعر بجو الأربعينيات والخمسينيات من القرن المنصرم، شعرت بدفء غريب فابتسمت بمرارة.

تركت المفتاح لدى موظف الاستعلامات في الفندق واتجهت بخطوات بطيئة حتى وصلت إلى شارع 26 يوليو، نظرت أمامي فوجدت إلى اليمين قليلًا وفي مواجهتي مطعم جاد، دلفته وطلبت سندوتشين من الفول، وأنا أتناول السندوتشين واقفة على قدميّ داخل المطعم فكرت كثيرًا في ما أستطيع أن أفعله وكيف أتصرف، فكرت في شراء الجريدة، ربما أجد شركة تبحث عن إحداهن للعمل في أية وظيفة كانت، أعلم أن إيجاد وظيفة في المدينة الشمطاء ليس بالأمر الهيّن لكن أيكون الله قاسيًا إلى هذا الحد؟! ما الذي جنته يداي لأستحق كل هذا البؤس والألم؟! الإضاءة في الطابق السادس تطاردني رغم محاولاتي الحثيثة في ردعها حتى لا تلاحق ذهني المضطرب من الأساس.

اتجهت إلى فرشة كتب تقع بالقرب من دار القضاء العالي وابتعت جريدة وجلست على أحد المقاهي العتيقة بالجوار في شارع جانبي متفرّع من شارع 26 يوليو، طلبت شايًا وشرعت في البحث عن أي وظيفة ممكنة وعند تصفّحي للجريدة هلعت ثم اكتأبت بشدة فنهضت من مكاني من دون أن أحاسب على ما طلبته نظرًا لانفعالي، فأنا لا أملك أية مستندات تثبت أني جامعية أو تلقيت أي نوع من التعليم، فالمؤهلات في مصر تتوقف على بضع أوراق لا قيمة لها لكنها بكل أسف مطلوبة وضرورية للحصول على عمل، قهرني التفكير والهَمّ، مشيت وأنا أصطدم بكل من يمرون قربي دون شعور، منساقة خلف أفكاري لا أعلم ما العمل لحل هذه المشكلة، فكرت في اللجوء إلى الجامعة ومن هناك يمكنني التصرف، بالفعل يمكنني الحصول على شهادة تثبت أني خريجة. لم أضيع الوقت واتجهت سريعًا نحو محطة المترو القريبة ثم ركبته متجهة إلى جامعة القاهرة، أدرك تمامًا أن كل دقيقة تمر من دون إيجاد عمل تعرّضني لخطر داهم عواقبه وخيمة، كنت أخاف مجرد التفكير في تبعات الأمر، ورغم أن أفكاري لم تكن واضحة بل ومشوشة للغاية، إلا أن ما حدث لي يداهمني مع كل خطوة أخطوها نحو مصير مجهول يستعصي تصديقه، كأنني داخل كابوس عنيف

ومرعب وأنتظر أن ينهرني أحدهم لأستفيق منه فأستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، لكن للأسف جزء مني يعلم الحقيقة ويقبلها، يصر على إذلالي وقهري، لكن في النهاية لا مفر من الواقع مهما بلغ حجم ألمه أو تَوَحّشت أحداثه، لا شيء يغير الزمن ولا توجد قوة مهما بلغ حجمها تستطيع أن تعيد كتابة الأحداث بالشكل الذي نرتضيه لأنفسنا.

دلفت إلى جامعة القاهرة، وللأسف حينما وصلت إلى قسم شؤون الطلبة أخبروني بأن الموظف المسؤول متغيب منذ أسبوع كامل لسوء حالته الصحية ورغم محاولاتي المستميتة لإنهاء هذا السخف لم أصل لشيء، انهرت وانفعلت ثم أصبت بنوبة عصبية شديدة فصحت في جميع الموظفين وبُحّ صوتي من وطأة الصياح والصراخ المتواصلين ووصل صداه إلى عاملين كثر في مكاتب مجاورة حتى إن أحدهم قام باستدعاء الأمن. ولخوفي الشديد جريت دون وعي تجاه البوابة بينما كان أحدهم يقذفني بشتائم مقذعة وسب مسترسل لا ينتهي سمعته واضحًا وأنا أهم بالهرب وظل يلاحقني حتى مسافة بعيدة، لا أستطيع حقًا تذكر كل التفاصيل وما الذي قلته أو تلفظت به خلال ثورتي العارمة وغضبي الصارخ، كرهت كل شيء وأنا ألهث هاربة من أسوار الجامعة قبل أن يمسكوا بي، لعنتهم وأنا أصرخ باكية بلا انقطاع عن الهرولة مبتعدة عنهم. بعد أن اعتراني إرهاق شديد جلست على أحد الأرصفة وبكيت، لقد كان الكثير من الأفكار السوداء تحوم بمخيلتي، لو كانوا أمسكوا بي لسلموني إلى قسم الشرطة ومن هناك ستبدأ الفاجعة ويأمرون بإحضار وليّ أمري ومن هنا سينتهي كل شيء، لو أنني لم أنفعل، لو أنني انتظرت بضعة أيام أخرى، الكثير من الاحتمالات رسمتها في مخيلتي في محاولة فاشلة لتوبيخ نفسي على ما فعلت، ألقيت بالذنب كاملًا عليَّ ولكنني كنت أدرك بأني تحت ضغط نفسي حاد يفتك بي فيجعلني غير متحكّمة في تصرفاتي وردود أفعالي، لا أعلم حقًا إلى أين تأخذني الأقدار وأخشى تصورها أو مجرد التفكير بها.. في الحقيقة صرت أخشى كل شيء.

جروب بيت الكتب

عصام الرشيدي

جاءني زاهر وهو يحمل في عينيه مزيج من الأسى والترقب، عيناه الخضراوان اللامعتان مع شعره الملتصق بجبهته يعطيانه مظهرًا مخيفًا بعض الشيء، تنحنح بطريقته الخاصة التي تشبه زئير أسد جائع ثم قال بصوت أجش:

- واحشني يا عصام باشا والله.

أدخلته إلى الشقة بإشارة من يدي من دون أن أتفوّه بكلمة واحدة، سبقته حتى وصلت إلى الصالة ونظرت له نظرة ذات مغزى فالتقط إشارتي وجلس دون مناقشة على إحدى الأرائك ذات اللون الأسود القاتم، قرَّب ساقيه من بعضهما وأطرق برأسه إلى الأرض بينما شبَّك ساعديه على صدره فبدا مظهره غريبًا متناقضًا مع شخصه وحجمه الضخم، كان يحاول أن يعكس حزنه ولكن على طريقته الخاصة، ابتسمت في نفسي ابتسامة لا تخلو من مرارة وأنا أعطيه ظهري، كان ذلك اليوم التالي لمغادرة سارة المنزل، دلفت إلى المطبخ لأعد كوبين من الشاي فقد صرت وحيدًا بعد أن صرفت الخادمة وكذلك الممرضة، لم أعد أشعر بألم في أعلى صدري كما في السابق وأخذ جسدي يستجيب للعلاج، استرجعت ما حدث بيني وبين سارة حين التقت عينانا وهي تهم بالخروج من المنزل، نظراتها اخترقتني وكأنها من دون رحمة أو شفقة. نظرة يملؤها الاحتقار على نحو ما سرعان ما غيّرتها بمجرد أن واجهتها عيناي، تغيَّرت أساريرها فجأة وكأنها اكتفت بتوصيل رسالة غامضة سريعة خاطفة لي، لا ولن يلحظها غيري ولا أبوها

الذي تربّت على يديه وهو يقف عند الباب وقد أصابه الكدر والهم ولكنه رسم علامات العزم والإيمان على وجهه فصار شكله متناقضا يرثى له. لم تتفوَّه سارة بأي كلمة حين مغادرتها، لا كلمات وداع، ولا نظرات ملتهبة مودّعة، ولا حتى كلمة سلام تلقيها عليَّ ربما لمرة أخيرة. أشاحت بوجهها وببساطة تركتني وتركت كل شيء خلفها. حاوطني الكثير من الأسئلة، هل كرهتني سارة إلى هذا الحد؟! هل تعتقد أنني كنت سببًا في موت طارق؟! لو أنني مثلًا أصررت على بقائهما لما حدثت تلك الفاجعة؟! لو أنني كنت أكثر صلابة فأنقذتهما مثلما يفعل الأبطال على شاشات السينما والتليفزيون؟! ولكن الحياة ليست شاشة عرض كبيرة كما تعتقد. هل صار ما بيننا ضحلًا إلى الحد الذي جعل حتى الوداع رتيبًا فاترًا بلا إحساس يُذكر؟! لماذا رمقتني بتلك النظرة الوقحة المهينة وكأنها تسبني على نحو ما؟! أتحسبني السبب في أنها فقدت كل شيء؟!

اندلق إبريق الشاي بعدما فلت من يدي فجأة وأنا غائص في أفكاري السوداء فهب زاهر مسرعًا باتجاهي. طالني الماء الساخن فوقع على قدمي اليسرى فألهبها، فتح زاهر الثلاجة سريعًا وهو يدمدم قائلًا:

- لا حول ولا قوة إلا بالله.. بتتعب نفسك ليه يا عصام باشا.. ما أنا خدامك وموجود أهو وأعملك اللي أنت عايزه.

استرسل زاهر في دمدماته وهو ينتزع الثلج من الفريزر على عجل ويضعه على قدمي التي التهبت من أثر الماء المغلي بعد أن أجلسني على كرسي قريب بينما هبت أمامي فجأة ذكرى الحادث كرياح عاتية فارتجفت رجفة شديدة حسبها زاهر ناتجة عن وجعي من سقوط الماء الساخن على رجلي. نهرته فجأة بلهجة عصبية فلم يذعن لي ثم قال:

- والله ما هاسيبك يا باشا مهما تعمل.. معلش النار مولعة وأنا حاسس بيك.. ده في مرة يا باشا المية السخنة بعيد عنك وقعت على الحتة الحساسة وعينك ما تشوف إلا النور، كنت مش على بعضي في بيتنا .. رايح جاي زي المرة المطلقة لدرجة إني فضلت

أجري وأنا بصرخ من الوجع ومحدش كان فاهم أنا بجري ليه لحد ما وصلت للترعة ورحت ناطط فيها.

كانت كلماته متعارضة تمامًا مع شعوري، كما أن مزاجي لا يسمح بأي نوع من المزاح وفي نفس الوقت كان الإمساك عن الضحك مستحيلًا، لكن من جانب آخر كنت أعلم أن هذه طريقة زاهر الطبيعية في الحديث فهو يتحدث بصورة عادية وكأنه هو نفسه لا يفهم أو يستوعب وقع حديثه، في نظري ليس غبيًا ولكنه لا يُحسن اختيار المواضيع أو الكلمات في التوقيت المناسب، دائمًا يتلفظ بما يخطر على باله دون تحفظ أو تفكير، وأعتبرها إحدى مميزاته. لطالما أضحكني وروّح عني في أوقات كنت أعاني فيها الانزعاج والهم، ودائمًا ما تشمل كلماته نوعًا غريبًا ووقحًا من التشبيهات، مبتذلًا، قارحًا في بعض الأحيان، أشبه بشخصية هزلية رُسمت ببراعة على شاشة السينما.

- ما تلفلنا سيجارة يا زاهر.

خرجت الجملة مني وكأنها تخرج من شخص آخر، لم أدخن الحشيش منذ فترة طويلة وحتى في تلك الفترات البعيدة لم أكن أدخنه إلا في جلسات الأصدقاء على استحياء واضح، جربته مرات عديدة لكنني لم أكن نهمًا أو مواظبًا عليه كمعظم أصدقائي، كنت أراه غيبوبة مؤقتة تفسد الوقت وتضيعه ولا يساعد على الصفاء الذهني كما يعتقد مُدخنوه، كنت أتحاشى منذ زواجي المكوث في جلسة يدخنون فيها الحشيش كما أن عملي كان يستوجب، وخصوصًا في الفترة الأخيرة، أن أبقى متيقظًا طيلة الوقت والحشيش لا يساعد على ذلك، بشكل معين كنت أرى أن واجبي تضخم وخصوصًا بعد قيام الثورة رغم محاولاتي عدم إنهاك نفسي في التفكير في المستقبل الغامض لبلدي العزيز الذي أحبه، أقوم بواجبي بحسب وجهة نظري وأتلقى الأوامر وأنفّذها كما هي دون مناقشة، أعلم بما لا يقبل الشك بأن بلدي مقبل على مرحلة خطيرة ربما لن تخرج منها وها أنذا مقعد في البيت، فقدت ابني. دافعي الأول للتمسّك بالحياة،

وفقدت الزوجة والحبيبة دون مقدمات. اشتد غيظي حينما لمحت عيني زاهر اللامعة المذهولة وهو ينظر لي وكأنه يحاول بقدر الإمكان استيعاب ما سمعه للتو مني، ليس لأنه لا يعرف أني أدخن الحشيش، بل على العكس فإن زاهر يعرف أدق أسراري إن كان ذلك التعبير ممكنًا، ويدرك بفراسته الطبيعية وبما لا يقبل الشك بأني أعاني بشكل كبير وأحتاج لمهدِّىء قوي.

فقلت بحزم قاطعًا شكوكه:

- مش بقولك لف لي سيجارة يا زاهر.

تململ زاهر في مكانه حين أدرك إصراري وهو يجلس تحت قدمي وما زال ممسكًا بالثلج وقد علا وجهه تساؤل فيه التردد والدهشة. حاول أن يتكلم لكنه في اللحظة الأخيرة أعرض عن الكلام ثم نهض من مجلسه ووقف بهدوء في مواجهة ترابيزة الصالة وأخرج محتويات جيوبه كلها، أوراقًا عديدة، سجائر من نوع كليوباترا، سلسلة مفاتيح، ورقًا معجنًا أو «بفرة» يستخدم في لف السجائر لوضع التبغ بها، نقودًا وورقًا مقوى صغير بحجم الإصبع متراصًا فوق بعضه، ثم وضع يده في جيب سترته التي يرتديها وأخرج قطعة كبيرة من الحشيش، نظر لها وصفق بيده ثلاث مرات بشكل استعراضي وهو يقول بمرح:

- أموت أنا وأعيد السنة.. أنا هاخليك تُحلِّق يا باشا.. تُحلِّق.

قال جملته الأخيرة باستعراض مرح دفعني للابتسام، كما أن استخدامه للغة العربية الفصحى كان فيه نوع من التناقض الغريب مع شخصه كطفل صغير تلفظ بجملة لا ينطقها إلا الكبار فتصيبهم الدهشة الممزوجة بالمرح.. قام زاهر بإفراغ محتويات ثلاث سجائر من الكليوباترا فوق ورقة من الأوراق التي يحتفظ بها قائلًا:

- الورقة دي يا باشا تخص الأجازة بتاعتي اللي وقعلي عليها مراد باشا علشان أكون معاك.. طلع ليها لازمة بدال ما أنا مرمي في البيت ولا شغله ولا مشغلة.

ابتسمت ابتسامة خفيفة مندهشًا كأنني أشاهد عرضًا خاصًا بي وحدي في قاعة سينما عملاقة، حينها كان زاهر يفرك التبغ جيدًا حتى صار ناعمًا، ثم قام بإخراج موسى من جيب سترته ملفوفة داخل ورقة صغيرة في وسط الأوراق وقام بدقة وعناية بقطع قطعة من الحشيش ثم غرز دبوسًا في منتصفها، ثم أشعلها بقداحته حتى اشتعل الحشيش تمامًا فأصدر دخانًا له لون رمادي أقرب إلى السواد ورائحة نفاذة ثم وضعها فوق التبغ وهو يتمتم بالبسملة مرات عديدة فلم أستطع إلا أن أقهقه بصوت عالٍ، نظر لي وهو منهمك في عمله ثم قال:

- يا باشا ما هو لازم التسمية برضه في كل حاجة حتى لو كانت حرام..
- اشمعنى؟!
- علشان ربنا يبارك لنا فيها.

قهقهت حتى دمعت عيناي، هل كنت أحتاج للحشيش بعد هذا العرض الممتع؟! انتهى زاهر من عمله بإتقان لا مثيل له، حشّاش من الدرجة الأولى، يحترم موهبته ويقدّر الحشيش ككل عشاقه، لهم طقوسهم الخاصة التي لا يمكن أن يتخلّوا عنها، لهم قوانينهم ورؤيتهم الخاصة في الحياة التي تتلخص في أن الحياة لحظات قد لا تعود فاستمتع بها، أعطاني سيجارة منتفخة ثم أعطاني القداحة وهو يقول:

- اتفضل يا باشا اتسطل.

ابتسمت وأنا آخذ السيجارة منه ناظرًا لها بشيء من الدهشة، لفتها تثير الإعجاب رغم كل شيء، دقيقة لا تشوبها شائبة وكأنها أُعدت تحت إشراف متخصص، أشعلتها فصدر عنها وهج ثم تسلل الحشيش بوقعه النفاذ سريعًا بعد نفسين فقط إلى رأسي فشعرت بالتنميل يستحوذ على جسدي بينما أحسست بأن رأسي يثقل، فانفجر زاهر قائلًا بمرح صادق:

- ادِّيني ولا تخبيني.. حلاوتك يا باشا.

أحسست بأن رأسي سيقع من فوق جسدي، عدت بظهري إلى الوراء

وأسندتها إلى الأريكة ناظرًا إلى السقف وأنا ما زلت ممسكًا بالسيجارة التي تفوح منها رائحة الحشيش النفاذة، وذهبت في حلم يقظة، حينها كان زاهر يتحدث بطريقته الاستعراضية المرحة، بدا وكأنه يتحدث من خلف زجاج سميك فلا يكاد صوته يصل إلى مسامعي بشكل واضح، تصور أمامي طارق وهو يلعب في أحد الأركان، ينظر لي تلك النظرة البريئة ثم يبتسم بشكل تختلط فيه الشقاوة بالحماسة، مددت يدي في الفراغ أمامي دون شعور وأشرت له، ظل واقفًا في مكانه وقد علا وجهه تعبير مبهم بعد أن تحولت ابتسامته لنظرة غامضة عميقة اخترقت أعماقي، اقترب بمسافة خطوتين تجاهي ثم وقف مكانه يلعب بشيء ما في يده، نهضت من مكاني وأنا منساق تمامًا حتى وقفت في مواجهته وملست على شعره بحنان جارف حتى شعرت بأن يدي تقبض على رأسه فسمعته يقول:

- الله يخليك يا عصام يا باشا.. تصدق كده شكله أحلى.

استفقت على صوت زاهر الذي كان ينظر لي باستغراب يشوبه القلق، وجدت يدي فوق رأسه بينما كان يلف سيجارة أخرى، لقد تلاعب الحشيش بي وألقاني في وهم كاذب، مع الأخذ في الحسبان حالتي النفسية شديدة السوء، أعطيت زاهر ظهري وانفجرت في البكاء، مع كل دمعة سقطت كنت أشعر بمزيج غريب ومتناقض من الراحة والغضب، ربت زاهر عليَّ بعد تردد وهو يقول بنبرة حزينة مواسية:

- لا حول ولا قوة إلا بالله.. ما توحد الله يا باشا.. كلنا هانموت.

جلست على الأريكة منهارًا محاولًا بشتى الطرق جمع شتات نفسي الممزقة، بكى زاهر بصدق وهو يغمغم بعبارات لم أفهمها، لم أرَه يوما يبكي ولكن بكاءه أحدث داخلي هزة وتساؤلًا، ما الذي يدفع زاهر إلى البكاء؟! هل حبه لي جعل مشاعره تنقاد دون إرادة منه لمواساتي ومشاركتي البكاء؟! أم حبه لطارق الذي عاهده على طول حياته التي لا تكاد تُذكر قلَّب داخله الذكريات التي أشعلتها دموعي؟! في الحالتين كانت دموع

زاهر نوعًا من العرفان بالجميل ورمزًا للأصالة ومراعاة للعشرة، طبطبت عليه بصدق وأنا أمسح دموعي، فما كان منه إلا أن قال بجدية وهو يمسح دموعه بكف يده الضخم:

- ورحمة أمي لأغيّر الصنف.. ده صنف كئيب بيقلب المواجع.

فضحكت وأنا أمسح وجهي بكفيَّ، ثم أخذت السيجارة المنطفئة التي وقعت مني حينما شرعت في البكاء وأشعلتها مرة أخرى قائلًا:

- العيب مش في الصنف.. العيب فينا إحنا يا زاهر.

- ما عاش ولا كان اللي يقول إن فيك ريحة العيب يا باشا.. أنا هاعملك دبوس.. شكل السجاير مش هاتجيب معاك سكة.

ونهض من مكانه بحماسة وهو يسب ويلعن في تاجر الحشيش متوعدًا إياه بنبرة غاضبة، أمسك الموسى وقطع قطعة من الحشيش ثم قام بتسخينها قليلًا، وضعها أمامه على الترابيزة وظل يضغط عليها بأطراف أصابعه مرات عديدة ثم أتى بكوب فارغ كان موضوعًا أمامه وقلبه على جانبه وظل يضغط فوق قطعة الحشيش وكأنه يفردها حتى صارت تشبه دبوس الشعر بطول 5 سم.. صفق بيديه ثلاث مرات ثم وضع الكوب على الترابيزة بشكل معتدل وأخرج سيجارة جديدة وقص قطعة من طرفها وألقاها أمامه، ثم ثقبها من المنتصف ووضع طرف دبوس الحشيش في المكان المثقوب ثم أشعل الطرف الآخر ووضع السيجارة بشكل أفقي داخل الكوب فصارت معلقة يخرج الدخان منها، أخرج من جيب سترته الآخر قطعة جلدية، تلك التي توضع فوقها أكواب الشاي في المكاتب وأغلق الكوب فصار الكوب يمتلئ بالدخان المتصاعد من دبوس الحشيش، انتظر حتى امتلأ تمامًا ثم أزاح القطعة الجلدية قليلًا بحيث يسمح للدخان المحبوس بالخروج من الكوب وهو يقول:

- شد يا باشا بمناخيرك وهاتدعيلي.

استنشقت نفسًا عميقًا بعد ما حدجته بنظرة قلقة، لقد سبقت لي مرارًا

رؤية هذا العرض في جلسات أصدقائي لكني لم أجرب أن أدخن الحشيش بهذه الطريقة من قبل، بعد ما استنشقت الحشيش ثلاث مراتٍ بهذه الطريقة سعلت أكثر من مرة وفركت أنفي من تأثير الحشيش النفاذ إذ شعرت بأن شيئًا يأكلني. أرحت رأسي إلى الخلف فما كان من زاهر إلا أن قال بنفس طريقته الاستعراضية:

- كده وصلت يا باشا.. ادعيلي بقى.

- ربنا ياخدك.

- حبيبي يا باشا.

دخلت في هيستيريا ضحك لا تتناسب مع الموقف، ظللت أضحك مدة طويلة وزاهر يستنشق الحشيش بلا توقف ويرمقني من وقت لآخر بنظرة من غامت عينيه تحت وطأة الحشيش، ساد الصمت للحظات كنت حينها مغيبًا تمامًا، لا أتذكر ما كنت أفكر فيه وأستطيع أن أقول بأني لم أكن أفكر في شيء، نوع من الخواء الغريب داخل عقلي وكأن أحداث الحياة برمتها تم محوها، كأن الوجود نفسه لا وجود له، لم أكن حزينًا ولا يائسًا، حتى قدمي التي آلمتني لم أكن أشعر بها، انهالت فيما بعد على رأسي أفكار مشوشة لم أستطِع الإمساك بإحداها، كلما حاولت النطق بأي شيء نسيت ما كنت أنوي قوله، نهض زاهر من مكانه وأعد كوبَي شاي، أعطاني كوبًا فارتشفت منه بهدوء ثم انحنيت إلى لأمام وأنا أمرر أصابعي حول الكوب محاولًا جلب الدفء لنفسي ثم سألته:

- أخبار الداخلية والشغل إيه يا زاهر؟! إوعى تكون الأجازة أخدتك وما تعرفش الدنيا ماشية إزاي؟

- إزاي يا باشا؟! ده كلام برضه! طبعًا كنت بروح أشوف الدنيا ماشية إزاي.. أهو كل يوم مظاهرات وعيال كاوركات وهتي واجعين دماغنا بالحرية والعدالة والملوخية والشغل بتاع الداخلية بلطجية اللي أنت عارفه ده.. بس الدنيا بايظة.. البنزين ما فيش.. سولار ما

فيش.. الكهربا بتقطع أوسخ من الصيف.. والناس ما لهاش سيرة غير الإخوان ومين الرئيس اللي هييجي وانتخابات الرئاسة.. بيني وبينك يا باشا قلبي مش مطمِّن.

- ليه يا زاهر؟!

- يا باشا إحنا اللي كنا بنحكم الإخوان في عهد الريس الله يباركله ودلوقتي الإخوان شبه مسيطرين وزاقين عيالهم على الداخلية ووزارة الدفاع وهاتك يا مظاهرات وواخدين في سكتهم العيال بتوع الثورة.. البلد شكلها رايحة في سكة ما لهاش راجعة وربنا يستر علينا.. ده الحشيش اللي كان فيه القرش بـ 150 جنيه بقى بـ 220 جنيه.. ليه؟! هو إحنا بنسرق.

- وهو أنت بتدفع فلوس في الحشيش يا زاهر؟

- لأ طبعًا يا باشا.

ضحكت ثم قلت وأنا أرتشف الشاي:

- طيب أنا راجع الأسبوع الجاي وعاوزك تظبطلي الدنيا.. المشكلة إني راجع مع احتفالات الثورة وطبعًا كالعادة هنلاقي قلق كتير.. مش عايز مفاجآت يا زاهر.

- ولا يكون عندك أي فكر في الموضوع ده يا باشا.. سيبهولي وما عليك.

رنَّ هاتف زاهر في هذه اللحظات فأخرجه مبتسمًا ابتسامة عريضة وهو ينظر إلى الشاشة ثم نظر لي وكأنه ينتظر موافقتي على الرد فأشرت إليه فما كان منه إلا أن رد قائلًا بمرح وقد خفض صوته:

- وحشتيني يا توحة يا بنت الزفرة.. كنتِ فين يا بت من زمان؟ طيب اقفلي دلوقتي وهاكلمك بعدين أصل أنا مع الباشا بتاعنا.. مع السلامة يا قنبلة حياتي.

ضحكت ثم نظرت له مندهشًا ومتسائلًا، فقال وقد رسم علامات الخجل على وجهه حتى بدا مظهره غريبًا:

- ما تكسفناش يا باشا بقى.. دي الحتة بتاعتي.

عدت برأسي قليلًا إلى الخلف كإشارة تعجب وأنا أقول:

- الحتة بتاعتك.. من إمتى يا زاهر ليك في الحريم؟! ده كل الناس فاهمة إن ما لكش فيها..

تنحنح وهز رأسه ثم قال بهمس وكأنه يفشي سرا:

- شوف يا باشا.. في الداخلية اللي يداري على شمعته تقيد. وعلى رأي المثل اللي متغطي بالحكومة عريان.. وأنا لا مؤاخذة ما بحبش حد يعرف عني حاجة حتى أقرب القريب.. سيب الناس تتكلم وزاهر من بعيد معلم.

انفجرت في الضحك ثم أخبرته برغبتي في النوم، نهض من مكانه ثم لملم أشياءه المبعثرة بسرعة وسلم عليَّ وانطلق خارجًا، قبل خروجه أخبرته بأن يأتيني بعد أسبوع ليكون برفقتي حين أعود للعمل مرة أخرى. أومأ برأسه وغادر، جلست على الأريكة أفكر في كل شيء، في سارة والعمل، حاولت بشتى الطرق ألا أفكر في طارق، أحزنني ما وصلت إليه، لم يكن الأمر منوطًا بفقدي لحياتي فقط لكن هناك رغبة غريبة تدفعني للانتقام من شيء ما، لهدم أو تكسير شيء تنبض فيه الحياة، ظلت الأفكار السوداء المرعبة تتوالى على مخيلتي دون توقف، فقدت طعم للحياة بعد ما فقدت فلذة كبدي، ما الغرض الحقيقي من كوني أحاول العودة إلى حياتي مرة أخرى وكأن شيئًا لم يحدث؟! كأن ابنا لم يُفقد؟! كان زوجة ستعود إلى سابق عهدي بها؟! هل شُفيت فجأة ودون شعور من كل ذلك وأصبحت جاهزًا لمواصلة حياتي؟! هل بالفعل أصبح كل شيء جاهزًا ومهيأ لأصير شخصًا عاديًا يتقبل الأقدار بصدر رحب؟! ظلت التساؤلات تقاتلني وجميعها بلا إجابة.. لم أشعر بشيء وأنا أصحو في اليوم التالي إلا بصداع رهيب يفتك برأسي، لم أكن أعلم كيف ولا متى نمت، ولكن المؤكد أنها كانت ليلة صاخبة، فالمشهد المفزع للشقة أمامي يؤكد ذلك.

حروب بيت الكتب

الفصل 13

استيقظتُ من نوم ثقيل مزدحم بأحلام كثيرة، رأسي ثقيل، الصداع يفتك بها، بعد نصف ساعة تقريبًا حضر العالم مرة أخرى بجموده ونسونه اللامتناهية أمامي، تذكرت بأني دفعت أجرة يومين آخرين في الأوتيل ويبدو أني نمت فترة طويلة، كان وقت العصر يمثل لي الغرابة ولكم كنت أكرهه طوال حياتي القصيرة، اغتسلت سريعًا ثم بحثت عن ملابسي فوجدتها ممدّدة على الأرض في مواجهة التكييف وقد بدا أنها مغسولة، حاولت استرجاع أحداث الأمس بصعوبة وبالفعل تذكرت بأني قمت بغسلها بعد مغامرة الليلة الماضية، بعد انهزامي في أول محاولة لإنقاذ ما تبقى مني، ارتديتها وقد كانت ندية بعض الشيء ثم نزلت وسلّمت المفتاح لإدارة الأوتيل وأنا أفكر بخطوتي القادمة، كان عليَّ أن أجد أي عمل متاح حتى يمكنني نجدة نفسي بأي شكل خلال هذه الفترة الحرجة، لا أملك مالًا، لا أملك سندًا، وحيدة وتتقاذفني الآلام والذكريات الموجعة، هدف يسهل التسديد عليه كما أني لا أملك الجرأة على ردع أو رد أي ضربة مسددة إليَّ، عارية إن صح القول يمكن العبث بها.

كل تلك الأفكار السوداء كانت تدور في مخيلتي وأنا أسير في وسط البلد هائمة، دلفت أكثر من محل من المحال المنتشرة في وسط البلد للسؤال عن وظيفة شاغرة، وفي كل مرة كان التردد يقتلني. أدهشني أني كنت أدلف المحل وقد اعتراني فرح غامر مشوب بشيء من القلق حينما أرى على واجهته ملصقًا يطلبون فيه فتيات للعمل، لكن ببساطة يسخر مني

صاحب المحل أو يسرِّحني بإشارة من يده دون كلمات ردًا على سؤالي، «حضراتكوا طالبين بنات للشغل؟» منهم من كان يتفرَّسني من رأسي حتى أخمص قدمي ثم يهز رأسه بالنفي بنوع من اللامبالاة وقد أشاح وجهه، منهم من كان يتعمد إيذائي بنبرة ساخرة قائلًا: «ما عندناش شغل يا حلوة»، شعرت بالإهانة والغصة في حلقي، وبالإذلال والاحتقار، بأن كرامتي في كل مرة يُطاح بها وتُسحق تحت الأقدام، سقطت دموعي وأنا أسير آسفة على نفسي وقد اعترتني نوبة حنين جارف إلى بلدتي وأهلي وأصدقائي، كرهت العالم وكفرت بكل المبادئ الجوفاء التي آمنت بها يومًا، سخرت وندمت حتى إنني وجّهت سبًا مقذعا لنفسي بنبرة مريرة غاضبة تفوح منها رائحة اليأس، وفي النهاية لعنت الحياة ونفسي وكل شيء.

مررت على مطعم جاد واشتريت سندوتش الفول الذي لم أتناول غيره منذ مجيئي إلى هنا كلما شعرت بالجوع، الفول مخلص يحترم رواده ولا يقسو عليهم، مهما وصلت بنا خيانته لا يحزن أو يتأفَّف منا، وحين عودتنا نجده في انتظارنا مبتسمًا ليملأ البطون الخاوية النهمة، وقفت مستسلمة للضوضاء التي شرعت تعلو في وسط البلد مع انقشاع النهار ومجيء الليل، لم أكن أدري كيف أتصرف! لا يوجد أمل بعد أن أغلقت في وجهي أبواب الوظيفة بعد ما حدث داخل الجامعة، لو أنني أستطيع سرقتها، لكن كيف؟! بلا شعور وجدت نفسي منساقة حتى وصلت إلى محطة المترو وأختلط بالزحام فسرى داخلي نوع من الطمأنينة، ركبت المترو دون أن أعرف اتجاهه، رأيت الشحاذين المنتشرين في جميع عرباته والبائعين الذين يبيعون بضاعتهم بما لا يزيد على خمسة جنيهات للسلعة الواحدة، تأملت الوجوه حولي بحذر وكأني أتلصَّص عليهم، رأيت الكدر والهم يعلوان ملامحهم، حتى الضحكات كانت مصطنعة يغلفها نوع من التوجس والترقب، الفتيات يختلفن كثيرًا عن بعضهن في طريقة الملبس والحديث، فروق يمكن أن تُلحظ بسهولة، المتظاهرات بالأرستقراطية، المائعات والمتأودات في طريقة حديثهن ومشيتهن، الصامتات واللاتي

تعكس عيونهن خوفًا وترقبًا دفينًا، ذوات العيون الجاحظة اللاتي يغرزن نظراتهن بمجرد إفلات نظرة واحدة تجاههن وكأنهن في انتظار معركة ما، هناك أيضًا الضاحكات لأسباب غير واضحة وتلك الفتيات اللواتي يضعن التليفون المحمول أسفل حجابهن ويتحدثن إلى فراغ لا يراه ولا يسمعه سواهن، مر وقت غير قصير فنظرت من وراء زجاج المترو حين توقف فقرأت اسم المحطة، «المطرية»، أخذت نفسًا عميقًا وقررت النزول لكن كان قراري متأخرًا فاستسلمت للقدر وبقيت داخل العربة حتى المحطة القادمة، كانت محطة عين شمس، كنت أول النازلين بخطى متخبطة خارج المترو، مشيت مع الحشد المندفع خارج المترو وأنا أفكر في مصيري المجهول حتى وصلت إلى خارج المحطة من الناحية الشرقية، وجدت سوقًا كبيرًا أمام المحطة، يبدو شعبيًا من شكله العام، بعد خطوات من تجاوزي السوق المزدحم وجدت شريط القطار، مررت من فوقه واسترسلت في المشي وأنا أفكر بأشياء عديدة، وصلت إلى شارع طويل عرفت فيما بعد أن اسمه شارع أحمد عصمت. شارع ضيق تصطف السيارات على جانبيه فلا يتسع إلا لمرور سيارة واحدة خلاله، مكتظ بالمحال على جانبيه وبالمارّة أيضًا، حاولت بقدر الإمكان التركيز حتى يتسنى لي البحث عن عمل، كنت محبطة بعد ما لقيته في وسط البلد من أصحاب المحال هناك، مهزومة، منكسرة الكرامة.. إصراري على إيجاد عمل لم يكن لمعالجة ذلك الجرح في كرامتي ولكن خوفًا من أن يُلحق بي أذى أكثر مما لحق بي حتى الآن، وجدت محلًا لملابس الأطفال على جانبي، تردّدت كثيرًا قبل دخوله، لكن ما قوّى عزيمتي بعض الشيء هو وجود عدة فتيات يعملن به. قد تكون الإناث رحيمات ببعضهن بعضًا في ظل ظروفي السيئة، دلفت المحل على استحياء فانتبهن لي ثم تقدمت نحوي إحداهن وهي تتقصّع في مشيتها ثم قالت بطريقة فاترة:

- محتاجة مساعدة في حاجة.. عندنا موديلات لسه جديدة..

تطلعت إليها شاعرة بالحرج، لم أقوَ على الحديث، كنت أخاف مجرد

التفوُّه بتلك الجملة التي آلمتني من قبل: «محتاجين موظفين؟!»، أكره سماع ذلك الرد المؤذي وكأني شحاذة تستعطف «الله يحنن»، سمعت هذا الجواب من قبل فحفر في كرامتي ألمًا عميقًا مهينًا. مع صوت الفتاة أمامي وسؤالها المعتاد لمحتُ سيدة أربعينية على قدر من الجمال تخرج من باب داخل المحل، ممتلئة بعض الشيء، شعرها مكشوف، لها عينان واسعتان وحادتان حددهما الكحل وتسلك أنفًا صغيرًا مدببًا وشفاهًا ممتلئة لوّنها الروج الفاقع الحمرة، تطلعت إليَّ بنظرة متفحِّصة، دنت مني حتى صارت في مواجهتي، أشارت للفتاة التي كانت تحادثني فغادرت على الفور:

- تؤمريني يا أستاذة.. محتاجة إيه؟!

كان صوتها عميقًا، هادئًا يبعث على الرهبة، حاولت نطق الكلمات بلهجة تملؤها الكرامة. وفكَّرت إني فتاة عادية تبحث عن عمل، الأمر عادي ولا يستحق كل هذا الخوف والتردد فقلت بنبرة متماسكة:

- محتاجة شغل.. يا ترى محتاجين موظفين؟!

ضحكت الفتيات خلفها وتهامسن في ما بينهن مما أثار حفيظتي فحدجتهن بنظرة استنكارية غاضبة، فالتفتت لهن السيدة ويبدو أنها حدجتهن بنظرة غاضبة فتوقفن على الفور عن الضحك، ثم نظرت إليَّ نظرة متفحِّصة وقالت بهدوء وهي تهم بالمغادرة:

- ما عندناش شغل.. ربنا يرزقك.

أصابتني الخيبة وتملكني الإحباط وثبطت عزيمتي، فاستدرت مهزومة وهممت بالانصراف لكن جاء صوت السيدة عميقًا وهي تقول:

- إنتِ محتاجة للشغل أوي، مش كده؟!

استدرت وقد تسلل لي الأمل حتى إنني لم أصدق أذنيَّ وكأن أحدهم أغرقني في مياه مثلجة بعد ما أشقاني العوم في لهب الجحيم، كأن الإضاءة تجلّت فجأة وانفرجت كآبة العتمة بعد أن ولت وزال غمها وغموضها المحدقان السقيمان، هززت رأسي على استحياء وبحرج واضح دون أن أتفوَّه بكلمة واحدة وقد علا وجهي إحساس بالحماس والأمل.

اقتربت مني السيدة ثم دارت حولي مرتين وهي تتفحصني بعناية ودقة

وكأني بضاعة معروضة للبيع، أحسست بالإهانة ولكني سرعان ما كذبت

الفكرة وفكرت بأنها طريقتها في اختيار العاملات لديها، قالت بهدوء وهي

تقف في مواجهتي:

- أنا عندي محل ملابس داخلية حريمي..

- ملابس داخلية؟!

فقالت إحدى الفتيات بميوعة:

- أيوه يا أختي ملابس داخلية.. يعني كلاسين والذي منه.

فارتفعت ضحكات الفتيات فنهرتهن السيدة فالتزمن الصمت

وراحت كل واحدة تهمز وتلمز، أخذت السيدة نفسًا عميقًا وكأنها تستعيد

هدوءها ثم قالت:

- هوَّ أنا مش محتاجة بنات تشتغل فيه.. بس أنا هخليكِ فيه المدة

دي لحد ما ألاقيلك شغل.. شكلك بتدوّري من زمان.

- آه بقالي مدة.

ساد صمت ثقيل لثوانٍ ثم قالت بهدوء:

- امشى دلوقتي وتعاليلي بكره تستلمي الشغل لحد ما ربنا يفرجها.

- حاضر.

ثم هممت بالانصراف ولكن فاجأني صوتها يقول:

- معاكِ بطاقة؟

توقفت في مكاني ثم قلت متلعثمة:

- آه طبعًا.. معايا بطاقة.

ثم مددت يدي داخل جيب سروالي وأعطيتها لها، نظرت إليها نظرة

متفحصة وقلبتها في يدها ثم ردتها لي وهي تقول:

- إنتِ من الشرقية؟

- أيوه.

لم تسألني أكثر من ذلك، ثم قالت بهدوء:

- أنا مدام نهى.. فرصة سعيدة يا ياسمين.

- متشكرة يا مدام.. أنا أسعد.

أومأت برأسها مبتسمة ابتسامة خفيفة فاستأذنتها وانصرفت، كنت سعيدة بشكل كبير وكأني حصدت وظيفة سفير في دولة مرموقة وليس مجرد بائعة في محل، شعرت بأن الله يظللني بكرمه ويمنحني إحسانه بعد شقاء وألم وتشريد، يمنحني العطاء بعد مرارة الحرمان والأمل بعد قهر اليأس وعنفوانه، مشيت وأنا أفكر في عملي الجديد الموقّت وحاولت وضع تصور لعالمي الجديد الذي سأعيشه لفترة مجهولة قادمة، انتابني هم وأنا في طريقي إلى الأوتيل، فكرت في عواقب الأمور، كيف سيكون حالي بعدما تبدَّل بي الحال من العز إلى الذل والمهانة؟! إلى أين ستأخذني الأقدار بعد ما صرت هاربة بلا مأوى؟! هل سأظل هكذا حتى يومي الأخير؟! أعيش وحيدة وأموت منبوذة من العالم بلا مكان يأوي جثتي ليترحم عليَّ شخص ما جمعتني به الأيام والذكريات؟! بكيت بشدة وأنا أسير تحت المطر المنهمر في الشارع. المطر أعطاني مساحة كبيرة وتغطية لكي أنتحب براحتي، وصلت غرفتي فرميت نفسي على السرير بملابسي المبتلة وسرعان ما ذهبت في نوم عميق.

في اليوم التالي ذهبت في الصباح إلى المحل في عين شمس كما طلبت مني مدام نهى. حاولت منذ استيقاظي ألّا أشغل نفسي بأي أفكار أو تكهنات أو افتراضات سوداء تفقدني شعاع الأمل الأخير الذي يبدو باهتًا حتى هذه اللحظة، لم تكن نفسي لتتحمل عبئًا جديدًا على كاهلها المكسور من الأساس، حين وصلت كان المحل مغلقًا، سألت أحد المارّة على الساعة فعرفت أنها الحادية عشرة صباحًا، سألت في أحد المحال المجاورة

عن سر تأخر فتح المحل فعرفت أنهم لا يفتحون إلا بعد الواحدة ظهرًا، أصابتني الخيبة وفكرت في العودة مرة ثانية إلى الأوتيل ولكن لم يبق سوى ساعتين والطريق ذهابًا وإيابًا داخل المترو سيكلفني ما لا يقل عن ساعة كاملة، ارتأيت البقاء في شارع أحمد عصمت أغدو فيه ذهابًا وإيابًا بلا هدف محدد، كل ما فعلته أني اشتريت سندوتش فول وتناولته لأني لم أتناول شيئًا منذ سندوتش أمس، المقولة التي تقول بأن الإنسان يفكر بشكل أكثر انتظامًا وهو يمشي مقولة صحيحة لكن التفكير بشكل صحيح في حالتي قد يودي بي إلى الاكتئاب واليأس، لقد اشتد شيء ما داخلي، بمعنى أدق مات شيء ما في داخلي، ربما الرحمة، فكرت في مغتصبي لأول مرة منذ الحادث، لم أعرف لمَ لم أجرؤ على التفكير فيه طوال هذا المدة المنصرمة! هل كان الخوف؟! هل كان مجرد التفكير فيه يقلّب داخلي موجة عاتية من القهر والسواد؟! أم كان مجرد تصوّره يرهبني إلى حد يُعجز تفكيري ويشله تمامًا؟! حقًا لا أدري! ولكن الشيء الأكيد أن لا أحد يود أبدًا تذكر من أوقع عليه الظلم والذل بالشكل الذي أوصلني إلى ما أنا عليه الآن، ذليلة، في قعر الهاوية، بل أبعد من ذلك بكثير. تذكرت رائحته وأنا أستند إلى إحدى السيارات المركونة أمام محل مدام نهى، شعرت بالغثيان وبأن ضربة شديدة هوت على رأسي المثقل بالهموم والذكريات النتنة المختلطة برائحة القرنفل، أغمضت عيني وأصابتني رجفة شديدة والمشاهد تتكرر تباعًا أمامي بشكل أكثر وضوحًا ودقة.. الآلام التي شعرت بها، إذلالي وتقييد يديّ وتكميم فمي، انفراج قدميّ رغمًا عني، صرخاتي المكتومة وأنيني المكبوت، انتفضت من مكاني فجأة وأمسكت بعصبية بيد وُضعت فوق كتفي وحدجت صاحبها بلا وعي بنظرة نارية.

- في إيه يا بنتي مالك؟! بتبصيلي كده ليه؟! اهدي..

كانت مدام نهى تنظر إليّ نظرة قلقة مشوبة بشيء من الخوف وهي تواجهني بعينيها الحادتين وتنطق كلماتها بتلعثم، أخذتُ وقتًا حتى أفلت يدها المعصورة في قبضة يدي، تحسست يدها وهي تقول بصوت متهدج:

- ما لك يا ياسمين؟! فيه حاجة حصلت؟! رعبتيني يا بنتي.. إيه القوة دي؟!

تأسفت لها عما بدر مني ولم أعلق على الموضوع بعد ذلك رغم نظراتها المتسائلة التي لم تتركني لحالي بسهولة، اصطحبتني معها سيرًا على الأقدام حتى وصلنا إلى محل قريب من محل ملابس الأطفال، كان في انتظارنا رجل ضخم البنية يعرج بقدمه اليسرى قليلًا، مهلهل الملابس ويبدو متبلدًا على نحو ما، فتح قفل الباب الصاج الذي يغلق المحل وأزاحه لأعلى ثم فتح الباب الزجاجي للمحل مستخدمًا سلسلة مفاتيح يحتفظ بها، كان هناك العديد من قمصان النوم وغيرها من الملابس الداخلية للنساء معروضة في الفاترينة، ولجت المحل بتردد في صحبة مدام نهى بعد ما أمرت المدعو فهمي بطريقة فظة تفتقر إلى الإنسانية بإحضار إفطار لها بعد أن سألتني إن كنت تناولت إفطاري وأجبتها بالإيجاب، فهمي هو اسم الرجل الضخم الذي كان بصحبتنا والذي فهمت فيما بعد بأنه ليس أكثر من خادم يأتمر لأوامر سيدته، فقد التقط الأوامر ككلب صيد مدرب وانطلق في طريقه بينما جلست مدام نهى في ركن المحل خلف مكتب خشبي صغير ثم فتحت أحد الأدراج وأخرجت منه بضع أوراق، نظرت إليها سريعًا ثم أتت بإحداها ووقفت أمامي مبتسمة ابتسامة بدت غريبة بشكل ما، ثم قالت وهي تشرح لي بهدوء:

- الورقة دي زي ما إنتِ شايفة متسطرة وجاهزة.. هنا هتكتبي اسم الحاجة اللي بعتيها وجنبها السعر اللي بعتي بيه وفي ضهر الورقة هتلاقي مكتوب التمن الأصلي لكل حتة في المحل.. وإنتِ وشطارتك هتبيعي بكام.. هتيجي دلوقتي بنت واحدة تقعد معاكِ اسمها شهيرة لأن البنت التانية تعبانة ومش جاية النهارده.. أنا كلمتها عنك واتفقت معاها تعلمك كل حاجة.. اللي فهمته من بطاقتك إنك كنتِ بتشتغلي في شركة مقاولات يعني بتفهمي في التجارة والموضوع بالنسبالك هيبقى سهل.. وعلى كل حال إنتِ

مش هطوّلي هنا.. ومش هسألك على حاجة.. لما تحبي تحكي هتلاقيني بسمعك ولو احتجتي أي حاجة قوليلي.. خدي الـ 200 جنيه دول لحد ما ربنا يفرجها.

ثم مدت يدها ووضعت الـ 200 جنيه في جيب سروالي، ورغم رفضي الظاهر لها إلا أنني خفت رد يدها، ربما اعتبرت ذلك وقاحة مني، لم أكن أدري حقًا من أين تسلل لي ذلك الخوف وجعلني أحسب بطريقة سلبية كل أفعالي؟! ولكني برَّرت الموقف الأخير بأن تلك النقود سوف تخصم من راتبي الأول، ربما شعرت مدام نهى بحالتي ولا تود إحراجي وقد كان ذلك واضحًا في حديثها حينما أخبرتني عن جاهزيتها لسماعي إن عزمت على ذلك، كما أنها بدت ذكية ولمَّاحة لكونها تكهَّنت بأن حدثًا كارثيًا أدى بي إلى الهرب من الشرقية إلى القاهرة رغم أن الموضوع لا يحتاج إلى كل هذا الذكاء.

جلست في المحل وأنا أنظر حولي إلى الملابس الداخلية، شعرت بالخجل بعض الشيء وأنا أتفحّص البضاعة وفي النهاية كرهت كل تلك الملابس والمتعلقات النسائية ونفرت منها تمامًا، شعرت بأن كوني أنثى سبب كاف لملاقاة أفظع وأسوأ أنواع الإهانة والإذلال. كنت غارقة في تصوراتي حين دخلت عليَّ فتاة جميلة ترتدي تنورة سوداء فوق الركبة تكشف عن ساقيها الجميلتين وبلوزة صفراء فوقها جاكت أسود مصنوع من الجلد وتضع ماكياجًا صارخًا في هذا الوقت من النهار، لها عينان سوداوين واسعتان وجسد ممشوق لا تشوبه شائبة، فارعة الطول، كما توجد شامة على وجنتها اليمنى تزيد جمالها. اقتربت مني مبتسمة وهي تقول:

- إنتِ البنت الجديدة ياسمين.. صح؟!

رغم أن كلمة بنت بهذه الطريقة قد تعتبرها بعض الفتيات إهانة ولكنها قالتها بلهجة صادقة ليس فيها أي نوع من التحقير، فأومأت برأسي بالإيجاب، ثم قلت:

- وإنتِ شهيرة.. صح؟!

- بالظبط.. أنا شهيرة الشهيرة.

وضحكت ضحكة ماجنة مجلجلة أراهن أن نصف الشارع سمعها، ثم اقتربت مني وهي تهمس وكأنها تفشي سرًّا:

- كلام في سرك أنا مشهورة أوي، كل شباب المنطقة تعرفني.. أصل مدوخة أمهم بس محدش يقدر يهوبلي وإلا كنت مسحت بكرامة أمه الأرض.

في هذه الأثناء اقتحم المحل فهمي وهو يعرج قليلًا فانتفضت شهيرة في مكانها وهي تتفتف بشكل ظاهر لتعلن عن جزعها ثم خبطت على صدرها وقالت بتأفف:

- في إيه يا عم فهمي! داخل خرابة؟ ما تتنحنح يا راجل قبل ما تدخل.

لم يعلق فهمي على كلامها وظل واقفًا لبرهة ينظر لها كطفل تائه وهو يحمل في يده كيسًا صغيرًا ثم قال بصوت متهدج:

- الحاجة نهى فين؟

- الحاجة؟!

ثم زمت شفتيها وحركتهما يمينًا ويسارًا بسرعة بطريقة معروفة وهي تقول:

- الحاجة يا عينيا راحت المحل التاني.. روح الحقها وبعد كده ابقى كح قبل ما تدخل ليكون حد كاشف رأسه ولا حاجة.

أطرق فهمي إلى الأرض وتململ في مكانه ثم جر نفسه جرًّا خارج المحل، تابعناه بأعيننا حتى اختفى عن ناظرَينا تمامًا فمصمصت شهيرة بشفتيها ثم قالت:

- آدي آخرة اللي يجري ورا النسوان.. أعرج واللي يسوى واللي ما يسواش بيتحكم فيه.

نظرت لها بعينين متسائلتين فاقتربت مني بعد أن نظرت حولها متفحصة وكأنها تخشى أن يسمعها أحد، وبعد أن اطمأنت همست قائلة:

- فهمي ده كان أجدع شنبات تقوم تقف له احترام أول ما تشوفه، بس مشي في الطريق البطال والنسوان أكلت دماغه.. كان صاحب محلات أد الدنيا.. قابل مدام نهى وحبها لحد ما بيّعته اللي وراه واللي أدامه وفي الآخر زي ما إنتِ شايفة.. بقى خدام عندها.

نظرت لها مصدومة فقالت وهي تعطيني ظهرها:

- النسوان دي والله ما يقدر على قدرتها إلا ربنا.
- بس مدام نهى شكلها طيبة!

أصدرت شهيرة ضحكة رقيعة ثم تقصّعت وقالت بسخرية:

- إنتِ اللي طيبة يا أختي والنبي وشكلك غلبانة.. تعالي تعالي لما أعلّمك الشغل ماشي إزاي.

كانت شهيرة شخصية مرحة، ورغم آلامي وما أمرّ به من كآبة ومصير مجهول، إلا أنها كانت تدفعني للضحك، لا يعنيها أو يهمّها شيء في هذه الحياة سوى لقاء الرجل المنشود الذي يستطيع أن ينتشلها من الذل والعمل لدى الآخرين، ذلك الأمر الأخير الذي يجعلها تحتك بكل من هَبّ ودَبّ ويُعرّضها للطامعين وذوي النيّات الفجة المقزّزة. تؤمن إيمانًا راسخًا أن العريس المناسب هو الحل الوحيد لتستريح بعد عناء طويل.. عرفت خلال اليومين اللاحقين من العمل معها أنها تعول أسرة كاملة مكوّنة من ثلاث أخوات يصغرنها وأم مريضة مُقعَدة لكنها لم تستسلم يومًا لمغريات الحياة والعروض التي انهالت عليها كي تسير في طريق الشيطان حتى تنعم في المقابل بحياة هانئة وتنقذ عائلتها، أبت أن تكون جارية لأحدهم ولم تُذعن للزن المتواصل على أذنيها حتى تنساق خلف حياة نهايتها كارثية بكل تأكيد. وكما يقولون في الأمثال «الزن على الودان أمرّ من السحر»، شهيرة في مثل عمري تقريبًا لم تتلقَّ سوى تعليمًا متوسطًا حيث تركت

التعليم بمجرد إنهاء الثانوية التجارية، تعمل منذ سنوات طويلة، انتقلت من العمل في البيوتٍ إلى عاملة في المصانع حتى وصلت إلى عاملة في المحلات بعد أن سخّرت جميع إمكاناتها في عملها كي تحظى بالقبول، ورغم ذلك لم تتهاون للحظة في رد كل من تسوِّل له نفسه المساس بها، سليطة اللسان، بجحة، قارحة في أحيان كثيرة ولا يهمها أو يستطيع ردعها أحد إن غضبت، تملك من الكبرياء ما لا تملكه الكثيرات في ظروف أفضل منها بكثير، لمست فيها الأصالة والرصانة وعزة النفس، أعجبتني شخصيتها وارتحت لها رغم أنها على نقيضي تمامًا، ربما قوّتني ظروفها الصعبة وجعلتني أنظر للحياة بمنظور يتسلل منه وميض ضوء أحتاج إليه كثيرًا في وقت انعدمت فيه كل مصادر النور.

****

أغلقت المسجِّل الصغير وخطوت ثلاث خطوات باتجاه رهينتي ونظرت في عينيه المتواريتين خلف ذلك الشال وفككته بهدوء، أخذ وقتًا طويلًا حتى استعاد قدرته على الرؤية، أيقنت بأن هدوئه الغريب على مر اليومين المنصرمين جعله يتفاعل معي على نحو ما، لم يتناول شيئًا منذ يومين، نظر إليَّ نظرة اختلطت فيها الشفقة بالتساؤل والغضب أيضًا، لمحت في عينيه غدرًا ولكن الأصفاد الحديدية كافية لأن تكبله وتبقيه في مكانه كما هو حتى اليوم الموعود، اليوم المنتظر والأخير، انقضى اليوم الثاني وها أنذا مهددة تمامًا بالعيش خارج إطار الحياة نفسها، أمسكت علبة تونة وفتحتها ثم وضعت أصابعي بها وحشرت بعضًا من لحم التونة بينها ثم مددتها تجاه فمه، نظر لي نظرة طويلة لم أفهمها ثم ببطء وقلق فتح فمه، تناولها بنهم وهو يتطلع إليّ بنظرة مشبعة بالإرهاق والخوف. لم ينطق بكلمة واحدة لكنه قال في النهاية قبل أن أعيد الكمامة على فمه:

- أنا ماعملتش حاجة.

استشاط الغضب داخلي وأحكمت الكمامة على فمه ثم صفعته، فلم يصدر حتى أنينًا أو اعتراضًا فابتسمت.

حروب بيت الكتب

عصام الرشيدي

كانت كف يدي التي تقبض على سلاحي محاطة بالشاش، أستطيع أن أشم رائحة البنج النفاذة تفوح منها أينما ذهبت ومهما وضعت من معطرات وروائح عليها وعلى جسدي على أمل ألا تثيرني، ذكرتني بإحساسي برائحة القرنفل البغيضة، بأيام غيرت كل شيء، ولم لا أتغيَّر وقد تغيَّر مع الثورة كل شيء؟! كنت أقف فوق إحدى البنايات القريبة من ميدان التحرير أراقب المؤمنين بالثورة يحتفلون بالذكرى الثانية لثورتهم المجيدة، تلوح على وجوههم الآمال والأمنيات البعيدة بالبناء وعيش الحياة بشرف وكرامة، يحلمون بذلك البلد العائد من سقوطه في الوحل المندثر بالتراب والوحل واقفًا على قدميه ينفض عن نفسه دناسته ووساخته التي أصيب بها رغمًا عنه على مر المرحلة السابقة، رأيت أيضًا في أشخاص بينهم ابتسامات خبيثة ونظرات نافذة يدفعها الشر والضغينة، بينما آخرون ابتساماتهم مكسورة لسبب ما، فرحتهم ناقصة بشكل واضح للعيان، شيء ما يختلج في صدورهم ولكنهم يقاومونه بتلك الابتسامة الهادئة والإيماءات الخفيفة الغامضة، ينبذونه بالصمت والصيحات فاقدة الروح، لم يكن يهمني كل ذلك ولم تأتِ تأملاتي إلا لغرض واحد.

ذلك البحث المضني الخفي عن الملثّمين الجبناء الذين اغتصبوا حياتي ثم أردوها في غمضة عين، كنا نقف فوق مبنى قريب من ميدان التحرير نرتدي زيًا مدنيًا بعد أن صار من الصعب أن يسير من يرتدي الميري ببساطة وسط المتظاهرين، وبعد أن اعتقد البعض أن الشرطة

انكسرت شوكتها. رغم ذلك لا أستطيع أن أنكر أن كل شيء ضائع داخل وزارتنا، العديد من المشاكل بيننا وبين الشعب بعد ترويج مغرض وممنهج لشائعات حالت دون رجوعنا مرة أخرى إلى مهامنا بسهولة، أدرك العقلاء بأن فئة بعينها تسعى إلى تزويد تلك الفجوة حتى نظل هكذا في عالم تحكمه الفوضى وتسن قوانينه المبادئ الجوفاء المزيفة التي تخفي خلفها أهدافًا محدقة بأمن وطننا الغالي.

أزعجني بشدة وجود أفراد الجيش في مواجهة الشعب وتكليفه بحماية المنشآت الحيوية في البلد مثل ميدان التحرير والبنوك والمتاحف وغيرها من الأماكن الحيوية. كما كان إغلاق بعض الشوارع أمرًا يشبه على نحو ما أيام الاحتلال كما رأيتها في الأفلام وقرأت عنها في الروايات المحفوظية، حينما أرى المشهد كاملًا أظن أننا في حالة حرب وقد أعلن الجيش حالة الطوارئ، لم أكن أدري ولا أتكهّن بما يحدث خلف الستار وما يتم الإعداد والترتيب له في هذه اللحظة في الكواليس، ولم أعِرْ الأمر انتباهًا ولا تفكيرًا على الإطلاق لأني في الحقيقة كنت غارقًا في غيبوبة رغم محاولات إقناع نفسي بأن ما أعيشه الآن هو عالمي الجديد.

نقلت بصري بين كف يدي وزاهر الذي كان يتحدث في هاتفه وتذكرت تلك الليلة التي قضيناها في تدخين الحشيش، تذكرت ما حدث في شقتي، لقد صحوت وقد تملكني الصداع، حاولت تذكر متى نمت أو ماذا حدث ولكن بلا طائل، دخلت إلى الحمام وأنا أعصر ذاكرتي كي تمدني ولو بتفصيلة واحدة تقودني إلى تلك المساحة المنسية وحينما رأيت وجهي في المرآة تأملتني لبرهة وسرعان ما شعرت بغضب ينمو في داخلي بلا سابق إنذار، شيء ثقيل وشعور بالانتقام اختلج في صدري وصار ينمو حتى وصل حد أنه تحكم فيَّ تمامًا فأفقدني أعصابي وصرت أضرب كل ما تصل إليه يدي، الكراسي في الصالة وزجاج المرايا المنتشرة هنا وهناك، قلبت وكسرت كل ما طالته يدي في الشقة تقريبًا وأنا أصيح غاضبًا ناقمًا على كل شيء، لم أدرِ ماذا حدث بعد ثورتي لكني أتذكر وبوضوح زاهر

وهو يقف بجواري والحزن يخيم عليه كالضباب في الأفق بينما الطبيب يقوم بعلاج يدي النازفة بلا توقف.

نظرت إلى زاهر طويلًا وهو ابتسم لي وأومأ برأسه، ثم نقلت بصري إلى ميدان التحرير وقد داخلني شعور ثقيل بالحزن مع صيحات الثوار بشعارات النصر والتغيير والأمل.

****

وقفت في مواجهة مراد السيوفي الذي تأملني بنظرة متفحصة طويلة من رأسي حتى أخمص قدميّ وأنا أجلس في مكتبي، حيَّيته وطلبت له القهوة، تأهبت للمناقشة وكنت متحفزًا بشكل غامض إذ كنت أشعر بغضب دفين يستيقظ من مكمنه، لم يسأل الرجل عن ما أصابني واكتفى بأمنية صادقة بأن أسترد عافيتي في أقرب وقت، لم يكن يرتدي بزته الرسمية بل كان يرتدي بنطلونًا أسود وقميصًا رماديًا فبدا أصغر من عمره بسنوات رغم الكدر على ملامحه الذي يحاول إخفاءه، سألته على استحياء عن سارة فأخبرني أن أمورها جيدة وترسل إليَّ السلام ولكني كنت أعلم أنه كاذب.

- أنت عارف إن الانتخابات الرئاسية هتتعمل الأول؟

- أيوه يا مراد بيه عارف.. زمايلي بيقولوا الكلام ده وعرفت كمان إنه هيتعلن عن الكلام ده رسميًا قريبًا.

- البلد على كف عفريت يا عصام ولازم نكثف جهودنا الفترة دي بهدوء من غير ما حد يحس بينا.. الانفلات الأمني بدأ يتراجع بس للأسف تراجع مش ملحوظ لأن الجيش هو اللي مسؤول دلوقتي عن البلد وإحنا وجودنا من الأساس مرفوض، لكن الخطة دلوقتي إننا نرجع تدريجيًا لحد ما تبان ملامح الفترة اللي جاية.

رشف رشفة أخيرة من القهوة وعاد بظهره ليستند على الكرسي ثم نظر إليَّ نظرة اختلط فيها الفضول بالأسى، كنت أرى كلامًا كثيرًا في عينيه ولكني كنت أدرك بأنه يرتب أفكاره لينتقي كلماته، تحفزت وتأهبت للمعركة.

قال بعد تردد طويل:

- عصام.. أنت ابني.. واثق من ده صح؟!

أومأت برأسي دون أن أجيب، أخذ نفسا عميقا، وبعدما أشعل سيجارة قال:

- أنا وصيت على نقلك لإدارة الآداب.. يعني الشغل هناك خفيف وأنت محتاج تريح أعصابك الفترة دي.

نظرت له وقد علا وجهي تعبير يوحي بعدم الفهم حيث لم أعِ تحديدًا ما يقوله، لم أكن متأهبًا لهذا النوع من النقاش على الإطلاق، لقد رسمت في خيالي بأنه سيخوض مناقشة أخرى تتعلق بسارة وبزواجي منها، اعتقدت بأنه سيطلب مني أن أفك وثاقها وأمنحها حريتها بالطلاق حيث صارت الحياة مستحيلة بيننا. وقفت في مكاني ونظرت له وقد اعتراني إحساس ثائر غاضب لا مبرر له سوى أنني مثقل بهم لا أستطيع الإمساك به أو التخلص منه، شعور ناتج عن الخيبة التي لحقت بي من كلمات مراد السيوفي وكأنه جاء إلى هنا لكي يستفزني ببرود مقصود، ليقلها مباشرة إن أراد، بأن أترك سارة والداخلية والحياة إن شاء ولكن بشًا له، يتركني لأفكاري وهواجسي الثقيلة، ألا يدري بأني في حاجة ماسة لوضع خيوط جديدة أستطيع من خلالها إيجاد الحياة على الأقل؟! إن كان يريد خلاصًا له ولابنته فليطلبه حتى أنتهي من عذاباتي وأرقي الدائم! فوجدتني أقول بحدة:

- لا يا مراد بيه.. لو بتحبني بجد بلاش تنقلني من هنا.. أنا مبسوط هنا وبالنسبة لالتزاماتي فأنا مش هقصر بأي شكل.

كبحت جماح غضبي بصعوبة بالغة ورغم ذلك بان عليَّ التوتر والانفعال، فنهض مراد السيوفي من مكانه ثم نظر لي نظرة طويلة انتهت بابتسامة رقيقة كتلك التي يتسمها الأب حينما يثور ابنه الأصغر، طبطب عليَّ وانصرف ولكنه قبل أن يختفي توقف ثم قال وما زالت الابتسامة على وجهه:

- ابقى اسأل عن سارة يا عصام..

ظلت عيناي معلقتين بالباب بعد مغادرته لمدة غير قصيرة وقد غبت داخل حلم يقظة، استفقت على أحدهم يناديني بحرارة وقد شد على يدي وهو يقول:

- حمدا لله على السلامة يا كابتن عصام.. حاولت أوصلك أكثر من مرة لكن للأسف الموضوع كان صعب.. البقاء لله وربنا يصبرك ويعوّض عليك.

تنبهت ببطء لما يدور وحاولت بصعوبة استرجاع وجودي الضائع، ابتسمت ابتسامة مبتورة محاولًا التمسك بالواقع والخروج من هوة الغضب التي سقطتُ فيها، أشرف يونس رجل المقاولات والمهندس المعروف وصديق والدي يقف في مواجهتي، لقد أخبرني والدي ذات مرة بأنه المقاول الذي بنى العمارة التي ترعرت فيها ومنذ ذلك الحين نمت بينهما صداقة فتعرَّفت إليه وعلى عائلته التي اتخذت منها في تلك الفترة القديمة أمجد ابنه الأكبر صديقا لي ولكن انقطعت علاقتنا منذ فترة طويلة، هو رجل عصاميّ مكافح، في خمسينات العمر ولكنه يبدو أكبر من ذلك، أصلع، تنتشر بعض الشعيرات القليلة في رأسه، ذو أنف أفطس وعينين صغيرتين ماكرتَيْن، تحمل ملامحه كدرًا وهمًّا غريبين لا يفارقانه وغموضًا على نحو ما، محدودب الظهر لكنه ذو صحة جيدة، له جبهة عريضة وشفتان ممتلئتان يحيطهما شارب كث تمت تسويته بعناية فائقة، يضفي عليه صوته الجهوري العميق وملبسه الذي ينقل صورة حية من الخمسينات والستينات هيئة تقذف الرهبة في نفس كل من يراه.

قليلًا ما رأيته يبتسم، يزوروني من وقت لآخر كما أنني زرته بخصوص أعماله في وقت سابق بسبب بلاغ عن تعدّيه على أراضي تابعة للدولة وتم تغريمه وهدم ما بناه عليها أيضًا، ولكنه قدم لي ما يثبت أن الأمر برمته محض افتراء وأنه بالفعل المالك الحقيقي للأرض. ورغم تقديمه للأوراق

الثبوتية إلا أن الدولة أصرت على أن ما يحدث مجرد تزوير وتلاعب بالحقائق واكتشفت فيما بعد أن هناك رجلًا صاحب نفوذ قوي ينافسه وراء كل ما يحدث، ساعدته في هذه الفترة ومن خلال علاقاتي المتشعبة داخل الداخلية ومعرفتي ببعض القضاة استطعنا أن نخرج من تلك المشكلة بخسائر مالية قليلة، لا تقارن بما كان سيتكبده إن صحت الدعاوي المقدمة ضده.

رحّبت به على قدر ما سمح لي مزاجي السيئ ودعوته إلى فنجان قهوة واستجاب الرجل فورًا دون مناقشة فتكهنت أنه أتى خصيصًا لأمر لا يقل في أهميته عن نقل هيكل سليْمان من مكانه التاريخي الغامض، لاحظت بأن هناك كلمات تقف على طرف لسانه يود لو ينطق بها، كان محرجًا على نحو ما فبدا شكله غريبًا للغاية حيث بدا لي كوحش يتودَّد إلى حسناء ولكنه يتعثر في إيجاد الكلمات المناسبة.

- والله يا عصام باشا البلد باظت بعد الثورة الزفت اللي قام بيها شوية عيال مش فاهمين أي حاجة وهيجرجرونا وراهم للوحل.. مش فاهم ثورة إيه دي اللي تخلي البلد من غير ظابط ولا رابط ولا حكومة؟! وما فيش حاجة عاجبة حد.. العيال الصغيرة دي مش فاهمة إنها لعبة من أمريكا علْشان تدمر البلاد العربية وأنت شايف بنفسك من أيام العراق وصدام الله يرحمه والمنطقة العربية كلها في تراجع.. ربنا يستر في الأيام اللي الجاية ويعديها على خير.

تململت في مكاني وهرشت أذني حيث لم يكن يعنيني كل ذلك الحوار، لا أعتقد أنه جاء هنا لتعزيتي فقط ولم يأتِ أيضًا لتقديم تحليل سياسي أنا في غنى عنه ولكن أستطيع أن أستشف بأن خسائر الثورة تدق بابه، رغم أن أشرف يونس لم يكن رجلًا يستغل المعارف لتحقيق أهدافه ومصالحه إلا أنني شعرت بأنه يواجه أزمة حقيقية، أومأت برأسي دون أن أعلق على كلماته فلمست فيه الحرج حيث ساد الصمت، أعاد عليّ

كلمات العزاء مرة أخرى وهو ينظر لي متفحصًا ثم تململ في مكانه ونهض ليستأذن في الانصراف ولكن قبل مغادرته قلت:

- أشرف بيه.. فيه مشكلة عندك؟

بان عليه الحرج ثم أطرق برأسه قليلًا وكأنه يفكر ثم قال:

- لا ما فيش حاجة.. أنا كنت بطمن عليك بس.

فسارعت قائلًا:

- يا أشرف بيه قول.. أنا زي ابنك وأبويا الله يرحمه كان بيحبك وبيعتبرك صديق من أصدقاء عمره.

- الله يرحم والدك كان راجل بجد وأنت طالعله يا كابتن عصام.. خلينا نتكلم وقت تاني.. مش ده الوقت المناسب لأي كلام في شغل.

ابتسمت وتكهنت من لهجته المحترمة بأنه يقاسي أمرًا ما، فطلبت منه أن يجلس مرة أخرى فاستجاب الرجل وقد بانت عليه الراحة:

- والله أنا مكسوف منك وبقالي مدة بعاني الأمرين.. عندي مجمع من 10 عماير، كل عمارة 30 شقة.. لما قامت الثورة كل اللي نفسه في حاجة يعملها عملها لأن الناس عارفة إن ما فيش حكومة والبلد بايظة زي ما أنت عارف.. للأسف هجم البلطجية على المجمع واحتلوه وبيسكنوا أهاليهم وأصحابهم وبيبيعوا الباقي عيني عينك وكأنه مال أبوهم وطبعًا أنت عارف أنا شغلتي أبني مش أحارب ناس مش شبهي، حاولت أتفاوض معاهم بكل الطرق لكن أنت هتتكلم مع مين؟! شوية جعانين وحرامية وولاد شوارع.. ما بقتش عارف أعمل إيه وما فيش حد يساعدني طبعًا وسط الحال اللي ميئوس منه في البلد دي.. عايزك بس تدلني أعمل إيه لأني بمر بأزمة مالية ومحتاج فعلا لحل وسامحني يا كابتن عصام لو كنت بدوشك في وقت أنت محتاج فيه للراحة والهدوء.

ابتسمت ثم لاحت على وجهي ملامح جادة وأطرقت مفكرًا، عدت للوراء ثم قلت بخيبة أمل:

- للأسف ما فيش أي حد هايقدر يعملك أي حاجة دلوقتي وحتى لو اتجهت للمحاكم وحكمتلك مين اللي هينفّذ والجهة التنفيذية مشلولة تمامًا.. إحنا أي تصرف بيصدر مننا دلوقتي بيتم تحويره على إننا شوية مرتزقة.. ياريت كان بإيديا يا أشرف بيه.. والله ما أتأخر عنك.

بدت على وجه الرجل الخيبة وأطرق برأسه بعد أن غامت عيناه في مكان غامض تحت وطأة التفكير، لكنه رفع رأسه حينما قلت:

- بس فيه حل تاني.

لمعت عيناه الماكرتان فبدا مخيفًا، فقلت بهدوء:

- البلطجة تحاربها بالبلطجة.

رمش بعينيه محاولًا فهم ما قلته للتو ثم قال مستفسرًا بتعجب:

- يعني إيه؟!

- يعني تشوف شوية بلطجية تدفعلهم فلوس يخرّجولك الناس دي من البنايات وإلا تستعوض ربنا فيها لأن لما البلد تستقر هاتكون الناس اللي أخدت الشقق دي استحكمت وبقى أمر واقع وساعتها المحكمة هتقولك ويبقى الوضع على ما هو عليه وأنت بس اللي خسران في الليلة دي.

- بس؟!

- ما فيش بس يا أشرف بيه.. يا تعمل كده يا تستعوض ربنا في فلوسك وتعبك.

- طيب أنا هجيب بلطجية منين؟!

أطلقت ضحكة مجلجلة ثم قلت وأنا أحاول السيطرة على نفسي:

- يا باشا.. دي البلد كلها بلطجية.

ابتسم أشرف وهزّ رأسه موافقًا ثم قال بعد تفكير:

- طيب ما فيش سكة؟!

نظرت له نظرة متشككة وقد فهمت مقصده فناديت على زاهر فدلف سريعًا إلى الغرفة قائلًا:

- أمرك يا عصام باشا.

- هتروح مع أشرف بيه وهو هايفهّمك محتاج إيه.. نفّذ كل اللي يعوزه وقبل ما تتحرك عرفني علشان أفهمك تعمل إيه.

- أمرك يا باشا.. اتفضل يا أشرف باشا.

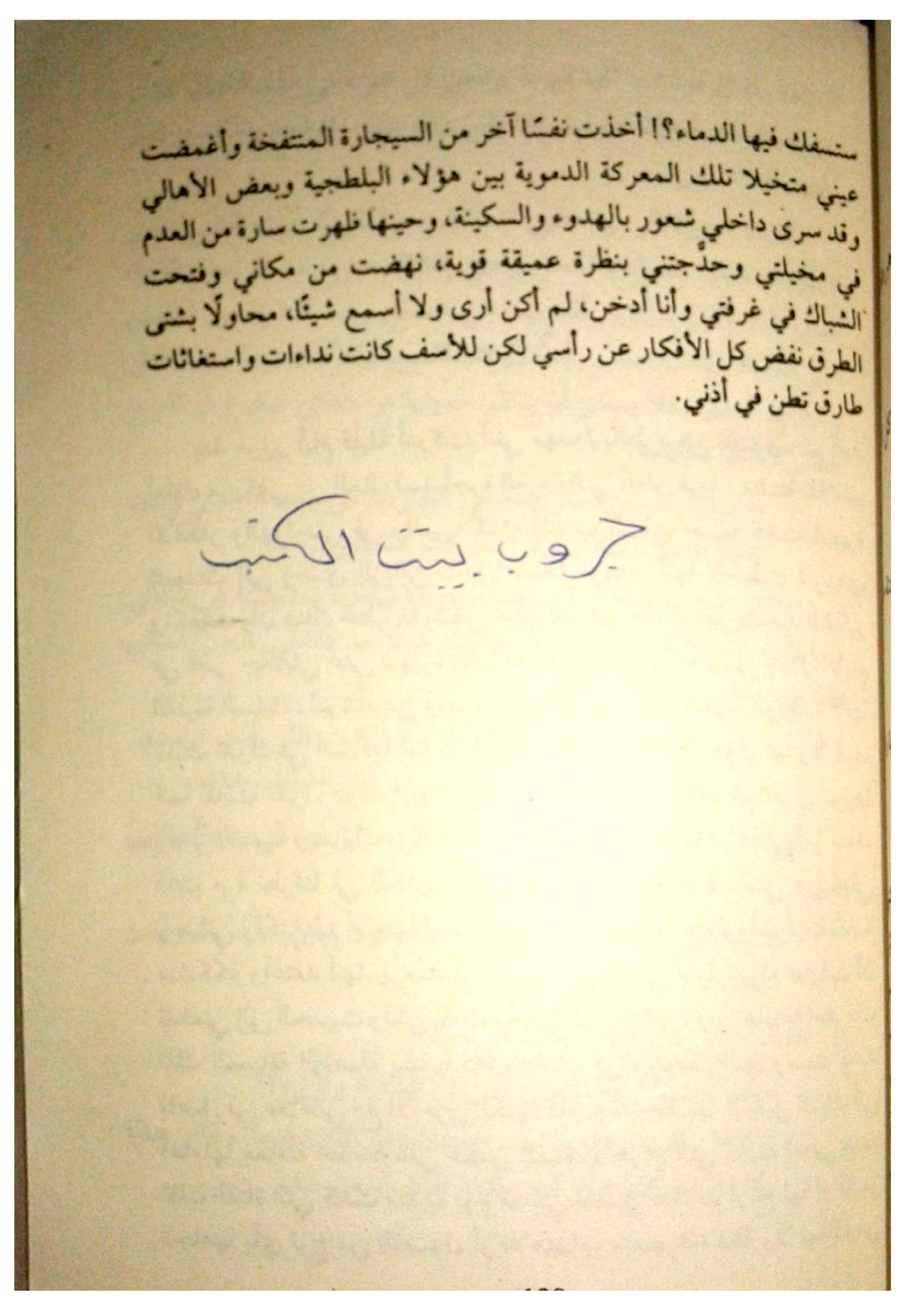
نهض أشرف يونس من مكانه مبتسمًا وقد ارتسمت ابتسامة هادئة على ملامحه الحادة وهو يقول بود:

- مش عارف أشكرك إزاي!

- ولا تشكرني ولا حاجة.. إن شاء الله ربنا هايحلها.. معاه يا زاهر ما تسيبوش.

- أمرك يا عصام باشا.

غادر أشرف يونس ومعه زاهر، استلقيت على الأريكة في مكتبي، كانت هناك سيجارة حشيش ما زالت في انتظاري داخل علبة سجائري لفها لي زاهر صباحا، أشعلتها بهدوء بعد ما أغلقت المكتب على نفسي وأمرت أفراد الأمن بألا يسمحوا بإدخال أي شخص أيًا كان، أخذت النفس الأول منها وأنا أستعيد ما دار بيني وبين أشرف يونس مفكرًا، لم أستعن يومًا بالبلطجية في عملي، لم يكن لهم أبدًا دور معي، بعضهم يعملون كمرشدين لي حتى أستطيع إحكام قبضتي على المنطقة التابعة لسلطتي، لكن لا شيء أكثر من ذلك، لا أعرف لم بدرت مني تلك الفكرة الرهيبة؟! ما السبب الذي جعلني أفكر بهذه الطريقة وأقترح ببساطة حربًا بالتأكيد



سنسفك فيها الدماء؟! أخذت نفسًا آخر من السيجارة المنتفخة وأغمضت عيني متخيلا تلك المعركة الدموية بين هؤلاء البلطجية وبعض الأهالي وقد سرى داخلي شعور بالهدوء والسكينة، وحينها ظهرت سارة من العدم في مخيلتي وحدّجتني بنظرة عميقة قوية، نهضت من مكاني وفتحت الشباك في غرفتي وأنا أدخن، لم أكن أرى ولا أسمع شيئًا، محاولًا بشتى الطرق نفض كل الأفكار عن رأسي لكن للأسف كانت نداءات واستغاثات طارق تطن في أذني.

الفصل 12

بعد مرور أيام قليلة أدركت أنني مهددة بالطرد من الفندق، لم أعد أملك ما يكفي من المال لسد أجرة الغرفة التي أقطن فيها.. مشتتة تتلاطم الأفكار والهواجس في رأسي، كنت أشرب الشاي حينما كانت شهيرة تتحدث إلى إحدى الزبائن داخل المحل ويبدو أنها لاحظت شرودي وتكهَّنت بأن هناك خطبًا ما يشغل تفكيري، لم أحاول حتى مجرد التفكير في قص حكايتي على شهيرة رغم ما أظهرته من مودة ونبل خلال الأيام القليلة السابقة، لم تتأذ من وجودي كما يفعل زملاء المهنة الواحدة لأنها كانت تدرك في أعماقها أننا لسنا سوى طبقة كادحة لا حول لها ولا قوة، كما كانت تقول دومًا «إيه اللي حدفك على المر؟»، ثم تلوي بوزها وتحرِّكه يمينًا ويسارًا بحركة معروفة كعادتها دائمًا وتقول: «اللي أمرّ منه»، ذات مرة تطرقنا في الحديث عن الأهل والأصدقاء فسألتني عن أهلي وحياتي ولكني لم أمنحها إجابة شافية حتى إنها نظرت لي نظرة متفحصة متشككة وأعتقد أنها جزمت في نفسها بأني أخفي سرا كبيرا، حاولت أن تدفعني إلى الحديث ولكن باءت محاولاتها بالفشل، وسرعان ما احترمت تلك المسافة الفاصلة بيننا بذكاء وعادت وراء الخط الذي رسمته كحد فاصل في علاقاتي مع الآخرين لكنها كانت تلاحظ بما لا يقبل الشك أني أعاملها معاملة خاصة على عكس الفتاة الأخرى التي كانت تدعى هند، تلك الفتاة التي كانت متغيبة يوم مجيئي للعمل هنا، لم أرتَح لها أو أشعر تجاهها بأي نوع من الفضول أو الاهتمام، متعجرفة، فظة ولا تملك من

القناعة مثقال ذرة كما أنها قبيحة وتلعن كل شيء في هذه الحياة، كانت شهيرة تتصدى لها إن حاولت مضايقتي وسرعان ما تتراجع وتنكمش كفأر يطارده قط شرس.

كانت شهيرة الوحيدة التي أتحدَّث معها تقريبًا حيث أقضي يومي كاملًا بصحبتها منذ فتح المحل وحتى إغلاقه حتى وقت الراحة والغداء الذي لا يتجاوز ساعتين أقضيهما في المحل بينما تذهب هي لتطمئن على أهلها. وكانت تعجبني بصدق تلك المودة والأصالة فيها رغم فحش وسلاطة لسانها، فلا يمكن أن يخلو حديثها من فحش صارخ أو تلميح جنسي أحيانًا لا أفهمه.

- مالك يا ياسمين؟ مش عجباني النهارده! من ساعة ما جيتي وإنتِ شايلة طاجن سِتك.. ولا كأنك مقتولّك قتيل..

سألتني شهيرة بصدق وبنبرة مفعمة بالإشفاق، تململت في مكاني وحاولت دفع الكلمات خارجًا ولكن شيئًا ما داخلي ألجم لساني فاستطردت تقول:

- يا بنتي فضفضي هتموِّتي نفسك من الكبت اللي إنتِ فيه ده.. جرّبيني ومش هتخسري.. ده يُوضع سره في أضعف خلقه.

نظرت لها نظرة طويلة ثم قلت بنبرة أقرب إلى الهمس وقد أصابني الحرج:

- بدوَّر على مكان أسكن فيه.. حاجة يكون إيجارها بسيط وأقدر عليه.

خبطت على صدرها وشهقت ثم قالت:

- نعم يا أختي؟! أمَال إنتِ بتنامي في الشارع ولَّا إيه؟!

- لا لا لا.. إنتِ فهمتي غلط.. المكان اللي أنا فيه إيجاره غالي عليَّا وأنا عاوزة مكان على أدي يكون أمان وسعره مناسب بس.

- قلّقتيني يا شيخة وسيّبتي ركبي.

صمتت لدقائق ثم قالت:

- إن شاء الله ربنا هيحلها.

ثم استرسلت في مواضيع أخرى فأصابتني خيبة الأمل حيث كنت أتعشّم أن تجد حلًّا لمشكلتي العويصة، شردت مرة أخرى خلال حديثها ولم أبادلها الضحك على نكاتها وحديثها الفاحشين ولم أعلّق على بعض تصرفاتها التي تجلعني أستشيط غضبًا ولكني سرعان ما أدخل في نوبة هستيرية من الضحك، كأن تقوم مثلًا بوخزي بإصبعها تحت إبطي وتقول بصوت تجهد لأن يكون أجشًا ورجوليًا:

- حلاوتك أنت يا طِعم.

فتبدو عليَّ أمارات الدهشة وأثور عليها وأعنّفها ولكن بلا جدوى حيث تتمادى في حركاتها حتى أنكب ضاحكة وأتوسل لها كي تتوقف عما تفعله. هل كانت شهيرة بطريقة ما تشعر بي وبآلامي؟! هل تعامل جميع الفتيات العاملات معها بهذه الطريقة حتى تهوّن الوقت الطويل الذي تقضيه داخل المحل؟! أم أن طبيعتها التي شكلتها الحاجة والبيئة القاسية التي ترعرعت فيها جعلت لها فراسة لا تخطئ إدراك موضع الجرح والألم فيمن حولها؟! على كل حال.. أعتقد أنه لا وقت لأي مزاح الآن.

فكرت في سؤال مدام نهى عن حل لمشكلتي ولكني تراجعت تمامًا عن تلك الخطوة في اللحظة الأخيرة خوفًا من عواقب الأمور، لا أريد أن أبدو هائمة بلا هوية أمام أحدهم، شيء من التما... سيكون مفضّلًا في حالتي، مجرد معرفة أنني لست أكثر من متشردة تجوب الشوارع تقتات الفتات لأجل العيش. أمر مفزع قد يدفع بي إلى هاوية أكثر ألمًا وظلمًا ومهانة.

في ذلك اليوم جاءت مدام نهى إلى المحل قبيل المغرب وهي ترتدي فستان سواريه مكشوف الصدر وقد وضعت من الحُلي ما يكفي لتزيين

مجموعة نساء، وكان في صحبتها فهمي الذي كان يجلس خلف مقود سيارتها البيضاء من نوعية «تويوتا»، نقلت نظرها بتمعن داخل المحل ثم نظرت إليَّ وقالت:

- أنا كلمتلك مدام توحيدة وهاتشتغلي عندها من بكرة... خدي الـ 300 جنيه دول يا ياسمين.. ده باقي حقك في شغلك وزيادة شوية من عندي.. مدام توحيدة عندها كوافير هنا وواحد كمان في إمبابة.. هي قالتلي إنها هاتخليكِ قريبة منها وأي وقت تحتاجي فيه أي حاجة تعاليلي علطول.. وماتقلقيش من شغلك هيبقى سهل.. وبقولك أهو لو احتجتي أي حاجة ابقي تعاليلي.

أخذت منها المبلغ وأنا أحاول جاهدة أن أبتسم ثم شكرتها بصدق على ما قدمته لي دون معرفة سابقة، لاحت في مخيلتي مشكلة السكن وفكرت في سؤالها عن مكان يصلح للإيجار ولكني شعرت بأن ذلك سيكون كثيرًا، فيكفي كرمها معي وما قدمته لي حتى هذه اللحظة من خدمات، وجّهت مدام نهى بعض التعليمات لشهيرة وهند في الوقت الذي كنت فيه أدق باب الشرود مرة أخرى. وبعد دقائق معدودة خرجت مدام نهى من المحل، تلعثم فهمي فترجّل سريعًا من السيارة يعرج حتى وصل إلى الباب الخلفي المقابل لمدام نهى التي كانت تقف على الرصيف بنفاد صبر ثم فتح لها الباب فنهرته بشدة ثم ركبت وقد لوت بوزها واعتراها الغضب فلملم نفسه سريعًا وهو يغمغم بعبارات غير واضحة ثم ركب السيارة وانطلق.

وقفت شهيرة في الخارج وقد بان في عينيها الأسى المشوب بشيء من الغيظ ثم نظرت لي وهي تقول بنبرة حزينة مفعمة بالسخط:

- مسكين الراجل ده.. مستحمل أذيَّتها وبيسمع كلامها زي العبد الذليل ويا ريت سيده بيرحمه.

- أنا مش فاهمة مدام نهى بتعامله كده ليه؟! دي حتى شكلها طيبة وجدعة.

نظرت لي لبرهة وكأنها تنتشل نفسها من شرودها وأفكارها ثم قالت بعصبية:

- مين دي اللي طيبة وجدعة؟! إوعي تكوني مفكرة علشان رجالك قرشين تبقى ملاك نازل من السما.. دي ما قدرتهاش غير عبد القادر.. الست اللي إنتِ شايفاها جدعة دي ياما ضيّعت رجالة زي الورد وخربت بيوت.. يا حبيبتي هي بتعمل كده بس علشان تبان كريمة وبنت أصول.. بعيد عنك نقص.. وطول ما إنتِ أقل منها تبقى حبيبتها غير كده تحطك تحت جزمتها.. ويعلمين ما إن قيلالك قبل كده قصتها مع فهمي.. طيب أنا قلت لك قصة رجله العرجة دي؟!

- لأ

- دي خناقة بسبب الهانم اللي بتقولي عليها جدعة.. واحد من اللي خربت بيوتهم.. كانت متجوزاه وأخدت اللي وراه واللي أدامه ولما الراجل يا حبة عيني حس إنه ضايع الشيطان ركبه وحاول يقتلها لولا فهمي لحقها وأنقذها والنتيجة بقى أعرج.. وبتعامله بالطريقة اللي إنتِ شايفاها دي.. هاتقوليلي ليه مستحمل الذل؟! هاقولك ما عرفش ولو ده حب يبقى ملعون أبو الحب اللي بيعيش الواحد متهان وذليل بالمنظر ده.

فجأة شعرت بألم غريب يسري في أعماقي، وانهرت باكية. جزعت شهيرة وانتفضت في مكانها واحتضنتني، لعنت نفسها مرارًا معتقدة أنها السبب في بكائي وترجّتني كي أتوقف وهي تدعو على نفسها بدعوات تقشعرّ لها الأبدان، تذكرت الحب الكاذب الذي عشت خلال أعوام طويلة وأنا معتقدة أني أملك الدنيا وما عليها، نعم شهيرة محقة، ملعون ذاك الحب الذي يجلب لصاحبه الذل والهوان، ملعون ذلك الحب الذي يتنصل منا تحت ادّعاء الشرف والمبادئ الجوفاء،

لقد سقط الحب في نظري ومن قلبي كما سقطتُ أنا، بل سقط العالم في هوّة سحيقة في ذلك اليوم الذي تخيّلت فيه بأن ما كنت أعيشه كان حبًا.

دق هاتف شهيرة وأنا أحاول جاهدة كفكفة دموعي وتهدئة نفسي المنهارة، تكلمت بسرعة ثم ابتسمت ابتسامة عريضة وهي تنظر لي قائلة بمرح:

- ما بس بقى يا بت غلّبتيني معاكِ.. طيب يا ستي خلاص بقى أنا لقيتلك شقة صغيرة محندقة وبـ 500 جنيه بس في الشهر وقريبة كمان.. اسكتي بقى.

نظرت لها وقد تسلل داخلي نور غريب، توقفت دموعي وأنا أمسح وجهي بكف يدي وبرزت ابتسامة على ملامحي وقلت بفرح واضح:

- بجد يا شهيرة لقتيلي شقة؟!

- أيوه يا بت.. أمّال يعني بهزر يا بتاعة المدارس إنتِ.. ما يجيبها إلا الجهلة أمثالي.

ضحكت ضحكة صاخبة ثم تابعت:

- ولو عايزة تتنقلي ليها من النهارده ماشي، قشطة يا عسل.

فقلت مرددة وقد انتابني مرح غريب وكأني فزت بجائزة لم أسعَ لها:

- قشطة يا عسل.

وضحكت شهيرة لتعليقي.

****

كانت الشقة صغيرة لكنها مريحة خفيفة الظل، لا أسكن بعيدًا عن مكان عملي الجديد الذي أرشدتني شهيرة إليه حينما كنا في طريقنا إلى الشقة، سألتني إن كنت سأحضر ملابسي من شقتي القديمة فأخبرتها بأني سأجلبها لاحقًا بعد ما عقدت النية على عدم العودة نهائيًا إلى الأوتيل..

بالطبع لاحظت شهيرة بأني لم أغير ملابسي منذ اليوم الأول الذي رأتني فيه، لم تعلق على هذا الموضوع كثيرًا وأعتقد أنها كانت بالذكاء الكافي لتخمِّن بأني لا أملك شيئًا على الإطلاق، رأيت في عينيها الإشفاق ولقد آذتني تلك النظرة بشكل عميق حتى أحسست أنها تُقطِّع أوصالي، بعد ما كان كل من في بلدتي يتحدثون عن طريقة ملبسي المهندمة والراقية، وعن ملابسي التي أبتاعها بمبالغ ليست قليلة صرت لا أملك سوى هذه الملابس لأستر بها نفسي، وكأني شحاذة لا أهل لها ولا سند تتقاذفها أمواج الفقر والتشرد.

في اليوم التالي، وبعد نوم قلق في شقتي الجديدة - المكونة من غرفة كبيرة واحدة وحمام متواضع ومطبخ يكاد يلفظني من ضيق مساحته كلما دخلته - توجهت إلى المكان الجديد الذي سأتسلم فيه العمل، لم أكن سعيدة بتلك البطانية التي جلبتها لي شهيرة بعد أن تركتني في الشقة وعادت بعد نصف ساعة، لم أكن سعيدة بأني وبشكل ما حتى لو بدا غامضًا صرت في أمان بعيدًا عن المجهول المخيف، لكني كنت سعيدة بأني اكتسبت صديقة كشهيرة بعد أن فقدت الثقة في كل شيء، بل في الحياة نفسها، هل كان حادثي بعيدًا عن تفكيري؟! هل كنت أقصد بشكل متعمّد ألا أفكر في ما حدث لي ويحدث معي تباعًا وكأنه يحدث لشخص آخر؟! هل صرت منساقة خلف ما ترسمه لي الأحداث لأني ببساطة مسلوبة الاختيار؟! لا أعلم حقًا الإجابة بشكل قاطع ولا توجد إجابة شافية تُثلج صدري المنهك بعد أن أصبحت كل يوم أذوق مرارات متعددة ما بين الألم والإذلال والهم ومواجهة المصير المجهول.

كانت مدام توحيدة امرأة فارعة الطول، بين النحافة والامتلاء، تملك بنية قوية، ووجه أقرب إلى الاستدارة، وعينين واسعتين سوداوين وأنفًا طويلًا مدببًا بينما شفتاها ناعمتان رقيقتان تكادان تختفيا تقريبًا، ترتدي حجابًا، ليس بالمعنى التقليدي للحجاب ولكنها طرحة تنفذ من تحتها خصلة كبيرة من شعرها مصبوغة بلون أرجواني، حشرت أسفلها التليفون

الخاص بها، كانت تتحدث عبره حينما دلفت إلى المحل، نظرت إليَّ نظرة طويلة متفحصة ثم أشارت إليَّ الجلوس وهي مسترسلة في حديثها على ما يبدو مع أحد الزبائن بصوتها الناعم الذي بدا لي مصطنعًا ولهجتها الركيكة الواضحة وضوح الشمس، عادت لتتفحصني من رأسي حتى أخمص قدميّ بنظرة خبيرة دارسة. وحينما انتهت رحَّبت بي بحرارة وهي تقول:

- نوَّرتينا يا أستاذة.. اؤمريني.

تلعثمت ثم قلت بحرج:

- أنا ياسمين من طرف مدام نهى.

- مدام نهى؟! آه.. إنتِ بقى ياسمين.. ده إنتِ كتكوتة وحلوة أهو.. أحلى من وصف مدام نهى ليَّا.. إنتِ منين يا ياسمين؟!

أجبت بحذر:

- أنا من الشرقية بس عايشة هنا دلوقتي.

نظرت لي نظرة قوية نافذة وسكنت لثوان ثم قالت:

- آه فهمت.. وبابا وماما هنا ولَّا في الشرقية؟!

كان سؤالها مريبًا كما أنها سألته بلهجة بدت مستهجنة لكني أجبت بمرارة:

- لا في الشرقية.

لم تعلِّق على ردي وكأنها كانت تدفعني لقول هذه الحقيقة المؤلمة والمخيفة، لا أعلم السر الغريب خلف كل ذلك، هل هناك نية مسبقة لشيء ما يعتمل في صدرها؟ أم أنها تعرف كل شيء من مدام نهى وتتعمَّد أن تذكِّرني بأني بلا سند وأحتاج لها؟! أم أنني فقط أتخيَّل كل ذلك؟! مرة أخرى لا أعرف الإجابة، حزنت وغضبت في داخلي وشعرت بأني عارية في وسط شارع يكتظ بالسفلة ومعدومي الضمير، أنقذني من هواجسي حديثها وهي تقول:

- بصّي يا ياسمين.. إنتِ شكلك متعلّمة كويس.. الشغل هنا سهل وما فيش فيه أي مشكلة.. ولا هاقولك هانعلمك تزوّقي بنات ولا هاطلب منك تعملي حاجة في موضوع شغل الكوافير.. أنا محتاجة بنوتة زيك حلوة كده تستلم الحجوزات بتاعة الزباين بس لأني كل ما أسلّم بنت المكان ده تبوظ الدنيا.. أنا هاعتمد عليكِ في الرد على التليفونات وتنظيم مواعيد الزباين.. اتفقنا؟!

أومأت برأسي بعد أن شعرت بالراحة حيث كنت أعتقد وأنا في طريقي إلى هنا بأني سأقطع شوطًا طويلًا حتى أتعلم، مرغمة بالطبع، عمل فتيات الكوافير، طالما رأيتهن أقل مني، بذيئات، بائعات هوى في بعض الأحيان، مومسات إن صح القول، والآن ببساطة كنت في طريقي لأصبح مثلهن، خرجت فتاة من غرفة مغلقة، كانت ترتدي تي شيرت - كت- مكشوف الصدر وشعرها المصبوغ مسترسلًا على كتفيها بينما ترتدي بنطلون جينز أسود ضيقًا يبرز مفاتنها وهي تقول بميوعة:

- يا أبلة توحة.. الجو حر أوي وأنا جتتي مش خالصة.

نهرتها مدام توحة فانسحبت إلى مكانها وهي تغمغم مستنكرة بينما صاحت المدام:

- حر في الشتا!! ده إيه البنات الفرافير اللي مشغلاها معايا دي؟!

ثم نظرت لي وهي تقول:

- بالمناسبة يا ياسمين.. ناديني وقوليلي يا توحة.. مدام توحيدة دي ما حدش يعرفها غير نهى بس لأنها صاحبتي من زمان.. ماشي.. واعملي حسابك إنك 3 أيام هنا و3 أيام في إمبابة وما تقلقيش من حكاية المواصلات.. هابقى آخدك معايا وأجيبك برضه ومرتبك في الشهر 1200 جنيه ده علشان خاطر نهى بس.

دق جرس هاتفها فردّت سريعًا وهي تقول بميوعة:

- جاتك إيه يا زاهر.. فينك يا وسخ من زمان؟!

جروب بيت الكتب

مصطفى الشريف

رغم الأسئلة المتناثرة داخل عقلي والمشهد الذي لم يبد واضحًا، إلا أن إحساسًا بالخفة قد تملّكني وأنا أسير عائدًا من عند لورين، استرجعت المشهد الأخير بيننا في هدوء حينما اختليت بنفسي داخل غرفتي، أثارتني رؤية دموعها التي احتشدت في عينيها ثم سالت بعد شهقات متتالية بعدما أخبرتها ببساطة بما يجيش في صدري ويصيبني بالأرق والتوتر على طول الأيام المنصرمة وقد بدا لي الأمر غريبًا وأقرب ما يكون إلى التراجيديا أكثر من اللازم، حتى إنني وقفت صامتًا وقد علتني ردة فعل غير متفهّمة أو مستوعبة لما يدور تحديدًا، هل لورين غير سوية على المستوى النفسي أم أن هناك شيئًا آخر لا أفهمه، لا يستطيع عقلي إدراكه وليست لديّ الخبرة الكافية لفك رموزه.

اتضح لي فيما بعد أنها كانت تشعر بما أشعر به بالضبط لكنها لم تقوَ على مواجهتي بالحقيقة رغم أنها حاولت أكثر من مرة أن تتغلب على شعورها وتخبرني بها. بدت بائسة للغاية وهي تخبرني بأن حياتها مضطربة ولا تعي كل تصرّفاتها التي خرجت عن السياق الطبيعي لها خلال الفترة الأخيرة. كما علمت أن السبب الحقيقي وراء كل ما يحدث لها هو انفصالها عن حبيبها حيث ترك ذلك فجوة كبيرة داخلها دفعتها إلى ارتكاب العديد من الأخطاء السخيفة خلال الفترة المنصرمة.. هل يفعل الحب كل ذلك؟ هل يتحكم بنا بالشكل الذي يجعلنا لا نميّز تصرفاتنا ويدفعنا كالمغيّبين لارتكاب أبشع الحماقات التي قد يدفع ثمنها من لا ذنب لهم سوى أنهم

دخلوا حياتنا في التوقيت الخطأ؟ حمدت الله أني لم أنجرف في تلك العلاقة، فربما أحببتها ثم اكتشفت فيما بعد أن أولى تجاربي الحقيقية مع الحب باءت بصدمة ربما لم أستطِع تحمل تبعاتها من العذابات والآلام والهواجس، لا أحد يخرج من علاقة إلا وندبة كبيرة تحتل قلبه بل وتجعله متشككًا في كل شيء وما أضناه الذي يقع في تلك الهُوة السحيقة! تركتها وقد علت وجهي ابتسامة متفهمة ووعدتها بأن علاقتنا كزملاء قدامى في العمل وأصدقاء مقرّبين لن تتأثر من جراء ما حدث وقد ترك الأمر مسحة بسيطة من الهدوء النسبي في نفسها. لم أتركها حتى ابتسمت، وإن بدت ابتسامة مكسورة على نحو ما.

حينما عدت إلى المنزل فتحت خزانتي التي تحوي متعلقاتي القديمة بهدوء فصدرت عنها طقطقات، فكرت قليلًا واكتشفت أني لم أفتحها منذ فترة طويلة. انشغلت بما فيها عن هجر ياسمين للمنزل، وكذلك اكتشافي المتأخر للغاية بأني لا أملك أي حياة تُذكر، فتحت ألبوم الصور القديمة وطالعت أمامي العديد من الصور حيث ارتسمت على وجهي ابتسامات مفعمة بالحياة، خالية من أي كدر أو هم، كان لي أصدقاء كثر في مصر ولا تربطني بهم الآن علاقة حقيقية بل مجرد علاقة إلكترونية عابرة من خلال صفحات التواصل الاجتماعي بعد أن وجدتهم هناك بعد بحث مضنٍ، لا أنكر أنه رغم كرهي للعالم الافتراضي إلا أنه الشيء الوحيد الحقيقي في حياتي الآن، لقد كنت في أمسّ الحاجة للتواصل مع أصدقاء المدرسة الابتدائية الذين تجمعني بهم صور عديدة متناثرة تقبع أمامي وقد تشبَّعت برائحة الذكريات المحببة، ليس لأنهم أصدقائي فقط بل لأنهم في الحقيقة الرابط الوحيد الذي يذكّرني بأيام جميلة، ولكن للأسف معظمهم لم يتذكرني، فمن ذا الذي يستطيع أن يتذكر صديقًا لازمه في المدرسة الابتدائية ثم قابله تقريبًا بعد عقدين من الزمن ويطلب منه بكل تبجح أن يتذكره بمثل هذا البساطة وكأن شيئًا لم يحدث؟! كأنّ عمرًا لم يمر! كأن ظروفًا لم تطرأ وتُغيّر على إثرها الجميع! لا أستطيع أن أكون خياليًا إلى هذا

الحد ولا على هذا القدر من العاطفة والتأثر ولكني لا أملك طريقة أخرى تجعلني دومًا أشعر بالانتماء لبلدي الأم.

لكن نعم هناك طريقة أخرى ولكنها متوقفة منذ فترة ليست بالقصيرة، في هذه الصورة وعلى كورنيش الإسكندرية من الجهة المقابلة لمنطقة زيزينيا أقف أنا وخالي أشرف يونس، يا الله.. كم من الوقت مر منذ آخر مرة رأيته فيها، يبدو سعيدًا على نحو ما في هذه الصورة، ربما هي إحدى المرات النادرة التي ابتسم فيها على مر حياته المكتظة بالأحداث المتسارعة والمتفخة بالبؤس، رغم أنه يعمل بالمقاولات ويملك شركة كبيرة خاصة به وفيلا بالمعادي، من الطبيعي أن يعتقد كل من يسمع كل تلك الأمور أنه يعيش حياة مترفة مستقرة سعيدة، ولكنه على العكس تمامًا.أتذكر جيدًا متى تم التقاط هذه الصورة، لقد كنت بصحبته قبيل سفرنا إلى أمريكا بفترة قصيرة، كان هناك من أجل شراء شاليه له ولأسرته وقد أصرّ على اصطحابي. كان يخصني بمعاملة مختلفة ويحبني حبًا خاصًا، حينها كنا نسير على الكورنيش وقد بدا الجو رائعا يتخلله النسيم المنعش، وظهر البحر بلونه الأزرق المبهج، مرسلا بدوره مع أمواجه المتلاطمة رذاذًا من الماء والزبد لتحتضن وجهينا ونحن نسير بمحاذاته. خالي أشرف يونس شخصية عملية بكل ما تحمله هذه الكلمة من معانٍ، لا أذكر أبدًا أنه كان له أصدقاء أو حياة خاصة كما أنه وعلى نحو ما يكره الناس بطريقة غامضة لكنه أبدًا لا يتطرَّق إلى هذا الموضوع، منذ مجيئنا إلى هنا لم أرَه، ربما سمعت صوته مرات عديدة بعد وصولنا مباشرة إلى أمريكا ولكن مع الوقت قلت مكالماته وسؤاله عنّا، حتى إن أمي لم تعد تأبه تقريبًا به أو بحياته، لكني لم أفقد الأمل فيه أبدًا. أتصل به من وقت لآخر وفي الغالب قلما يرد على مكالماتي ولكن من خلالها أستطيع أن أعرف إلى أين وصلت حياته وأتأثر بكل تفصيلة صغيرة تدب فيها رغم أنني أدرك جيدًا بأنه يتحاشى ذكر تفاصيل حياته الخاصة لي، إلا أن تلك الصلة العائلية التي ترنو للود ما تزال حية بشكل ما داخله، وربما حرصي

على السؤال عن أحواله يخفّف من تهاونه في حقنا ويوقف تفكيره البائس في إنهاء علاقته بي.

له ابنان فقط، أمجد يكبر أيمن بسنة واحدة، لا يمكن أن يكون هناك أبناء أسوأ من أبنائه، فقد توفيت زوجة خالي وهما طفلان صغيران، ولم يكن لخالي، ذي الذوق القديم الروتيني والتربية الجافة الخالية من المشاعر، القدرة أو النية على تربية أطفاله والاهتمام بهم على حساب أعماله وأشغاله بمثل هذه البساطة. استأجر لهما أكثر من مربية، ولكن للأسف يبوء الأمر في النهاية ودائمًا بالفشل، لم تستطع مربية واحدة أن تمكث في خدمتهما أكثر من شهرين، فلم يكن لشقاوتهما ولا لاستهتارهما حد، كان التوزيع بين العمل والأولاد مسؤولية كبيرة مفزعة وثقيلة، لا أذكر أن خالي حاول بجهد أب حقيقي أن يردعهما أو يوفر من وقته سويعات لهما ولرعايتهما، تركهما يلهوان كما شاءا حتى توالت الكوارث عليه بسببهما وتراكمت عليه المشاكل والمصائب جراء أفعالهما، ولكنه لم يأبه لكل ذلك وغرق في أشغاله ونجاحه الشخصي وتحقيق أحلامه، ضاربًا عرض الحائط بكل شيء آخر، والحياة كالجبل المهيب العميق بأسراره وغموضه الموحش لا نملك إلا أن نتسلقه من الخارج وقد ربطنا أنفسنا في صخوره بالحبال التي تمثل تربيتنا وبيئتنا وقيَمنا التي تربينا عليها، فإن انقطع الحبل انقطع معه كل شيء حتى حياتنا نفسها وهذا ما حدث بالضبط لابنيه.

أمجد مستهتر، زير نساء، مدمن عُولج أكثر من مرة ولكنه يعاود الكرّة بعدما يتعافى بلا مبالاة، تزوج ثلاث مرات وطلق الثلاث بعد زواج لم يطل في كل مرة أكثر من سنة واحدة، سكير ومعربد لم يكمل تعليمه الجامعي في كلية التجارة كما كان والده يحلم له بأن يكون وريث إمبراطوريته وسنده في أيامه الأخيرة، سُجن مرة واحدة بعد أن حاول التعدي على فتاة، لا أعرف القصة بالتحديد لكن ما سمعته بأنه رغب بامرأة أغوته أنوثتها فراودها لكنها لم تستجب فاعتدى عليها، ولكن والده استطاع إنقاذه من السجن المؤبد وربما الإعدام بعد عناء وحرب طويلة مع السلطات

متلاعبًا بالحقائق، لقد شعرت بالاشمئزاز من تلك القصة ولم أتصوَّر أن خالي دافع عن هذا السفيه وتمادى معه ناسيًا ما تربَّى عليه ولكني أعتقد أن الأمر كله متعلقًا بسمعته في السوق لا أكثر ولا أقل مع أني لا أستطيع أيضًا الجزم بشكل أكيد في هذه النقطة، كل ما أعرفه أنه يعيش وحيدًا الآن في شقته بالمهندسين بين اللهو والنساء.. أما أيمن فله حكاية أخرى لا تقل في تفاصيلها عن أخيه الأكبر ولكن بشكل آخر، لقد كان أيمن يدخن منذ سن صغيرة ثم تمادى في الأمر حتى صار مدمنًا للمخدرات لكن والده أنقذه وأرسله إلى مصحة خارج مصر وتم شفاؤه بالفعل وحينما عاد بدا عليه أنه مستعد لبدء حياة أخرى جديدة بلا مخدرات وبالفعل تزوج وأنجب طفلتين جميلتين ولكن وبلا سابق إنذار أو مقدمات بائسة اكتشفت زوجته بأنه مدمن على الهيروين مما دفعها إلى طلب الطلاق خوفًا على ابنتيها وعلى نفسها. حاول أيمن بمساعدة والده أن يثنيها عن قرارها ولكن لم تُثمر جهودهما بشيء واستطاعت في النهاية أن تنتزع الطلاق وأن تفر بطفليها إلى الخارج ولا يعلم أحد مكانهم حتى هذه اللحظة مما جعله ينكب بشكل مخيف على المخدرات حتى تأزمت صحته وهوت حالته النفسية وانهار تمامًا فتم نقله إلى مصحة عقلية يمكث بها الآن، ما يجعلني حزينا ومتعجبًا في نفس الوقت كيف لخالي أن يتحمل كل ذلك؟! وكيف أنه لا يزال واقفا على قدميه يمارس حياته وأشغاله دون أن يصيبه مكروه أو حزن يقصمه، فيترك عالمنا هذا حزينًا بعد ما مر به مع أبنائه، فإن فسد الأولاد ما قيمة الحياة إذن؟!

جلست أفكر طويلًا في هذه الليلة وأنا أقلّب صوري القديمة، استعدت كل شيء حدث لي تقريبًا مع أبي منذ مجيئي إلى أمريكا، حياتي التي انقلبت وابتسامتي التي تبدلت رعبًا وقلقًا من قراراته وسخافاته وتجبّره، غضبت وحزنت وبكيت وتحمست لأفكار غريبة وتشوش عقلي بأفكار أخرى لم تبد واضحة لكنها بدت مرعبة أحيانًا، الخلاص بالنسبة لي ولتلك الحياة الفارغة الضائعة هو أن أفر من هنا، ليس من منزلي، وليس من المدينة

أو الولاية التي أقطن بها بل الفرار من أمريكا برمتها التي صنعت مسخًا يعيش داخلي، ذلك المسخ الذي أمقته كلما نظرت في المرآة ولعنت ســ كل شيء، تصاعد حزني واشتعلت ثورتي، لم يكن عليَّ فعل شيء سوى الصراخ منددًا بالأحكام العرفية التي أعيش في ظلها وليكن ما يكون.. إما الحياة أو الموت.

جلست بصحبة أختي ياسمين نتناول وجبة الغداء يوم إجازتها الأسبوعية وقد مر على لقائنا الأخير ثلاثة أسابيع لم أقابلها فيها لانشغالها في تجهيز شقتها الجديدة التي استأجرتها بعد إقامتها طيلة الفترة السابقة لدى إحدى صديقاتها، ذُقت خلال هذه الفترة الزمنية التوتر والقلق جراء ما يجيش في صدري من أفكار تتعلق بمصيري وعودتي إلى مصر، كنت أشعر بأن الزمن يُسابقني ويتحداني، أحسست بأن الأيام تتهاوى وينهاري معها عمري، شعور غريب بالكِبر راح ينمو ويترعرع في داخلي لدرجة أنني في بعض الأحيان أحسست نفسي كهلًا فانكببتُ على عملي حتى لا أترك لنفسي ولو فرصة واحدة أختلي بها بأفكاري الكئيبة المتشائمة ولكن عبثًا كانت كل محاولاتي.

كان بإمكاني أن أترك الأمر يسير على هذا النهج الجديد وأتقدم خطوة خطوة نحو معرفة الحياة حولي من خلال ياسمين مثلًا، أو لورين التي صارت صديقة مخلصة لي خلال الفترة السابقة، ولكن صداقتها على نحو ما لم تكن سوى تكفير لذنب تشعر به في أعماقها ورغم أن ما حدث بيننا لم يترك في نفسي أثرًا كبيرًا إلا أن إحساسًا بالذنب ظل يهاجمها ويجبرها على السعي قدما في طريق صداقتي وتعويضي بكل السبل الممكنة عما تسميه هي خيانة غير مقصودة لمشاعري ومشاعرها، لقد كنت في الحقيقة ممتنًا لما تقوم به من أجلي ولكني على الجانب الآخر لم أطلب منها شيئًا ولم أستغل الموقف ولكن أحيانًا كان يفلت مني سؤال عن عالم النساء وكانت تجيبني بإسهاب وهي تضحك ضحكة مميزة وكأنني طفل صغير يسأل سؤالًا سخيفًا مُحرجًا، لكن طبقًا لطبيعتي الانطوائية نوعًا ما، ولأنني

أصاب بالحرج في أبسط المواقف، فمن الصعب أن أتعمَّق في حياتي الخاصة المعقدة معها. لأنها لا ولن تدرك حجم مأساتي التي أعيشها وتعيِّشني لذلك كنت أكتفي بتلك الأسئلة البسيطة التي تُلح على عقلي وتجذبني بشكل غريزي كمغناطيس يجذب قطعة معدن.

هل تحب الفتاة من النظرة الأولى؟! هل تلك الفتيات التي تغالي في وضع الماكياج لديهن بالفعل مشكلة في وجوههن أم أن الأمر كله ليس أكثر من هوس بالجمال أو طريقة تقليدية لاصطياد شاب؟! تلك الطريقة لم تخطئ مسعاها في معظم الأحيان بكل أسف ولذلك نرى الكثير من الأطفال البشعين يجوبون هذا العالم، هل للفتيات قدرة خاصة لا يملكها الشباب؟! ما الذي تحبه المرأة حقًا في الرجل ويجذبها؟! كيف لي أن أميّز بين الفتاة اللعوب والفتاة الطيبة الجادة؟! كيف يتسنّى لي امتلاك قلب فتاة ما؟! هل الجنس مهم إلى هذا الحد أم أن كل تلك الأقاويل والكتب التي تحدثت عن العلاقة الجنسية بين الرجل والمرأة كان هدفها الأول تحقيق أعلى المبيعات لا أكثر ولا أقل، وأن والأمر برمته مجرد أكاذيب بينما الحب أسمى وأبهى من تلك الحكايات الكاذبة؟!

العديد من الأسئلة لم تتوانَ لورين عن إجابتها عنها بكل هدوء وحب بل وسخرية أيضًا في بعض الأحيان، كنت أضحك لضحكاتها التي لا أفهم سرها، لكني كنت أعلم أني أشبه بتائه أعمى في مدينة تعج بالمبصرين ومنزوعي الرحمة، أدركت بمرارة أحطها داخل صدري حتى لا يراها أو يكتشفها أحد، ومع كل ثانية تمر، بأني وصلت إلى الميناء متأخرًا داخل مركب أتلفته الأمواج وصرعت أشرعته الرياح العاتية ولا أحمل في يدي سوى مجدافين مهترئين جار عليهما الزمن.

أطلّ كل ذلك في عيني حينما نظرت لي ياسمين مهمومة لكنها لم تتفوه بكلمة واحدة وآثرت الصمت، كنت أعلم أنها تدفعني بتلك الطريقة للحديث والتعبير عن مشاعري وأفكاري المكبوتة،وبالفعل أصابت

مبتغاها. رويت لها كل ما يعتمل في صدري كطفل يقص لأمه الطيبة مشكلته العويصة ويطلب سندها وحكمتها، أخبرتها عن رغبتي الملحة في ترك أمريكا والعودة إلى مصر، تخصصي يسمح لي بالعيش هناك حياة كريمة، حتى إني سألت في الخفاء ودون علم أحد عن الإجراءات الواجب اتباعها حتى يمكنني التقدم للعمل هناك، كما أني خلال الفترة السابقة وحينما كانت ثورتي تشتعل ضد أبي كنت أتابع من خلال صفحات التواصل الاجتماعي كيف يتحدث المصريون وكيف صارت لغة الشباب حتى لا أبدو كائنًا فضائيًا قادمًا من مجرة أخرى حينما أعود، حرصت أيضًا على مشاهدة الأفلام المصرية الحديثة وضقت بالمستوى المتدنّي لمعظمها وترحّمت على الزمن الجميل.

شجّعتني ياسمين على فعل ما أرنو إليه وأفكر فيه، أخبرتني بأني الآن أسير على الطريق الصحيح:

- لازم تفهم إن اللي عايز حريته لازم يحارب علشانها، ما فيش حرية ولا حلم ولا حياة إلا بالحرب.. الحرب بس هي اللي بتخلينا في النهاية نفرض شروطنا على كل اللي يقف في وشنا.. أنت في زمن الضعيف فيه ميت والقوي فيه ملك.. شوف أنت هاتختار إيه وأنا عارفة إنك هاتختار صح..

كان لكلمات ياسمين وقعًا قويًا حماسيًا على نفسي، ولطالما كانت هي نفسها كذلك، ولكنه خوفي الملعون واستسلامي البائس، تخيلت نفسي وأنا أقف في مواجهة أبي وأخبره قراري بخروجي أنا الآخر من اتفاقيته، بنقضي لمعاهدته التي لم تعد تعنيني ولا تهتز لها شعرة من رأسي، سأصرخ في وجهه شاهرًا سيفي مستعدًا للقتال من أجل حريتي، شكرت ياسمين وقد ملأتني الحماسة وعدت إلى المنزل وقررت بأنه بمجرد عودة أبي سأواجهه بقراري وليكن ما يكون، ليطردني من هنا كما فعل مع ياسمين، فالطرد من هذا الموت حياة.

Yasso

عصام الرشيدي

انتهت الاحتفالات بالثورة ولكن لم تخلُ الشوارع من المتظاهرين والمنتفعين أيضًا، لا أستطيع أن أقول إني لست معها ولكني في نفس الوقت كنت أدرك جيدًا حجم المأساة التي تنتظر الحالمين بحياة أفضل، ليست المشكلة في الشعوب ولكن دومًا تكمن المشكلة فيمن يتحكمون في الشعوب، والتحكم الحقيقي يأتي عن طريق الفكر، لقد كانوا في العصور الغابرة يحاسبون كل من يفكر ويقاضونه بالموت لأنه تعمد التفكير، كان التفكير جريمة يعاقَب عليها ويُهان صاحبها وينكَّل به، أعتقد أن الأمر مماثل في بلدنا الكبير ولكن بشكل آخر، شعب وقع في هوّة الجهل منذ سنوات سحيقة وتم محو كل ما يتعلق بماضيه الحديث حتى لا يستطيع أن يفتح تلك الملفات التي يمكن الولوج منها لإنقاذ المستقبل، وناهيك عن القدرة على التحليل ووضع النظريات بشكل منطقي وإيجابي فقد أصبح ذلك الأمر ضربًا من ضروب الخيال. لقد تشوَّهت ثقافة الشعب حتى أنا تشوَّهت معهم في تلك الدوامة التي رسمها الكبار ويمشي على نهجها الكبار أيضًا الآن، الموضوع يسير على نهج وراثي منمَّق ومدروس ولا يمكن للعامة أبدًا أن يروا ذلك الأمر ولن يروه لأنه متأصل داخلنا منذ المهد.

حاولت كثيرًا فيما بعد أن أنحّي كل تلك الأفكار المتعلقة بالثورة وتبعاتها عن رأسي حيث لم يكن لنا دور حقيقي على طول الأيام السابقة بينما عودتنا إلى الشارع كانت على استحياء واضح وكأننا ننقّب عن إبرة

في كومة من القش، كأننا نبحث عن ركن ضئيل داخل حضن الوطن بينما الوطن يركلنا بكامل قوته، ثرت كثيرًا بيني وبين نفسي حينما خرجت أكثر من مرة في حملات لتقصّي الأمن بل وكنت على وشك الاعتداء على مواطنين إثر تصرّفاتهم الانتقامية وتحفّزهم الصارخ ضدنا وكأننا غزاة، شعرت لوهلة أني أعيش عصر الاحتلال في بدايات القرن المنصرم، وما أنا إلا ممثّله، ضابط ينتمي لصفوف الجيش الإنجليزي، انحدرت أكثر دون وعي، رافقت بعض الأصدقاء القدامى وقمت بالاتصال بأكثرهم عربدة وكأني أتابع عملية هروبي، أمجد أشرف يونس، العربيد زير النساء، ذي السمعة الغائصة في الوحل والعار.

لم ينفك وجه سارة بنظراتها المتحدية، اللائمة، يباغتني ولكني كنت أنحدر بشكل أكثر عمقًا وغرابة وكأنني أتحداها وأتحدى الظروف ونفسي.. ذات يوم ذهبت إلى أمجد في شقته، كان ينتظرني بشغف حيث وعدني بليلة ماجنة لن أنساها طوال حياتي، طرقت الباب وأنا أنظر حولي وكأني أخشى أن يلمحني أحدهم فيلحقني العار كما لحق به وبكل من يعرفونه. انفتح الباب عن وجهه الذابل، كان أمجد ذو لحية طويلة قاتمة السواد وعينين حادتين صغيرتين تشبهان عيني أبيه ولكن تحيطهما هالات سوداء. فارع الطول لكنه هزيل جدًا إلى تلك الدرجة التي يستحيل معها أن تظن أنه كائن ينبض بالحياة، ظهره مقوّس قليلًا نتيجة لصحته التي تزداد سوءًا مع كل يوم، له أنف مفلطح وأذنان كبيرتان أعتقد أنه ورثهما عن أمه الراحلة، أتذكر جيدًا بأنه لم يكن على تلك الصورة ولكنه كان على عكس ذلك تمامًا، شابًا ينبض بالحياة، وكله حيوية.

كانت لديه متلازمة «السين والصاد» في نطقه للكلمات فينطقهما «ثاء»، ومن أثر المخدرات والخمر كان يتأخر قليلًا حتى يستوعب ما يسمعه كما لاحظت تأخيرًا ملحوظًا في نطقه للكلمات واستيعاب الأحداث حوله.

- إزيك يا عثام؟ خش خش.

نظرت له متأملًا فترك الباب مفتوحًا ودلف داخل المنزل فقمت بإغلاقه، جلس على أريكة كبيرة في الصالة التي تتكون من أنتريه فيها أريكتان كبيرتان وأريكتان صغيرتان بينما يقع على الجانب الأيمن تلفاز كبير حجم 48 بوصة فوقه مكتبة صغيرة ملتصقة بالحائط خالية من الكتب ومليئة بزجاجات متعددة متنوّعة من الخمر. وعلى يسار الصالة يوجد مطبخ أمريكي مفتوح عليها تحول إلى بار صغير مترع بقناني متعددة الألوان، تنتهي الصالة على اليسار بطرقة طويلة تقع فيها غرف الشقة، نظرت إليه متأمِّلًا محاولًا استعادة الذكريات القديمة التي جمعتنا ثم جلست بجواره حيث كان يتابع مباراة كرة قدم في الدوري الإنجليزي ويلف سيجارة كبيرة محشوة بالحشيش على طاولة صغيرة أمامه لا يوجد عليها شيء سوى زجاجة بيرة وفرشة حشيش كاملة، أسبل عينيه الغائمتين سريعًا من أثر المخدرات ونظر إليَّ بدهشة ثم قال بنبرة منزعجة تشوبها الدهشة:

- أنت جيت إمتى؟! أنا اتثلت بيك كتير.

لم أعلق على كلماته. آثرت الصمت وشعرت برغبة شديدة في المغادرة متسائلًا في نفسي: «ما الذي أفعله هنا؟»، لكنه باغتني بسؤال غريب وهو لا يرفع عينيه عن التلفاز:

- ابنك طارق أخباره إيه؟ مش اثمه طارق برضه؟!

اعترتني موجة من الحزن المفاجئ وشعرت برغبة في البكاء، أطرقت برأسي وأخذت نفسًا طويلًا ولم أرد عليه، ناولني السيجارة التي انتهى من لفّها دون أن يتكلم ثم صاح قائلًا:

- باثي يا أخي الماتش هيضيع.. يخرب بيت أمك.

أخذت منه السيجارة وأشعلتها وأخذت منها نفسًا عميقًا ثم نفسًا آخر ثم عدة أنفاس متلاحقة وكأني أهرول نحو غيبوبة تأخذني بعيدًا عن واقعي المرير المؤلم، شعرت بتنميل يسري في جسدي واسترخاء فرجعت

بظهري إلى الأريكة بجواره، في اللحظة التي أطفأ فيها التلفاز وهو يسب ويلعن فريقه ثم نهض من مجلسه بصعوبة وظل يدور بعينيه في الشقة وكأنه يبحث عن شيء ما، مسح على جبهته بكف يده وكأنه ينتزع من ذاكرته شيئًا توارى في منطقة بعيدة، ثم قال:

- يخرب بيت أم ده بار.. كل ما أحطه في حتة يتوه.

أطلقت ضحكة مجلجلة بتأثير الحشيش فقال وهو يجلب زجاجة من فوق البار:

- بُث بقى يا معلم.. أنا موثيلك على الإزازة دي مخثوث.. يعني هتطير كده في عالم الأحلام.

تناولتها منه وصببت لنفسي كأسًا ثم جرعتها جرعة واحدة بعد تردد لم يطل فأحدثت قشعريرة في جسدي حيث كان طعمها مرًّا وأخذت نفسًا من السيجارة المتنفخة قائلًا:

- حبيبي يا أمجد.. طول عمرك هلاس.

- هلاث مع مرتبة الشرف.

ثم أخذ جرعة من زجاجة الخمر التي تبين فيما بعد أنها عرق عنب مستورد. نظر لي بعينين غائمتين حيث كان جرس الشقة مسموعًا:

- عامل لك مفاجأة.. وشكلها وثلت.

نظرت له نظرة مستطلعة محاولًا بقدر الإمكان المحافظة على تركيزي، فنهض من مجلسه مترنحًا ووقف خلف الباب لوهلة مفكرًا ثم قال بنبرة مندهشة:

- هو أنا إيه اللي جابني هنا؟!

ثم قال وهو يهز رأسه ساخرًا:

- آه ثح.. المفاجأة.

أطلقت ضحكة وأنا أهز رأسي مستنكرًا ثم أخرجت سيجارة مارلبورو

وأشعلتها في اللحظة التي دلفت فيها علينا فتاة تشبه المومسات، بل هي كذلك! فقال أمجد وهو يرفع يديه بشكل استعراضي:

- المفاجأة.. منة بنت الناث اللي مش كويثين.

نظرت إليها متجهّمًا، لم أكن أدري أن الأمر سيصل إلى هذه الدرجة من السوء، شعرت بأن أحدهم أطاح بي بلكمة قوية أفقدتني وعيي، تركت السيجارة من يدي، جلست منة بجواري بميوعة، كانت لهجتها قارحة واستعراضها لجسدها مبتذلًا وقحًا بشكل لا يليق حتى بمومس، سخرت من ذلك التفكير وشعرت باشمئزاز وقرف من نفسي وفجأة شعرت بالغثيان فنهضت من مجلسي مترنحًا شاعرًا بأن الأرض تميد من تحتي حتى أطلقت شهقات متتالية عنيفة على إثرها أفرغت جميع محتويات بطني، وقفت منة القارحة بجواري وهي تقول بلهجة مائعة:

- ما لك يا لولو؟! إنتِ تعبتِ يا بيضة.

أزحتها من أمامي بذراعي حتى إنها تأوّهت بميوعة من خشونة معاملتي، كنت على وشك صفعها ولكني كنت متعبًا مرهقًا والعرق يبلل جسدي كاملًا بينما أمجد يجلس في مكانه يلف سجائر الحشيش، وصلت عند باب الشقة بصعوبة، فتحته وخرجت دون أن أتفوه بكلمة واحدة، لا أعلم حتى الآن ما السر الذي جعلني أدفع نفسي خارجًا! لكني شعرت براحة غريبة، كأني كنت في معركة ما وانتصرت فيها، رجعت بصعوبة إلى ذاكرتي وتذكرت تلك العينين المحدقتين بي وأنا أفرغ معدتي، هاتان العينان لم تكونا غريبتين عليّ، أعرفهما جيدًا، إنهما عينا طارق وهما ترتسمان بابتسامة باهتة.

مصطفى الشريف

يقولون إن الضربة المفاجئة تأثيرها مضاعف، وهذا ما حدث بالضبط في تلك الليلة حينما دخل أبي المنزل، أخذت نفسًا عميقًا، ولأني كنت مملوءًا بالحماسة لم أستطع التحكم في انفعالي والانتظار حتى يستريح، دلفت إلى مكتبه ووقفت في مواجهته بينما كان يحتسي كوبًا من الشاي الساخن، كانت رائحة القرنفل المضافة للشاي والتي يعشقها أبي تأتيني نفاذة فتملأ صدري كرهًا وتزيدني انفعالًا وتوجّسًا، ارتبكت بعض الشيء حينما هاجمتني الذكريات البعيدة المرتبطة بالقرنفل، فذات يوم بينما أبي كان يحتسي شايه المحبب بالقرنفل أزاحه جانبًا مع موجة غضب عاتية لمجرد مناقشته في قرار يخص دراستي وصفعني كي لا أجادله في ما يخص مستقبلي، كانت تلك أول مرة، وأراد من خلال تلك الصفعة أن يقول إنه هو من يحدد الأولويات ويقرر ما الصالح لي.

في هذه اللحظات كان واقفًا خلف مكتبه يقلب في بعض الأوراق أمامه، نظر لي نظرة عادية فاترة مشوبة بشيء من الحذر ثم عاد إلى أوراقه وهو يقول بصوت فاتر:

- عاوز حاجة يا مصطفى؟!

- بابا.. أنا.. أنا..

أين تلك الحماسة المتقدة؟! أين ذهبت الكلمات اللعينة؟! لقد كانت هنا منذ ثانية واحدة، أعدتها في مخيلتي عشرات المرات وتخيلت نفسي

مرارًا وأنا أتلفظ بها بثقة وقد علا وجهي تعبير جامد جاد لا يشوبه أي توتر. استعنت بذكريات سيئة لتكون دافعًا قويًا لكي أستطيع مواجهته، والآن لا شيء.. فراغ، خواء، تهتهة وتلعثم ولا جملة مكتملة وكأني فجأة فقدت القدرة على الكلام تحت تأثير صدمة قوية ألجمت لساني.

أعاد سؤاله مرة أخرى بصوت بدا متحديًا على نحو ما:

- فيه حاجة يا مصطفى؟! عاوز حاجة؟

- أنا هارجع مصر.

خرجت الجملة مني مدفوعة متهورة، كأنها انزلقت من فوق لساني رغمًا عنّي، خرجت ككائن محبوس ذليل أفسحت له مكانًا ضيقًا للهروب فولى الأدبار هاربًا مدفوعًا بشحنة كبيرة من الذل الذي ذاقه داخل سجنه الضيق، شعرت براحة غريبة لا تخلو من ترقّب يختلط بالحذر، تطلع إليَّ بنظرة مستفهمة وقد بانت على وجهه أمارات الدهشة ثم قال بنبرة متحفزة محمّلة بالتوعد:

- مش فاهم.. أنت قلت إيه؟!

- بقولك راجع مصر يا بابا..

- يعني إيه راجع مصر؟!

- يعني راجع مصر.. إيه اللي في جملتي مش واضح؟!

نطقت جملتي الأخيرة بشيء من الوقاحة، حتى هذه اللحظة لا أدرك كيف تحدثت مع أبي بهذا الشكل! لُمت نفسي في أعماقي لكن شيئًا غريبًا كان يقودني نحو تحديه، هل كنت أتحدى نفسي وقدرتي من أجل حياتي التي ضاعت؟! أم كنت أتحدى كبرياء أبي وغطرسته اللتين أوصلتاني إلى ما أنا عليه الآن؟! لم تكن تلك الوقاحة موجهة لشخصه بقدر ما كانت موجهة لشدته وحزمه اللذين ألقيا بي في متاهة لا أعرف حلًا أو سبيلًا للخروج منها.

- أيوه يعني أنت تقصد رايح أجازة؟!

- لا يا بابا أنا باقولك إني راجع مصر.. مش جاي هنا تاني.

صمت أبي ثواني مرت ثقيلة وهو يحدجني بنظرة غير مستوعبة محاولًا بقدر الإمكان جمع شتات نفسه وتجميع الخيوط حتى يستطيع استيعاب الأمر برمته، كانت المفاجأة ثقيلة عليه وقد بدا من خلال شروده الثقيل أنه لم يكن يتوقع على الإطلاق أن يحدث كل ذلك، أن يعلن ابنه البكر المنساق خلف خطته الموضوعة سلفًا، عصيانه وخروجه عن المسار الذي حدده له، فصاح قائلًا فجأة:

- إنت أكيد اتجننت.

- لا أنا عقلت يا بابا.

صرخ في وجهي وهو يستدير من خلف المكتب حتى وصل ووقف في مواجهتي ثم صاح قائلًا:

- لا اتجننت ومحتاج تدخل مصحة كمان.. لما تقرّر ترجع مصر وتسيب مستقبلك وشغلك اللي مخليك عايش ملك تبقى اتجننت.. لما تسيب النظافة وتروح برجليك للوساخة تبقى أكيد اتجننت.. لما فجأة كده ومن غير مناسبة ولا مقدمات تقول لي أنا هدمر حياتي يا بابا تبقى اتجننت.. لما..

قاطعته، وقد وصل بي الانفعال لدرجة من المستحيل التحكم بها، وصحت:

- لا ما اتجننتش يا بابا.. ولا اللي بقوله ده جاء فجأة ولا وليد اللحظة زي ما حضرتك فاهم.. أنا بقالي 30 سنة ما أعرفش حاجة عن الدنيا.. 30 سنة وأنا حاسس إني بتجهّز لمهمة مش عارف إيه هيّ.. 30 سنة وأنت محسسني إني آلة لازم تعمل اللي أنت تقوله وتوافق عليه وبس.. 30 سنة وأنا محروم من إني أكون بني آدم طبيعي من دم ولحم مش من كتب ومحاضرات وشغل وبس..

ودي عيب ودي ألبسها ودي أقلعها.. ودي ما ينفعش تحبها ودي لازم تحبها.. 30 سنة وكل اللي أعرفه عن الدنيا أنت اخترتهولي.. أنا ما بقتش عارف أنا مين ولا عايز إيه ولا حتى عايش ليه؟! سيبني مرة واحدة في حياتي أختار حتى لو هاختار غلط.. المهم في النهاية أحس إني موجود.

نظر لي أبي نظرة طويلة وقد امتلأت عيناه بالأسئلة، غاب داخل حلم يقظة، بدا ساهمًا، عينيه غائمتين في مكان ما، فقد القدرة على الكلام فجأة، صمت ثقيل موحش لم يكسره سوى دخول أمي المنزل حتى وصلت إلى غرفة المكتب المضاءة بعد أن نادت كثيرًا علينا دون رد، وقفت بيننا تنظر لنا وكانت نظراتنا المتحدية تعكس غضبًا واضحًا:

- ما لكوا في إيه؟! إنتوا عاملين كده ليه؟

قال أبي وكأنه يحدث نفسه:

- مصطفى راجع مصر.

- إيه ده بجد؟! هاتتأخر هناك؟

هكذا كانت طريقة والدتي الدائمة، اللامبالاة، الاستخفاف بكل شيء.. حدجها والدي بنظرة غاضبة وهو يضغط على كلماته قائلًا:

- مصطفى راجع مصر ومش هايرجع هنا تاني. راجع على طول.

- على طول! يعني إيه على طول؟!

قلت دون أن أرفع عيني عن أبي:

- يعني هاروح أعيش في مصر ومش راجع تاني يا ماما.

نظرت لي نظرة طويلة ثم نقلت بصرها مندهشة إلى أبي، فقال أبي بهدوء:

- أيوه مصطفى كبر ومن حقه يختار الطريقة المناسبة لحياته..

ثم نقل بصره لي وقال بهدوء غريب:

- بس يا ريت تعرّفني قبل سفرك بأسبوع علشان أعمل حسابي وأكون معاك يوم سفرك.

نظرت له نظرة طويلة مشدوهًا، للحظة لم أصدق ما أسمعه، شيء في صدري رفض تصديق ما تراه عيناي، هل ما يقوله صادقًا نقيًا أم أنه يدبر لشيء؟! لماذا لم يَثُر عليَّ كما ثار على ياسمين وطردها خارج المنزل دون أن تهتز له شعرة في رأسه أو يرفّ له جفن؟! ما الذي حدث؟! هل تغير أبي فجأة وأدرك خطأه بعد ثلاثين عامًا مرت عليه دون أن يُعمل تفكيره ولو لمرة واحدة خلالها؟! كيف؟! الكثير من الأسئلة وبلا إجابات أيضًا.. لم يهمني كل ذلك، انتابني إحساس بالغباء، هل كان الأمر معقدًا إلى الحد الذي جعلني أنتظر ثلاثين عامًا كي أثور؟! أم بسيطا لدرجة أنني لم أتوقع أن تكون النتيجة على هذه الشاكلة؟! نفضت تلك الأفكار سريعًا لشعوري بحزن غريب يتسلّل إلى نفسي، لم أتطرّق إلى هذا الموضوع ثانية، كل ما كان يشغلني هو ترتيب إجراءات السفر في أسرع وقت، كان عليَّ تدبير عمل في مصر في أقرب فرصة ممكنة حتى يتسنى لي استلامه بمجرد وصولي، معي من المال ما يكفي ويزيد لمدة طويلة لكن المال لا يُغني عن العمل كما أنني أعشق ما أفعله، امتلأتُ بالحماسة وأخبرت ياسمين هاتفيًا بكل ما حدث، طرأ عليَّ الكثير من الأفكار حتى إني فكرت في خالي أشرف يونس وبالفعل اتصلت به وأخبرته بما انتويه حين عودتي، كما أخبرته أيضًا عن رغبتي في الحصول على وظيفة في الطب الشرعي بمصر، لم يكن الأمر يسيرًا ولكن نظرًا لأني خريج جامعة مرموقة وعملت بهيئة عليا داخل أمريكا، كل ذلك يجعلني مؤهلًا بشكل كبير للحصول على الوظيفة التي أتمناها، لمست الضيق والحزن في صوت خالي، ولكن فرحتي بتلاحق الأحداث لم تعطني فرصة لكي أركز أو أهتم بالأمر، لم أشتت ذهني بعيدًا عن نتائج انتصاري الأول والحقيقي في حياتي بأكملها، بشكل آخر كنت أقف حائلًا ضد كل ما يعكّر صفو مزاجي.

****

القاهرة، المدينة العجوز، الدفء والأصالة، روح الحياة وصخبها، البنايات القديمة في وسط البلد، الزحام المستمر على مر ساعات اليوم في كل مكان، الملامح الأصيلة السمراء المتلحِّفة بأشعة شمس الشرق الأصيلة، العيون اللامعة السوداء المبتسمة الراضية، النسيم المسترسل الناعس الذي يدق الأبواب، مدينة الشجعان، مهد الحضارات وشمس المعارف، أكاد أقسم أن جمال الكون تجمع هنا في هذه البؤرة من الأرض، القاهرة.

وصلت بعد الاحتفال بالثورة المجيدة بثلاثة أيام، لم أكن أدرك أن لهجتي المصرية السليمة حدث لها خلل، كنت أجد صعوبة في التعامل مع كل شخص أقابله، حتى أقنعه بأني مصري حتى النخاع، أنتمي إلى هذا البلد قلبًا وقالبًا ولكن الفراق، ككل فراق، يسبب الخلل والتشوه وصعوبة التواصل، سحر القاهرة الذي تغلغل في أعماقي جذبني وفتك بي وجعلني أتحدّى العالم ونفسي حتى ارتميت بين أحضانها، لكن ماذا حدث؟! لمَ يبدو السقم والتوتر جليين على وجوه الناس؟! ولم تحولت القاهرة إلى هذا الشكل الموحش؟! القمامة تملؤها، البنايات متهالكة، الناس يهرولون وكأنهم في سباق لا ينتهي، وقع الحياة سريع لا يختلف كثيرًا عن أوربا وأمريكا، الانتهازيون في كل مكان يتدافعون ويتسابقون على كل إنسان غريب أو زائر، كي يحتالوا عليه ويأخذوا كل ما يملك إن استطاعوا، كل شيء بثمن حتى الابتسامة اللامعة الصافية تحولت إلى عبوس واكفهرار غريبين يهيمنان على الملامح، وإن لمحت الضحكة وجدتها مكسورة على نحو ما.

وأنا أنظف شقتي مستعينًا بالبواب الذي لم يتغير منذ سافرنا، عم إسماعيل، الرجل الطيب الطاعن في السن، تذكرت اللحظة التي فارقت فيها أمريكا وأهلي وحبيبتي الوحيدة أختي ياسمين، تلك الدمعة المنزلقة التي كافَحَت كي لا تفلت على وجنتها وهي تحتضنني بشدة وكأنها تودعني الوداع الأخير، ابتسامة أمي العذبة وحضنها الدافئ والتي سامحتها فجأة على كل تقصير وكل لحظة آلمتني فيها بلامبالاتها وانصرافها عني، لم يكن

الأمر مختلفًا كثيرًا مع أبي الذي ظل واقفا وهلة ينظر إليّ وكأنه يتأملني، كنت أستطيع أن ألمح صراعه بين بقائي ووداعي، كأنه يتنازل عن كنز لا يقدر بثمن، لكن حتى الكنوز لها روح وفي النهاية تختار صاحبها، لمست فيه الحزن والدفء الشديدين وهو يودعني، لم أكن أفهم تركيبة أبي في هذه اللحظة، هل هو ضعيف يتظاهر بالقوة؟! أم قوي يتظاهر بالضعف؟! لكن ما أراه الآن في مواجهتي حقيقيّ لا يمكن أن يكون زائفًا بأي شكل كان، هذا هو أبي دون ملامح جادة حازمة وقرارات صارمة قاسية، إنه هو بقلبه ووجهه الحقيقي الدافئ، احتضنته فجأة بل اعتصرته بين ذراعيّ وفجأة انهرت باكيًا وبللت دموعي كتفه، رفع يديه ببطء واحتضنني بهدوء، حتى صارت ذراعاه متشبثتين بي بقوة وكأنه ابن يودع أباه وليس العكس، عاد إلى الوراء ونظر لي ثم قال وهو يكفكف دموعه:

- لأول مرة باخد بالي إنك كبرت يا مصطفى.. لو قررت ترجع هتلاقيني موجود بس خليك متأكد يا ابني إني معاك في كل قرار تاخده.

ابتسمت ابتسامة مختلفة تحمل الراحة والسكينة، كنت أحتاج بشدة لسماع هذه الكلمات، فمهما بدر منه تجاهي سيظل أبي، ثم نقلت بصري بينه وبين ياسمين وكأني أستحثه على منحي الرضا الكامل، أدفعه بعينيّ الدامعتين لكي يصلح الضلع المكسور، كان أبي ذكيًا ولم تطل نظراتي بينهما، اقترب من ياسمين وطبطب عليها ثم ضربها على رأسها من الخلف مداعبًا بأطراف أصابعه قائلًا:

- أنت مش هاتوحشني.. معايا نسخة منك هنا تانية.. لِمضة برضه زيك..

احتَضنَّاه معًا بدفء وشاركتنا أمي ثم أفلَتُّ منهم بعذوبة وانطلقتُ في طريقي دون أن أدير ظهري محاولًا كبح دموعي بشتى السبل.

- دكتور مصطفى.. دكتور مصطفى..

نقلت بصري إلى عم إسماعيل ابن الأقصر وأنا أخرج بهدوء من ذكرياتي:

- فيه حاجة يا عم إسماعيل؟!

- أنت اللي فيه حاجة يا دكتور؟! أنت بتعيَّط يا ابني ولَّا إيه؟!

انتبهت ثم قلت وأنا أمسح دموعي بكف يدي:

- لا أبدًا يا عم إسماعيل.. أنا لما بقلع النضارة عينيًّا بتدمع زي ما أنت شايف.

- وحِّد الله يا ابني ده أنت لسه واصل.. هي أمريكا لحقت توحشك.

الرجل البسيط غير المتعلم الطاعن في السن يستطيع بنظرة واحدة فك طلاسم إحساسي، لا تمرّ عليه تلك الأكاذيب التي لا تصدر سوى عن طفل، عم إسماعيل يبلغ من العمر 65 عامًا، طويل له بنية هزيلة، ما زال يحتفظ ببقايا شعر متناثر في رأسه، ذو بشرة سمراء رقيقة، متزوج وله أربعة أبناء ذكور، يساعده أحدهم في أعمال البناية من تنظيف وتلبية طلبات أصحاب الشقق في البناية وغيرها من الأعمال التي تستوجب مجهودا لم يعد يستطيع القيام به، بينما أبناؤه الآخرون يعملون في التجارة ولم يتعلم منهم سوى أصغرهم الذي حصل على ليسانس الحقوق، كما ذكر لي عم إسماعيل وهو يثرثر معي في محاولة للترويح عني، حكى لي عن شقاوتي حينما كنت صغيرًا وعن المقالب التي فعلتها في حقه والتي كانت تجلب له السعادة، بصدق لا أستطيع تذكر أيًا منها ولكنه منحني جزءًا كم تاقت ومالت نفسي لمعرفته، كان ابنه الأكبر منشغلًا في التنظيف ولم نتبادل الحديث كثيرًا ولكنه كان ينصت لنا دون أن تبدر منه أي كلمة، حدثني عم إسماعيل أيضًا عن تغير حال البلد من سيئ إلى أسوأ ورغم أنه حاول تخفيف وطأة الأحداث والتغيرات التي طرأت إلا أنه في نفس الوقت اتخذ مكان الأب النصوح حتى يُخلّص ضميره منّي على حد قوله، سعدت بالحديث معه بشكل كبير.

كانت المفاجأة قوية حينما اتصلت بخالي أشرف يونس بعد أن رد على اتصالي بعد محاولات طويلة مريرة، أعتقد أن مفاجأتي لم تكن كما توقّعت لأني أخذت وقتًا طويلًا وأنا أقف خارج شركته أحدّثه كي أخبره بأنني هنا في مصر، وما هي إلا ساعة وأكون عنده.

دلفت مكتبه فنظر لي نظرة مستطلعة غير مستوعب ثم احتضنني بشدة وهو يرحب بي ترحيبًا حافلًا، لقد تغيرت ملامحه وصارت محمَّلة بالهموم والأشغال، طلب من الفتاة التي تجلس في الخارج، والتي بدت لي راقصة «استربتيز» أكثر منها سكرتيرة، ألا يزعجه أحد حتى أخرج من عنده. رحّب بي وهو يبتسم وقال:

- وأنت عامل إيه بقى يا مصطفى؟

- أنا كويس.. أنت اللي عامل إيه يا خالي؟!

- الحمد لله على كل حال بس مش هاخبي عليك الدنيا عندي مقلوبة والحال ما يسرش.

نظرت له بقلق وقد علا وجهي تعبيرًا فضوليًا ثم قلت:

- خير يا خالي في إيه؟

- من يوم ما قامت الثورة وأنا عندي مشاكل في الشغل، ده غير مشاكل أيمن وأمجد اللي ما بتنتهيش، أمجد بعربدته ونزواته اللي بدفع تمنها من سمعتي، وأيمن اللي كل شوية يعمل مشاكل في المصحة اللي هو فيها ده غير إني بحاول لحد النهارده أوصل لمراته وأولاده ومش عارف أو بمعني أصح وقتي مش مساعدني وسط كم المشاكل اللي أنا فيها.

تنهد تنهيدة عميقة ثم رفع سماعة الهاتف بجواره وطلب قهوة سادة له ثم سألني إن كنت أرغب في شرب شيء فقلت:

- قهوة مظبوط.

نظر لي ثم قال وهو يرسم ابتسامة على وجهه:

- ما قلتليش بقى هاتقعد هنا أد إيه؟!

- أنا جاي أقيم هنا يا خالي.

- إيه؟!! بتقول إيه؟!

- إيه يا خالي؟! حتى أنت!! وبعدين ما أنا قلتلك في التليفون! هو أنا كل ما بقول لحد كده بيحسسني إني مجنون ليه؟!

- أيوه مجنون طبعًا.. حد يسيب أمريكا ويجي يعيش هنا في الوحل يا ابني.

- وحل؟! وحل إيه بس يا خالي؟! البلد دي كويسة بس محتاجة شوية شغل بس.

- الله يكملك بعقلك.. أنا مش هاتكلم كتير وهاخليك تشوف بنفسك بس قل لي هتشتغل هنا إيه بقى؟!

- ما أنا جاي لك علشان كده.

- آه قلت لي بقى.. يا بتاع مصلحتك.. طول عمرك واد استغلالي.

أطلقت ضحكة وأنا أتناول فنجان القهوة من أحد العاملين الذي دخل يحمل صينية عليها فنجانان من القهوة وكوبان من الماء ثم خرج وأغلق الباب خلفه:

- أنا برضه واد استغلالي يا خالي؟!

- آه واد استغلالي المهم قل لي عاوز إيه؟!

- عاوز أشتغل في الطب الشرعي في مصر.

أخذ خالي نفسًا عميقًا ثم عاد بظهره إلى الوراء مستندًا إلى كرسيه ثم قال:

- الموضوع مش سهل.

- ومش صعب على خالي حبيبي.

ضحك ضحكة صاخبة ثم قال:

- لو كان قبل الثورة كنت قلتلك أقدر أعمل ده بس الأمور دلوقتي كل يوم بحال، بقينا بننام النهارده واحنا مش عارفين إيه اللي هايحصل بكره.. ما فيش استقرار.

- ده طبيعي يا خالي بعد أي ثورة.. فرنسا قعدت 18 سنة بعد ثورتها لحد ما استقرت ودلوقتي شوف بقت إيه.

- بقولك إيه ما تاكلش دماغي.. أنا عارف إني مش هخلص منك.. أنا أعرف ناس كتير في الداخلية ممكن يساعدوني بس فيه ظابط ابن حلال لسه مخلصني من مشكلة في شغلي.. هكلمهولك.. اسمه عصام الرشيدي.. أبوه الله يرحمه كان صاحبي.. ربنا يصبّره.. حاولت ناس تقتله لكن اللي مات ابنه ومراته اتشلت للأسف.

- لا حول ولا قوة إلا بالله.

- مش بقولك أنت فاكرنا في أوربا.

- طيب يا خالي.. أنت شايف إنه ممكن يساعدنا.. أنا عمومًا بعتّ ورقي ليهم من قبل ما آجي هنا.. الموضوع بس محتاج حد يتكلم فيه وسط الدوشة اللي البلد فيها.

- أنا عارف إني كده هاتقل عليه بس أنا هاعزمه وهاخليك تحضر ونكلمه إحنا الاتنين وأهو تتعرف عليه.. هاينفعك أكيد، وفي بلدنا دي لازم تكون ليك معارف زي خالك كده علشان حالك يمشي.

- واسطة يعني.

- آل يعني أنت فاكر هاتشتغل من غيرها.

أطلقت ضحكة وقلت:

- أبدًا والله أنا مؤهل أشتغل في أي مكان في العالم بشهاداتي وخبرتي.

- عادي فيه اللي زيك وأكتر ومعاه دكتوراه وقاعد على القهوة.
- على القهوة إزاي يعني؟
- آه أنت هاتغلّبني معاك.. لسه في لغة جديدة هاتفهمها مع قعدتك هنا.. يلّا امشي دلوقتي عندي شغل كتير واعمل حسابك هانتغدى مع بعض.

نهضت وودعته ثم انصرفت، ركبت تاكسي وقررت أن أشتري سيارة جديدة. رحت أتأمل الشوارع والناس، لفتت نظري فتاة جميلة قمحية البشرة تسير في أحد شوارع المهندسين حيث توجد شركة خالي، ظلت عيناي متعلقتين بها وتمنيت ألا تفتح الإشارة وتتحرك السيارة وأظل هكذا للأبد، تلاقت أعيننا في لحظة خاطفة مسروقة من الزمن وكأننا تحت سيطرة سحر غريب حتى ابتعدت السيارة، لا أدري لم شعرت ذلك الشعور الغريب الذي تسلل إلى نفسي؟! لعنت نفسي لأني لم أقفز من السيارة وأذهب للتعرف إليها، وفكرت: هل يأتي الحب من نظرة واحدة كما يقولون؟! وكيف يتسنى لي لقاءها مرة أخرى؟! ذهبت واشتريت بعض الأشياء والسلع للثلاجة كما اشتريت بعض الكتب من مكتبة الشروق في شارع طلعت حرب، وعدت إلى الشقة. لم أستطع بأي شكل تنحية شكل الفتاة عن ذهني رغم محاولاتي إبعادها عن مخيلتي حتى إني كنت شاردًا وأنا أتناول الغداء مع خالي.. كنت تائهًا ضائعًا تتملكني أحاسيس غريبة.

جرد بيت الكشر

الفصل 11

مرت ثلاثة أسابيع على عملي في الكوافير لدى توحيدة الشهيرة باسم توحة، لم أرَ منها إلا كل خير، قد تكون سليطة اللسان، فارحة وفاتنة الحياء، متأودة بسبب وبلا سبب في مشيتها وحركاتها لكن حالها حال معظم من يعملون في تلك المهنة، كما أنها طيبة لم تعاملني يومًا بطريقة فظة كما تفعل مع الفتيات الأخريات ولم تتأفف يومًا من عدم ملاحقتي في بعض الأحيان للاتصالات العديدة على الكوافير، وقد يفلت مني مرة أو أكثر اتصالًا لزبونة، لم يكن أمامي خيار آخر إذ ما زلت منهكة ضائعة في وادٍ سحيق من الألم والظلام، كما أن المجهول سيئ له طعم مرير ولون أسود حالك مفزع. لا أقوى على مواجهة المجهول، يكفيني ما رأيت وليبق الحال كما هو عليه حتى إشعار آخر يقرره القدر، في عملي أتعجب من الفتيات في أسلوبهن ولغتهن أيضًا، يتحدثن أمام الزبائن بلغة لا أفهمها ولا يفهمها أيضًا الزبائن وأعتقد أنهن يقصدن ذلك حتى لا يكشف أحد الأسرار الكامنة داخل أحاديثهن الفاحشة على الدوام، ليس عندهن من الحياء مثقال ذرة ولا يأبهن لرأي أحد فيهن، جاهلات، مائعات، سليطات اللسان، يتنافسن في اللهو والضحك على الزبائن والاستخفاف بهن وكأنهن يعوِّضن نقصًا ما في أنفسهن، أو كأنهن يربأن صدعًا ما في أرواحهن.

كانت هناك فتاة واحدة واسمها منة تحاول التقرب إليَّ كلما استطاعت، ولا أعرف السبب المستتر خلف هذا التصرف، لم أشاركهن الطعام أبدًا إلا مرة واحدة وقمت قبل أن أشبع لأن همساتهن ولمزاتهن جعلتني على

يقين بأنهن يتحدثن عني بلغتهن غير المفهومة لي، يا لوقاحتهن! ثم بعد ذلك يطلقن الضحكات الرقيعة وهن يتمايلن كالشيطان في جلسة إبليسية سوداء، نهضت غاضبة لكني لم أقوَ على مواجهتهن، فهن كثر وأنا وحيدة، هن فاحشات إلى أبعد مدى كما أنهن بالتأكيد متشككات ويبحثن خلف حكايتي الغامضة التي ستكون بلا شك منفذًا لهن ليصبّوا نقصهن وفحشهن عليَّ وأنا لا طاقة لي بهن.

ذات مرة اقتربت مني الفتاة المدعوة منة وحاولت دفعي إلى الكلام بحجة التعرف إليَّ، لم أرتح لها منذ رأيتها ولذلك لم تصل معي لشيء، لا لإجابة شافية ولا لرد واضح، كانت الفتيات في بعض الأحيان يسخرن منها ولكنهن سرعان ما يعدن ويمسكن عن سخريتهن متراجعات في أماكنهن بل ويطلبن منها السماح بطريقة هزلية وبأسلوب متملق خالٍ من المشاعر وقد اجتاحهن إحساس غريب بالرهبة التي لا أفهم كنهها حتى هذه اللحظة وكأن في الفتاة سرًا يمنعهن عن التمادي معها في ما يفعلن، عرفت فيما بعد بأنها يتيمة لها أربع أخوات، ثلاث أصغر منها وواحدة أكبر. عرفت من أحاديث الفتيات أثناء غيابها أن تلك الكبيرة هربت ذات يوم ولم تعد أبدًا، لم تتكبد منة عناء البحث عنها لأن لديها ما يكفي من المشاكل في حياتها، والغريب أنها لم تكن ناقمة على أختها بل كانت تقول بعزة نفس وقد علا وجهها تعبيرًا يعكس المرارة:

- غصب عنها.. يا رب تكون بخير وعايشة أحسن مني.. إحنا يا ما شفنا.

رغم ما تعكسه منة من أسلوب يستدر العطف فيجعل المرء يشفق عليها إلا أن سرًا ما يتوارى خلفها، شيئًا ما غائصًا في أعماقها لا يعرفه أحد، ربما أنا وحدي لا أعرفه وإلا لِمَ تتراجع الفتيات القاسيات الأشبه بالساحرات عن مضايقتها وكأن هناك حدًّا فاصلًا خفيًا لا أراه يمنعهن عن ذلك؟!

يقين بأنهن يتحدثن عني بلغتهن غير المفهومة لي، يا لوقاحتهن! ثم بعد ذلك يطلقن الضحكات الرقيعة وهن يتمايلن كالشيطان في جلسة إبليسية سوداء، نهضت غاضبة لكني لم أقوَ على مواجهتهن، فهن كثر وأنا وحيدة، هن فاحشات إلى أبعد مدى كما أنهن بالتأكيد متشككات ويبحثن خلف حكايتي الغامضة التي ستكون بلا شك منفذًا لهن ليصبّوا نقصهن وفحشهن عليّ وأنا لا طاقة لي بهن.

ذات مرة اقتربت مني الفتاة المدعوة منة وحاولت دفعي إلى الكلام بحجة التعرف إليَّ، لم أرتح لها منذ رأيتها ولذلك لم تصل معي لشيء، لا لإجابة شافية ولا لرد واضح، كانت الفتيات في بعض الأحيان يسخرن منها ولكنهن سرعان ما يعدن ويمسكن عن سخريتهن متراجعات في أماكنهن بل ويطلبن منها السماح بطريقة هزلية وبأسلوب متملق خالٍ من المشاعر وقد اجتاحهن إحساس غريب بالرهبة التي لا أفهم كنهها حتى هذه اللحظة وكأن في الفتاة سرًا يمنعهن عن التمادي معها في ما يفعلن، عرفت فيما بعد بأنها يتيمة لها أربع أخوات، ثلاث أصغر منها وواحدة أكبر. عرفت من أحاديث الفتيات أثناء غيابها أن تلك الكبيرة هربت ذات يوم ولم تعد أبدًا، لم تتكبد منة عناء البحث عنها لأن لديها ما يكفي من المشاكل في حياتها، والغريب أنها لم تكن ناقمة على أختها بل كانت تقول بعزة نفس وقد علا وجهها تعبيرًا يعكس المرارة:

- غصب عنها.. يا رب تكون بخير وعايشة أحسن مني.. إحنا يا ما شفنا.

رغم ما تعكسه منة من أسلوب يستدر العطف فيجعل المرء يشفق عليها إلا أن سرًا ما يتوارى خلفها، شيئًا ما غائصًا في أعماقها لا يعرفه أحد، ربما أنا وحدي لا أعرفه وإلا لمَ تتراجع الفتيات القاسيات الأشبه بالساحرات عن مضايقتها وكأن هناك حدًّا فاصلًا خفيًّا لا أراه يمنعهن عن ذلك؟!

أذهب إلى عملي بعد الظهيرة، ولكني أخرج قبل ذلك بكثير كي ألتقي بصديقتي الوحيدة شهيرة، أقص عليها كل ما يحدث في الكوافير من أحداث، بل أقص عليها كل ما يحدث لي على مدار اليوم داخل وخارج الكوافير إن كان في ما يحدث خارجه شيء يذكر.. ذات يوم ونحن نحتسي الشاي أخبرتها بأن توحة نفحتني مبلغًا من المال كي أشتري به ملابس لنفسي لأنها لاحظت بأني لا أغير الثياب التي أرتديها وهذا لا يناسب فتاة تعد واجهة الكوافير وأناقته، على أن تستقطع كل شهر جزءًا من مرتبي، نظرت لي شهيرة نظرة طويلة متسائلة مختلطة بشيء من التردد والقلق ثم قالت بهمس وكأنها تفشي سرًا:

- بقولك إيه.. خلي بالك من نفسك واوعى تثقي في حد، وخصوصًا توحة دي.. المَرَة دي أنا مش برتاح لها ولمَّا بشوفها عفاريت الدنيا بتتنطط في وشي.. ده غير إن الولية دي بقى.. سمعتها مش حلوة.. ماشي يا ياسمين.

نظرت لشهيرة نظرة متطلعة وقد تسلل الخوف داخلي، لم أنطق بكلمة واحدة وعدت بذاكرتي للوراء قليلًا، لمعاملة توحة لي ومقارنتها بمعاملة الفتيات، إنها دومًا تتفحصني بمجرد دخولي الكوافير فهي تأتي قبلي ولا تتأخر توحة أبدًا عن مواعيدها بل يمكن للعاملة هناك أن تضبط ساعتها على مواعيدها، تسألني من وقت لآخر عن حالي وحياتي وأمنحها إجابات عادية محافظة، تحيطها هالة من السرية والغموض حتى لا أصبح مرتعًا لكل من تسول له نفسه التلاعب بي، أو إمساك خيط يُمَكّنه مني. وقد وضعت لنفسي قواعد، أهمها أن الثقة في الأشخاص ممنوعة منعًا باتًا، لكني لم أرَ منها شيئًا يجعلني أرتاب منها أو أشك بها، فهي تنغمس في عملها وأستطيع أن أقول بأنها لا تتوقف عن الحديث في التليفون طوال اليوم حتى تنتهي تمامًا ولم أحس يومًا بأنها شعرت بالملل منه، ولكن الغريب أن معظم من يتحدثون إليها من الرجال ولكن هذا لا يعنيني طالما أن الأمر برمته بعيدًا عني.

الشيء الغريب في الأمر أن هناك يومًا في الأسبوع وأحيانًا يومين تجلس منة فيه على كرسي الزبائن وتقوم إحدي الفتيات بتزيينها وإلباسها فستانًا مؤجّرًا من محل مجاور ثم تخرج وتركب وحدها السيارة التويوتا التي تملكها نهى ويقودها فهمي، حتى إن فهمي يهبُّ من مكانه ويفتح لها الباب كما يفعل مع مدام نهى بالضبط. تعجبت من الأمر ولكني لم أحاول ولو مرة أن أسأل أي شخص، حتى شهيرة نفسها، لا أدري ما الذي منعني عن السؤال، هل هو خوفي من معرفة حقيقة تجعلني أهرب مرة أخرى؟! هل هناك شيء متعلق بتوحة ونهى معًا وتشاركهن فيه منة؟! هل ذلك السبب ما يدفع الفتيات في الكوافير لمعاملة منة بطريقة معينة؟! إلى أين تذهب منة ولمن تتزين وما دخل نهى وفهمي بالموضوع كله؟! ولمَ تتحول منة فجأة إلى امرأة مرموقة يقدرها ويحترمها الجميع؟! الموضوع برمته يشبه عرضًا مسرحيًا بطلته منة! وحينما تعود في اليوم الثاني تصبح على ما كانت عليه من قبل كل ذلك وكأنها كانت تؤدي دورًا في مسرحية وعندما ينتهي العرض تخلع ملابس التمثيل وتعود إلى حياتها الطبيعية العادية، الكثير من الأسئلة مرت في مخيلتي خلال المدة المنصرمة ولكنها جميعها ظلّت غامضة بلا إجابة شافية.

أستطيع أن أتذكر أصوات طلقات الرصاص والهلع الذي أصابنا جميعًا فهرولنا مختبئين مع الزبائن الموجودين داخل المحل وعرفنا فيما بعد أن مشاجرة كبيرة نشبت بين عناصر من الإخوان وبعض سكان الشارع في عين شمس، حتى إن الأهالي قاموا بتخريب عمارة كاملة يملكها عنصر منتمٍ لجماعة الإخوان بل قاموا أيضًا بضرب عناصر الإخوان حتى الموت، حمدت الله أنه لم يطلنا مكروه على أن مشاهد وأصوات الرصاص لم تتوقف على مدار اليومين التاليين وكنت حذرة تمامًا أثناء الذهاب والعودة من عملي.

تغيبت شهيرة عن العمل يومين بسبب مرض إحدى أخواتها فذهبت لزيارتها في منزلها المتواضع. أخبرتها أني ذاهبة لشراء ملابس من وسط

الشيء الغريب في الأمر أن هناك يومًا في الأسبوع وأحيانًا يومين تجلس منة فيه على كرسي الزبائن وتقوم إحدي الفتيات بتزيينها وإلباسها فستانًا مؤجّرًا من محل مجاور ثم تخرج وتركب وحدها السيارة التويوتا التي تملكها نهى ويقودها فهمي، حتى إن فهمي يهبُّ من مكانه ويفتح لها الباب كما يفعل مع مدام نهى بالضبط. تعجبت من الأمر ولكني لم أحاول ولو مرة أن أسأل أي شخص، حتى شهيرة نفسها، لا أدري ما الذي منعني عن السؤال، هل هو خوفي من معرفة حقيقة تجعلني أهرب مرة أخرى؟! هل هناك شيء متعلق بتوحة ونهى معًا وتشاركهن فيه منة؟! هل ذلك السبب ما يدفع الفتيات في الكوافير لمعاملة منة بطريقة معينة؟! إلى أين تذهب منة ولمن تتزين وما دخل نهى وفهمي بالموضوع كله؟! ولمَ تتحول منة فجأة إلى امرأة مرموقة يقدرها ويحترمها الجميع؟! الموضوع برمته يشبه عرضًا مسرحيًا بطلته منة! وحينما تعود في اليوم الثاني تصبح على ما كانت عليه من قبل كل ذلك وكأنها كانت تؤدي دورًا في مسرحية وعندما ينتهي العرض تخلع ملابس التمثيل وتعود إلى حياتها الطبيعية العادية، الكثير من الأسئلة مرت في مخيلتي خلال المدة المنصرمة ولكنها جميعها ظلّت غامضة بلا إجابة شافية.

أستطيع أن أتذكر أصوات طلقات الرصاص والهلع الذي أصابنا جميعًا فهرولنا مختبئين مع الزبائن الموجودين داخل المحل وعرفنا فيما بعد أن مشاجرة كبيرة نشبت بين عناصر من الإخوان وبعض سكان الشارع في عين شمس، حتى إن الأهالي قاموا بتخريب عمارة كاملة يملكها عنصر منتمٍ لجماعة الإخوان بل قاموا أيضًا بضرب عناصر الإخوان حتى الموت، حمدت الله أنه لم يطلنا مكروه على أن مشاهد وأصوات الرصاص لم تتوقف على مدار اليومين التاليين وكنت حذرة تمامًا أثناء الذهاب والعودة من عملي.

تغيبت شهيرة عن العمل يومين بسبب مرض إحدى أخواتها فذهبت لزيارتها في منزلها المتواضع. أخبرتها أني ذاهبة لشراء ملابس من وسط

البلد وسألتها عن إمكانية ذهابها معي حيث لا أعرف شيئًا ولكنها اعتذرت ولم يكن عليها بالفعل أن تأتي معي فقد كانت أختها محمومة، تمنيت لها الشفاء وعرضت عليها البقاء معها حتى أساعدها ولكنها رفضت. وعلى كل حال لن أستطيع البقاء في ذلك المنزل المزدحم المتهالك، فكان الله في عون شهيرة وأسرتها.

لم أذهب في ذلك اليوم لشراء أي شيء ولكني ذهبت في اليوم التالي بعد أن استأذنت مدام توحة ووافقت في الحال دون أي تأفف رغم أنه من الصعب ترك مكاني حيث أنا المسئولة الوحيدة عن الرد على اتصالات الزبائن وتدوين المواعيد وترتيبها كما قبض المال من الزبائن التي تأتي لتحجز لعُرس أو مناسبة ما، ذهبت سريعًا بعد العصر إلى وسط البلد واشتريت لنفسي طقمين كاملين، وقفت قليلًا وأنا أنظر حولي حاملة الأكياس في يدي وفكرت في ما آلت إليه الأمور والنقطة التي وصلت إليها، ركبت تاكسي كنوع من احترامي لنفسي وسط ما يحدث لي وكأني أمنح نفسي جائزة على الصبر والجلد اللذين أبديتهما رغم ما لاقيت من مآسٍ وأهوال وحياة ما زالت تتسم بالغموض وتحيط بها هالة غريبة من الشر المستتر، ربما كنت أتوق للفتاة التي كنت يوما أحبها، تلك الفتاة التي لم ترتكب أي خطأ، بل حافظت على نفسها وعلى كرامتها، ولكنها مع ذلك خسرت كل شيء ولا تستطيع أن تخبر أحدًا بالظلم الذي وقع عليها والشقاء الذي تقاسيه.

ذهبت إلى المهندسين كمحاولة مني للعيش ولو لوقت قصير في مكان نظيف عامر ببعض الناس الذين يمكن وصفهم بأنهم عالم آخر يختلف عن الطبقة التي أعيش وأعمل معها، شعرت بمجرد نزولي وسيري قليلًا في شوارع المهندسين بأني هاجرت لمكان آخر يتمتع بالنظافة والأمل والحياة، بعيدًا عن الوساخة واليأس والموت، أخذت نفسًا عميقًا وكأني أستنشق هواء نظيفًا بعد أن تعبت رئتاي بسبب الهواء الدنس المتلفع بقذارة وسقوط من يتنفسه، ابتسمت ابتسامة عريضة، وفي تلك اللحظة مر

تاكسي من جواري وتوقف عند إشارة فتعلقت عيناي دون وعي بشاب داخل التاكسي كان ينظر إليَّ وكأنه ينظر إلى أميرة.. أو إلى ملكة نزلت عن عرشها وقررت أخذ جولة في مملكتها دون حراسة، لا أدري لمَ تملكني شعور رهيب ورغبة عاتية بالهرولة خلف التاكسي بعد مغادرته، شدني وجذبني ذلك الإحساس القديم بأني مرغوبة على نحو ما، بأني فتاة عادية جميلة وأنيقة يرغب بها الرجال حتى وإن لم أظهر ذلك يومًا، لسبب ما رغبت فعلًا في أن أعود عذراء لا نكرة دهستها الأهوال.

****

جرعة كبيرة حكيتها وسجلتها في اليوم الثالث، خلال اليوم فككت له الكمامة لكني تركت عينيه داخل الظلمة ليرسم داخل السواد الأحداث الأكثر سوداوية لقصتي القاتمة، فتحت علبة تونة أخرى وأطعمته منها، لمحت الشال على عينيه مبللًا يسيل من تحته خيط ضعيف من الدموع، لم أكن أدرى أكان يبكي من تأثير قصتي عليه؟! أم من خوفه الشديد الذي عاناه خلال الأيام الثقيلة الأخيرة؟! لكنه قال بنبرة تستدر الشفقة ليقطع شكوكي:

- أنا نفسي تفهمي إني ما ليش ذنب في كل اللي حصل لك.

صفعته على وجهه صفعة قوية وأنا أصرخ في وجهه صرخة مدوية فأشاح بوجهه مرتعدًا وقد سرت رجفة في جسده ثم قال بصوت يجهش بالبكاء:

- والله أنا هاساعدك بس فكيني أرجوكِ.. أنا تعبان وما بقتش قادر بجد.. إنتِ طيبة وبنت ناس بس الظروف ساعات بتكون صعبة أوي.. بلاش إنتِ كمان تتحولي لمجرمة.

- مجرمة!!

نطقت كلمتي الأخيرة بسخرية وتهكم وأنا أقهقه وأردد تلك الكلمة:

- مجرمة! آه مجرمة..

ضحكت وضحكت وضحكت حد البكاء.

الفصل 10

مر يومان ولم يفارق خيالي ذلك الشاب الذي أجّج مشاعري إلى حد أن صورته انطبعت في رأسي، كنت أجلس منهمكة في عملي حينما دخل عليّ رجل قوى البنية له ملامح مخيفة وابتسامة خرقاء، كنت أقوم بترتيب مواعيد الزبائن وإخطار الضروري والمهم منها لمدام توحة حيث تتوالد على الكوافير قلة من النساء اللائي تبدو عليهن أمارات الغنى ولا يتتمين مطلقا لهذه البقعة المتدنية من الأرض وأتعجب حتى الآن لم اخترن هذا الكوافير الشعبي تحديدًا ليكون الكوافير المختص والمسئول عن تزيينهن! الغريب في الأمر بالنسبة لي أن أحاديثهن وطريقتهن بدت غريبة أحيانًا مع توحة التي تعاملهن معاملة خاصة، تهتم بهن اهتمامًا بالغًا بمجرد دخولهن الكوافير، وقد بدا أيضًا أنهن يعرفن توحة معرفة قديمة شخصية بل إن أسلوبهن الراقي وحديثهن المنتقى كلماته بعناية وطريقتهن المتعالية معي تتحوّل بمجرد رؤية توحة إلى طريقة تحمل جانبًا من البذاءة والوقاحة وكأنهن لا يفرقن شيئًا عن توحة سوى أن حدثا عارضا ما وقع لهن فحولهن إلى ما هن عليه، وتخيلتهن للحظة مثل منة تمامًا، متنكرات في زي خاص سرعان ما سيسقط لتظهر وجوههن الحقيقية داخل الكواليس بعيدًا عن المسرح.

نظر لي الرجل طويلًا متفحصًا وما زالت الابتسامة الخرقاء ترتسم على ملامحه بينما عيناه الخضروان تلمعان بشكل مثير ثم قال بصوت جهوري:

- توحة هنا يا حلوة؟

حدجته بنظرة قاسية وقد تسلل داخلي خوف ثم قلت بحزم:

- حضرتك مين وعاوز مدام توحة في إيه؟

قال ببرود وما زالت الابتسامة ترتسم على وجهه:

- ما لك يا حلوة؟! إنتِ زعلتي ولّا إيه؟! ده أنا بسأل على أبلتك توحة بس، وبعدين فيه حد يعامل الزباين بالشكل ده؟!

رمقته بنظرة متفحِّصة، لم أشعر بالراحة تجاهه وشعرت بأن المتاعب تنتظرني فقلت له:

- مدام توحة مشغولة جوَّه مع الزباين.. لو حضرتك عاوز تحجز لمراتك ولّا لأي حد تبعك بلغني وأنا هاسجلك الحجز.

أطلق ضحكة مجلجلة ثم وضع يده في جيب سرواله وأخرج علبة سجائر انتزع منها سيجارة ووضعها في فمه وهو ما زال يتفحصني بنظرة وقحة فقلت بحدة:

- التدخين ممنوع هنا لو سمحت.

علت ضحكته أكثر ومد يده ليمسك بذقني وكأنه يلاطف فتاة صغيرة فدفعت يده بشراسة وشرع جسدي يرتجف وأنا أصيح:

- أنت قليل الأدب.. يا مدام توحة.. يا مدام توحة..

فخرجت توحة مسرعة على صوت صياحي بينما ظل ذلك الشخص الغريب الوقح ينظر لي دون أن يرفّ له رمش وهو يشعل سيجارته بلامبالاة فالتقت عينيه بعيني توحة فشهقت توحة وضربت على صدرها ثم قالت بصوت مرح:

- جتك إيه يا زاهر؟! عملت إيه في البت؟

فأشار بيده بشكل استعراضي ثم قال بمرح:

- عليّ الطلاق ما عملت لها حاجة يا حبيبة قلبي.

فأطلقت توحة ضحكة رقيعة وهي تقول:

- فينك يا ناكر العشرة من زمان؟!

صاح زاهر قائلًا ملوحًا بيديه وكأنه يهتف في مظاهرة:

- الجيش والشعب إيد واحدة.

أطلقت توحة ضحكة أكثر مجونًا من سابقتها ثم قالت:

- طيب والشرطة؟

- ما الإيد الواحدة دي هي الشرطة يا جاهلة.

جذبته توحة من ذراعه بينما ظلت عيناه مثبتة عليَّ، جلس زاهر في مواجهة توحة وراح ينقل بصره من وقت لآخر بيني و بين توحة وهي تتحدث في مواضيع متعددة في وقت واحد بانفعال غريب. بدا لي مشتتًا على نحو ما، طلب كوبًا من الشاي فأعدته له إحدى الفتيات بأمر من توحة كأنه أمر صادر بفرمان ملكي، حاولت بقدر الإمكان عدم الالتفات لهما مع أنهما جالسان أمامي على كرسيين مواجهين للمكتب الصغير الذي أجلس خلفه طوال ساعات العمل، مقته منذ دخوله وشعرت تجاهه بكره غريب ممزوج برغبة نارية بسحقه ولكن كيف يقوى جسدي الضعيف على هزيمة هذا الكائن العملاق؟! فأحسست بمرارة دفينة تخترقني، ولكن سرعان ما نفضت كل تلك الأفكار التي تذكرني بمدى ضآلتي أمام هذا العالم الموحش.

الغريب أنني لأول مرة أرى وجه توحة متوردًا، ليس من أثر المساحيق الزهيدة الثمن التي نستخدمها في الكوافير بل إنه شيء آخر حوّلها فجأة إلى امرأة يانعة نضرة، متوردة الوجه تنطق كلماتها بخفة، حاولتْ خلال حديثها المسموع بأن تتخلى عن الوقاحة الملازمة لها في كل جملة تنطق بها وكأنها تستعيد جزءًا نقيًا منها أو تعود إلى فترة زمنية انسحقت تحت أقدام الزمن القاسية بينما هذا العملاق تحولت ملامحه إلى طفل صغير يتودد بشكل غريب إلى أمه لتمنحه الحنان الذي أضناه ندرته خلال غيابها،

كان المشهد مثيرًا، غريبًا وشاذًا بالنسبة لي، طلبت مني توحة أن أجلب لها شيئًا من الداخل بعد أن مال عليها المدعو زاهر وهمس لها بشيء لم أسمعه، وبمجرد أن نهضت من مكاني مال زاهر عليها مرة أخرى وتهامسا بشيء بدا على قدر كبير من السرية لأنه رمقني بطرف عينه بنظرة لم أسترح لها. وخلال عودتي رمقني مرة أخرى بنظرة طويلة وقحة مشوبة بشيء من التساؤل.

استأذنت توحة في المغادرة على أن آتيَ بعد ساعة حيث كنت أتغيب كل يوم في نفس الموعد بحجة تناول وجبة الغداء لألتقي بشهيرة فأقص عليها ما يحدث خلال يومي، وجود شهيرة بالنسبة لي كان مهمًا للغاية، لمرات عديدة شعرت بأنها السند الوحيد لي في هذه الحياة القاسية بعد ما فقدت كل شيء، كان شعوري تجاه شهيرة غريبًا كشعور طفل نحو أمه التي تمثل له الأمان والحماية، فمجرد رؤية شهيرة تبث في قلبي الأمان والسكينة، وافقت توحة بإيماءة من رأسها دون أن تنبس بكلمة، فقال ذلك الشخص الغريب المدعو زاهر:

- ما تتأخريش يا حلوة وخلي بالك من نفسك لا الثورة تاكلك.

حدجته بنظرة وقحة كي أرده إلى مكانه، ربما يعي أني لا أطيق مزاحه تقبل الظل فأطلق ضحكة عالية ببرود وكأني لم أفعل شيئًا بينما لكزته توحة في كتفه حتى توقفه، غادرت المكان منفعلة وقد اعتراني شعور بالاشمئزاز وغالبني إحساس غريب بالضعف والمهانة، حينما وصلت إلى شهيرة كنت في أوج غضبي، رويت لها ما حدث فهدأتني وهي تقول ضاحكة:

- ده زاهر.. عشيق توحة.. أنا عرفت الموضوع ده من بنت من البنات اللي شغالين عندها ولو حد سألها ده مين بتقوله ابن خالتها.. شغال أمين شرطة باين أو في الداخلية بس إنتِ عارفة بقى الداخلية كلها دلوقتي مغضوب عليها وواخدين إجازة مفتوحة.

لم يكن ذلك الأمر يعنيني في شيء، ولكن شعوري بأني ما زلت في

مهب الريح كان يخيفني على نحو ما، لم أستطع رد نظراته أو همساته ولمزاته عليّ التي بدت واضحة، لم أملك القوة ولا العزيمة المناسبة لوقفه عند حده، أنا ضعيفة لا أقوى على رد الضربات الموجهة لي في العراء، كما أن حكايتي الغامضة تجعلني مؤهلة لأن أكون هدفًا سهلًا لكل من يرغب التسديد، الأمر محزن وقاسٍ، وكذلك الحياة.

في تلك الليلة، في شقتي الصغيرة، وكنت أنام على الأرض المفروشة ببطانية كما العادة، ذرفت الدموع ليس جراء ما حدث لي وإنما خوفًا مما سيحدث لي، تسلل إلى داخلي رعب حاصرني تمامًا فأحسست أنني مقيّدة تنهشني الضربات تباعًا، فجأة ظهرت عيون ذلك الشاب التي التقت بي في ذلك اليوم في المهندسين، وبحضور صورته استكانت نفسي رغم حزني الكامن في صدري لمعرفتي السابقة بأنني لا أعرفه ولن ألتقي به مرة أخرى لكنني في النهاية ابتسمت والدموع تنزلق على وجنتيّ.

****

خلال الأيام التالية سارت حياتي بشكل روتيني، أصحو باكرًا أشرب فنجانًا من الشاي ثم أقوم بتنظيف المنزل سريعًا ومسحه جيدًا وبعدها أدخل الحمام للاستحمام، تقبلت حياتي الجديدة بشكل تدريجي حتى صارت بالنسبة لي اعتيادية وكأنها مرسومة لي منذ ولادتي، كقدر مكتوب لي. وكأن ما حدث من قبل كان حدثًا عارضًا، مرحلة دلال انتهى أوانها، لم يكن هناك أي نية أو خطة مسبقة لرسم ملامح لمستقبلي الغامض، التفكير فيه أمر مستحيل، مجرد التفكير فيه بيني وبين نفسي أمر مرفوض وثقيل، ذلك لمعرفتي السابقة بأن هذا عبث لن يعود عليّ إلا بالاكتئاب وأنا لا أحتمل المزيد، فكرت في أهلي على فترات متقطعة وبكيت وانتحبت كثيرًا ولكني أدركت أن لا شيء بيدي، تمنيت في أعماقي أن أراهم مرة أخرى وأطمئن عليهم، تساءلت كثيرًا عن حالهم بعد غيابي وما تعرضوا له من أهوال ومآسٍ وحزن عميق إثر اختفائي المفاجئ والغامض حتى إني

فكرت في الذهاب إليهم هربًا من قسوة التفكير بهم والوحدة والخوف ولكني في اللحظة الأخيرة أتراجع عن قراري وأتكوم خلف باب شقتي وأبكي.

انغمست في حياتي بكل طاقتي حتى لا أترك مكانًا للتفكير، ونسيت أمر الشاب الذي لمحته في ذاك اليوم حتى لا أترك لنفسي أملًا عالقًا في داخلي بلا جدوى، استرحت حينما صارت الحياة بالنسبة لي مجردة وقحة، حقيقية إلى الدرجة التي يستحيل معها بناء أية آمال خادعة لن تؤتي ثمارها.

بعد عدة أيام كانت خلالها توحة تهتم بي على نحو غريب، حيث كانت خلال فترات راحتها تصطحبني معها كي نتناول الغداء مثلًا في مطعم وأحيانًا ما كانت تستشيرني في بعض الأمور المهمة الخاصة بالكوافير وما يمكن تعديله حتى نظهر بشكل أفضل، كما أنها ذات مرة خلال حديثنا قصت لي حكايتها وكيف بدأت حتى وصلت إلى ما هي عليه الآن، رأيت فيها جانبًا آدميًا غريبًا متشبثًا بأذيال الحياة رغم الأهوال التي مرت بها حيث قالت لي ذات مرة وقد علت وجهها ابتسامة غريبة غامضة:

- الدنيا يا بتي ما حدش فيها بيختار يعيش إزاي.. دايمًا هي اللي بتختار له.. الشاطر بقى اللي يفهم ويمشيها على مزاجه وكل حاجة في أولها صعبة.. اوعي تكوني فاكرة إني فجأة بقيت صاحبة كوافير، لا.. أنا شُفت الذل والهوان في بداية حياتي من اللي يسوى واللي ما يسواش لحد ما فهمت الدنيا ماشية إزاي ومشيت معاها واللي يعمل نفسه أشطر منها تدوس على رقبته من غير حتى ما تدفع له التمن وأنا اتداس على رقبتي كتير بس عرفت إزاي آخد التمن.

شيء غريب جعلني أعجب بشخصها وأشفق عليها خاصة حين عرفت بأنها قادمة من الأرياف، من إحدى القرى التابعة لمحافظة الدقهلية، هربت

من أهلها وهي في سن الخامسة عشر بعد أن حاول زوج أمها الاعتداء عليها فآثرت الصمت حرصًا على أمها التي لا سند لها وهربت بلا رجعة، كانت المرارة تنعكس في كلماتها وعينيها حينما ذكرت ذلك الموضوع، اكتفت بهذا الجزء عن حياتها ولم تحاول فتح أي ملف آخر خاص بها مرة أخرى، كل ما عرفته تقريبًا ينحصر في كونها عملت خادمة في البيوت حتى اعتدى عليها أحدهم ولكنها لم تجرؤ على فتح فمها أو اتهامه حرصًا على حياتها خصوصًا أنه كان في مركز مرموق كما ذكرت، حالها حال الكثيرات ممن تلفظهن الأرياف إلى المدن. كانت توحة بالنسبة لي نموذجًا خالصًا لفيلم من تلك الأفلام القديمة انتقلت تفاصيله إلى أرض الواقع، خطر على بالي أكثر من مرة أن أسألها عن منة وحكايتها الغامضة الغريبة ولكني كنت أردع نفسي في اللحظة الأخيرة، فأن تأمنني على جانب من حياتها لا يعني أن ذلك يؤهلني لأن أخوض مناقشة قد تعرضني إلى الطرد من عملي أو ما هو أسوأ، أدركت أنه وفي وقت لاحق ومع تطور علاقتي بتوحة ستقص عليّ الحكاية من تلقاء نفسها، ما كان يريبني منها ذلك الجزء الغامض المتعلق بالنساء اللاتي يبدون لي وكأنهن يقمن بعرض مسرحي وتلك الاتصالات التي تأتيها فتترك ما بيدها أيا كان ثم تتحدث بلغة لا يستطيع فك رموزها أحد وحين تنتهي تشرد داخل أفكارها حتى تكاد تغيب عن الوجود نفسه، كما أن هذه الاتصالات أحيانًا يليها أمر لمنة مباشر بأن تجهّز نفسها ومن هنا نبدأ في تجهيز منة لدورها المسرحي المعهود.

على الجانب الآخر كنت أحكي لشهيرة كل ما يحدث دون ترك تفصيلة واحدة إلا ما يتعلق بحياة توحة الخاصة حيث كنت أعلم بأنه من العيب بل من الخيانة بأن أجعل من لحظات بوحها عرضًا في الجلسات الخاصة مع شهيرة أو غيرها، كانت شهيرة تنصت لي بعقل يقظ وانتباه شديد وتركيز عميق، لم تكن تعلق لكن في كل مرة كان خوفها يتزايد بل وأحيانًا كانت تهلع، حتى إنها عرضت عليّ بأن أترك العمل وأبحث عن عمل آخر ولم توضح لي ولو لمرة واحدة أفكارها أو تكهناتها التي دفعتها لذلك.

في يوم ما اتصلت بي توحة قبل ذهابي إلى العمل وطلبت مني أن أرتدي أفضل ما لديَّ من ثياب، كما أنها طلبت مني أن آتي متأخرةً لأن لديَّ عملًا خارج الكوافير، روّعني الأمر، أنصت لها على الهاتف والخوف يدق بمدقة حديدية على قلبي الذي تعالت نبضاته وتسارعت حتى كدت يغمى عليّ، هل جاء دوري الآن؟! هل سأتحوّل لمنة أخرى؟! تخيلت نفسي وأنا أتزين للقاء مصير مجهول تديره توحة ويقوده فهمي بسيارة نهى الفارهة، رأيت الفتيات يودّعنني بابتسامات صفراء شامتة، رأيت نفسي هناك في تلك المنطقة التي طالما رفضت فكرة الولوج داخلها، الآن أنا أتهيأ لأصبح مومسًا لزبون ما، إنها الحقيقة التي طالما درت حولها ورفضت الاعتراف بها، وكذلك شهيرة أبت أن تخرجها من فمها فتفزعني، قررت عدم الذهاب والبقاء في المنزل وقد حاصرتنى مخاوف لا حصر ولا نهاية لها، اكتفيت بالبكاء وأنا متقوقعة داخل غرفتي جالسة على الأرض وقد قمت بإغلاق جميع المنافذ وكأني أحتمي من بطش الحرب في الخارج، من أن أكون سبيَّة لجندي من بلاد بعيدة أتى للتلذذ بانتصاره والتمتع بغنيمته المرتقبة، بعد وقت مر ثقيلًا عليّ دق جرس منزلي فانتفضت في مكاني ورغم أني لم أفتح ولم أصدر حتى أي صوت يوحي بوجودي إلا أن الزائر الغامض لم ييأس ولم يتأفف من وقفته الطويلة خلف الباب منتظرًا بنفاد صبر، دق جرس هاتفي البخس الذي اشتريته سابقا، كان صوته يرن في جميع أركان الشقة الخالية إلا من أثاث لا يذكر متداخلا مع صوت طرقات الباب الثقيلة، عرفت بأن الطارق لن يبرح مكانه إلا بعد الوصول لمراده، نهضت بصعوبة والخوف يقتلني حتى وقفت خلف الباب وقلت بصوت مرتعش مهزوز:

- مين؟!

- أنا توحة يا ياسمين.. افتحي.. أنا قلقت عليكِ.

كنت أرتعد لدرجة حالت دون تفكيري في ما يجب فعله حتى إن يديّ ثقلتا فلم أستطع فكهما من بعضهما حيث كنت أشبكهما فوق صدري

محتضنة جسدي وكأني أحميه بهما، أزحت مزلاج الباب ثم فتحته بهدوء فدخلت توحة ووجدتني في حالة يرثى لها، انتفضت في مكانها حينما رأت حالتي والرعب الذي يسيطر عليّ، لم تكن تفهم ما يجري ولكنها حاولت بقدر الإمكان أن تهدئ من روعي، سألتني مرارًا عن السبب ولكني لم أجب، فأخبرتني بأنها كانت تنوي إرسالي مع فتاتين أخريين إلى منزل في المهندسين من أجل تزيين عروس وشرحت لي قائلة:

- أنا كنت عايزاكِ تروحي مع البنات علشان تخلي بالك من اللي بيحصل لأن فيه زبائن اشتكت من البنات اللي عندي وخصوصًا الشغل في البيوت، وأنا عايزة حد زيك بأتمنه يشرف عليهم لحد ما يخلصوا شغلهم.. بس بلاش ارتاحي إنتِ لأن باين إنك تعبانة.

لا أدري لمَ نهضت بعد فترة قصيرة وما زالت توحة تنظر لي متعجبة وقد ارتسمت في عينيها براءة غريبة ممتزجة بالتساؤل تعكس عدم فهمها على الإطلاق، فانسحبت بهدوء وغسلت وجهي جيدًا وكأني أستعيد نفسي مرة أخرى ثم خرجت وقد ارتسمت ابتسامة باهتة على وجهي وأخبرتها بأني جاهزة، ما الذي كنت أفكر فيه خلال هذه اللحظة؟! حتى الآن لا أعلم ولا أعرف إجابة واضحة لكن شيئًا غريبًا داخلي دفعني لإتمام المهمة أيًا كانت عواقبها وكأني أتحدى شيئًا غامضًا داخلي.

وصلت مع الفتاتين إلى العمارة المقصودة بالمهندسين، دلفنا نحن الثلاثة داخل الشقة حيث قابلتنا فتاة مراهقة ورحبت بنا وأجلستنا في غرفة الصالون ثم اختفت داخل إحدى الغرف، بدا لي الأمر عاديًا للغاية بينما لم أتبادل مع الفتيات كلمة واحدة إذ كنت شاردة داخل أفكاري وهواجسي السوداء القاتمة.

جاءت فتاة أخرى بدت أرستقراطية تشبه الفتاة الأولى وعرفت فيما بعد أنها أختها وعلى وجهها ارتسمت ابتسامة عريضة ثم أخبرتنا بأنها جاهزة. وشرعت الفتيات في العمل داخل غرفتها الخاصة الفسيحة، جلست على

سريرها الناعم وأنا أنظر من وقت لآخر إلى الباب متوهمة بأن شيئًا كارثيًا سيحدث فجأة ولكن ضج المنزل بالفتيات والرجال أقارب العروس وضج المنزل بالصخب والفرحة، بعد ساعتين انتهت الفتاتان من عملهما وجمعتا المعدات ووضعتاها داخل الحقيبة التي كانت بحوزتهما ثم تسللتا خارج الغرفة بعد أن نفحتهما الفتاة مالا، بعد ذلك جاءت تجاهي وسألتني:

- إنتِ ياسمين.. صح؟!

- أيوه.

- طيب يا ياسمين.. ده حساب مدام توحة.. هي قالت لي أديلك الحساب. والفلوس دي علشانك.

كان المبلغ الآخر 50 جنيهًا، أخذت المال شاردة دون شعور، كأن كل ما فكرت فيه كان مجرد كابوس لعين ارتسم داخلي جراء الضغط النفسي والتركيبة المعقدة للبيئة التي أعيش بها، خرجت مسرعة من الشقة وأنا أقبض على المال وكأني لم أستوعب أو أصدق بعد أن ما يحدث هو الحقيقة، في ذلك اليوم ذهبت إلى توحة وأفكار كثيرة تتلاطم في داخلي، على نحو ما شعرت بالأسف تجاهها ووخزني ضميري وشعرت بالإساءة تجاهها بل صرت في أعماقي أكن لها أسفًا لا أستطيع النطق به حتى أني نفحتها الخمسين جنيهًا على أنها زيادة على حسابها ولكن مدام توحة أعطتني إياها قائلة:

- خدي دي يا ياسمين.. ده رزقك.. روحي إنتِ دلوقتي ارتاحي.

لسبب ما، وأنا في طريقي إلى المنزل شعرت بالكره تجاه شهيرة، لم أمر عليها كما العادة بل تعمدت أن أسير من طريق مختلف. وفي الليل وجدت اسمها يظهر على شاشة هاتفي فلم أرد، نما ذلك الشعور داخلي فمقتها مقتًا شديدًا لأنها بَنَت كل تكهّناتها على أقوال غير حقيقية لفقها الناس لتوحة، خذلتني شهيرة وكادت أن تودي بعملي، المنقذ الوحيد لي داخل هذه الظلمة، فأغمضت عيني شاعرة بالخزي من نفسي.

الفصل 9

بعد يومين تقريبًا من الواقعة الأخيرة كانت علاقتي بشهيرة تسوء بشكل ملحوظ حتى إنها كانت ولا شك تتساءل في نفسها عما أصابني من دون أن تتطرق للموضوع بشكل مباشر، ولكن فضولها كان واضحًا في عينيها وأسئلتها غير المباشرة، لم يخطر ببالها لحظة واحدة أن هناك صدعًا ظهر في علاقتنا، وفسرت ذلك ربما في نفسها بأن هناك أمرًا جديدًا غمرني بالكآبة ولا أرغب بالتحدث بشأنه خصوصًا وأني بالنسبة لها من تلك النوعية التي ينقلب مزاجها فجأة دون سبب واضح. لكنها تدرك أن هناك سرًا ما خلف كل ما يحدث لي من تغيرات مزاجية لا تفسير لها، ومن طبع شهيرة أنها لا تسأل كثيرًا طالما وجدت الباب مغلقًا، في هذا اليوم بينما كنت أحتسي الشاي معها أخبرتني بأن هناك فتاة سورية ستأتي للعمل عند توحة، فتاة جاءت مع عائلتها ضمن العائلات النازحة من بلادها بعد قيام ثورتهم التي لا نعرف عنها شيئًا، قالت بشيء من الخبث:

- صعبانين عليًا السوريين دول.. وخصوصًا البنات..

واكتفت بتلك الجملة المبتورة على نحو ما، فنظرت لها نظرة متطلعة يشوبها شيء من النفور، سرعان ما زال حيث لم أكن أنتوي خوض مناقشة معها في هذا الموضوع الذي بات يُضجرني، الغريب أن شهيرة أصرت أن تسترسل في موضوعها ذلك بشتى الطرق الممكنة وكأنها تستفزني بشكل أو بآخر.. خلال الفترة الأخيرة أيضًا تزايدت زياراتي لمنازل أناس مرموقين، أو كما أطلق عليهم بشكل أدق «الجانب الآخر من العالم»، كان

عملي مقتصرًا على الجلوس ومتابعة الفتيات ثم تحصيل المال من الزبون وما تيسر من المال كبقشيش لي، بصراحة تغير حالي خلال أيام معدودة حيث صرت أكثر نضارة وتطلعًا على الحياة بتلك الجنيهات القليلة التي ينفحها لي الزبائن، لاحظت شهيرة ذلك، وأحسست بأن هناك حسدًا أو حقدًا يظهر في عينيها وكأنها تستكثر عليَّ ذلك الرزق حتى إنها سألتني إن كانت توحة ترغب في فتيات يعملن لديها، تساءلت في نفسي عن التناقض الغريب في شخص شهيرة! كيف يتسنى لها أن تسب تلك المرأة وتشكك في سمعتها مرارًا والآن تريد العمل لديها؟! كيف سعت باستماتة غريبة لتُنحيني عن العمل لديها ثم ترغب بابتسامة عريضة وبعرض واضح بالعمل لديها؟! لم أكن أفهمها على الإطلاق! هل لاحظت أنها مخطئة فجأة؟! أم أنها ترى أن المال مهم أيًا كان رأيها فيمن تعمل لديهم طالما أن الأمر يعود عليها بالنفع، كما أن رأيها لن يغير من الحقيقة شيئًا؟! كنت مشتتة ضائعة لا أفهم شهيرة أبدًا كما تصورت، تركتها وداخلي غضب شديد جراء تناقضها وفلسفتها الغريبة في الحياة، كان شعوري تجاه توحة يتنامى بالمودة كما أنها على التوازي قرّبتني منها وصرت كما يقولون «بئر أسرارها وذراعها اليمنى»، رغم أن ذلك التشبيه يحمل دلالة قوية على عمق العلاقة بيننا إلا أنها اكتفت بما منحته لي من أسرار عن حياتها القديمة المتعلقة بكونها يومًا اغتصبت وفرت تاركة خلفها كل شيء أملًا في أن تجد الحياة الناعمة بعد رحلة طويلة قاسية.

بشكل ما كنت أرى أن توحة تشبهني رغم فارق النشأة والتعليم والظروف، لكن في النهاية، النتيجة واحدة. أنا أيضًا مغتصبة هاربة تبحث عن الأمان بعيدًا عن وحشية الحياة وضراوتها، لذلك كان جزءًا مني متشبثًا بها يراقب تصرفاتها محاولًا بقدر الإمكان لمس ذلك الجرح القديم المشترك بيننا ربما تلهمني بشيء ما أو منفذ من تلك الورطة العويصة التي تراها كل من هن مثلي نهاية مأساوية حتمية.

خلال الأيام اللاحقة تعددت زيارات زاهر، لم تأتِ فرصة إلا وانتهزها

لينتزع أسراري الدفينة ولكني في كل مرة كنت أرده، كما أن توحة كانت تنهره حينما يزيد العيار ويتمادى بطريقته السوقية العفنة، نظراته كانت تنهشني لأني كنت أدرك جيدًا ما يفكر فيه.. ذات يوم نهرني قائلًا:

- إنتِ هاتسوقي الشرف عليَّ يا بت إنتِ؟

جاءت وقاحته تلك بعد أن قذفته بشتائم مقذعة لا أدري كيف صدرت مني بعد محاولته أن يجذب معي أطراف الحديث في أمور مخزية وموضوع حقير لا يقل كثيرًا عن حقارته، بكيت بل انتحبت وشعرت بمدى ضآلتي أمام الألم الذي تسبب لي فيه وما قهرني بشدة حينما نهض من مجلسه وأمسكني بقوة من كتفي بقبضته الحديدية ناظرًا إليَّ بغضب قائلًا:

- وحياة أمك لأربيكِ من أول وجديد، ما بقاش إلا عيّلة وسخة زيك اللي هتهزأني على آخر الزمن.

تدخلت توحة سريعًا ونهرت زاهر الذي أفلتني بعد إلحاح شديد من توحة وبعض الفتيات، كانت عينيه تقذفان شزرًا حتى إنني للحظة تصورت بأنها نهايتي الحتمية المرتقبة، لم أذهب للعمل بعد تلك الواقعة لمدة يومين حيث قاسيت مرارة الوحدة والضعف. انتابني إحساس بأني لمرة غير أخيرة يُذكرني الزمن وتثبت لي الظروف أني بلا سند، ياسمينة تدهسها الأقدام وكأنها ورقة مهترئة ملقاة في شارع يعج بالمارة.

طيَّبت توحة خاطري فيما بعد وأعادتني إلى العمل. حتى إن زاهر اعتذر لي وطلب أن يقبِّل رأسي ليبرهن على حسن نيته وعلى مدى شعوره بالخزي مما بدر منه، لم أكن أصدقه ولكن لسبب غامض أحسسته صادقًا على نحو ما، كانت كلماته ونظراته تحمل عمقًا غريبًا لا يمكن تجاوزه أو التشكيك فيه، وهذا ما حيرني، فيما بعد حاولت توحة أن تضفي جوًّا من المرح على الموقف ثم بعد قليل قالت:

- جهزي نفسك بقى يا ياسمين.. هاتروحي المعادي الليلة لعروسة

مع البنات.. أصل العروسة مسافرة بلاد بره تقضي شهر العسل وعايزة تكون جاهزة قبل طيارتها بالظبط.

أومأت برأسي موافقة وتركت الكوافير ثم عدت مرة أخرى مع آذان العصر فوجدت توحة تجلس خلف المكتب تقوم ببعض مهامي في ترتيب أمور الكوافير ومتطلباته، أجلستني بجوارها ثم بهدوء فتحت الدرج وأخرجت سلسلة ذهبية خفيفة معلق بها حلية «ما شاء الله» صغيرة ثم قالت:

- كل سنة وإنتِ طيبة يا ياسمين.. النهارده عيد ميلادك.. تلاقيكِ ناسية.

نظرت لها وقد علا وجهي تعبير بالدهشة ممزوج بالتساؤل وكأني أستعيد جزءًا ضائعًا من حياتي ثم قلت متسائلة:

- عيد ميلادي!! هو النهارده كام في الشهر؟

- النهارده 5 / 3.. أنا فاكرة إني شُفته في بطاقتك.

ابتسمت ابتسامة عريضة وقد غمرني شعور بالسعادة لم أشعر به منذ مدة طويلة، احتضنتها حيث غالبتني وغمرتني أحاسيس كثيرة متناقضة، شكرتها وأحسست بوخز الضمير أكثر من ذي قبل، فنظرت لها طويلًا وقد ترددت كثيرًا قبل أن أنطق كلماتي لكني في النهاية قلت لها:

- على فكرة أنا كنت فاكرة إنك ست مش كويسة.. ما تزعليش مني يا مدام توحة.. بس صدقيني مش أنا السبب.

ابتسمت توحة بعد ما سكنت للحظة وكأنها تستوعب حديثي جيدًا، كان رد فعلها غريبًا هادئًا عكس ما توقعت وكأني أنطق كلمات عادية اعتادت سماعها ثم قالت:

- عادي يا ياسمين.. أنا ياما اتقال فيَّا.. بس ربنا اللي عالم يا بنتي.. أنا..

قاطعتها قائلة:

- من غير ما تقولي.. ربنا ينتقم من ولاد الحرام بقى.

فقالت دون تردد:

- شهيرة اللي بتقول كده صح؟

جزعت ونظرت لها مندهشة حيث لم أكن من هؤلاء الذين يستطيعون نفي الحقيقة أو حتى اختلاق الكذب الأبيض وأعتقد أن تلك كارثة كبيرة

فاسترسلت قائلة:

- أهي شهيرة دي ألعن خلق الله.. يا ما ساعدتها وعلى نكرة كانت شغالة هنا.. بس طردتها بعدها بيومين بالظبط.. بت ناكرة للجميل.. خلي بالك منها.

نظرت لها وقد اختلطت داخلي أحاسيس بالدهشة والتساؤل كما أنني تأكدت من تكهناتي، بأن شهيرة تكن كرهًا غريبًا وشديدًا لتوحة والسبب الغامض اتضح الآن جليا، حين حديثنا رأيت فتاة لأول مرة أراها تخرج من داخل الكوافير على قدر من الجمال ولكن بدت تعبيراتها منكسرة بشكل ملحوظ وقد تزينت وارتدت فستان سواريه يكشف عن ذراعيها وصدرها العارم، نظرت لها مدام توحة نظرة دارسة ثم قالت لها:

- فهمي هيجي ياخدك دلوقتي يا نسرين..

ثم نظرت في الخارج فلمحت سيارة فهمي فقالت لها:

- أهو وصل اخرجي وهو هيوصلك على طول.

تشككت في الموضوع، مَن نسرين؟! نظراتها، تلك التنهيدة الطويلة المفعمة بالألم والمكسوة بمظاهر الانتظار الرتيب الموجع، بدت من لهجتها بأنها سورية، نعم إنها الفتاة السورية التي تحدثت عنها شهيرة وقالت بأنها ستأتي للعمل لدينا، خرجت نسرين وركبت السيارة ولكن هذه المرة لم يترجل فهمي من السيارة كما يفعل مع منة، زادت شكوكي فنظرت إلى توحة التي كانت تنظر خارجًا دون اكتراث فقلت:

- مين دي يا مدام توحة؟

- دي بنوتة تبع مدام نهى.. قريبتها باين وجت تعمل حاجات هنا.. عندها مناسبة.

لا أدري لمَ لم أصدقها رغم أنه لم يظهر عليها أي علامة توحي بكذبها أو بتلفيقها حقيقة أخرى كاذبة، ولكني اكتفيت بذلك وتراجعت، استأذنت منها ولكني قبل أن أغادر قالت:

- اعملي حسابك لما تخلصي شغلك بالليل هاترجعي على هنا علشان هاخدك معايا للفرح اللي رايحاه نسرين ده بمناسبة عيد ميلادك وأهو نتعشًى سوا..

ثم أخرجت فستانًا من أسفل المكتب موضوعًا في الجراب الخاص به وقالت:

- هاتلاقيه على مقاسك.. الْبسيه عادي وأنا هاخلي عربية تاخدك إنتِ والبنات للمعادي علشان ما تتبهدلوش.

أومأت برأسي وأنا أحمل الفستان على يدي، نظرت لها نظرة تملأها الدهشة مشوبة بشيء من الاستغراب والتساؤل ثم غادرت، كنت تائهة، شيء في صدري ينبئني بالسوء، إحساس غريب بالخوف تسلل لي متلفع بالأسئلة التي لا تنتهي، نهرت نفسي أكثر من مرة محاولة بقدر الإمكان نفض كل تلك الأفكار عن رأسي.

فلا يصح أن نظن سوءًا بالذئب الذي حمى الحملان!!

****

وقفت أمام المرآة أنظر لنفسي نظرة طويلة وأنا أرتدي فستان السواريه، تأملت جسدي طويلًا وتحسسته وكأني أنقّب عن شيء ما، روادني الكثير من التساؤلات والهواجس، ركزت، حللت وربطتُ نتيجة بأخرى وبدلت سببًا بآخر وفي النهاية اصطدمت بسد منيع لا أراه ولكني أحس به.. تذكرت تلك الحكاية عن فتاة القرية الصغيرة التي يقع على أطرافها الجبل، تلك الفتاة

التي غواها سحر الجبل وعمقه الدفين، في يوم ما قررت أن تكتشف أسراره الخفية التي تدفع أهل القرية للابتعاد عنه بل والهلع بمجرد ذكره؟! رحلت تلك الفتاة إلى الجبل، حتى الآن العار يلاحق أهلها وحتى الآن لا أحد يعرف ماذا حدث لها، لا أعلم حقيقة لم تذكرت تلك القصة ولكني وبشكل غامض أحسست أن تلك الفتاة تحيا داخلي، كأنها أنا المحبوسة داخل بطن ذاك الجبل الذي هلع منه الجميع، أنا فتاة الجبل الملعونة لسبب لا أعرفه.

مرت الأحداث عادية إذ جاءت سيارة من نوع «هيونداي» لونها أحمر، يقودها شاب صغير السن اتضح أنه ابن اخت مدام نهى، أوصلنا إلى المكان المقصود بالمعادي، كان كل شيء عاديًا ولم يكن هناك ما يدعو للشك باستثناء أن فتاة واحدة فقط جاءت بصحبتي للقيام بالمهمة التي خوَّلتنا بها توحة، من الطبيعي أن أية عروس تحتاج على الأقل لفتاتين كما تعودت، لم أعر الأمر انتباهًا كبيرًا أو أمنحه جزءًا من تفكيري، لا أرى أن الأمر يستوجب الهلع وخصوصًا أنني دومًا أضع نفسي في دوامة كبيرة يتضح بعدها أني كنت مخطئة، حينما وصلنا إلى باب الشقة كان كل شيء هادئا ولا يوحي بأي مظهر من مظاهر الفرح، انفتح الباب عن وجه فتاة في السابعة عشر تقريبًا من عمرها، ترتدي قميص نوم يكشف عن جسمها بالكامل، شعرت بالحرج ولكنها كانت قارحة بشكل غريب، قالت بميوعة:

- واقفين ليه يا حلوين.. عمركوا ما شفتوا واحدة بقميص نوم؟!

دلفنا داخل الشقة التي لا يوحي جوها بأي مظهر من مظاهر الفرح حتى وصلنا إلى أنتريه على بعد خطوات قليلة من باب الشقة، أغلقت الفتاة القارحة الباب ثم نظرت لنا نظرة وقحة فيها شيء من التشفِّي ثم اختفت داخل إحدى الغرف، بعدها بقليل خرجت فتاة أخرى في العشرين من عمرها تقريبًا ترتدي ثوبًا أحمر طويلًا يغطي جسدها وعلى رأسها طرحة تبرز منها خصلات من شعرها الأسود، جلست بالقرب منا دون أن تلقي سلامًا. تفحصتنا بنظرة طويلة ثم قالت بلهجة مهذبة يشوبها بعض التوتر:

- أنا آسفة.. أنا العروسة واسمي مريم.. أنا عايزة أسألكوا عن حاجة نسيت أقول عليها لمدام توحة.

فردت الفتاة المصاحبة لي:

- حاجة إيه؟

- أنا شعري خفيف أوي فكنت عاوزة شعري يبان بشكل كثيف وطبيعي ده محتاج اكستينشن..

تململت الفتاة في مكانها ثم قالت:

- للأسف ما حدش قال لنا على حاجة زي دي وكان لازم تبلغينا قبلها.

- أنا آسفة بجد بس ممكن تتصرفوا فيه.

نظرت لها الفتاة قليلًا مفكرة ثم أخرجت هاتفها واتصلت بتوحة على الفور:

- إزيك يا مدام؟! فيه اكستينشن عندنا في الكوافير؟! طيب تمام.. ماشي هستناه.. بس بسرعة بقى علشان ما نتأخرش.. أنا هانزل على طول.. مع السلامة.

ابتسمت الفتاة ثم قالت لها:

- ما تقلقيش موجود في الكوافير بس أنا هاضطر أنزل أروح وأجيبه.. الحمد لله العربية اللي جابتنا ما بعدتش.. هتاخدني على طول وهارجع بسرعة.

تهلّل وجه الفتاة ثم قالت:

- كويس أوي.

ثم وجهت بصرها نحوي وهي تقول:

- وإنتِ بقى ياسمين؟ صح؟ تعالي معايا أوضتي نقعد فيها على ما هيَّ تيجي.

لم أملك ردًا حيث كانت الأحداث تتسارع أمام عيني، أخذتني من يدي ونهضنا معًا إلى غرفتها بعد أن غادرت زميلتي الشقة، شعرت بوخز ثقيل في صدري وبأن أنفاسي متسارعة، كانت الفتاة حينها تخلع الطرحة من فوق رأسها فوجدت شعرها كثيفًا مصففًا بعناية وقد وصل طوله إلى آخر ظهرها ثم نظرت لي وهي تقول بابتسامة عريضة:

- تشربي إيه؟
- ولا حاجة شكرًا.
- لا ما ينفعش إنتِ في بيتي والنهارده فرحي.. لازم تشربي حاجة.

فأجبتها محاولة تمالك نفسي إذ بدأ القلق يتملك مني:

- أي حاجة.

فخرجت من الغرفة وأغلقت الباب خلفها، نظرت حولي داخل الغرفة أتأملها، كانت مكوّنة من سرير عريض واسع مفروش بملاءة ذات لون لبني متداخل مع اللون الأبيض كما كانت هناك على اليمين تسريحة كبيرة عليها العديد من مستحضرات التجميل وثلاث زجاجات من العطور المعروفة، على اليسار كان هناك مكتب صغير عليه جهاز لاب توب وسماعات صغيرة بجواره إضافة إلى طبق فاكهة فيه ثمار التفاح والموز وسكين، بينما في مواجهة السرير يوجد دولاب ضخم لونه أسود، على الحائط خلف السرير لوحة صغيرة مرسوم عليها فارس فوق جواده وقد بدا متحمسًا غاضبًا كحصانه، أخذت نفسًا عميقًا وأنا أحاول تشتيت أفكاري والتركيز على تفاصيل الغرفة حتى لا يصيبني الهلع، مرت ربع ساعة كاملة كان خلالها توتري وقلقي يزدادان بشكل كبير حتى إن أنفاسي صارت مسموعة، فكرت أكثر من مرة أن أفتح الباب لأتقصى الأمر في الخارج، ولكني تراجعت رغم رغبتي الشديدة في فعل ذلك، سمعت صَفَقة قوية لأحد الأبواب، جزعت في مكاني وانتفضت وهرولت تجاه باب الغرفة ووضعت أذني عليه كي أسترق السمع لكني لم أسمع سوى صمت ثقيل

موحش فزاد توتري، سمعت خطوات رتيبة تتجه نحو باب الغرفة فتراجعت سريعًا وجلست على السرير مرة أخرى، انفتح الباب على وجه شاب أسمر له بنية قوية وعينان حادتان سوداوان وشعر مجعد وأنف عريض، ارتجفتُ وهو ينظر إليَّ تلك النظرة المتحدية ثم قال بنبرة حادة:

- إنتِ لسه لابسة هدومك.. ما تنجزي خلينا نخلص.

لم أتمالك نفسي وهرعت نحو الباب ولكنه اعترض طريقي بجسده الفتيّ وجذبني من ذراعي بقوة وألقاني على السرير ثم ارتمي فوقي وهو يسبني ويلعنني بشتائم مقذعة، لا أعرف من أين أتتني تلك القوة ولا أعرف مصدرها لكني تملصت منه وأنا أضربه بكل ما أوتيت من قوة على وجهه بكلتا يديّ لكن يبدو أن ضرباتي لم تؤثر فيه فانقضضت على إحدى أذنيه بأسناني في اللحظة التي حاول فيها خلع لباسي الداخلي من أسفل الفستان بعد أن مزق كتافاته بيديه خلال الصراع بيننا، فأصدر صرخة وهو يسبني مبتعدًا واضعًا يده على أذنه واحتدمت عيناه واهتز جسده من شدة الانفعال والغضب فاستطعت أن أمد يدي إلى طبق الفاكهة وانتزعت السكين من فوق وأمسكته بيدي ولوحت به بيد مرتعشة في وجهه وأنا أصيح:

- لو قربت مني يا ابن الكلب هاقتلك وأقتل نفسي.

جحظت عيناه وهو ينظر لي وكأنه لا يصدق ما يراه، تراجع للخلف خطوتين وهو يمسك أذنه الدامية من أثر عضتي ثم أشار بيده بما يعني أن أهدأ لكني صرخت مرة أخرى:

- ابعد عني يا كلب وإلا والله هاقتلك.

تراجع بعيدًا عن الباب فمشيت بحذر وأنا أوجه السكين تجاهه ثم خلعت مفتاح الغرفة من الباب حيث كان يوجد في الداخل وصفقت الباب وحاولت سكه بصعوبة وهو يحاول أن يثنيني عن فعل ذلك. جرحت يده فتراجع متألما صارخا:

- آه إيدي..

نظرت حولي سريعًا فلم أجد أحدًا فانطلقت وفتحت باب الشقة الذي لم يكن مغلقا، خرجت مسرعة أهرول على السلم وما زالت السكين في يدي قابضة عليها بكامل قوتي، حين وصلت إلى الشارع شعرت ببعض الطمأنينة وسرعان ما أوقفت تاكسي بعد أن ألقيت السكين بلا وعي في الشارع وطلبت منه وأنا ألهث أن يأخذني إلى عين شمس.

كان من الصعب أن أفهم حقيقة ما يجري حيث كان جسدي يرتجف بصعوبة ولم تكن لديَّ أدنى قوة للتحكم فيه حتى إن السائق العجوز كان ينظر لي في المرآة أمامه من وقت لآخر وقد بدا في عينيه التساؤل والقلق ولكنه لم يسأل، لم أستطع تمالك نفسي رغم محاولاتي البائسة، لم أستطع أيضًا وقف تلك الجهشات القوية التي عقبها بكاء شديد أقرب إلى النواح، توقف السائق بعد تردد لم يطل وخرج سريعًا من السيارة وجلب زجاجة مياه من كشك صغير على جانب الطريق، ركب مرة أخرى وأعطاني زجاجة المياه وهو يقول:

- وحّدي الله يا بنتي واهدي.

****

تساءلت، لماذا يتركني الله هكذا؟! مرتعًا لكل الشياطين! طاهرة وسط مدنسين! نفاية تدهسها كل قدم بتلذذ وكأنها تعلن للعالم أن التخلص مني لن يكون صعبًا! ماذا جنيت بحقه كي يمنحني ألما لا ينتهي؟! فإن كان يريد نهايتي فلتأتِ سريعًا دون إشعار مسبق بالموت، تساءلت وفكرت، تحيرت وبكيت، هدأت لكني كنت في داخلي أستشيط غضبًا، ثائرة عارية، وحيدة أمام أفواج من جيوش الديكتاتوريين عديمي الرحمة.. الطريق مزدحم، وصيحات يأتي صداها ليعانق كوبري أكتوبر في هذه اللحظة، المتظاهرون يملأون الدنيا صياحًا، يتصدون بصدورهم لرصاصات غادرة، لقهر راسخ، لظلم طاغ كأن خيباتنا لا تنتهي، يرحبون بالموت ويفضلونه على العبودية الحقيرة، اشتد غضبي مع تلك الصيحات وكأن ما يحدث لي نتيجة طبيعية

لوطن ساقط تهاوت مفاصله فانهار في الوحل والعار والجهل، سالت دموعي على وجنتيَّ وأنا أرى أحداثًا متعاقبة خشنة تطأ بقسوة على نعومة عمري الصغير، أطرقت رأسي وشردت بعيدًا، لم أعلم حتى هذه اللحظة أين كنت وفيمَ فكرت! لكني كنت تائهة في بلد يعج بالتائهين.

شرعت أفكاري تهدأ قليلًا حتى إني وبشكل عفوي بدأت في تفنيد الأحداث وتحليلها وعرضها أمام عقلي المضطرب الذاهل إزاء ما يحدث لي، استرجعت بصعوبة الأحداث بصورة غير منتظمة منذ وطأت قدماي عين شمس، نهى، توحة، شهيرة، هند، منة الساقطة، الفتاة السورية، زاهر، الشقة الجديدة، الأحداث وتعاقبها، لا شيء يمكن التكهن به سوى أنني لم أكن سوى الضحية الجديدة لخطة تم وضعها بعناية، لم أكن سوى فتاة تلقفها مجموعة من الأنذال عديمي الرحمة والضمير، سلعة رخيصة بيعت على طريقتهم الأكثر رخصًا، طيبة تحسن الظن بكل من حولها فحوّلوها إلى بائعة هوى رغما عنها ولا شيء يمكنها فعله، وفي قانوننا المعاصر إن الطاهر في مدينة الخطايا هو المذنب الوحيد.

وصلت أمام الكوافير، كانت تفوح منه رائحة القرنفل البغيضة، لم يقبل السائق العجوز مليمًا واحدًا كأجر، رجوته ولكنه ودعني بنظرة طويلة تحمل كمًّا لا ينتهي من الأحاسيس المتناقضة، بالشفقة والفضول، بالألم والأبوية التي اختفت من حياتي فجأة، كأن لمسة حانية في لحظة قاسية ظهرت من العدم لكنها سرعان ما اختفت كما ظهرت واختفى معها كل ما هو عادل مقدَّس، بُهتّ وتسمرت في مكاني شاردة وأنا أودع سيارته بعيني حتى اختفى تمامًا، فنقلت بصري تجاه الكوافير وفجأة استشاط غضبي واشتد حتى صار في ذروته وكأني كنت أخفيه في جزء مني موصدة عليه أبوابًا وأقفالًا منتظرة الوقت المناسب لكي أصرخ ولو لمرة واحدة في وجه الحياة الخائنة، كفى عبثًا بي.

دخلت الكوافير، وبالمصادفة كان زاهر جالسًا يحتسي الشاي

وحده، نظر لي وقبل أن ينطق بكلمة واحدة عرف الحقيقة، عرف أنه لا مجال للحديث عن شيء، آثر الصمت ونظر لي نظرة متأججة بالفضول والانتظار، صحت غاضبة:

- توحة فين؟!

- جوه.

- يا توحة.. يا توحة.

خرجت مهرولة من الداخل على صياحي وهي تنظر لي نظرة متطلعة ادعت فيها البراءة وكأنها لم تفهم شيئًا، كان مظهري مزريًا، فستاني تقطعت كتافتيه فصرت شبه عارية من أعلى صدري.

- ما لك يا ياسمين حصل إيه؟! إيه اللي مبهدلك كده؟

كان في نبرتها شيء من التشفي مختلط باللهفة اللعوبة الكاذبة، يختبئ خلفها سؤال آخر، «هل تمت المهمة؟!» كانت عيناها تفضحانها، مدعية كاذبة وكأن ما تراه عاديًا وتتوقعه على نحو ما بينما كان زاهر يتابع الحوار بنظرات متسائلة نهمة فقلت غاضبة:

- واحد اتهجّم عليا في البيت اللي بعتيني ليه بس أنا يا توحة مش واحدة من إياهم زيك.. أنا أقدر أحمي نفسي كويس منك ومن أمثالك.

في تلك اللحظة رأيت الوجه الحقيقي لتوحة لأول مرة يظهر جليًّا، دون رتوش أو ماكياج، دون تلك الابتسامة المنافقة والادعاءات الكاذبة، كشرت عن أنيابها وتحولت إلى حيوان ضارٍ مفترس يكبح جماح غضب حيوان آخر تصور أنه يستطيع الفتك به.

- أمثالي مين يا وسخة؟! ده أنا لميتك من الشوارع يا زبالة، لتكوني مفكرة يا بت إنك شخصية مهمة! لا فوقي لنفسك كده واعرفي إنتِ واقفة فين وبتكلمي مين.. أنا توحة.

هدأت نبرة صوتها ثم استرسلت قائلة بشكل متشفٍّ وقح وساخر:

- هربانة من أهلك ليه يا بت؟! ها.. ما تنطقي يا شريفة وقولي هربانة منهم ليه يا وسخة؟!

وقفت الكلمات في حلقي وأحسست فجأة بأني عارية، حاولت أن أدفع الكلمات خارجًا لأدافع عن نفسي ولكن أمام من؟! أمام تلك الغانية القارحة رسول الشيطان، القوادة عاشقة المتاجرة بلحم البنات، لم أدرِ بنفسي إلا وأنا أقول:

- إنتِ أوسخ من أوسخ حد ممكن أكون قابلته في حياتي.

لم أشعر بشيء بعد صفعة قوية مفاجئة رنت على وجهي فأصدرت أذني صفيرًا، بدأ المشهد أمامي يتسارع وشعرت بأنه يحدث لشخص آخر غيري، أمسكتني من شعري وجذبتني بعنف وظلت تضرب فيَّ حتى تدخل زاهر وفتيات الكوافير على صوت العراك بيننا، كنت مستلسمة لضرباتها، مأخوذة داخل مكان آخر، لا أشعر بصفعاتها المتتالية ولا ضرباتها لي وأنا مكوّمة على الأرض بينما تنتزع شعري بضراوة وبلا رحمة، بعدها بمدة لا أعلم كم طالت كنت أسير بجوار زاهر في الشارع حيث أوقف تاكسي وأجلسني في الخلف بجواره، مسح وجهي بمنديل قماش يحمله دائمًا معه، كانت هناك دماء متناثرة عليه، كنت أعلم أنها دمائي التي لا تقل شيئًا عن تلك الدماء التي نزفتها يومًا تحت إضاءة الغرفة الصادرة من الطابق السادس.

حروب بيت الشبه

مصطفى الشريف

فقدت متعتي وحماستي لكل شيء تقريبًا بسبب طول الأيام التي جلست فيها وحيدًا في شقتي بوسط البلد، كنت أسلّي نفسي بالتزول أحيانًا إلى وسط البلد والتسكع في الشوارع، جلست على المقاهي القريبة من ميدان التحرير وكانت جلساتي غالبًا في مقهى ريش في شارع طلعت حرب ولكني سرعان ما ضجرت منه، لم يكن ذلك تحديدًا ما أبحث عن رغم روعة المكان وتاريخه العريق، لمحت مقهى آخر يقع عبر الرواق الطويل بين البنايات، يقع في المنطقة الفاصلة بين مقهى ريش وبناية قديمة عملاقة، يطلق عليه مقهى البستان؛ شعرت بحميمية وسط رواد المكان الذين ينتمي معظمهم إلى فئة الشباب والمثقفين، استرقت السمع أكثر من مرة لأحاديث الشباب وتطلعاتهم عن الثورة ولكن لم تعجبني على الإطلاق حماستهم الزائدة ونقاشاتهم الحادّة، كانت هناك أزمة الدستور ولاحظت أن الجهات التي تنتمي لجماعات دينية تطلق دعاية كبيرة للتصويت على الدستور بـ «نعم» بينما كانت الجهات الليبرالية والمنتمية للشيوعيين واليسار منقسمة ما بين التصويت بـ «لا»، ومقاطعة الاستفتاء. في الحقيقة لم تكن لديّ دراية كاملة بما يجري وما يجب فعله ولكن ما كان واضحًا لأي شخص أن الخلافات السائدة بين الأحزاب والجهات والانتماءات الفكرية تبرز مدى الخلاف وحجم الفجوة بين طبقات الشعب المصري.

سعيت بكل جهدي للحصول على وظيفة في مصلحة الطب الشرعي كي أجد مكانًا لي وأصبح عاملًا ينتمي بشكل حقيقي للمجتمع، فالمواطن

ينتمي لوطنه ليس بالجنسية فحسب وإنما بعمله أيضًا، رأيت بعينيّ مدى السوء والفساد اللذين تفشيا في الهيئات الحكومية، المماطلة والبيروقراطية المتعفّنة التي غطاها التراب، أي بلد ذلك الذي ما زال يستخدم في إتمام معاملاته أوراقًا وأختامًا لا طائل منها سوى تضييع الوقت؟! صُدمت من الحال بالكامل حتى وصلت إلى درجة من الإحباط جعلتني أفكر في الرجوع لأمريكا، لكن كان مجرد التفكير ولو بشكل سطحي بالأمر يصيبني بالحزن. هل كان أبي محقًا في كلامه؟! هل كان قراري يستحق شن تلك المعركة معه؟! هل كنت واهمًا إلى هذه الدرجة؟! أنقب عن نفسي وسعادتي في مكان يعج بالتعاسة ويغوص في الوحل؟! لكن كيف تملكني ذلك الإحساس بالرجوع إلى منبتي إلى الدرجة التي جعلتني أقاتل من أجله؟ كيف يكون كل ذلك وهمًا بلا قيمة؟! شعرت أني موشك على الإصابة بحالة من الاكتئاب الشديد ولكني نفضت تلك الأفكار عن رأسي حتى لا تأكلني الظنون وتطيح بي.

في ذلك اليوم كنت على موعد مع خالي أشرف يونس الذي بدا أكثر إشراقًا عن ذي قبل ورحّب بي ترحيبًا حافلًا بل وترك عمله وأصرّ على اصطحابي معه في جولة وتناول الغداء قبل لقاء الضابط الذي سيساعدني في مسألة عملي، لكن قبل خروجنا من الشركة اصطدمنا برجل قوي البنية شكله مهيب مخيف بعض الشيء فتململ خالي في مكانه ثم رسم ابتسامة متوترة على وجهه وهو يقول:

- أهلًا أهلًا.. إزيك يا زاهر؟ يا ترى إيه اللي جابك؟! عصام باشا اللي باعتك ولّا إيه؟

- لا يا باشا.. أنا جاي لك في موضوع خاص ومستني هنا من بدري.

- محدش بلغني والله يا زاهر.. في إيه؟

تململ زاهر قليلًا، فبدا شكله غريبًا إذ ارتسمت على وجهه تعبيرات بريئة فبدا عملاقا بوجه طفل ثم قال:

- طمعان في كرمك يا أشرف باشا.. محتاج شغل.

صُدم خالي حتى أنه نظر له قليلًا متفحصًا قبل أن ينطق كلماته ثم قال بهدوء قلق:

- مش فاهم يا زاهر!! هو أنت سِبت الداخلية ولّا إيه؟!

- لا يا باشا.. أنا عاوز شغل لواحدة قريبتي.. هاتعجبك أوي يا باشا.. بت شاطرة ومتعلمة ومعاها شهادة والله.

رمقه خالي بنظرة مفكرة ثم قال:

- هاتشتغل إيه يعني يا زاهر؟! ما أنت عارف حال البلد وما فيش شغل اليومين دول.

- يا باشا أنا خدمتك بعينيًا.. وطمعان تساعدني في حاجة زي كده.

تململ خالي في مكانه وزاد توتره وهو ينقل بصره بيني وبين زاهر وكأنه يفكّر في أمر غامض:

- طيب فاهم يا زاهر.. طيب عمومًا أمشي دلوقتي وأنا معايا رقمك وهكلمك إن شاء الله.

صاح زاهر بصوت جهوري:

- الله يعمر بيتك يا باشا ويسترك.. هو ده العشم.. وما تقلقش يا باشا.. ما حدش عارف اللي عملناه في المنطقة وكله تحت السيطرة وأي خدمة زاهر سداد.

بدا على خالي التوتر وهو يربت على كتفه محاولًا إنهاء الحوار بقدر الإمكان ثم تملص منه بذكاء واصطحبني معه إلى الخارج ثم ركبنا سيارته، كانت نظراتي تلاحق خالي تحاول فهمه وسبر أغواره، وقد بدا أنه يحس بنظراتي تجاهه فقال على سبيل تخفيف الموقف:

- ما بقاش إلا كده كمان.. حتة أمين شرطة جاي يطلب مني شغل لواحدة الله أعلم جايبها منين.

آثرت الصمت وأنا أنظر لخالي نظرة متفحصة فاسترسل قائلًا بسخرية:

- الناس اتجننت خلاص.

فقلت بهدوء ومكر:

- بس مش معقولة يا خالي يعني الراجل يكون ساعدك وأنت يكون ردك عليه بالشكل ده.. ما عرفش عنك كده.

فنظر إليَّ متكهنًا بما يجول في سريرتي ثم قال بعصبية غير مبررة:

- ساعدني إيه؟! أنا ما حدش في البلد دي ساعدني.. أنا اللي بعمل كل حاجة بنفسي.. البلد دي اللي عايز يوصل فيها لهدفه لازم يحفر في الصخر.. وبعدين زاهر كان يادوب وسيلة.. إلا تكون فاكر إنك لسه في أمريكا.. فوق يا مصطفى إحنا في مصر.. وبعدين أنت عارف مين زاهر ده؟! ده الأمين اللي بيخدم عصام الرشيدي اللي إحنا رايحين نقابله دلوقتي.. فلو كان عايز يشغلها يروح.. أنا مش شغال مصلحة حكومية هنا.

- طيب أنت متنرفز ليه يا خالي دلوقتي بس؟! أنا مش فاهم هوَّ بيكلمك بعشم كده ليه.

فاسترسل بنفس العصبية:

- علشان يا سيدي كان هو السبب في إني أخلص من مشكلتي الأخيرة.. بس طبعًا بأوامر من ولي نعمته.

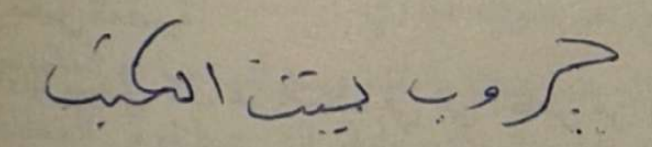
- يعني إيه؟!

- يعني البادي أظلم وافهم يا أخي.

- يعني بالبلطجة يا خالي؟!

- أيوه بالبلطجة يا أخي.. هوَّ أنت هنا متخيل إنك تعرف تاخد حقك وخصوصًا في الوقت الزفت اللي إحنا فيه ده من غير بلطجة.. فوق يا مصطفى.. وبعدين تعالى هنا.. هو إحنا رايحين نقابل مين دلوقتي وعلشان إيه؟! ها.. اسكت يا مصطفى اسكت.

آثرت الصمت وتملكني شعور بالاشمئزاز، أحسست بأن الحياة تقذفني من درب مسدود لدرب تتوهَّج فيه النيران، جميع الطرق مغلقة والمدينة العجوز تغوص في الوحل والفساد.. دلفنا على عصام الرشيدي الذي كان جالسًا وقد بدا عليه الشرود. كان طويلًا، قوي البنية، عريض المنكبين، له ذقن مدبب حليق، وعينان واسعتان بنيتان، وشعر قصير بني غامق، أنف مدببة صغيرة وشفتان ممتلئتان وشارب كث بني، كما كانت وجنتاه ممسوحتين على نحو غريب فأعطى شكله كاملًا انطباعًا هادئًا متناسبًا مع وسامته، ارتحت له ولكني رأيت فيه جانبًا متواريًا عن الجميع، كان يتكلم وعيناه زائغتان في مكان ما وغم أن تركيزه الشديد، غائص في منطقة لا يعلمها إلا الله، أعتقد أنني أعجبته هو الآخر وبادلني نفس شعوري بالأريحية، وعدني بأنه سيفعل كل ما بوسعه لينهي لي الأمر، ابتسم ابتسامة هادئة وأنا أعزيه في ابنه المفقود وسرعان ما انصرف دون أن يتناول معنا شيئًا، يبدو أن عزائي أفاق ذلك الشرخ الذي لا يريد أن يلتئم أبدًا حينما يذكرنا أحدهم بمن فقدناهم يومًا، غادر عصام الرشيدي ولكنه بقى داخلي أفكر فيه وأفكر في تلك اللحظة التي ستجمعني به في لقاء آخر.



عصام الرشيدي

صدر أمر بالقبض على أحد بلطجية إمبابة في الحال، كنت تحت تأثير الحشيش حينما استلمت الإخبارية وصرت مرغمًا على تنفيذ الأمر، خرجت خارج مكتبي بخطوات متماسكة وناديت بأعلى صوتي على زاهر الذي كان رابضًا بجوار المكتب ككلب يحرس صاحبه، يجلس القرفصاء ويثرثر مع بعض العساكر، نهض سريعًا فطلبت منه أن يجهز القوة كاملة لأن لدينا مأمورية يجب تنفيذها وسرعان ما التقط زاهر التعليمات وباشر في تنفيذها، دخلت غرفة المكتب مرة أخرى مشوشًا وكأني أرى العالم من خلف زجاج مغطى بالغبار لا تتضح معالمه، تظهر الصورة باهتة وقاتمة في نفس الوقت، غسلت وجهي بالماء ورفعت رأسي قليلًا، نظرت إلى نفسي في المرآة الصغيرة نصف المتسخة، بدوت شاحبًا، عيني حمراء شبه مغلقة، وضعت رأسي تحت الماء لمدة دقيقتين، كان الماء باردًا فاقشعر جسدي بالكامل كأن الكهرباء مستني. تملك مني الانفعال فجأة وشعرت بهيجان في رأسي، أمسكت بالطبنجة الميري ودسستها في جرابها وساورتني أفكار سوداء، خرجت من مكتبي وأنا أحث الجميع كي يخرجوا سريعًا إلى العربات التي تنتظرنا في الخارج، جاءني زاهر مسرعًا وهو يقول متوترًا:

- يا عصام باشا.. البس الواقي الله يخليك.

نظرت له وأنا مندفع بخطواتي في طرقة القسم متجهًا نحو سيارات الشرطة ثم قلت بلا اكتراث:

- اركب يا زاهر مش وقته.

كنت أرتدي قميصًا أبيض فوقه حزام كتف للطبنجة كما وضعت على وجهي نظارة شمسية سوداء من نوع «Ray Ban»، ثم دسست يدي في جيبي بعد أن ركبت السيارة وانطلقنا نحو الهدف وأخرجت صورة طارق، نظرت إلى عينيه العسليتين الجميلتين نظرة طويلة وشعرت بإحساس متناقض تختلط فيه الرقة بالخشونة والرحمة بالقسوة، فجأة نظرت إلى سائق السيارة وصحت فيه بأن يسرع بعد ما أعدت صورة طارق إلى مكانها في جيبي، وصلنا إلى المكان المحدد داخل إمبابة، راقبت تسارع الناس وإفساحهم لنا المجال تحت وطأة الخوف والترقب الظاهرين في عيونهم، حين أبطأت السيارة ترجلت منها قبل أن تتوقف واندفعت القوة بالكامل بالخروج من عربَتَي نقل كانتا تسيران خلفي وجاء زاهر متقدمًا مهرولًا تجاهي وقد أمسك في يده ببندقية آلية وارتدى قميصًا واقيًا من الرصاص فبدا كمحارب من العصور القديمة ببنيته الجسمانية الضخمة، سرعان ما انطلقت علينا النيران بمجرد دخولنا أحد الأزقة في شارع جانبي، أخذت ساترًا داخل إحدى البنايات في الشارع، أشرت بيدي للقوات بالتوقف، كان زاهر خلفي تمامًا كظلي، نظر إليَّ نظرة متوجسة وحينها سمعنا أحدهم يصيح بصوت أجش ارتد صداه في كل المنطقة:

- اللي هايقرب مني هاقتله واللي هايدخل عندي هادفنه مكانه يا حكومة وسخة.

أشرت مرة أخرى إلى القوات المتوارية خلف الأبنية المختلفة بالثبات، وأغمضت عيني لبرهة وكأني أستعيد جزءًا ضائعًا من تركيزي، الجو المشحون وأصوات الطلقات التي لم تتوقف كانت كافية لأن توقظني تمامًا من غفوتي إلا أن تأثير الحشيش ظل عالقا في جزء عميق مني، خرجت مسرعًا وحيدًا أجري بكامل قوتي وأتوقف من وقت لآخر في مدخل إحدى البنايات لألتقط أنفاسي وأركز على صوت الهدف

لأحدد مكانه وأرسم في مخيلتي تصورًا للمكان الذي يقف فيه والسلاح الذي يستخدمه وحالته النفسية التي بدت هائجة صارخة كبحر عاصف، أمرت زاهر الذي كان يجري خلفي بالتوقف وهمست له بأن يأمر القوات بالاشتباك مع الهدف لتغطيتي حتى أصل له، تردد زاهر قليلًا ولكن نظرتي القاسية أجبرته على الاستجابة لي، أشار لهم بالاشتباك، وبمجرد اندلاع النيران جريت بكل ما أوتيت من قوة، وقد كانت فكرة واحدة تلاحقني، فكرة سوداء دموية لا ثاني لها، دلفت إلى البناية التي يعتليها الهدف بحذر وأنا أختبئ من لحظة لأخرى على السلم حتى لا ينتبه لي حتى وصلت إلى السطح الذي كان بابه مفتوحًا، دلفت دون أن أحدث صوت، خبَطَت قدماي في صفيحة معدنية تقع بجوار غرفة مصنوعة من الخشب على السطح ولكني سرعان ما تسللت داخل الغرفة متواريًا خلف أكوام من الكراتين المتناثرة داخلها وأعطيته ظهري محاولًا بقدر الإمكان تمالك نفسي وتهدئة أنفاسي المتسارعة، أطرقت برأسي قليلًا مفكرًا للحظات وأخذت قراري وسط صوت النيران، خرجت فجأة من الباب وناديته باسم الشهرة المعروف بصوت جهوري:

- فرعون.

فالتفت خلفه فزعًا وهو يمسك ببندقيته الآلية، فأطلقت رصاصتي الأولى على رأسه ثم الثانية والثالثة والرابعة في صدره فارتطم بالأرض بشدة لافظًا أنفاسه الأخيرة، توقف ضرب النيران تمامًا، مشيت بهدوء باتجاه جثته وركلته ركلة خفيفة بقدمي كي أتأكد من موته وكأن ما تلقاه من رصاصات لا يكفي لقتل حيوان ضخم، انتابتني حالة من الهياج والغضب فشرعت أركله بكلتا قدميَّ بالتناوب بكل ما أوتيت من قوة صائحًا بكل الشتائم المقذعة حتى جاء زاهر من خلفي مسرعًا وأمسك بي بذراعيه القويتين محاولًا إبعادي عنه وهو يهدِّئ من روعي بجمل متداخلة لم أتبين شيئًا منها وأنا تحت وطأة الغضب.

أخذت نفسًا طويلًا داخل مكتبي بعد ما غسلت وجهي جيدًا ودخنت سيجارة منتفخة أعقبها العديد من سجائر المارلبورو، دلف عليَّ فجأة ودون استئذان اللواء مراد السيوفي ثم قال بنبرة خشنة قاسية تخلو تمامًا من الود:

- عصام بيه.. إيه اللي أنا سمعته النهارده ده؟

أجبته دون اكتراث وأنا تحت تأثير الحشيش والهلاوس:

- سمعت إيه يا مراد بيه؟

صاح غاضبًا بعد أن نهض وأغلق الباب:

- سمعت يا باشا إنك قتلت الهدف النهارده عن عمد.

- يا مراد بيه الهدف ضرب علينا نار بمجرد ما دخلنا المنطقة.. كنت عايزني أعمل إيه بعد ما صاب اتنين من رجالتي؟! وتقدر سيادتك تشوفهم وتطمن عليهم بنفسك في المستشفى.. كنت أطبطب عليه يعني!!

- أنت الأوامر اللي جيَّالك إنك تقبض عليه وتسلمه وبس.. مش تقتله!!

- والله يا مراد بيه أنت لو مكاني هاتعمل اللي أنا عملته ويمكن أكتر وبعدين اللي زي فرعون لازم يموت مش يتقبض عليه وندخل بقى في موال تحقيقات ومحاكمات.. وفي الآخر ياخد له كام سنة ده إن أخد أساسًا، وبعدها يخرج يبلطج على خلق ربنا.

- دي مش شغلتك يا بيه.. شغلتك إنك تنفذ الأوامر ومش معنى إني سمعت كلامك ووافقت إنك تفضل في مكانك إنك ترد الجميل بالشكل ده.

- يا مراد بيه، أنا مش فاهم أنت متنرفز ليه؟! هدف واتعاملت معاه زي ما الأوامر جيالي بالظبط واللي حصل إنه اتقتل بعد تبادل إطلاق النار وهكتب تقريري حالًا بالواقعة كاملة.

نظر لي مراد السيوفي نظرة الباحث حينما يحيِّره حدث ما، ينقب داخلي، يود لو أن يصدقني، أخذ نفسًا عميقًا ثم قال بهدوء:

- يا عصام افهم.. الداخلية دلوقتي على كف عفريت ومش عايزين غلطات ما لهاش لازمة.. الناس واقفة لنا على الواحدة.. الداخلية عملت والداخلية ودت والداخلية بلطجية وكلام ما لوش أي تلاتين لازمة.

ابتسمت حينما تأكدت أنه تنحى عن فكرة القتل العمد التي قمت بها، ثم قلت بهدوء:

- يا مراد بيه.. أديك شايف بنفسك.. الناس جابت آخرها من السرقة والقتل والبلطجة اللي دايرة في البلد على عينك يا تاجر وبكره هاتشوف الناس هاتفرح إزاي بقتل البلطجي ده.. وبعدين يا مراد بيه خلينا ننظف البلد شوية علشان لما نيجي ننظفها بجد ما نتعبش كتير.. كده كده الواد ده كان هيموت.. على إيدينا بقى ولَّا إيدين غيرنا.. فرقت في إيه بقى أنا ولا غيري قتله؟!

تململ مراد السيوفي في مجلسه وهو ينظر لي متفحصا ثم قال بنبرة أبوية:

- ما كنتش كده يا عصام.. طول عمرك ظابط ملتزم بالقانون وبتنفذ والأوامر وبس.. ما كنتش متخيل إن كان ممكن يجي عليك يوم وتتكلم باللهجة دي.. أنت طول عمرك مشهود لك بالشرف والأمانة في شغلك.

قلت بنبرة ساخرة تشوبها المرارة:

- الشرف والأمانة اللي ضيعوا ابني ومراتي.. صح؟!
- مش معنى إن حصلك حادث إنك تتغير وتنسى القسم اللي قسمته وأنت لابس البدلة دي وتبقى شبههم!
- حادث!!

ثم ضحكت ضحكة ممزوجة بالمرارة والسخرية فاسترسل في حديثه قائلًا بنفس النبرة:

- إيه الفرق دلوقتي بينك وبينهم يا عصام؟! قل لي كده إيه الفرق؟! هما قتلوك وأنت بتقتلهم.. هما قتلة وأنت كمان قاتل.. فوق يا ابني لحياتك الله يرضى عليك وبلاش تمشي في سكة مالهاش نهاية

أطرقت برأسي إلى الأرض مفكرًا بينما نهض السيوفي من مجلسه ثم ألقى عليَّ نظرة أخيرة ومشى بخطوات وئيدة تجاه الباب، نظر لي مرة أخرى نظرة شفقة يشوبها اللوم ثم قال:

- ابقى زور سارة يا عصام.. دي لسه على ذمتك ولّا دي كمان نسيتها؟! ربنا يهديك يا ابني.

زممت شفتيَّ ودعكت عيني اليسرى بيدي ثم أشعلت سيجارة، كان السيوفي قد غادر وترك داخلي أسئلة كثيرة، هل تحولت لقاتل باسم القانون؟! كان يمكنني التعامل مع فرعون وضربه بالرصاص مثلًا في قدمه أو تقييده من الخلف وإلقاء القبض عليه حيًّا في النهاية؟ نعم كان يمكنني ذلك، لكن تلك النزعة الغريبة التي شرعت تنمو داخلي حتى صارت كشجرة شيطانية جذورها ممتدة داخلي فتملكت مني وطوَّقتني بفروعها القوية وأخذت تتحكم فيَّ بإرادة حرة وترحيب حار مني، حاولت نفض كل تلك الأفكار العالقة بي لأني بصراحة لم أكن مستعدا للخوض في فكرة تزعجني أكثر مما أنا عليه وفي تلك اللحظة سمعت باب غرفة المكتب يدق ثم دلف زاهر وقد بدا على تعبيرات وجهه بأنه يريد شيئًا فقلت:

- في حاجة يا زاهر؟

- طمعان في كرمك يا باشا.

تململت في مكاني ورأيته قد أطرق برأسه بشكل غريب إلى الأرض فقلت بفضول:

- ما تقول يا زاهر في إيه؟
- محتاج شغل.
- نعم يا أخويا!! شغل إيه إن شاء الله.. إنت مسطول يا زاهر؟!
- والله يا باشا ما دقته النهارده.
- أومال إيه الشغل اللي سيادتك عايزه؟
- واحدة قريبتي جت مصر.. متعلمة والله يا باشا وطمعانة في كرمك
- واحدة قريبتك؟! أنا عمري ما سمعت إن ليك قرايب يا زاهر.
- ما أنا مش هادوشك يعني يا باشا بقرايبي.. سيادتك مش بتفضى.. ربنا يكون في عونك.
- وأنا هاشغلها في إيه يا زاهر هنا إن شاء الله؟! عسكري؟!

ضحك زاهر بطريقة طفولية وهو يقول:

- ده يبقى عسكري موز يا باشا.

ابتسمت رغم مزاجي السيئ ثم قلت بنفاد صبر:

- اخلص يا زاهر وفهِّمني.
- يا باشا أنت علاقاتك كتير وأنا رحت من أسبوع لأشرف بيه يونس وبصراحة الراجل قال لي هاجيبلها شغل وما عبرنيش.
- واشمعنى أشرف يونس اللي رُحت له يعني؟!

تململ زاهر في مكانه ثم قال:

- ما أنت فاهم يا باشا.
- آه آه.. مفهوم.. طيب يا زاهر.. أشوفها الأول لتطلع شبهك وساعتها مش هاينفع تشتغل حتى في المشرحة.

فقال زاهر بانفعال مبتسمًا:

- موجودة يا باشا بره أهي.. أدخَّلها؟!

- دخَّلها يا زاهر.

خرج زاهر لدقيقة واحدة ثم عاد وهو يصطحب فتاة بدا على وجهها التردد والحياء، نظرتُ إليها فوجدتها على قدر من الجمال، روحها تكاد تخترقني من تلك الرهافة الوديعة التي تلتصق بملامحها، بشرتها قمحية فاتحة ووجهها أقرب إلى الاستدارة وعيناها مثل لوزتين عسليتين، وأنفها صغير مدبَّب رُسم بعناية، وجبهتها صغيرة وحاجباها رفيعان، وذقنها شبه مستدير، ليست قصيرة ولا طويلة، لها جسد رقيق جميل، تملك صدرًا صغيرًا ناهدًا ومنحنيات في جسدها تضفي عليها نوعًا خاصًا من الأنوثة، وقفت في مكاني وسلمت عليها بمودة، رأيت فيها جانبًا يملاء الحزن وانعكس في عينيها الزائغتين كدر غريب، لا أدري لَمَ أحسست تجاهها بالشفقة وتذكرت بلا سبب زوجتي سارة فشعرت تجاهها بالعطف فتعجبت نفسي، أجلستها على الكرسي المواجه لي وأمرت زاهر بالانصراف فانصرف بعد تردد لم يطل، سألتها عن اسمها بلطف فقالت بخجل:

- اسمي ياسمين.. ياسمين عبد الظاهر.

تشبه اسمها، ياسمين اسم على مسمى وقبل أن أنخرط في أفكاري دخل عامل البوفيه حاملًا صينيه عليها الشاي، وضعه أمامي وقبل أن ينصرف سألتها إن كانت تريد أن تشرب شيئًا ولكنها رفضت تمامًا طلب أي شيء فاستأذن في الانصراف ولكنه قبل أن يغادر وبعد أن رشفت رشفة صغيرة من الشاي نهضت من مجلسي غاضبًا وأنا أنهره وأسبه قائلًا:

- مش قلت لك مليون مرة يا حيوان إن الشاي بتاعي ما يتحطش عليه زفت قرنفل.

تلعثم العامل واعتذر كثيرًا ثم هرول تجاهي آخذًا الكوب في يده وانطلق خارج المكتب، رمقتني ياسمين بنظرة مستطلعة متفحِّصة وكأنها استفاقت فجأة من غيبوبة طويلة فقلت:

- معلش يا ياسمين، آسف إني زعقت بس أنا مش بحب القرنفل.

فقالت بثقة وتأكيد رغم شرودها الواضح وكأنها تحدِّث نفسها:

- ولا أنا.

فابتسمتُ قائلًا:

- كويس لينا اهتمامات مشتركة.. قولي لي بقى إنتِ عايزة تشتغلي إيه؟

- أي حاجة محترمة في مكان كويس.. أنا خريجة تجارة واشتغلت قبل كده.. يا ريت لو حضرتك تشغلني في أيوها حتة.

لم تكن تعنيني أية معلومات عنها، شيء ما غامض في صدري جعلني أستريح لها، لم أسألها عن زاهر وباتت عاطفتي تطوقني بشكل غريب لم أعهده في نفسي منذ وفاة طارق، لم أكن أدري ماذا أقول لها! ولكني بلا سابق إنذار أو حتى تفكير في الأمر وعدتها بأني سأجعلها تعمل خلال هذا الأسبوع، انصرفت ياسمين ولكنها أيقظت داخلي تلك اللحظات الجميلة التي قضيتها بصحبة سارة حينما كنا مخطوبين، إحساس غريب تسلل إليَّ وتملكني، حنو واشتياق لتلك الفترة البعيدة التي دُهست تحت أقدام شرسة لا ترحم، جلست لمدة طويلة في مكتبي أدخن الحشيش والسجائر محاولًا بقدر الإمكان صب حائط صلب لا يلين أمام عاطفتي التي استيقظت من مكمنها وهبَّت كالرياح تعصف بي لتذكرني بأحداث حياتي قبل الحادث، رأيت أمي في مخيلتي حزينة تنظر لي وكأنها تستحثني على شيء ما، وأبي الراحل وهو يبتسم لي تلك الابتسامة التي طالما دفعني بها لإطاعة أوامره ولكن ماذا يريد أبي؟! و ما الذي تستحثني أمي عليه؟! استرجعت الحديث الأخير الذي دار بيني وبين مراد السيوفي وتذكرت كلماته الأخيرة:

- ابقى زور سارة يا عصام.. دي لسه على ذمتك ولّا دي كمان نسيتها.. ربنا يهديك يا ابني.

فجأة بكيت بشدة حين تداخل صوت الرصاص مع انقلاب السيارة ورحيل طارق، وعينا سارة التي نهشتني حين رحيلها هي الأخرى بعيدًا عني وتغلّف المشهد كاملًا برائحة القرنفل الكريهة، نهضت من مكاني وأنا أكفكف دموعي بيدى، ركبت سيارتي واتجهت نحو منزل مراد السيوفي حيث تقطن سارة، وقفت أسفل المنزل وأخذت نفسًا عميقًا، لم أكن أدري ماذا أفعل ولكني جلست داخل سيارتي لمدة طويلة..

طويلة جدًا..

الفصل 8

- ياسمين ابعتيلي التقارير الخاصة بالمشروع الجديد اللي شغالين عليه.. وابعتيلي معاه كل الحسابات من يوم ما ابتدا.
- حالًا يا فندم هاتكون على مكتبك.

أغلقت سماعة الهاتف مع صاحب الشركة التي أعمل بها، السيد أشرف يونس، ثم بهدوء شرعت في إعداد التقارير وترتيب أوراق الحسابات التي أمر بها، عدت بذاكرتي قليلًا إلى الوراء، إلى شهر مضى وأنا أتذكر الساعات الصعبة حينما خرجت منهارة مأخوذة من عند توحة بعد ما تجلت كل مظاهر الإذلال والقهر في تعنيفها لي للدرجة التي جعلتها تتطاول عليَّ، وتهم بضربي دون رادع أو تفكير، أفكار مختلفة ومتناقضة مرت بمخيلتي وأنا أسير منساقة مع زاهر من مجهول إلى مجهول آخر ربما أشد قسوة وفتكا، لم أكن أتصور حقيقة ما حدث أو أستوعبه على الإطلاق وكأني رغما عني بطلة داخل كابوس لا يعنيني، كأن التفاصيل جميعها تحدث في مكان آخر لشخص آخر، هل كنت منهارة؟! لا أعتقد، لأن ما حدث تصورته مرارًا وتخيلته يحدث أمامي ولكني كنت أغلق عينيَّ وأهز رأسي بعنف كي لا تتجلى تلك الأفكار المرعبة أمامي وتتحول إلى واقع، ولكنها بالفعل تحولت إلى واقع أكثر رعبًا من الخيال نفسه، مثل الموت تمامًا، لا تشبيه آخر ولا استعارات يمكن لها أن تصور الحقيقة بشكلها المجرد كما حدثت، الموت والموت فقط هو الوصف الحقيقي بكل أسف، كان إحساسي بالشفقة على نفسي معدومًا لأننا حينما نتخيل أحداثًا سيئة نخشى

وقوعها فإنها تتجلى في مخيلتنا بشكل أكثر بشاعة ثم تتحول إلى جزء منا رغمًا عنا وفي النهاية تحدث، وحينما تحدث يكون طعمها عاديًا لأننا تمرّنا عليها مرات عديدة مؤلمة قبل ذلك، قبل حدوثها الحقيقي.

أدخلني زاهر وأنا مأخوذة إلى شقة صغيرة بإمبابة، حاول بقدر الإمكان مواساتي بقدر ما استطاع مؤكدًا لي أن لا يد له في ما حدث ولا يعرف عن الأمر سوى تفاصيل بسيطة لا حجة له عليها ولا يفهم ما دار تحديدًا ولكنه يعلم بشكل أو بآخر بأن توحة امرأة سيئة تستغل أقل الفرص لمصلحتها وفي النهاية هي مومسته التي يقضي معها وقتًا ممتعًا لا أكثر ولا أقل، سألت نفسي السؤال الطبيعي المفترض طرحه في محنتي تلك، لماذا يساعدني زاهر؟! في الحقيقة لم تبدُ إجابته واضحة أو مطمئنة لكني لاحظت خلال الثلاثة أيام التي قضيتها معه بأنه يحمل جانبًا آخر تمامًا لم أره فيه قبل ذلك ولم أتوقع وجوده إطلاقًا، ذلك الوحش الغريب يحمل مقدارًا من الرحمة والإنسانية، استرجعت في مخيلتي ذلك اليوم الذي اعتذر فيه بعد المشادة التي دارت بيننا، يومها شعرت بصدقه الغريب المنافي لهيئته وطريقته الفظة وقد حيرني ذلك تمامًا، لم يبت في الشقة وأنا أمكث بها أبدًا لكنه كان يأتي في الصباح ومعه الإفطار ويطمئن على حالي ثم يذهب إلى حال سبيله، ويعود بعد العصر ومعه طعام الغداء فيتناوله معي ويطمئن عليّ ويذهب مرة أخرى إلى حال سبيله، لا أستطيع القول بأني شعرت بالأمان في كنفه، فأمثالي لا يمكن أبدًا أن يشعروا لحظة واحدة بالأمان، لكني كنت معدمة بلا مال أو سكن يأويني ولم يكن أمامي حل آخر ولذلك رضخت للأمر الواقع وأحكامه النافذة.. ذات يوم جاء وتناول الغداء معي وكان يثرثر كثيرًا ثم قال بنبرة جادة وقد ظهرت عيناه الخضراوان براقتين بشكل غريب:

- بصي يا ياسمين من أول يوم شُفتك فيه وأنا حسيت إن ده مش مكانك، أنا مش غبي وفاهم الدنيا كويس وبعرف أفرّق بين البني آدمين، وبعرف كويس أفرق بين النظيفة والوسخة.. لكن اللي ضايقني منك إنك رافعة مناخيرك للسما وإحنا لا مؤاخذة كلنا

ولاد تسعة ولما كنت بنكشك كنت بقول يمكن تطلع اللي في قلبها وتحكي لكن كنتِ طالعة فيها برضه وبتبصّيلي بصّات واطية وبتعامليني على إني قلة وجاهل.. حرقتِ دمي آه.. وماكنتش طايقك آه.. لكن والله العظيم موضوع توحة ده أنا ما ليَّا فيه ولا هيكون ليا فيه، أنا عارف إنها بتشتغل من تحت لتحت في الدعارة بس ورحمة جوز عمتي أنا ما كنتش متأكد من الحوار ده وتوحة مش سهلة ومستحيل دكر يعرف يطلّع منها غير اللي عايزة تقوله.

قلت مذهولة صائحة:

- دعارة!!

- أيوه.. أومال منة والبت السورية الجديدة دي بيروحوا فين يعني!! بنت الكلب بتستغل ظروف البنات اللي عندها وتوحة مش قليِّلة وليها اتصالات مع ناس كتير وعلى فكرة أنا متأكد إن نهى شريكتها في كل اللي بيحصل وكل اللي عليهم يصطادوا البت من دول ويبعتوها لجهنم عدل والظاهر إن توحة ما كانتش عارفة توصل معاكِ لحاجة علشان كده عملت الفيلم الهندي اللي عملته معاكِ ده بس إنتِ طلعتي بـ 100 راجل.. براوة عليكِ.. أنا استجدعتك يومها وقلت البت دي مش بتاعة الكلام ده علشان كده جيبتك هنا.

- طيب أنت شغال في الداخلية.. ليه تعرف واحدة زي دي؟!

قهقه زاهر بشدة حتى دمعت عيناه ثم قال:

- ده على أساس إني لواء يعني في الداخلية.. إوعي تكوني مفكرة إننا لا مؤاخذة ملايكة ومش بنعمل حاجة غلط.. وبعدين توحة باخد كيفي منها وبقضي معاها وقت حلو وخلصت على كده..

تذكرت فيما بعد الشقة التي أجرها لي كما قام أيضًا بشراء سرير وملاءة وبطانية وذات ليلة كنت أجلس فيها وحيدة دق جرس الباب فانتابني رعب شديد لكنه قهقه خلف الباب قائلًا:

- افتحي يا ياسمين ما تخافيش.. أنا زاهر ومعايا حبيبتك.

فتحت الباب متوجسة قلقة فوجدت شهيرة أمامي فاحتضنتها بحرارة، تركنا زاهر وذهب إلى سبيله بعد ما اطمأن علينا، باتت معي شهيرة في تلك الليلة بعد أن أخبرتني أنها اهتمت بشؤون عائلتها لتقضي معي تلك الليلة، تبادلنا أطراف الحديث في كل شيء، عن أهلها وحالها وتوحة والبنات والكوافير ومدام نهى أيضًا التي تركت العمل لديها أو بمعنى أدق بعد أن طردتها نهى بلا مبرر، عرفت من شهيرة أيضًا أنها كانت تعرف كل شيء ولكن كان يمنعها من قول الحقيقة خوفها على لقمة عيشها التي ترتبط ارتباطًا وثيقًا بحياة أهلها، أخبرتني أيضًا أن نهى رأتها يومًا بتدبير من فهمي مع أحد الشباب تختلس القبلات في الظلام وهددتها بأن تفشي سرها لأمها المريضة فخافت وانساقت خلفها وأقسمت لي بالله بأنها لم تمارس الدعارة أبدًا لكنها حضرت حفلة قبل ذلك دعتها نهى لها ولا يمكن وصف تلك الحفلة سوى بأنها حفلة على شرف الشيطان نفسه، أرغمتها على الحضور بل وهددتها بما هو أسوأ من توقعاتها إن لم تنسق خلف رغباتها فذهبت تحت تأثير الخوف ولم تكن سوى عاملة تقدم الشراب للمدعوين، لقد رأت العجب، أناسًا كثيرين تبدو عليهم أمارات الغنى والترف لكنهم منساقون خلف غرائزهم بشكل مثير وغريب، أما عن توحة فليست أكثر من عاملة لدى نهى التي تدبر وتقود كل شيء باحترافيه، المفجع في الأمر أن الشرطة تعرف بالأمر، لكنهم لا يستطيعون إثبات شيء بسبب العلاقات القوية التي تتمتع بها نهى كما أن الحال في البلد لن يجعل الشرطة تترك الأمن المنفلت لتضبط الأخلاق المنفلتة من الأساس.

لقد حاولت شهيرة حمايتي من وقت لآخر لكني لم أتصور أن الأمر معقد ومفجع إلى هذه الدرجة، قضينا ليلة طويلة دون أن يغمض لنا رمش، احتضنتها كثيرًا وكأني أقدم لها اعتذارًا عما بدر مني وعن سوء أفكاري التي جعلتني أشك بها وأنأى عنها بسبب تلك الحرباء المتلونة التي أفقدتني كل ثقة فيمن حولي لأصبح وحيدة، ملكًا لها تفترسني وقتما شاءت، استأذنت شهيرة في الصباح قائلة بمرح:

- أنا ماشية يا بت بس إوعي تيجي منطقتنا تاني بقولك أهو.. يا عالم ناويين ليكِ على إيه! وما تخافيش من زاهر.. طلع جدع أهو بس اطلبي منه يشغلك.. هو آه زي البغل وجلنف بس ليه معارف كتير أكتر من عدد شعر رأسك.

خرجت من ذكرياتي وأنا أنظر أمامي بعين لا تكاد تصدق ما تراه أمامها، إنه هو ذلك الشاب فارع الطول ذو العينين العسليتين الحزينتين الذي لمحته في المهندسين، لم يغب عن مخيلتي رغم اجتهادي في اقصائه عن أفكاري، لديه شامة جميلة على وجنته اليمني قريبة إلى شفتيه الممتلئتين الشاحبتين، يملك شعرًا مجعدًا بني اللون أميل إلى السواد مصففًا بعناية، يعاني من نوبة عطس أرهقت أنفه العريض فبدا أكثر سمارا من لون بشرته القمحية الغامقة، بالتأكيد أنا أحلم ولم أخرج من داخل أفكاري المشتتة وذكرياتي البعيدة بعد، لقد بدا مأخوذًا وهو يقف في مواجهتي وهذا ما أثارني، هل يعرفني؟! هل تلك اللمحة المخطوفة من الزمن باتت داخله كما باتت داخلي؟! انتزعني من أفكاري صوته الجهوري المتأثر بإصابته بالبرد وهو ينظر لي مشدوها:

- أشرف بيه موجود يا آنسة؟

تلعثمت قليلًا ثم قلت:

- أيوه موجود يا فندم أقوله لمين؟

- قولي له مصطفى.. مصطفى ابن أختك.

ثم ابتسم، كان يبدو عليَّ التوتر بشكل ملحوظ حتى إني أسقطتُ بعض الأوراق من فوق المكتب وأنا أتحرّك مربكة من مكاني، اقتحمت مكتب صاحب الشركة بلا استئذان قائلة بتلعثم:

- واحد بره اسمه مصطفى عايز يقابلك وبيقول إنه ابن حضرة أختك.. سوري.. ابن أخت حضرتك.

نظر لي أشرف يونس نظرة متشككة متسائلة ثم ابتسم ابتسامة هادئة قائلًا:

- خليه يدخل بسرعة.

قبل أن آذن له بالدخول دلف المكتب فاتحًا ذراعيه فقد كان متابعًا للحوار:

- خالي حبيبي.. وحشتني والله العظيم.

- يلّا يا بكاش.. شهر كامل يا مصطفى ما حدش يشوفك فيه.. إيه أخدت مصلحتك مني واختفيت يا وصولي.

قهقه مصطفى ولكن توقفت ضحكته إثر عطسة باغتته ثم قال بلهجة يعني بها شيئًا:

- حبيبي يا خالي.. مش هاتأخر عليك تاني أبدًا.

ثم نظر لي نظرة رقيقة مبتسمًا وهو يقول مسترسلًا:

- أبدًا يا خالي.

****

هل ما كان في قلبي حبًا؟! هل أنا ساذجة لتلك الدرجة التي أفكر فيها بهذا العبث؟! ما مر بي لم يكن هينًا كي أتجاهله فجأة وكأنه لم يحدث! فيمَ كنت أفكر بالضبط؟! لمَ تملّكني ذلك الشعور الغريب بالسعادة المشوبة بشيء من الترقب والخوف بمجرد رؤيتي لذلك الشاب الذي اتضح فيما بعد أن اسمه مصطفى، ألم يقهرني الحب ويتبرأ مني ويرديني قتيلة يتقاذف جثتي التشويه والصراعات؟! ألم يتركني والدماء تسيل من بين فخذيّ وكل ما كنت أصبو إليه لمحة بسيطة من الأمل؟! ضمة رقيقة تخبرني بأن العالم ما زال بخير وأنّ حادث اغتصابي ليس أكثر من حدث عرضي سيفنى بالحب؟! أي حماقة تلك التي أرتكبها في حق نفسي؟! تبًا لذلك قلب يصور لي البؤس أملًا، والموت حياة والكره عشقًا، أي ذنب جنيته لكي يرميني في هذا البؤس؟!

تلاطمت أفكاري واحتدمت، ثمة صرخات قوية تدوي داخلي، خوف

أخذ بطل حقيقيا في أعماقي، انتهى مصطفى من زيارته لخاله واستأذنه، كان صوته يأتيني عميقًا مؤلمًا في هذه اللحظات من خلف الباب الذي يقفان خلفه جاهزين للوداع وكأنها مسامير تنخر في جسدي، كرهته كرهًا غريبًا ومقتُّ وجوده إلى الدرجة التي لو أمسكت بها سكينًا لقتلته.

خرج من المكتب، فتظاهرت بانغماسي في العمل فوقف في مواجهتي أمام مكتبي بعد ما أغلق يونس باب مكتبه عليه ثم قال:

- أنا عرفت من خالي إن اسمك ياسمين.. اسمك ده عزيز عليًا أوي.. أنا متأكد إني شُفتك قبل كده.

- ما أظنش إننا اتقابلنا أو شُفنا بعض قبل كده.

رددت عليه دون أن أرفع وجهي عن الأوراق أمامي ولم أكن أرى أي شيء، كانت نبرتي جافة قاسية حتى إنه تململ قليلًا في مكانه ثم قال:

- أنا اللي فاكر إني شُفتك.. مش العكس.. عمومًا فرصة سعيدة يا ياسمين وأظن إني هاشوفك كتير الفترة الجاية.

تماديت أكثر بنفس الجفاف:

- أهلًا.

لم أضِف كلمة واحدة بعدها، أحسست بنظراته الحائرة وأنا أتظاهر بالعمل، تردد قليلًا قبل أن يغادر ولكنه في النهاية غادر المكتب بعد برهة غير قصيرة. رفعت وجهي ثم زفرت زفرة قوية وكأني استرحت من هم ثقيل جثم على صدري، على مدار اليوم وخلال العمل لم أكن منتبهة، مشتتة، يتقاذفني العديد من الأفكار وتراودني الكثير من الهلاوس والهواجس السيئة، خرجت من عملي وأنا شبه تائهة هائمة على وجهي، لم أكن أدري إلى أين أذهب أو ماذا أفعل لكني كنت غاضبة بشدة على نفسي وعلى حياتي وعلى كل شيء.

ركبت المترو ودون تفكير ذهبت إلى شهيرة غير مكترثة بعواقب الأمور، عرفت منها خلال زيارتها الأخيرة بأنها تعمل الآن في محل

ملابس حريمي بعين شمس كبائعة كما في السابق ولكن هذه المرة لدى رجل طيب وقور مشهود له بحسن السمعة، دلفت المحل منفعلة وأنا أبحث كالمجنونة عنها حتى وقعت عيناي عليها فوجدتها تقوم بترتيب بعض الملابس فقلت بهدوء وأنا أقف خلفها:

- عايزة بلوزة لونها زي لون عينيكِ لو سمحتِ.

فنظرت خلفها بعصبية سرعان ما تحوَّلت لابتسامة عريضة بمجرد أن رأتني ثم صاحت:

- ياسمين يخرب عقلك.. إيه اللي جابك؟!

- في حد يقابل أصحابه كده برضه؟

فضحكت ضحكة مجلجلة وسرعان ما وضعت يدها على فمها وكأنها تخرس نفسها ثم قالت:

- الضحكة بتاعتي دي ممكن تقطع عيشي أصل بعيد عنك صاحب المحل معقد وشكله كده ما بيعرفش.

ضحكت ثم قلت:

- ما فيش فايدة.. لا الوحش عاجبك ولا الكويس عاجبك.

- سيبك مني أنا وقولي لى إيه اللي جابك فجأة؟!

ثم ضربت على صدرها بحركتها المعهودة وهي تقول وقد اعتراها الخوف فجأة:

- صحيح.. يخرب بيتك.. إنتِ إيه اللي جابك؟! مش اتفقنا ما تجيش هنا تاني.. افرضي حد شافك؟ إنتِ مجنونة!

- وحشتيني يا شهيرة وكان نفسي أشوفك وبعدين يا ستي إحنا بقالنا شهر على مكالمات تليفون وما تقلقيش ما حدش هايشوفني.

نظرت لي نظرة متفحِّصة ثم قالت بسخرية على سبيل المزاح:

- وحشتك؟! آه.. قلتيلي.. طيب استني نص ساعة بس في أي حتة

يكون ميعاد راحتي جه وآجي أقعد معاكِ.. ولّا أقولك استني هنا أحسن حد يشوفك وتبقى مصيبة.. إنتِ إيه اللي جابك؟!

فضحكت وأنا أحتضنها لخفة ظلها ثم أومأت برأسي مستجيبة لنصيحتها، وقفت خارج المحل لثلث ساعة تقريبًا، لا أدري لمَ لاحت على تفكيري نهى وتوحة وتملّكني إحساس غريب قوي متسائل عن حالهما وما آل إليه أمرهما، دعوت الله في أعماقي أن يقعا في شر أعمالهما، كان دعائي متشفيًا مغلفًا بالمرارة لكنه كان صادقًا صادرًا بلوعةٍ من أعماق قلبي ولو كنت أتمنى شيئًا في هذه اللحظات فكنت أتمنى لهما أن يحترقا في الجحيم.

خرجت شهيرة وابتسامة يكسرها القلق ترتسم على ملامحها، طلبت مني أن أذهب معها إلى منزلها ولكني رفضت وعرضت عليها الجلوس في أي مكان قريب لأني أحتاج بشدة للحديث بعيدًا عن المنزل الذي لن يساعدني على إخراج ما في قلبي، اعترضت لحظات لكن سرعان ما استجابت، ذهبنا وجلسنا في كافيه قريب من مكان عملها، حينما جلسنا طلبنا سندوتشين من الشاورما، نظرت لي شهيرة نظرة تستحثني على الكلام لكن لا أدري أين ذهبت الكلمات؟! لقد حضّرتها طول الطريق من المهندسين إلى عين شمس، لقد أعدتها وفندتها وحللتها مرارًا كي أدفعها خارجًا حينما أرى شهيرة لتمنحني حلًا كي أتخلص من تلك المشكلة، لا أملك تلك القوة ولا الظروف ولا الحياة نفسها لأهب نفسي لرجل سيدهسني بكل تأكيد مع أول موقف صعب أتعرض له، كان في داخلي مزيجًا غريبًا من الأحاسيس المتداخلة والمتباينة، متحمسة مندفعة وخائفة، محبة وكارهة، يائسة وآملة، حُوصرت فجأة بتلك المشاهد البشعة في ذاكرتي وكأن ليس في داخلها أي ذكريات أخرى، تذكرت مشاهد العشق مع أحمد يتخللها صوت صدى الباب الحديدي لمنزله حينما أغلقه في وجهي فانغلقت كل الآمال وانسحبت الروح فجأة من جسدي، تخلل ذلك رياء توحة وطيبتها الكاذبة ونفاقها مع محاولة اغتصابي، لا شيء يدعو

للحياة ولا ذاكرة تحوي أكثر مما هو مسموح، انفعلت وشعرت بالدماء تغلي في جسدي فجأة فاستأذنت دون مقدمات من شهيرة التي كانت ساهمة تنظر لي غير مستوعبة ما يدور، أطلت في عينيها الأسئلة وحاولت أن تثنيني عن المغادرة ولكن بلا طائل، فقد انتابني انفعال شديد ونفور من كل الأحياء، ما الذي أفعله؟! ما ذلك الموضوع المهم الذي يدفعني دون إرادة لأن أمشي تلك المسافة الطويلة من المهندسين إلى عين شمس متحدية الظروف لأضع نفسي في موقف خطر، فمن الممكن أن تراني توحة أو نهى وتكون العاقبة شديدة الوطأة عليّ، ما الذي أفعله بنفسي تحديدًا ولِمَ أخاطر في طريق سينتهي حتمًا بما هو أسوأ من الموت؟! بكسر خاطر حتمًا سيتبعه خيبات جديدة؟!

تركتُ شهيرة وتركت معها صمتًا موحشًا، حاولت ملاحقتي، فجأة ظهر في مواجهتي فهمي وهو يترجل من السيارة التويوتا، نظر إليَّ نظرة طويلة سرعان ما تحولت إلى غضب شديد، هرول خلفي برجله العرجاء ولكن شهيرة اعترضته وهي تصرخ فيَّ بأن أبتعد، كنت متسمرة في مكاني لا أستوعب ما يدور حقيقة كأني داخل حلم يقظة غريب، فجأة تناهت إلى مسامعي صرخة شهيرة فاستيقظت وجريت بكل قوتي، كأني أهرب من كلب هائج شرس، ماذا يريدون مني الآن؟! الانتقام من ما حدث؟ أم إجباري على المكوث معهم بعد ما تأكدوا بأني بلا ظهر؟! لن أعود وإن أرادوا إخبار أهلي فليخبروهم وتنتهي معاناتي.

كنت ألهث بشدة في المترو، أقف خلف الباب مستندة عليه، عينيَّ تجوبان المحطة بحثًا عن مُطارِد جديد في أذيالي يلحق بي، كرهت نفسي وسالت دموعي في صمت وأنا أتابع المحطات تمر من أمامي كالحياة التي لا تتوقَّف أبدًا، حينما وصلت إلى محطة جمال عبد الناصر أحسست بالجوع، مشيت قليلًا حتى وصلت إلى مطعم ملك الكبدة في شارع 26 يوليو ثم جلست في ذلك الشارع الجانبي في مواجهة المطعم، لمحته يقف أمام فرشة من فرشات الكتب المنتشرة في وسط البلد، أخفيت وجهي بيدي

وأنا أتناول الطعام على ترابيزة موضوعة في الشارع وسط ترابيزات كثيرة، رغم الضوضاء كنت أشم رائحته التي لم تفارقني وأسمع خطواته تقترب مني، مر بجواري، لم يلمحني، أزلت يدي التي أخفت وجهي فسمعت صوتًا يقول:

- ما تقلقيش أنا مش متطفل للدرجة دي.

ثم انسحب بهدوء عائدًا من حيث أتى، كان في خطواته البطيئة شيء من الأسى، لم ينظر خلفه أبدًا، واختفى من أمام عيني تمامًا، نهضت دون وعي من مكاني ثم هرولت حتى وصلت إلى أول الشارع الرئيسي المؤدي إلى شارع طلعت حرب، لم أستطِع رؤيته وسط الزحام رغم طوله الفارع، لم يكن موجودًا وكأنه سراب سرعان ما تبينت حقيقته المزيفة، دُهشت وسألت نفسي بعد ما نسيت الجوع والطعام وأنا في طريقي إلى المنزل، هل كان حقيقيًا فعلًا أم أن أفكاري شرعت ترسم لي أحداثًا غير حقيقية؟!

****

لم أنم طوال الليل، رن هاتفي بلا توقف، ظهر مرارًا وتكرارًا اسم شهيرة على شاشة هاتفي لكني كنت بعيدة جدًا عن هذا العالم، بعيدة إلى الدرجة التي يستحيل معها أن نرى شيئًا سوى أحلامنا وهواجسنا المتلاطمة المتداخلة بشدة وفي النهاية لا نجد مخرجًا إلا بابتسامة منهكة أو صمت ثقيل موحش، ألم أقل قبلًا إني أحب القراءة؟! نعم أنت تعرف أني أحبها، أنى لي أن أنسى ذلك؟! ربما نسيت أنت تلك الحقيقة! أعلم أن الشرطة لن تضيع وقتًا طويلًا حتى تصل هنا؟! دعنا ننتظر سويا مع لون الشمس الغاربة والرياح الغاضبة الآتية من اللامكان، أتساءل كم بلد مرت عليها تلك الرياح؟! كم فتاة مثلي خطفت شابًا لتجبره على سماع قصتها حتى النهاية؟! حتى النهاية تمامًا.

لكن دعني أكمل لك..

كنت أمسك برواية ذاكرة الجسد لأحلام مستغانمي، أحب كتاباتها

وأعتبرها واقعية بشكل مثير على عكس ما يتداوله البعض، كنت أنقل بصري بين الهاتف وتطور الرواية التي لم أقرأ سطرًا واحدًا منها حتى هذه اللحظة، النهار يشقشق والليل ينسحب بهدوء بعد أن علم الحقيقة، وصار وجوده لم يعد مُرحَّبًا به، نهضت فجأة من مكاني، وقفت في مواجهة المرآة الوحيدة المعلقة في الحمام، كنت أرى وبشكل واضح نورًا غريبًا يخرج من بين ثنايا وجهي المعتم المرصع بآثار دموع لطالما سقطت، أجبرت نفسي على الخروج من شرودي، تحسست ملامحي حتى ابتسمت ابتسامة غريبة على نفسي، أطرقت برأسي قليلًا إلى أسفل ثم خلعت ملابسي بهدوء فصرت عارية، لأول مرة أنظر لجسدي تلك النظرة القديمة، نظرة المشتاق لشيء أُنتزع منه في يوم كئيب مظلم ممطر، تلك النظرة التي تشبه معانقة الغائب لتفاصيل أهله بعد ما أضناه الغيب والقهر والوحدة، نزلت تحت الماء حتى غمرت القطرات جسدي، تلمَّست جسدي بيدٍ مرتعشة وسرعان ما كنت أطبطب عليه كأني أربت على طفل صغير شن عراكًا أدماه، هل كنت أصالح جسدي المُنتَهَك وأعقد له جلسة أخرى أبرئ ذمته فيها من فاجعة الاغتصاب التي طالتني؟! هل كنت أُطمئنه كي لا يخشى المستقبل؟! ارتجف جسدي تحت لمسات يدي، لكنه بعد برهة طويلة من المحاولات المستمرة استقر تحتها يتنفس بصعوبة وتدريجيًّا انتظمت أنفاسه واستجاب ليديّ الآمنتين.

في طريقي إلى العمل تطلعتُ إلى السماء، كانت صافية، والجو له رائحة محببة، رغم أن شهر أبريل كاد يقترب من منتصفه إلا أن لسعات النسيم الباردة كانت تأتيني تباعًا فتُنعشني على نحو غريب مُبهج، حتى الناس من حولي لم أخشهم كما تعودت رغم أن هاجسًا مخيفًا ظل عالقًا داخلي لكنني تغلبت عليه بعد كفاح لم يطل، كنت أول من يصل إلى الشركة في المهندسين، طلبت من عامل البوفيه أن يعد لي فنجال قهوة، تناولته بهدوء. جاء صاحب الشركة وحيَّاني، لاحظت لأول مرة أن شعرًا متناثرًا خفيفًا شرع في الظهور على ذقنه، تكهنت بأنه يمر بوقت عصيب دفعه إلى

إهمال نفسه فتمنيت له كل خير وأن يفرج الله همه، أشرف يونس شخصية محترمة لم أرَ منه شيئًا على الإطلاق يجعلني أعامله بحذر بعد ما توطدت علاقتي به والتي لا تتعدى مجال العمل، ربما يكون متناقضا بعض الشيء طبقا لما رأيته منه، كتومًا أيضًا بشكل مثير، في النهاية كل ذلك لا يعنيني طالما أنه يبادلني الاحترام، أخرجت جميع الأوراق المهمة بنشاط حقيقي وشرعت في تجهيزها لكي يعتمدها، حضر عدد من المهندسين وانشغلوا معه في اجتماع مغلق، انتهى اليوم بهدوء دون أن يطرأ حدث جديد، لم أفكر في أي شيء لكنني كنت مترقبة، أنتظر وأبحث عن شيء ما، عن شيء أتظاهر بتجاهله كلما مر بخيالي، كيف يكون الإنسان أحيانًا معقدًا إلى هذه الدرجة؟! كيف يتسنى له التظاهر بالهدوء رغم الثورة التي تشتعل داخله؟! هذا ما كنت عليه، منفعلة في داخلي رغم إظهار الهدوء، شديدة التركيز ولكن ما بداخلي هائج بلا أدنى نظام أو تفسير يُذكر، اتصلت بشهيرة لأعتذر منها عما حدث، منعتها عن الحديث تمامًا بشأن فهمي وما حدث بالأمس، كيف شردت إلى تلك الدرجة التي تقاعست فيها عن الاطمئنان عليها بعد ما رأيته من فهمي أمس؟! كانت حزينة وغاضبة مني لكنها في النهاية استسلمت لتوسلاتي كي تسامحني بل واختلقت لي العذر، مشيت بلا وجهة محددة حتى وجدت نفسي في وسط البلد، كنت أقف أمام فرشة الكتب، نفس فرشة الكتب التي كان يقف أمامها أمس، ارتبكت للحظات وأنا أتحسس أغلفة الكتب وكأني ألمس شيئًا آخر وأتنفس أنفاسًا أخرى تخص شخصًا له رائحة مميزة، جلست طويلًا عند ملك الكبدة، عيناي لا تفارقان فرشة الكتب، كنت هائمة ومنفعلة والتوتر يملأني، ماذا كنت أنتظر؟! لِمَ أنا هنا في تلك البقعة تحديدًا؟! ما الحقيقة الخفية والدافع شديد القوة الذي يدفعني إلى المكوث هنا؟! حقيقة كنت لا أعلم ما يحدث لي ولا أستطيع التحكم به لكني كنت مستسلمة..

مستسلمة تمامًا.. لكن حدث ما لم أكن أتوقعه.

مصطفى الشريف

هل يمكن أن يكون العالم صغيرًا إلى هذا الحد؟! هل يمكن أن تتحقق الأمنيات في اللحظات الأخيرة المستحيلة؟! بعد فترة ليست بالقصيرة كنت نسيت ذلك الوجه الجميل المليح والآن يباغتني القدر بضربة قوية مفاجئة بعد ما اقتربتُ من الهاوية ويئست تمامًا من كل شيء حولي بل كنت خلال المدة السابقة أفكر بشكل جاد في مغادرة مصر إلى الأبد.

لقد عملت بالفعل في إدارة الطب الشرعي، رحب بي الأطباء زملائي بحفاوة، شرعت في العمل مباشرة بعد انتهاء الإجراءات الروتينية التي تطلبت وقتًا طويلًا ولكني اكتشفت أن الواسطة في مصر هي كل شيء، لقد اتصلت بوالدي الذي فاجأني أيضًا بمعرفته وصلته الوثيقة بالعديد من الشخصيات المهمة بمصر، اندهشت تمامًا من رده حينما حدثته عبر الهاتف وأخبرته عن أزمتي، طمأنني بأنه سيحل ذلك الموضوع بأقصى سرعة وبالفعل مع تدخل عصام الرشيدي أيضًا وعلاقات أبي التي لا أعرف عنها شيئًا تم تعييني في قسم الطب الشرعي، رغم أني مقتّ الأمر وشعرت بمدى ضآلتي وعدم قدرتي على الالتحاق بعمل بمجهودي الشخصي إلا أني كنت أعرف في أعماقي أن الأمر لن يسير ولن يتحقق إلا بهذه الطريقة، فكرت في بقية الشباب المؤهل للعمل بمؤسسات كثيرة هنا عن استحقاق، تأملت حالهم المزري المتراجع لمجرد أنهم لا يملكون تلك الواسطة حتى يتسنى لهم العمل كما يحدث في أي دولة أخرى محترمة فأُصبت بالكدر الشديد.

على كل حال مرت الأيام وأنا منغمس في عملي وعلاقاتي ببعض الزملاء، اتضح لي فيما بعد أن الأمور لها أذرع خفية لم أفهمها حتى هذه اللحظة، بعض الأمور تُدار برؤية سياسية ولكن ليس كما كان يحدث مثلًا في أمريكا من تعتيم إعلامي على قضية ما أو إصدار أوامر بعدم التصريح عن اكتشاف أدلة جنائية حتى لا يثور الرأي العام بسبب قضية مهمة لها انعكاسات أمنية في الدولة بل كان الأمر أكبر من ذلك ولم أستطع فك طلاسمه، العديد من الجثث كانت تأتينا تباعًا بسبب وقائع مختلفة، قتل، سرقة بالإكراه تبعتها جريمة قتل، اغتصاب، وبعض الجرائم الأخرى التي تقشعر لها الأبدان، سمعت من بعض الأصدقاء عن المهازل التي حدثت في الأونة الأخيرة وخصوصًا عن مصابي الثورة وشهداء مجزرة بورسعيد التي حدثت في بداية العام المنصرم، أخبروني أيضًا عن الفوضى العارمة التي أصابت البلاد خلال تلك الفترة، كان الحزن يخيم على بعضهم رغم إعراض البعض عن إبداء رأيه حتى إن أحدهم قال صائحًا بانفعال:

- البلد كل يوم بتضيع عن الأول والعيال دي سبب ضياعها.. عملولنا إيه بالثورة بتاعتهم؟! الناس جهلة ومش فاهمة حاجة ولو سألتهم خدتوا إيه من الثورة هيسبوا ويلعنوا فيها.. أنتوا ليه مش عايزين تفهموا إن طبيعي الناس تموت وتتقتل وإحنا لا رئيس ولا حكومة ولا حتى دولة وبكره نشوف البلد هايحصلها إيه وابقوا قابلوني لو شافت خير.

وعلّق زميل آخر ساخرًا من طريقته قائلًا:

- البلد لازم يحكمها الدين.. مستني إيه من بلد ساية دينها وربها.. نهاية الظالم وحشة وطبيعي مبارك واللي معاه لازم تكون دي نهايتهم.. جه وقت الحساب بقى.. الدين لازم يحكم وكفاية بقى العلمانية اللي إنتو عايشين فيها دي.. هو كل ما تلاقي ضحايا جيالنا تفضل تسب في الثورة واللي عملوها.. إدي فرصة للأحزاب التانية والشباب وأهل الدين وبعدين نبقى نتكلم.

انتفض الأول واقفًا وهو يصيح بغضب:

- وإنتو بقى اللي عايزين تحكموها.. أهو ده اللي ناقص شوية طامعين بالسلطة زيكوا تمشّي بلد زي دي..

لولا تدخلنا لانتهى الأمر بعراك بالأيدي، انتهت المناقشة الحادة ولكن الصراع لم ينته، علمت فيما بعد أن أعضاء قليلين في القسم ينتمون فكريًا لجماعات إسلامية بينما آخرون لا ينتمون لأي جهة ولكنهم يملكون من الوعي ما يجعلهم بكل أسف محبطين مما هو آت ويتوقعون دائمًا انهيار البلد إذا ما وقع في أيد لا تدرك أهمية مصر ولا مكانتها، في النهاية كنت متخبطا، لا دراية لي بالدين تقريبًا، أعرف أمورًا قليلة كالصلاة والصوم، لكن حتى تلك الأمور لم أكن مواظبًا عليها بشكل منتظم، كانت علاقتي بالإسلام هشّة، لم يسألني أحدهم يومًا عن دیانتي خلال وجودي في أمريكا وأعتقد أنه لولا اسمي لسألني زملائي في مصر عن ديانتي، كان ذلك الأمر يدفعني للانفعال والقرف في بعض الأحيان، ما دخل الدين في تنظيم أمور العمل وأمور البلد على نحو جيد؟! ما الذي سيتغير إن علمت أن أحدهم مسيحيًا أو حتى يهوديًا؟! كرهت تلك النظرة العنصرية في أبناء مجتمعي حيث لم تقتصر العنصرية فقط على الدين، فمن ينتمي للقاهرة تعامله الأكثرية باحترام بينما إن كان أحدهم ينتمي مثلًا للصعيد أو للمحافظات المتناثرة حول القاهرة تُنظر له نظرة دونية إلى حد ما، تكاد تكون مخفية، مقرفة تتضح في سخريتهم ونكاتهم القبيحة التي يلقونها على سبيل المزاح ولكنها في رأيي عنصرية مفجعة يمارسها أبناء الوطن الواحد ضد بعضهم، المصيبة أنه لمجرد حملي للجنسية الأمريكية بالإضافة إلى جنسيتي المصرية جعلهم يكادون يخرون منحنين أحيانًا لتحيتي والمغالاة في تبجيلي، كان ذلك الأمر يسوءني ويحزنني حتى إني اقتصرت في تعاملاتي معهم على العمل والعمل فقط.

اختليت بنفسي، لم أذهب لخالي خلال ذلك الشهر الذي تخبطت

فيه أفكاري، كنت محبطًا حزينًا، ساورتني العديد من الشكوك والأسئلة القديمة مرة أخرى، هل كان أبي محقًا بشأن مصر؟! ما الفائدة من وجودي هنا؟! ما السبب الحقيقي الذي دفعني للقدوم إلى مصر مرة أخرى، بل وقرار العمل والاستقرار بها؟! تشوشت أفكاري وأصبحت غير مبالٍ بالأمور ولا بالحياة ولا بالثورة، شرعت أقرأ مرة حتى إني كنت أنهي كتابًا أو رواية يوميًا، أنغمس في أحداثها، متطلعا لفصل نفسي عن الواقع، لم أبغِ أبدًا أن أقحم خالي في أفكاري ولا في أموري الشخصية المرتبكة، صرت كطفل لا يستوعب ما يحدث ولا يفهمه، سَخِطُ على أبي وعلى تلك التربية المغلقة التي تربّيتها، سامحه الله، سقاني السم في العسل دون أن يدري.

حينما فاض الكيل بي قررت الذهاب لخالي لأخبره بما يعتمل في صدري، هناك، تفاجأت، لم أصدق عيني، كانت هي، تلك الفتاة التي لمحتها يومًا، الياسمين، ذلك الاسم الذي حررني يومًا من قيودي، أحسست فجأة بمجرد وقوع عيني عليها بأن حياتي تنتقل من ياسمين إلى ياسمين، شعرت بإحساس رائع يسري داخلي، بأن هموم العالم فجأة انقشعت عن صدري وكأنها مجرد غبار تطاير مع نسمة هبت من السماء، المثير أنني لم أفهم نعتها ولا سر غضبها عليّ بعد ما شعرت بميولها نحوي وارتباكها أمامي، حاولت مرارًا في وحدتي أن أفهم السر وراء رفضها لي حتى في ذلك اليوم الذي رأيتها فيه تجلس في أحد المطاعم في وسط البلد، كانت رقيقة عذبة رغم حزنها لكني اكتشفت بأنها رأتني بل وحاولت أن تتوارى عن عينيّ، ربما كنت أتخيل كل ذلك، لكنها أكدت لي ذلك حينما اقتربت منها، شعرت بجرح عميق في كرامتي، ماذا جنيت في حقها لكي تقابلني بذلك الجحود؟! ألا تدري أني معجب بها؟! ألاحقها في أحلامي منذ ذلك اليوم الذي لمحتها فيه؟! ألا تفهم أنها ملاذي الأخير في ذلك البلد؟! أخبرتها بأني لن أضايقها وأنا تحت وطأة الانفعال والإحساس بالإهانة، أدرت وجهي وانطلقت في طريقي غاضبًا، أحسست كأن أحدهم أوغل سكينًا في كرامتي فأصابها في مقتل، لكن على جانب آخر كان قلبي يتعذب،

أهنت نفسي وعنّفتها، فكيف لي أن أحب فتاة لا يجمعني بها سوى لمحة وبضع كلمات وإهانة؟! هززت رأسي ساخرًا ومستنكرًا طريقة تفكيري غير المنطقية، لكن هل يوجد في الحب منطق؟!

كنت عائدًا من عملي ذات اليوم أتسكع في وسط البلد، لمحتها جالسة ويبدو عليها القلق، تنظر حولها بشكل مثير وكأنها تنتظر شخصًا لم يأتِ، بعد برهة نهضت من مجلسها ووقفت أمام فرشة كتب تتلمس بعضها وهي شاردة، لمحت وسط الزحام حركاتها المرتبكة الحائرة، كانت تنتظر، وانتظرت أنا أيضًا، أراقبها من مسافة ليست بعيدة لا تستطيع من خلالها رؤيتي، كنت شغوفًا بشكل غريب أن أعرف من تنتظر؟! من هو ذلك الشخص الذي يستحق انتظارها؟! مرت ساعة كاملة حتى همت بالمغادرة ودارت ببصرها يمنة ويسرة والحيرة تملؤها، وقعت عيناها عليّ مصادفة، في الحقيقة لم تكن مصادفة لأني نهضت بلا وعي تحت تأثير الفضول واقتربت منها على مسافة ليست قصيرة، كنت مولعًا بشكل غريب بمعرفة سر انتظارها، تململت في مكانها بمجرد أن لمحتني، ظهر نورٌ غريبٌ من وجهها المشوب بحرج رقيق، أوشكت على المغادرة وسرعان ما سارت في طريقها وهي تنظر إليَّ من وقت لآخر على استحياء فهرولت تجاهها بعد أن تملكتني شجاعة غريبة لم أعهدها في نفسي ولكني كنت متحمسًا منفعلًا على نحو نادر غريب حتى وقفت في مواجهتها قائلًا:

- أنا زعلان منك.

جروب بيت الكتب

عصام الرشيدي

جلست مدة طويلة داخل سيارتي، أضناني الصراع وآلمتني الأفكار، نتحت باب السيارة، وقفت آخذ نفسًا طويلًا من الهواء المشبع بالرطوبة الذي يحيط بي، رفعت رأسي لأعلى وأنا أنظر إلى شباك غرفة سارة المطل على الشارع، تذكرت تلك الأيام التي كنت أتحجج بها بأي شيء لكي أمُر أسفل شباكها، لألمحها فقط، تلك الأيام التي تسلل فيها حبها إلى قلبي وصرت لا أطيق يومي ولا أستطيع استكماله دون رؤيتها، حتى وإن كان من خلال نظرة عابرة من شباك غرفتها، أخذت النفس الأخير من سيجارتي ثم ألقيتها على الأرض ودهستها بحذائي وكأني بشكل غير مباشر أدهس توتري، لم أكن حينها واقعًا تحت تأثير الحشيش الذي بات عادة، أدخنه على مدار اليوم تقريبًا، لم تكن تعنيني الأحداث السياسية ولم أكن مهتمًا بعملي على الإطلاق، أخذت قراري بالصعود إلى منزلها وبالفعل كنت واقفا أمام الباب مترددًا تدور في عقلي الكثير من الأفكار ولكنها كانت أفكارًا غير مكتملة، تململت في مكاني قبل أن أدق الجرس وسرعان ما لُمت نفسي لسبب غامض، لم يرد أحد وكان بإمكاني الرحيل إلا أني بقيت أمام الباب واقفًا أنتظر.

لم تمر ثوانٍ حتى انفتح الباب عن وجه فتاة من ملبسها تبين أنها ممرضة فتلعثمت قليلًا أمام حيرتها ثم سرعان ما قلت:

- مراد بيه موجود؟

فأجابتني بهدوء وهي تتفحصني:

- لأ مش موجود.

كان كل شيء داخلي يدفعني للرحيل ولكني ظلت وكأني أدفع الكلمات خارجًا فخرج صوتي متحشرجًا:

- سارة موجودة؟

أجابتني الممرضة بريبة:

- أنت مين؟

- أنا جوزها.

تغيرت ملامح الفتاة تمامًا وابتسمت قائلة:

- اتفضل يا عصام بيه.. أنا آسفة.. معلش أصل دي أول مرة أشوفك فيها.

ابتسمت ابتسامة خفيفة ودلفت بتردد وهدوء، كانت رائحة المكان تعج برائحة القرنفل فاستفزني ذلك، ورويدًا رويدًا شعرت بانقباض في صدري يُنبئني بالسوء، كنت أدرك مدى حب سارة لرائحة القرنفل، كانت تحب كل مشروب يحتوي عليه كما كانت، ولكنها انقطعت بصعوبة عن تلك العادة منذ تزوجنا مراعاة لمشاعري، جلست على إحدى الأرائك الموجودة بالصالة، تركتني الممرضة وذهبت لتخبر سارة بقدومي، أحسست بالنفور وحفَّزت ذلك الإحساس رائحة القرنفل التي هيَّجت أعصابي كما ذلك الحدس القديم الملازم لي على طول حياتي يدق الباب ويُلجمني ويخبرني بالسوء المنتظر، كانت فكرة واحدة تطرأ على رأسي في هذه اللحظة بأن أنهض مسرعًا وأفتح الباب وأهرب من هذا المكان، انقشع فجأة إحساسي بالعطف تجاه سارة قبل أن أدلف منزلها ولكنه تغير إلى إحساس غريب عدواني، أخرجت سيجارة وأشعلتها أملًا في تغيير مزاجي المفاجئ الغريب ولكن بلا طائل، كان دخان السيجارة يدخل ويخرج من صدري وبدلًا من أن يكون عاملًا على ردع ولو جزءًا بسيطًا من عصبيتي المتصاعدة

كان يزيدها ويشعلها بشكل مثير، ظهرت سارة بعد برهة قصيرة أمامي على كرسيها المتحرك وهي تدفعه بهدوء تجاهي بعد ما ألقت عليّ نظرة طويلة متسائلة ملؤها الفضول، أصابني الجزع فجأة بمجرد رؤيتها على الكرسي المتحرك وكأني نسيت أنها صارت قعيدة لا تقوى على الحركة؟! كيف تسنى لي تجاهل حالتها تلك رغم أنها لم تغب تقريبًا عن بالي طوال الفترة المنصرمة؟! جزمت في نفسي بأن شيئًا ما ناقصًا أو جزءًا من عقلي تشوش وصار معطلًا لا يستطيع التمييز بين الحقيقة والخيال، هل وصلت إلى تلك المرحلة التي أرفض فيها تقبل حقيقة أن كل تلك الأحداث التي وقعت بعد الحادث لم تكن أكثر من محاولات عبثية للنهوض مرة أخرى؟! وفي النهاية أكتشف بأني لست أكثر من ميت في مدينة تعج بالموتى؟! نعم، ها هي الحقيقة تطل أمامي صارخة، سارة مقعدة ذليلة تحتاج إلى العون لكي تشرب وتأكل وتقضي حاجتها، تحتاج للمساعدة لتقوم بأقل الأشياء التي لا تصعب على طفل صغير حديث العهد، فانية في جسد مشلول.

نهضت من مجلسي وأنا مشتت تمامًا ومددت يدي لأصافحها، لم تمد يدها وحدجتني بنظرة نارية نقلتها من يدي إلى عيني، ذُهلت ثم بهدوء سحبت يدي وجلست مكاني، لم تتفوه بكلمة واحدة وبان على ملامحها الممضض والضيق، أشاحت بوجهها عني، نظرت جانبًا وكأنها ترسل لي رسالة مفادها أن وجودي غير مرغوب فيه، لم أُحَضِّر أي كلمات ولكن ألا تفهم كم كابدت من المصاعب والمشاق لكي أصل إلى تلك النقطة التي أقف عندها الآن؟! ألا تستحي من نفسها وتدرك مدى المعاناة التي وصلت لها؟! ألا تقدر وجودي هنا وهي أكثر إنسانة تعرفني جيدًا إن كانت بالفعل تعرفني بعد ما لاقيته منها من فتور ورفض؟! في النهاية قلت وأنا أحاول تمالك أعصابي:

- إزيك يا سارة عاملة إيه؟!

لم تردّ، وظلت مُشيحة بوجهها حتى إني لمحت رعشة بسيطة عكرت

صفو ملامحها وكأنها تضغط على نفسها وأعصابها لتحتمل وجودي، أصابني ذلك في مقتل لكني أردفت قائلًا وأنا أقاوم رائحة القرنفل التي هيجها الهواء المندفع من نافذة الصالة:

- إيه يا سارة إنتِ مش عاوزة تتكلمي معايا؟!

بعد ثوان مرت ثقيلة نقلت بصرها لي وحدجتني بنظرة لائمة غاضبة ثم قالت بصوتها الرقيق:

- أنا كويسة يا عصام، أنت جيت ليه؟!

- جيت أشوفك.

- تشوفني؟!

- آه أشوفك يا سارة.

ابتسمت ابتسامة عصبية ثم أشاحت بوجهها ثانية فأردفتُ قائلًا وقد تخلل نبرتي شيء من العصبية:

- إنتِ مش عاوزة تشوفيني ولّا إيه؟! ما لك يا سارة؟! ما تردي عليَّا؟! هوَّ مين اللي المفروض يكون زعلان من مين؟! طيب أنا جيتلك أهو لحد عندك وإنتِ مش عاوزة تبصي حتى في وشي.. إيه ما لك؟!

- ولا حاجة يا عصام.. مش شُفتني خلاص؟! أنا كويسة زي ما أنت شايف.

تملكت مني العصبية فنهضت من مكاني منفعلًا ثم قلت:

- إنتِ عاوزة إيه بالظبط؟! من يوم ما فقتِ من الحادثة وإنتِ بتبصيلي بصات غريبة وكأني أنا اللي كنت سبب في موت طارق ونسيتي إني يومها اترجيتك وقلت لك بلاش نخرج، ورغم كده أصريتي نخرج وإنتِ عارفة إني لما بكون رافض حاجة بيكون وراها دايمًا مصيبة وأبوكِ جه اترجاني علشان آجي أشوفك وأديني اتبلت

وجيت وإنتِ برضه ولا حياة لمن تنادي وبتعامليني بالمنظر ده ولا كأني قتلت لك قتيل ولّا تكوني فاكرة إني سبب في قعدتك دي!!

ثم صحت قائلًا:

- ما ترحميني وترحمي نفسك شوية.

امتلأت عيناها بالدموع واحمرّ وجهها حيث بدا أنها تكبت انفعالها وغضبها ثم قالت بنبرة ضعيفة صعبة:

- أنت مش فاهم أي حاجة.

صحت مرة أخرى قائلًا:

- مش فاهم!! ماشي.. أنا مش فاهم.. فهّميني.

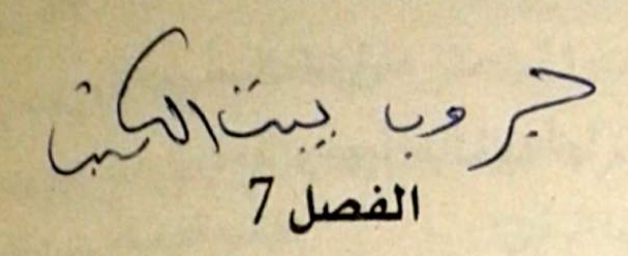
هزت رأسها والدموع تسيل من عينيها ثم قالت بعد برهة مرت ثقيلة وكأنها تستنطق نفسها:

- طلّقني يا عصام.

وقعت الجملة على مسامعي ثقيلة مرعبة، لم أتوقع على الإطلاق أن تطلب سارة مثل هذا الطلب، رمقتها بنظرة طويلة اختلطت فيها الدهشة بالحزن ثم أخذت نفسًا طويلًا ونهضت من مكاني منفعلًا دون أن أتفوه بكلمة واحدة، اتجهت إلى الباب بخطى عصبية متحفزة وقبل أن أهم بالمغادرة قالت بنبرة مترجية:

- أرجوك طلّقني يا عصام.

كان ظهري لها فتسمرت في مكاني دون أن أدير جسدي، كنت على وشك أن ألتفت لها وأرمي عليها يمين الطلاق وينتهي كل شيء في لحظة خاطفة، لكني وجدت قدميّ تدفعاني خارج المنزل، كنت منفعلًا ساخطًا على كل شيء، فتحت باب سيارتي بعصبية ثم جلست فيها وضغطت على دواسة البنزين بقوة. لم أكن أتمنى سوى شيئًا واحدًا، شيء واحد فقط وهو أن تنقلب السيارة بي لينتهي كل شيء.



الفصل 7

- أنا زعلان منك.

كان في جملته مزاحًا مريرًا لا يخلو من جدية، عشم غريب ملأ نبرة صوته وكأنه يعرفني معرفة وطيدة منذ مدة طويلة أما عن نظرته الهادئة البريئة فقد حملت عتابًا ولومًا على نحو مدهش، ما كل هذا الإحساس الذي يحويه في سؤال بسيط واحد؟! أنّى له هذه الجرأة رغم ما أظهرته له من رفض وجفاء؟! حاولت التملص منه حيث انتابتني مشاعر متضاربة، بين البقاء والمغادرة، الإذعان والعصيان، الجفاء والوصال، لم أكن أدري حقًا حقيقة مشاعري في هذه اللحظات ولا ما عليّ فعله في لحظة سوف تحدد مسار الأحداث المستقبلية.

وقفت في مكاني مشوشة، اعترض طريقي بنفاد صبر واضح ثم قال متلعثمًا منفعلًا:

- لو عايزاني أمشي هامشي.. لكن بلاش تعامليني بالشكل الغريب اللي مش فاهمه ده.

تسمرت في مكاني مترددة مأخوذة مشيحة بوجهي بعيدًا عنه، لكنها كانت مجرد مناورة أخيرة، كنت منهكة من الرفض، مأخوذة من الموقف بأكلمه، يملأني التعجب، تنهشني الأسئلة وتحيطني هالة غريبة من الإذعان له، ملامحه تحمل شيئًا لطيفًا واضحًا أعرفه جيدًا، كنت يومًا أحبها بل كانت الملامح الوحيدة التي لم أستطع رؤية شيء غيرها لكنها

أيضًا تخلَّت عني كما تخلَّى عني كل شيء، والغريب أنني بدلًا من رفضها واتخاذ موقف لإحجام والاستنكار انتقامًا وقفت أمامها عاجزة مشتتة لا أنوى على اتخاذ موقف حقيقي بشأنها، أي نوع من الضعف استقرّ بين جوانحي؟! وأي عار ألحقه بنفسي؟! لم تمر دقائق إلا وكنت أسير بجواره صامتة تقودني قدماي مُذْعِنة نحو مصير غامض، لا أعلم حتى هذه اللحظة لِمَ لم أكن خائفة أو متوجِّسة منه! شيء ما مريح يداخل نفسي بشأنه! هل هو ذلك الشيء القديم أم أن هناك شيئًا آخر؟!.

جلسنا في أقرب كافيه بعد أن مشينا دقائق معدودة، كافيه جروبي، كان يضج بالعديد من الزبائن، لمحت عشاقًا على ترابيزات متناثرة في مدخله كذلك تناهى إلى مسامعي نقاش حاد على ترابيزة أخرى يجلس عليها أكثر من عشرة أشخاص ما بين فتيات وشباب، يتناقشون حول الثورة وأمورها وما آلت إليه حتى هذه اللحظة، كان مصطفى سارحًا في عالم آخر يتنقل بخفة بين الترابيزات وينقل بصره من وقت لآخر ما بين طريقه وبيني حتى وجدنا ترابيزة شاغرة فجلسنا، تَلفَّت حوله، بدا أنه يخفي توتره وانفعاله الواضحين من فرط السعادة التي أطلت في عينيه اللامعة بشكل غامض مثل ماسة تُخفي سرًا.

جاءنا النادل فطلب لنا فنجانين من القهوة ثم نظر لي قائلًا:

- إنتِ عنيدة أوي وأنا مش عايز منك حاجة أكتر من إنك تسمعيني.

ثم استرسل بخجل:

- أنا مش عارف أقول إيه بس أنا فرحان إنك رضيتي أخيرًا تتعرفي عليًا.

ثم سكن ثواني، ظهر عليه التوتر ثم قال:

- أنا أول مرة أتعرض لموقف زي ده.. عموما يا ستي أنا اسمي مصطفى عندي تقريبًا 31 سنة وباشتغل دكتور في الطب الشرعي ولسه جاي من أمريكا من فترة قصيرة.. أنا كنت عايش هناك طول

حياتي تقريبًا وما ليش حد في مصر غير خالي أشرف يونس اللي إنتِ بتشتغلي في شركته وليًّا أخت واحدة اسمها ياسمين على اسمك.. بحبها أوي ومش عاوز أي حاجة منك أكتر من إننا نتعرف على بعض.. أنا شُفتك قبل كده على فكرة في المهندسين ومش عارف ليه فضلت فاكرك لحد ما شُفتك تاني عند خالي وكانت مفاجأة غريبة جدًا بالنسبة لي..

ثم صمت ثواني، وثبَّت عينيه في عينيّ وتنهد ثم قال وكأنه يحدث نفسه:

- جايز يكون كلامي غريب بس صدقيني إنتِ سبب في إني موجود في مصر لحد دلوقتي.

كان مسترسلًا في حديثه، منفعلًا، متقدًا حماسة، كلماته تتسابق وتتسارع، أفكاره زاخرة غير مرتبة يحاول بقدر الإمكان ملاحقتها، يعمل طبيبًا أيضًا! أي نوع من القدر ذلك الذي يلاحقني بإلحاح غريب، شعرت بالضيق والألم ولكني في النهاية ابتسمت وسكت دون أن أتفوه بأي كلمة في اللحظة التي جاء فيها الجرسون ومعه القهوة، وضعها أمامنا ثم انصرف، أطبق الصمت علينا فمد مصطفى يده وأمسك بفنجانه، لاحظت أن يده ترتجف، ظللت هادئة على نحو غريب أنظر بصعوبة إليه من وقت لآخر، أتحاشى بقدر الإمكان لقاء عينيه، على الجانب الآخر كان يظهر عليه خجلًا غريبًا لا يتناسب مع شاب في مثل عمره، انتابني الكثير من الأسئلة وحيرتني، ماذا يريد مصطفى؟! لماذا أصر كل هذا الإصرار رغم رفضي ومعاملتي الجافة له؟! ما دافعه الحقيقي وراء ملاحقتي؟! وما الذي غير وجهة نظره فجأة بعد ما حدث بيننا في وسط البلد حينما غادرني بلا رجعة؟! قطع أفكاري وهو يقول:

- أنا ما عرفش عنك حاجة.. كل اللي أعرفه إن اسمك ياسمين.

نظرت له نظرة طويلة وساورتني الشكوك، أحسست بأن حجرًا ثقيلًا

هوى على صدري فمزَّقه، شعرت بسوط يُلهب جسدي، بأن العالم فجأة انقشع من أمامي وأطل السواد بدلًا منه فأخفى كل شيء داخل ظلماته المديدة اللامتناهية، أنا أيضًا لا أستطيع أن أمنحه إجابة أكثر من تلك التي يعرفها، أنا اسمي ياسمين، هذا كل أستطيع ذكره، لكن الحقيقة مشوهة لا يجب ذكرها، لا داعي لذكرها، لأنها ببساطة ستُنهي القصة قبل أن تبدأ وستُبدِّل العسل بالسم لأموت مرة أخرى لا تقل عن مرات أخرى سابقة شديدة المرارة.

نظرت له وقد ترقرق الدمع في عينيّ دون إرادة مني، نظر لي مشدوهًا متعجبًا، تلعثم وتململ في مكانه، نظر حوله بقلة حيلة، قال في النهاية بنبرة قلقة:

- مالك يا ياسمين؟! أنا قلت حاجة تزعلك؟!

تحشرجت الكلمات في حلقي، نهضت منفعلة فأمسك بذراعي فانتزعتها منه بعصبية واضحة، اندهش وجحظت عيناه غير مستوعب ما يدور ثم قال بنبرة مندهشة تشوبها المرارة:

- فيه إيه؟! أنا مش فاهم حاجة!

فقلت منفعلة:

- أنا كنت غلطانة إني جيت معاك.. لو سمحت ما تقربليش تاني.

ثم انصرفت، هرول مسرعًا خلفي بعد دقيقة أو دقيقتين في الشارع وهو يحثني على الكلام بنبرة متوسلة وبجمل غير مرتبة متلاحقة، أعتقد أن أي شاب في مكانه سيجن إن لم يعرف سر تلك المعاملة الغريبة، لم أتوقف ولم تضعفني توسلاته، كانت موجة من الانفعالات والذكريات السيئة تدفعني للمسير قدمًا والابتعاد بقدر الإمكان، كرهته بشكل غريب وفي نفس الوقت كنت مشفقة عليه ولكني كنت أكثر إشفاقًا على نفسي من أي شيء آخر، كرهت تلك الدوامة التي أدور بها كبقرة تدور في طاحونة لا تتوقف، نظرت أخيرًا خلفي وألقيت عليه نظرة أخيرة فوجدته واقفًا

على الجانب الآخر من الشارع والسيارات المارة تفصلنا، الحيرة والألم يبدوان عليه بشكل واضح، أشحت بوجهي وانطلقت في طريقي وسرعان ما أجهشت بالبكاء ثم سالت دموعي بغزارة حتى كدت لا أرى الطريق وتمنيت في داخلي أن تصدمني سيارة وتكون النهاية.

حرد بيستا الكبير

****

كان الجو جافًا، أبريل الكاذب ذو المناخ المتقلب المزاج يوشك على النهاية، سحب متوسطة متناثرة في السماء ريح خفيفة تهب من آن لآخر وأنا أقف في الشرفة المطلة على الشارع، أبكي وأفكر، أحلل الأمور بلا ترتيب، ضجرت من الأمر برمته فاستجبت لدموعي فقط، استحال كل شيء للون قاتم، دعم ذلك الإحساس تلك السحب التي تكومت فجأة في السماء وحجبتها تمامًا، صرت أكره السحب والمطر والشتاء وكل ما يذكرني به رغم حبي الشديد له فيما مضى، قبل ذلك الحادث الأليم الذي دمَّر حياتي وقلبها رأسا على عقب حتى صرت بلا بيت، وبلا حياة أيضًا، مهددة كل يوم، بل كل ساعة وكل دقيقة، كلما تخيلت أن الأيام تستجيب لي تعود لتؤكد لي هشاشة ظنوني.

دق جرس هاتفي، دخلت الشقة وأنا أفكر بمصطفى، ظهر اسم شهيرة على الهاتف، لم أكن أملك القدرة على التحدث لأي شخص كان لكني في نفس الوقت ثائرة أتمنى لو أحطم شيئًا، أصرخ في وجه أحدهم، أشعل النيران في أي شيء وأجلس لأتلذذ بالنظر إليه بينما يحترق، مكثت أمام الهاتف أنظر إليه شاردة حتى دق جرس الباب فانتفضت في مكاني، أيكون زاهر؟! ما الذي جاء به؟! إنه إحدى العلامات التي تذكرني بضآلتي أمام هذا العالم الموحش؟! الدليل على أني بلا ظهر أو سند؟! لم أفتح الباب لكني سمعت صوت شهيرة آتيا من خلفه تناديني، وقفت خلف الباب مترددّة، بعد برهة استجبت لنداءاتها، نسيت أنها ستقضي هذه الليلة معي بناء على اتفاق مسبق بيننا في الليلة الماضية، فتحت الباب فكشف عن

وجهها وابتسامة عريضة ترتسم عليه ثم تغيرت تعبيراته بمجرد أن نظرت إلى حالتي.

- مالك يا بت؟! يخرب بيتك نكدية.. تلاقيكِ من الفرحة بقيتي مش قادرة تعبَّري..

مزاحها لم يحُل دون ضيقي، احتضنتني وهي تقول:

- إيه يا ياسمين ما لك بس؟!

أجهشت بالبكاء، كأني لم أكن أبكي قبل ثوانٍ معدودات، كنت أحتاج لضمة صادقة وهذا كل شيء، أتوق بشدة لذلك النحيب المستمر والعواء حتى أستريح من الثقل الجاثم على صدري، انهمرت دموعي مُرّة تلسع شفتيَّ ولكنها تبرّد نيراني المتوهجة داخلي، يكفيني احتراقًا من الداخل.

- بس بقى يا ياسمين.. قطّعتي قلبي يخرب عقلك.. فيه إيه بس؟ إيه اللي حصل؟!

هدأت قليلًا بسبب توسّلات شهيرة، ثم نهضت من مكاني. أشرت لها بيدي أن تنتظر ثم دلفت الحمام وغسلت وجهي بالماء وعدت، نظرت إليها نظرة طويلة حاولت خلالها جمع شتات نفسي ثم ابتسمت ابتسامة باهتة، جلست بجوارها وربَّتُ عليها ثم قلت بصعوبة:

- إزيك يا شهيرة عاملة إيه؟!

- نعم يا قلب أمك! إحنا هانهزَّر؟! هو إنتِ تخضيني عليكِ وتركبيني عفريت وفي الآخر تقوليلي إزيك يا شهيرة؟! إنتِ مجنونة.. عليا الطلاق إنتِ مجنونة.

ابتسمتُ ابتسامة خفيفة ثم قلتُ:

- ولا مجنونة ولا حاجة.. كنت تعبانة شوية بس.

- تعبانة؟ ما لك؟ ألف سلامة.

ثم سكتت للحظة وقبل أن أرد قالت معترضة:

- بصي يا ياسمين.. أنا جايز أكون جاهلة يا بنت الحلال بس مش غبية.. لا يمكن يكون الموضوع تعب وكلام فارغ من اللي بتقوليه ده.. الموضوع ده فيه سر.. تصرفاتك في الفترة الأخيرة مش طبيعية.. أنا مش عبيطة ولا هبلة.. الموضوع فيه حب.. إنتِ بتحبي من ورايا يا بت؟!

اندهشت وزاغت عيناي ثم قلت متلعثمة:

- حب!! حب إيه؟! فيه إيه يا شهيرة؟! هو اللي زينا ينفعوا يحبوا؟! إحنا انكتب علينا نعيش كده بعيد عن أي حاجة حلوة.. مش ده كلامك ولّا إيه؟!

تفحّصتني بنظرة طويلة ماكرة ثم قالت:

- أحلق شنبي إن ما كانش حب؟! وبعدين هو إيه اللي مش من حقنا نحب دي؟! أنا بذمتك قلت كده برضه يا نصابة؟! آه.. يبقى إنتِ بتحبي يا بت.. إحكيلي بقى عمل فيكِ إيه؟! إلهي يوكسه مطرح ما هو قاعد.

قهقهت ضاحكة، مسحت على وجهي ودعكت عينيّ، استنفقت فجأة مع شهيرة التي لا ينتهي مزاحها، بعد توسلات مستمرة شرعت أحكي لها الموضوع كاملًا منذ أن رأيت مصطفى، في الحقيقة لم تكن توسلات شهيرة أو إصرارها سببًا في قص حكايتي عليها ولكن شيئًا ما غريبًا يضغط عليّ كي أقص الحكاية كاملة، ربما كنت أحتاج لدعم من أي شخص أعرفه ليؤازرني في محنتي، لقد ضجرت بالصمت وآلمني الكبت الطويل خلال المدة السابقة، يكفي أن حكايتي ما زالت سرية لا ولن أجرؤ على قصها، كما أني كنت أحتاج وبشدة لإفراغ تلك الثورة بشكل لا يؤذيني، أعلم أن شهيرة، مهما كانت، لا تستطيع استيعاب بعض الأمور، وأنا بدوري لا أستطيع إيصال إحساسي كاملًا لأن هناك حلقة مفقودة تخص الماضي المستحيل ذكره إلا أني أعرف أن لها دراية بالحياة تفوقني بمراحل.

ربما يكون الحنين أيضًا دافعًا لاعترافي، ذلك الحنين المتمثل في كوني ما زلت فتاة عادية لها الحق في أن تحب وتحكي مغامراتها العاطفية مع صديقاتها، للحظة قررت في نفسي أن أسلب الواقع دمامته وأمنح نفسي حرية وجمال الإحساس بكوني أحمل حيزًا من الحياة ما زال ينبض ويثور ويحب ويرقص بل ويعترف أيضًا بقصصه السرية.

مر الوقت وأنا مسترسلة في الحديث عن مصطفى منذ الوهلة الأولى التي رأيته فيها، كانت شهيرة منصتة بتركيز شديد، تخلل حكايتي إعداد كوبين من الشاي، كانت تهز رأسها تفهمًا للأمر، تغمض عينيها قليلًا وكأنها تحلل وتفند الأحداث لتخرج بنتيجة، حينما انتهيت نظرت إليها منتظرة ردها حيث بان عليها الشرود والإمعان في التفكير، نظرت لي ثم مسحت على وجهها كعادتها وقالت:

- أيوه وبعدين؟

- وبعدين إيه؟! خلاص.. أنا خلصت.

- أيوه خلصتي إيه يعني؟!

استشطت غضبًا ثم صحت:

- شهيرة إنتِ كنتِ سمعاني أساسًا ولا عمّالة تهزي في راسك وخلاص؟!

- تحبي أسمّعلك؟ طبعًا كنت سمعاكِ كويس بس أنا مش فاهمة حاجة برضه

- يعني إيه؟!

- يعني مش فاهمة ليه سبتيه ومشيتي؟!

- مشيت علشان ما ينفعش يا شهيرة.

- ما ينفعش ليه؟

- هو كل حاجة تقولي ليه؟!

- أيوه ليه؟

حدجتها بنظرة غاضبة ثم أشحت بوجهي بعيدًا، شعرت بالسخط عليها فقالت:

- والنبي عسل وإنتِ مكشرة.
- بس بقى يا شهيرة.. بجد أنا زعلانة منك.
- هو إنتِ عايزة أي حِجة والسلام علشان تزعلي؟!

حدجتها بغضب، لكنها، بنبرة جادة لا تحمل أي نوع من المزاح، أردَفَتْ قائلة:

- بصي يا بنت الحلال.. أنا لحد دلوقتي ما عرفش حكايتك إيه ولا عايزة أعرفها ما دام إنتِ مش عايزة تقوليها.. بس اللي لازم تفهميه إن ما فيش مشكلة ما لهاش حل.. كل اللي أنا حساه إنك هربانة من أهلك ودي حاجة أي أهبل يفهمها.. ليه بقى هربتي فدي مش حاسألك عليها.. ومش عايزة أعرف السبب بس ما دام هربتِ منهم يبقى لازم تفهمي إن فيه تمن.. أنا عرفتك طول الفترة اللي فاتت دي وعارفة إنك طيبة وما لكيش في الغلط ولو كان ليكِ كنتِ مشيتِ ورا نهى وتوحة الله يحرقهم بجاز وسخ.. دلوقتي إنتِ أدامك فرصة.. شاب كويس ومتعلم في أمريكا أهو وابن ناس.. فيها إيه لو تجرَّبي معاه ولو طلع كويس جربي إحكيله قصتك وصدقيني لو فعلا بيحبك مش هايتخلى عنك لأي سبب.. أما بقى موضوع إن كل ما تقابلك مشكلة تهربي.. ده لا مؤاخذة شغل أفلام ماياكلش عيش.. ده اللي عندي وبعدين الواد شكله واقع لشوشته.. هو إنتِ خسرانة إيه أكتر من اللي خسرتيه؟ ها.. مش يمكن ربنا باعتهولك علشان يعوَّضك عن اللي فات؟

هبطت كلمات شهيرة عليَّ كالصاعقة، نقلتني من حالة إلى حالة، من إحساس إلى إحساس، من الخوف إلى السكينة، من التخبط والثورة

إلى التأني والهدوء، ألقت بقنبلتها عليَّ بغتة حينما أخبرتني بأنها تعي بأني هاربة، أي سذاجة تلك التي صورت لي بأن من يعرفني يتكهن بشيء آخر؟! بالطبع هاربة من الجحيم إلى جحيم أشد وأقسى، تلك هي الحقيقة النافذة،كما أنها محقة بشأن مصطفى، ماذا سأخسر؟! أين العواقب التي تنتظرني؟! هل يمكن أن يكون مصطفى تعويضًا بالفعل عما لقيته من أهوال ومخاطر خلال الفترة السابقة؟! الله أعلم، لكني بالفعل أحس بذلك وإلا ما سبب تلك الراحة التي أحسها في وجوده؟! هل يمكن أن يكون ذلك حبًا أم مجرد اشتياق عبثي للحب ورغبة شديدة في جلب الطمأنينة إلى قلبي؟! ربما تركيبتي المعقدة التي تتوق للحب كأي فتاة عادية تدفعني قدمًا، هل ذلك أيضًا أصبح محرَّمًا عليَّ لمجرد خطيئة لم أرتكبها وصرت مُدنّسة تلاحقني أهوالها؟! قطعت شهيرة حبل أفكاري وهي تقول:

- بس خلي بالك من تصرفاتك معاه وأظن إنك شُفتِ بما فيه الكفاية من يوم ما جيتِ هنا.. وصدقيني هايجي الوقت اللي هتحسي فيه إنك تقدري تقولي له كل حاجة عنك ووقتها يبقى رميتي الكورة في ملعبه.. يا يقبلك زي ما إنتِ يا موضوع وراح لحاله.

شعرت بسكينة غريبة راحت تتسلل إلى نفسي فتملكت مني، ابتسمت ابتسامة عريضة واحتضنت شهيرة، فقالت:

- لا شكر على واجب.. لا شكر على واجب.. ده إحنا جدعان أوي يعني بس نقول إيه بقى.. الله يخرب بيوتكوا.

ضحكت وضحكت وضحكت.. وما زلت أضحك.

عصام الرشيدي

كنت مندفعًا ومنفعلًا وغاضبًا، أسب وألعن بكلَ الشتائم المقذعة التي تخطر ببالي، أقود سيارتي بلا وجهة محددة، شعرت بأن ثمة صدعًا عميقًا بكرامتي، شعرت بالإهانة والتحقير، كيف تفعل سارة ذلك بي؟! كيف تجرؤ على معاملتي تلك المعاملة الجافة المهينة من دون أن تفكر ولو لحظة واحدة أني تنازلت عن كبريائي؟! ألقيت كل الماضي خلفي وتناسيت طارق؟ غفلت عن معاملتها الفظة لي منذ وفاته واتهامها البشع الذي تسطره بعينيها كلما نظرت لي؟! كل ذلك من أجلها، لقد شعرت بالشفقة تجاهها، أهذا هو ردها الأخير؟! ردها على تحمّلي لسخافاتها ومزاجها المضطرب الغريب؟! تسحب الزناد ببساطة وتنتظر اللحظة المناسبة ثم تطلق ببرود رصاصتها دون أن تهتز لها شعرة واحدة؟! إن كانت تعتقد بأن شللها سيشلني أنا الآخر وأتنازل أكثر من ذلك فإنها حتمًا مخطئة للغاية، لقد فقدت قدميها لكني فقدت حياتي برمتها، لا أعلم ماذا أريد ولا أعلم لمَ أعيش من الأساس وما الغرض الحقيقي من وجودي! إني تائه، أضعف من أميت نفسي بيدي، لكن لا بأس.

ضغطتُ مكابح سيارتي فجأة فأصدرت صوتًا رهيبًا، كان الشارع المجهول بالنسبة لي شبه خالٍ في هذه اللحظات، أخرجت مسدسي، وضعته على صدغي ثم وضعت إصبعي على الزناد، كنت مشوشًا غارقًا في وحل من الذكريات السيئة، تتقاذفني مشاهد الفراق والهجر والموت، مرت ثوان ثقيلة ورغبتي في الانتحار تتنامى لكني في اللحظة الأخيرة

صرخت بكل قوتي نتيجة إحساسي بالضعف والجبن أمام الموت، صرخت صرخات متقطعة، ضربت بكل قوتي مِقْوَد السيارة والمسدس ما زال في يدي حتى فاجأني أحد المارين في الشارع وهو ينظر لي بريبة من خلف زجاج السيارة الموارب ثم قال:

- مالك يا أستاذ فيه حاجة؟!

نظرت له بغضب ثم فتحت زجاج السيارة بعصبية وصوبت المسدس تجاهه ثم صحت:

- وأنت مال أهلك يا ابن الكلب؟!

فأطلق قدميه للريح وجرى بكامل قوته حتى اختفى تمامًا من الشارع، أخذت نفسًا طويلًا، هدأت بعد مدة ليست بالقصيرة فدسست المسدس في جرابه وانطلقت في طريقي شاعرًا بالحنق على كل شيء، وجدت نفسي أقف أسفل منزل أمجد، دفعت باب السيارة وترجلت منها، أغلقته بانفعال واضح ودون تردد صعدت حتى وصلت إلى شقته، دق الجرس مرات عديدة لكني لم أسمع أيّ صوت، حين يئست وأوشكت على المغادرة غاضبًا سمعت هسيسًا يأتي من خلف الباب حتى سمعت صوت أمجد واضحًا وهو يقول بحذر:

- مين؟

- أنا عصام يا أمجد افتح.

- جاي تقبض عليا يا عثام.. دي آخرتها؟!

- يا أخي افتح.. أقبض عليك إيه أنت كمان.

- أمان يعني؟

- يا زفت افتح.. ما تخافش.

- ما دام قلت يا زفت يبقى أمان.

انفتح الباب عن وجهه، أدخلني وهو يقول:

- أنت إيه اللي جابك؟

قلت وأنا أجلس على الأريكة المواجهة للتلفاز:

- ولا حاجة.. بلاش آجي أشوفك يعني.

- لا إزاي.. بث مش كنت تعرفني إنك جاي علشان أظبطلك أحلى واجب.

- ولا واجب ولا حاجة.. عندك حشيش ده أهم حاجة؟

- أعدم أبويا لو كنت شميت ريحته من الشبح.. خلت ومشني الواد الديلر يجيبلي وشكله فك ابن الهرمة.. أجيبلك هيروين؟!

أطرقت برأسي الساخنة من الغضب والانفعال مفكرًا ثم قلت:

- أنا هاتصرف.

- إيه هاتجيب حشيش من الداخلية ولّا إيه؟

- أنت بتقول فيها.. أنا فعلا هاجيبه من الداخلية.

أخرجت هاتفي واتصلت بزاهر، أمرته بأن يحضر حالًا إلى منزل أمجد وكنت أعرف أن زاهر لا يخلو من الحشيش، بعد نصف ساعة كان زاهر يقف أمامي، خلال الوقت المنصرم وقبل وصول زاهر خرجت فتاة من غرفة نوم أمجد وهي ترتدي قميص نوم أسود قصيرًا مفتوحًا يكشف عن نهديها العامرين وفخذيها، كانت نفس الفتاة التي رأيتها آخر مرة والتي على ما أتذكر اسمها منة، شهقت بمجرد رؤيتي ثم قالت:

- هوَّ القمر هنا.. مش كنت تقول يا مَجوده.

فابتسم أمجد وهو يصب كأس ويسكي من البار في الصالة ثم قال:

- وتشدقي بإيه يا منة.. أنا نثيت إنك هنا..

ضحكت بميوعة وجلست بجواري حتى التصقت بي ثم قالت:

- كنت فين يا قمر من زمان؟ سألت عليك.

دفعتها بقوة قائلًا:

- ما تلمي نفسك يا بت.. ما لك في إيه؟

فقال أمجد:

- ابعدي عنه ده ظابط ويحبثك.

فنظرت لي نظرة قلقة ثم قالت:

- ظابط بجد؟! ولَّا أنت تايه زي عادتك؟!

- أعدم أبويا ظابط.

فنهضت من مكانها فجأة بعد أن رمقتني بنظرة قلقة ثم اختفت داخل غرفة النوم مرة أخرى، بعد دقائق معدودة خرجت وهي ترتدي ملابسها، أخبرت أمجد عن نيتها في الذهاب ورغم أنه طلب منها البقاء إلا أنها رفضت تمامًا. في تلك اللحظة قرع زاهر الباب فنهضتُ وفتحتُ الباب وهي تقف خلفي وبمجرد أن رآها زاهر شهق ثم صفق بيديه بحركته المعهودة قائلًا:

- الله.. الحبايب كلهم هنا ولَّا إيه؟!

نظرت خلفي فوجدتها ترمق زاهر بعينين فزعتين فأردف زاهر يقول:

- إزيك يا بت يا منة؟ وإزي توحة ما شُفتهاش من زمان.. ده إنتِ بقيتي واصلة أهو وتعرفي الباشا بتاعنا.

تسللت من أسفل ذراعي حيث كنت أسند يدي على الحائط ثم ألقت السلام على زاهر بفتور وسرعان ما كانت تهرول على السلم، لم تنتظر لتأخذ المصعد الكهربائي، رمقها زاهر بريبة حتى غابت ثم نظر نحوي فوجدني أنظر له نظرة متسائلة فقال:

- دي منة يا باشا.

تركته ودخلت الشقة فدخل خلفي، كان حينها أمجد جالسا يتابع التلفاز في صمت، يرشف من كأس الويسكي التي أعدها وقد تبقت

علامات على الترابيزة المواجهة له توحي بأنه تناول جرعة من الهيروين، وقف زاهر وتنحنح ثم قال بينما جلست بجانب أمجد:

- أنت وقعت على البنت دي فين يا باشا؟

حدجته بنظرة قاسية فقال:

- عليَّ النعمة مانا فاهم أي حاجة!!

فقال أمجد وقد تخيل أن السؤال موجهًا له:

- دي منة.. بتجيلي كل ما أطلبها من واحدة اسمها نهى.

رد زاهر بفضول واضح:

- وأنت تعرف نهى دي يا باشا؟

- ولا عمري شُفتها.. عرفتها عن طريق واحد صاحبي.. هو اللي إداني تليفونها.. بث إيه رأيك يا... مين ده يا عثام؟

فقلت دون اكتراث:

- ده الداخلية وجاية الحشيش.

فنهض أمجد مذعورًا من مكانه، ووضع يده بجانب رأسه على سبيل إلقاء التحية العسكرية ثم قال:

- أحلى مسا على الداخلية اللي مكيفانا.

فأجلسته بيدي بقوة قائلًا:

- يا أخي اتهد واقعد.. ده زاهر.. أمين الشرطة اللي بيشتغل معايا.

لاحظت أن زاهر غارق في التفكير، شارد في مكان آخر وهو يلف سجائر الحشيش، لم أعهده كذلك منذ عرفته، انتابني الفضول، كنت أدخن إحدى السجائر المنتفخة التي لفها فقلت بمكر:

- منة دي شكلك عملت معاها الصح وزعلان علشان بتخونك مع أمجد.

نظر لي بعينين زائغتين دون أن يتحدث، حيث بدا أنه يستوعب كلماتي فقال بهدوء:

- لا يا باشا خالص.. البت دي أنا أعرفها من زمان.. أصلها كانت شغالة عند واحدة أعرفها.

- واحدة تعرفها؟!

- آه يا باشا بس ده كان زمان.. بس الظاهر البت دي سابتها وبقت ماشية في البطال.

فابتسمت قائلًا:

- وما لك ما استغربتش ليه لما شُفتها يعني؟! هي كانت الأول شغالة في الحلال مثلًا.. أنت هاتشتغلني يا زاهر؟!

- لا يا باشا والله أبدًا.. هاقولك إيه بس

- بقولك إيه لا تقول ولا تعيد.. ما تطيرش الدماغ اللي أنا عاملها.. أنا مش عايز أفوق.

فقال أمجد بلسان ثقيل من أثر الشرب:

- يعني إيه أفوق؟

أطلقت ضحكة صاخبة وضربت كتفه مداعبًا. بدت ابتسامة زاهر باهتة على نحو غريب، كان تأثير الحشيش هائلا في هذه اللحظات فلم أعيره انتباها، اقتحمت عالمًا غريبًا من أحلام اليقظة، كانت فيها يداي وملابسي ملطخة بالدماء حتى الأرائك والستائر والأرضية ملطخة أيضًا، هاجمني ذلك المشهد مرارًا فانتفضت في مكاني حينما رأيت أمجد أيضًا ملقى على الأريكة عيناه شاخصتان في الفراغ، فمه فاغر وملابسه ملطخة بالدماء، هرولت سريعًا إلى الحمام، وضعت رأسي أسفل صنبور المياه، أحسست بانتعاش وحينما عُدت وجدت زاهر وأمجد يتبادلان أطراف الحديث، أطرقت برأسي إلى الأرض قليلًا، بعد برهة فتحت باب الشقة، خرجت

محاولًا بشتى الطرق نفض كل تلك الرؤى الغريبة وذلك الإحساس الثقيل الجاثم على صدري حتى وصلت إلى سيارتي، لمحت زاهر في مرآة السيارة الأمامية يلوّح لي، ورأيت شفتيه تتحركان بكلام لم أسمعه، لا أتذكر على الإطلاق ما حدث حتى مطلع النهار، لكني كنت على الطريق الصحراوي نائمًا في سيارتي وقد أيقظتني لفحات شمس أبريل.

مصطفى الشريف

الجو خانق، السماء تتناثر فيها السحب المنخفضة، وسط البلد يعج بالمارة والمتظاهرين، لم تخل الشوارع منهم أبدًا منذ مجيئي إلى هنا، الباعة وأصحاب الفرشات المختلفة من الملابس والإكسسوارات والكتب وغيرها من المستلزمات المنزلية تكدسوا في معظم شوارع وسط البلد بشكل غريب فتحوّل إلى مكان منفر لا يليق بأصالة ومعمار وسط البلد المشهود له، صار سوقًا صاخبًا يحكمه البلطجية والمرتزقة والمنتفعون في ظل غياب اليد الأمنية، قذرًا إلى درجة يستحيل معها تصور شكله فيما مضى، مشوَّهًا بفجاجة قاطنيه ولكنتهم الغريبة التي أضحت كما أخبرني بعض الزملاء اللهجة الرسمية للمصريين حاليًا، لهجة تخلو من الذوق والهدوء، منفعلة مكتظة بالشتائم، رنتها عالية وكأنك تصيح لتسويق سلعة ما.

كنت حزينًا مشتتًا، أفكاري متلاطمة، إحساسي مضطرم وقلبي مثقل بالهموم بعد مغامرتي الأخيرة الغامضة مع ياسمين، دق جرس هاتفي في اللحظة التي كدت فيها أهوي في جوف مزاج سَيئ، أخبرني أحد الزملاء أن الإدارة ستستدعيني في الصباح الباكر للتحقيق، أغلقت الهاتف وجلست على الكرسي الذي جلبته خصيصًا لأضعه على الشرفة، تذكرت الفترة المنصرمة القريبة، الاستفتاء العام على الدستور، ضحكت ساخرًا من مواده حتى قدم أحد الزملاء شكوى ضدي مفادها أني أحرض على الفتنة داخل العمل لمجرد إبداء آرائي، أعتقد أن ذلك الأمر لا يستدعي

هذه المشكلة، أمور كثيرة واضحة ولا تحتاج لذكاء أو شرح، لكن هشاشة الفكر وسطحيته لدى البعض جعلتهم عرضة للتآكل والانهزامية باسم الدين، لافتات وشعارات وبرامج إعلامية متعددة تروّج للتصويت بـ «نعم» وخصوصًا تلك التي تنتمي إليها الجماعات الإسلامية، أعتقد أن الأمر كله منوط بمصلحتهم، متى كان التصويت على الدستور ركنًا من أركان الدين وإثباتًا راسخًا على الإيمان؟! فتصويتك بـ «نعم» يعني دخولك الجنة، مجتمع بائس، ساقط في الوحل والجهل، منقادون خلف ترّهات يروّجها كهنة الدين، سئمت الأمر، في النهاية سادني صمت ونفور فولّيت بعيدًا حتى لا يصيبني انهيار عصبي، الآن يطلبونني للتحقيق، يا له من مجتمع مريض! فليذهبوا جميعًا إلى الجحيم.. أحس، ويتأكد لي مع كل يوم، أن والدي كان محقًا بشأن كل شيء، وأني أعيش في الوحل بشكله الخام بكل أسف.

كانت كل تلك الأفكار مجرد غلاف ضعيف مشوش أختبئ خلفه من الفكرة الوحيدة الحقيقية في حياتي، ياسمين، لا أفهمها، ولا أجد تفسيرًا واحدًا لما يحدث معها، تكاد تفطر قلبي بصورة غريبة في كل مرة يجمعني بها القدر، كأنها تتفنن في إيلامي وتمزيق قلبي، لماذا تفعل ذلك؟! لمَ تستجيب في البداية، ثم تتحول فجأة لفتاة قاسية خشنة وجافة تطيح بي وبآمالي؟! هل تعلم مدى إعجابي بها فتتلاعب بي؟! إنني لا أفهم في تلك الأمور المعقدة، الحب إما أن يكون واضحًا أو لا يكون، أن يكون كالشمس أو فليختفي بائسًا في الظلام، هل هناك شيء تخشاه فيّ؟! أم أنها مجرد مناورات بناتية تتبعها الفتيات حتى تمتلك الشاب تمامًا ويصبح في النهاية ملكًا لها، تمنحه الرضا المبدئي ثم تذيقه اللوعة والهجر والحرمان، لقد تعبت ولا أفهم شيئًا مما يدور.

نهضت من مكاني منفعلًا ثم أمسكت هاتفي واتصلت بأختي ياسمين، حمدت الله لردها عليّ، وبعد الاطمئنان عليها وعلى والديّ في عجالة أخبرتها بكل شيء عن ياسمين وما آلت إليه الأمور، كنت منفعلًا وأنتظر

إجابات شافية تُريحني من عذاباتي، لم أنسَ تفصيلة واحدة حتى تلك التي أراها غير مهمة، فالموضوع برمته لم يحدث فيه ما يستدعي إخفاءه أو التستر عليه كأمر شخصي لا ينبغي الإفصاح عنه، هدأتني أختي بطريقتها المعهودة ثم قالت بهدوء ونبرة معتدلة:

- مصطفى البنت دي ميَّالة ليك بس فيه حاجة مخوّفاها، حاول تقرب منها وتفهم الحكاية بالظبط لو فعلًا يهمك أمرها، وفي نفس الوقت بلاش تصدر حكمك إلا لما تسمع منها وتفهم السبب اللي مخليها تتعامل معاك بالشكل ده.

- إنتِ مش متخيلة بجد.. دي مش بتديني فرصة حتى أتكلم.. ترضى عني وفجأة تتحول يا ياسمين وتسيبني وتمشي من غير مقدمات.

- معلش.. صدقني فيه حاجة مخوفاها.. أنا بنت وبأكدلك إن وراها حكاية مش بسيطة.. زي ما قلت لك لو فعلا فارقة معاك حاول تلاقي طريقة تقرب بيها منها وتفهم الحكاية

شكرت ياسمين وأنهيت المكالمة، كنت أفكر في رأيها ونصائحها لي، تغير مزاجي بعض الشيء وأصبحت رائقًا مع شيء من التوتر، مرت ليلتي طويلة، أفكر في طريقة لاستمالة ياسمين وطمأنتها لتفشي لي بذلك السبب الذي يدفعها لهجري، في الصباح ذهبت لعملي وبالفعل كان هناك تحقيق في انتظاري، سار الأمر عاديًا وانتهى بتوجيه لفت نظر لي كي لا أعيد الكرة مرة أخرى، ببساطة لم يعنني الأمر في شيء، انطلقت خارجًا تجاه شركة خالي لرؤية ياسمين ربما استطعت أن أفعل شيئًا، كنت ناضحًا بالأمل يغالبني من وقت لآخر التوتر رغم جرعات الثقة التي بثثتها في نفسي، وصلت الشركة بخطى متمهلة، كانت تجلس خلف مكتبها تتابع عملها في صمت، اقتربتُ من المكتب، رمقتني بنظرة غامضة وسرعان ما ابتسمت ابتسامة خفيفة، تعجبت منها وشعرت بالحنق، لكن سرعان ما أخذت نفسًا عميقًا ثم قلت:

- إنتِ مش هاتخسري حاجة لو سمعتيني.. والله العظيم أنا مش عاوز منك حاجة ولا عمري هأذيكِ لو كنتِ متخيلة كده.

أومأت برأسها دون أن تجيب، لم يتعكر صفوها، لم تمنحني مفاجأة انقلاب مزاجها كما عهدتها. صمتت لحظات ثم قالت بشيء من الخجل وقد اتسعت ابتسامتها:

- أنت عاوز إيه؟

- نتكلم بس.. ممكن أشوفك النهارده بعد شغلك؟

أومأت برأسها موافقة فابتسمتُ قائلًا:

- تمام.. هافوت آخدك بعد الشغل.

- لا.. لا أنا هاكون في وسط البلد الساعة 6

- خلاص ممكن يكون في جروبي؟

- ممكن.

كنت على وشك المغادرة حين استوقفني صوت خالي من خلفي وهو يقول:

- إيه ده؟ أنت هنا يا مصطفى؟! طيب ما دخلتش ليه؟

تلعثمت قائلًا:

- لا أبدًا.. ما فيش.. ولا حاجة يا خالي.. أنا لقيتك مش هنا فقلت للآنسة ياسمين تعرفك إني جيت.. أشوفك وقت تاني

تململ خالي في مكانه ونظر إليَّ نظرة متفحصة ثم نقل بصره لياسمين، تفحصها أيضًا ثم أومأ برأسه قائلًا:

- تمام.. طيب.. ابقى عدي عليًّا في البيت الليلة علشان عايزك.

- حاضر.

ثم نظر لياسمين مرة أخرى قائلًا:

- وإنتِ عاملة إيه يا ياسمين؟

ارتبكت ياسمين بشكل واضح وهي تقول:

- كويسة يا فندم الحمد لله.

أغلق باب مكتبه خلفه فتبادلنا النظر فابتسمتْ ابتسامة خفيفة وقد بان عليها القلق فأشرت لها ألا تقلق ثم ودعتها بإشارة من يدي، كنت سعيدًا وقلقًا تساورني الشكوك بشأن مجيئها للموعد المتفق عليه. ولكنها جاءت وقد علا وجهها تعبير يشي بالتردد لكنها في النهاية جلست بالفعل، بدأت حديثي عن نفسي، لم يكن الحديث طويلًا لأني بالفعل لا أملك ما يستحق أن يُحكى عنه، كنت أيضًا في شوق رهيب لمعرفة كل شيء يخصها لكنها بقت صامتة دون أن تتفوه بكلمة واحدة، في النهاية ترجتني أن أترك لها المجال وأمنحها الوقت لتعرفني بشكل أكبر على أن تحكي لي كل شيء حينما تشعر ببعض الطمأنينة والثقة، لم أحصل منها على شيء يذكر سوى معرفة أنها تخرجت في كلية التجارة كما عرفت منها أيضًا البلدة التي نشأت فيها وبعض الأمور البسيطة عن أصدقائها وخصوصًا شيماء وشهيرة، اكتفيت بذلك وكنت سعيدًا به، كانت أختي محقة، إنها تحمل سرًا دفينًا مؤلمًا يدفعها إلى الصمت وإلى انعدام الثقة في كل من حولها.

مرت الأيام والأسابيع وأنا وياسمين نلتقي يوما بعد يوم تقريبًا، نتحدث في أمور مختلفة، وجدت فيها روحًا صافية طيبة، وخلقًا دمثًا، وحس فكاهة نادرًا وطبيعيًا بلا تصنع زائف. قضينا معًا تلك الأيام على وقع انتخابات الرئاسة والصراع الدامي على السلطة، آلمني أن يؤول الأمر في النهاية ليكون قطبا السلطة اللذان كانا سببًا في انهيار الدولة في النهاية هما المرشحين للفوز بالرئاسة، ما هذا الجهل لدى هذا الشعب؟! وأي أكاذيب يستطيع أن يبثها هؤلاء في نفوس الأكثرية؟! بلد يعج بالعميان لا يمكن أن يكون فيها البصير سوى منبوذًا خلف القضبان، هكذا انتهت الحكاية باعتلاء الإخوان السلطة في ظل فرحة البعض واستسلام البعض الآخر

وسخرية وتعنت ورفض فئة كبيرة ترى فيهم الصفحة الأخيرة والانهيار الكامل للدولة المصرية، ببساطة لم يكن الأمر يعنيني كثيرًا لأني لم أكن مهتمًا سوى بياسمين التي شرعت تتحدث عن نفسها على استحياء وودون تفاصيل كثيرة، كلما حكت لي تفصيلة صغيرة يمر يوم أو يومان وأحيانًا أسبوع حتى تمنحني تفصيلة أو معلومة أخرى عنها، بصدق لم تكن علاقتنا علاقة حب عاطفية واضحة وإنما كانت علاقة عاطفية مستترة خلف علاقة صداقة قوية، أحببت صحبتها، صرت أعد الساعات بنفاد صبر حتى نلتقي مجددًا، أحيانًا كان يستعصي عليَّ الصبر والتصَبُّر فأتحجج بأي شيء وأذهب لزيارة خالي حتى تتسنى لي رؤيتها، دومًا كانت تصفني بالمجنون بل وكانت تتملَّص مني مدعية بمزاح عدم معرفتي، في النهاية كنت أنتظر تلك اللحظة الفاصلة التي سأخبرها فيها بما يجيش في صدري، كنت أتمنى لو أنها تفصح عما يعتمل في صدرها حتى أحس بأني فعلًا أستأهل حبها، فإن كان هناك سر ما زال متواريًا داخلها فهذا يعني أنها لم تمنحني بعد ثقتها وحبها كاملًا، لذلك عليَّ أن أكون مثابرًا.. ذات يوم جاءتني وقد بان عليها الحزن، وكان القلق والانفعال يفترسانها، ألححت في سؤالي عما يزعجها فقالت بنفور:

- أنت تعرف أمجد كويس؟

جروب بيت الكتب

الفصل 6

- أنت تعرف أمجد كويس؟

نظرتُ في عينيه التي قذفت شزرًا وفضولًا مهيبين فقال بتوجس:

- ليه؟! هو فيه حاجة؟

- أبدًا بس النهارده قل أدبه عليا وهزَّأته وما كنتش أعرف إنه ابن صاحب الشركة وكمان اتخانق مع باباه قبل ما يمشي ورغم إني هزأته ضايقني تاني وهو خارج بكل برود.

ساده هدوء غامض، وزاغت عيناه وغابت داخل غمامة مضطربة من الذكريات، تململ في مكانه وهو يحتسي القهوة جالسا أمامي على ترابيزتنا المفضلة داخل جروبي، لقد مر أكثر من شهرين تقريبًا الآن وعلاقتي به تتوطد كل يوم، شعرت تجاهه بطمأنينة وثقة لم أشعرهما حتى في ظل الحب الأول الزائف، لقد منحني نظرة طاهرة محبة خالية من كل رغبة دنيئة، قلب أمين مخلص وسند قوي يسطع عند الشدائد والمخاطر، لم يتوغل في حياتي إلا بالقدر الذي سمحت به، لا يسأل كثيرًا وإن سأل ولم أمنحه إجابة يصمت ويكتفي بابتسامة هادئة، أحسده على تحمله الغريب وقدرته على التَصَبُّر في علاقتنا التي تتوارى ملامحها الحقيقية داخل علاقة صداقة تكاد تكون أقوى من أي علاقة حب، لمست فيه براءة غريبة لا تتناسب مع شباب كثيرين، لقد كان كما يصفون تلك الشخصية «مادة خام» لم تتشكل بعد، دخل من باب الحياة متأخرًا، ما زالت تلك الأحاسيس

الجميلة الطاهرة متأصلة فيه لم تُمَس أو تُدَنس، صريح صادق، ما زال يحتفظ بالرعشة الأولى وحلاوتها، الاشتياق الأول وسطوته وعذابه، النظرة الجامحة المحبة الخالية من كل تلك الأفكار الجارحة المفعمة بالرغبة السوداء.

تعذبت وتعبت لعدم قدرتي على الاعتراف له بالحقيقة كاملة، كل مرة حاولت فيها إفشاء سري تراجعت مقهورة مرتعدة من فقدانه، ماذا لو علم الحقيقة؟! ماذا سيكون رد فعله؟! هل سأستطيع أن أبقيه بجواري وأحول دون فقده؟! أم سيعطيني ظهره ويختفي إلى الأبد؟! من يستطيع تَحمُّل حقيقة كتلك؟! وإن تقبلها كيف سيستطيع الاستمرار مع مرارتها القاسية؟! وإن استطاع أن يفعل ذلك كيف سيتعامل معي فيما بعد؟! كيف ستستطيع روحه مغالبة إحساسه بأن شخصًا ما سلب منه حقه الطبيعي في محبوبته؟! اغتصب وجوده بهذه الطريقة القاسية؟! وما الحكمة من وجوده في حياتي في هذا التوقيت؟! كنت أستشيط غضبًا وأشعر بالقهر وتلك الأسئلة تنهشني كل يوم وكل ساعة لدرجة أنها أحيانًا كانت تؤثر على مزاجي وأنا في صحبته فينأى بعيدًا عني داخل صمته ويتحداني بابتسامة متسامحة راضية تمزق وجودي وتؤجج ضميري فأكتم دموعي وأشفق عليه وألعن حياتي.

في خلواتي كنت أتمزق من داخلي حينما أُصر على ألا أجيب على اتصالاته لأمنح نفسي اختبارًا، ربما استطعت البعد عنه وتركته لحاله كي لا يتمزق يوما باسم الحب والواجب، ما ذنبه إن كانت الأقدار قذفته في طريق إنسانة ضائعة ما عادت تعرف حلاوة العيش؟! ممنوعة من الحلم وممنوعة أيضًا من الحياة؟! آلمتني أنانيتي بالإبقاء عليه وخذلتني قدرتي على الابتعاد عنه، هل شهيرة محقة بشأن قبوله لي على ما أنا عليه؟! ولكن شهيرة لا تعرف شيئًا، لا أحد يعرف شيئًا، اشتقت لأهلي ونصائح أمي، اشتقت حتى لقسوة أبي ونظرته للإناث، أفتقد عالمهم الحقيقي في عالم ضج بالزيف والمزيفين، لقد كانوا جميعًا على حق وأنا المخطئة الوحيدة

في عالم لا ينبغي أن تخطئ فيه الإناث، فالخطأ الذي ترتكبه الأنثى في مجتمعنا خطيئة عظمى، لا بد أن تُرجم وتُصلب عقابًا وتكفيرًا عما اقترفته، أتعسني وجود مصطفى في حياتي بقدر ما أسعدني، فأصبحت أحاسيسي متساوية تقريبًا ثم صرت في النهاية لا شيء، لا حزينة ولا سعيدة، لا عائشة ولا ميتة، نظرت في عينيه السارحتين بحزن فبادلني النظر ثم قال:

- ما تقلقيش من موضوع أمجد.. أنا هاتصرف فيه.

أومأت برأسي وابتسمت ابتسامة هادئة، كانت كلماته بمثابة طبطبة على الجرح المفتوح، قضينا بقية اليوم معًا، لا نتكلم كثيرًا في مواضيع مهمّة ولكننا تطرقنا إلى ما آلت إليه الأوضاع بعد أن أمسك الإخوان بزمام الأمور واستولوا على السلطة، لم يكن مصطفى يكرههم ولكني كنت كذلك، التجارة البائسة باسم الدين، من لم يقرأ التاريخ وقع في هوة سحيقة من الجهل، أوقفني مرات عدة مهدئًا معللًا ذلك بأنه ليس صحيًا أن نحكم على تجربة دون خوضها، ولكني كنت أستقوي بالتاريخ وأذكر له أسبابي ودوافعي فيبتسم مرة أخرى مهدئا، سرعان ما أبتسم أنا أيضًا لحماقتي وأحترم هدوءه المثقل بهموم لا أعرف كنهها، كثيرًا ما أشعره غائصًا في بحر من التفكير، عيناه حزينتان وعقله شارد، أنتظر كثيرًا قبل سؤاله وأحيانًا كنت أكتفي بمراقبة صمته عن كثب، لديه أحيانًا ميل غريب للسكون كما لديه ميل أغرب لمراقبتي وكان ذلك يصيبني بخجل عارم.

ذات يوم حينما كنت أجلس خلف مكتبي أتابع عملي اقتحم أمجد المكتب وقد بدا عليه عدم الاتزان فتململت في مكاني شاعرة بخوف حتى وقف أمامي وحدجني بنظرة قاسية قائلًا:

- أنا هوريكِ إنتِ والمحروث بتاعك.

لم أفهم شيئًا في البداية ولكني تكهنت بأن مصطفى قد حادثه بأمر مضايقاته المتكررة كلما جاء إلى الشركة حيث توالت زياراته بسبب ومن دون سبب مذ رآني، لم يقل أكثر من ذلك وظل ثابتًا في مكانه، كانت عيناه

الغائمتين قويتين تحملان شرًا. نقل بصره ببطء تجاه غرفة مكتب والده
وسرعان ما اقتحمها صائحًا بكل وقاحة:

- أنت يا راجل أنت مش هاتديني فلوث ولا إيه؟!

نهره أشرف يونس بكلمات وجلة وطلب منه أن يهدأ، لكنه تمادى في طريقته السوقية التي لا تليق بمعاملة ابن لوالده، سرعان ما احتدم النقاش بينهما حتى رفع أشرف يونس يده وصفعه صفعة قوية على وجهه أردته على الأرض متكوّمًا، نظر لوالده نظرة بائسة متوعدة وتجمع عدد من الموظفين على صوت العراك ثم اقتادوه بعيدًا ليهدأ، كان حينها يونس حزينًا مطأطئ الرأس، سابحا داخل ذكرياته، يهيمن عليه إحساس لم أتبينه تحديدًا، لحيته حديثة العهد كانت تضفي عليه نوعًا من الرهبة، تمتم بكلمات غير مسموعة وكأنه يستغفر الله، أمسك بمسبحته الجديدة التي صارت لا تفارق يده وظل يسبح عليها بشكل تمثيلي غريب دفعني إلى مقته، موضوع اللحية والمسبحة كانا غريبين عليَّ بشكل كبير لأنه ومن معاشرتي له لم يبد عليه أبدًا بأنه مشرف على التوبة والرجوع إلى الله فجأة، لكم من مرة ارتفع صوت الأذان ولم يكلف نفسه ولو لمرة بالصلاة، أعلم أنه رجل أعمال ناجح لكنه ذكي ومتلون بشكل مخيف، أعتقد أنه يساير الموجة الجديدة على الساحة السياسية من أجل أعماله وإمبراطوريته التي كل همّه المحافظة عليها، كلفته الكثير حتى وصلت الكلفة لأبنائه، وإلا كيف تتماشى توبته مع الانتهاكات الحكومية التي ينفذها مثل الأوراق المزورة والرشى التي يدفعها حتى تسير أعماله وكيف كان ناقمًا على الثورة وفجأة صار يباركها بلا أي مبرر أو سبب أو حتى قناعة حقيقية؟! كلها شعارات جوفاء خالية من أي حس وطني أو شعور بالمسئولية. بعد أن عاد إليه الهدوء ناداني قائلًا:

- معلش يا ياسمين أنا عارف إن أمجد ضايقك أكتر من مرة.. مصطفى حكى لي على تصرفاته واشتكى لي والظاهر إنه كلمه

واتخانقوا على التليفون.. بس صدقيني مش هايضايقك تاني.

أومأت برأسي بعد أن شعرت بحرج ثم قلت:

- حصل خير يا فندم بس فعلا تصرفاته معايا وقحة جدًا.. أنا آسفة إني بقول كده بس دي الحقيقة.

- معلش امسحيها فيا أنا وربنا يهديه ويهدينا ويمنحه البصيرة والرحمة.

تململت في مكاني لإحساسي بفتور إحساسه بدعائه لكني تمتمت:

- آمين.

انصرفت من عملي في ذلك اليوم والأسئلة تنهشني حتى سمعت هاتفي يرن، تهلل وجهي بمجرد أن رأيت اسم شهيرة على الهاتف فقلت مداعبة:

- مش قلتلك مليون مرة أنا بنت ناس ومش بحب حد يعاكسني.

فسمعت صوتها على الجانب الآخر مذعورًا وهي تقول:

- ياسمين اهربي في أي حتة.. نهى جت من السفر وقالبة عليكِ الدنيا.

لم أسمع بقية كلماتها، هويت في بئر سحيقة، تملك الخوف والذعر مني، فأغقلت الهاتف دون وداعها وجريت دون إرادة أو شعور في الشارع، كأني أهرب من مصير محتوم، من وحش كاسر قرر كسري دون رحمة، انطفأت الأنوار في وجهي واسودت الحياة حتى إني ارتطمت بالأرض ننزفت من ساقي إثر سقطة عنيفة، بكيت بشدة، لم أكن أبكي من الوجع، لم اكن أبكي من السقوط، لكني كنت أبكي من الحياة.

حزب بيت الحكمة

عصام الرشيدي

كان هناك فتور غير عاديٍ متملكًا مني بعد تولي الإخوان الحكم، شيء من عدم الاكتراث والترقّب، بصدق لم يكن الأمر يهمني ولم أعطه الحجم الذي أعطاه أصدقائي، كانوا يصرون على تلك المقولة دائمًا: «اللي كنا بنحكمهم عايزين يحكمونا.. أهو ده اللي ناقص»، اختلفت الآراء وتضاربت ما بين الصمت والنزاع على سخافة ما يجري على الساحة السياسية لدرجة أن البعض منهم أقر في نفسه بعدم الاهتمام أو تولي مسؤوليات عمله بالشكل المطلوب طالما أن الإخوان في الحكم. وعلى جانب آخر قرر البعض في نفوسهم بأنهم سيقومون بعملهم حفاظًا على وطنهم وعلى قسمهم الذي أقسموه يوم تخرجهم من كلية الشرطة إلى كلية الحياة، كل ذلك لم يعنني ولم أكترث أو يهيمن على تفكيري، لقد كنت بلا مبالغة في عالم آخر تحت سطوة الحشيش واللامبالاة، أعدت تلك المقابلة الأخيرة بيني وبين سارة في ذاكرتي مرات عديدة وكأني أعيد مشاهدة مقطعا من فيلم ما، كان الألم والغضب يتملكان مني، يعتصراني فضقت بالحياة وبمن فيها وانصرفت عن الجميع.

ذات يوم التقيت بمصطفى الشريف في أحد الكافيهات بينما كان يجلس وحيدًا إلى ترابيزة جانبية داخل كافيه في المهندسين، ترجلت من السيارة ثم دلفت إلى الكافيه، ألقيت عليه السلام وبنفس سَمحة دعاني لفنجال قهوة، لم يخبُ إحساسي الطيب تجاهه، فهو يملك جانبًا واضحًا من البراءة والقبول لكن يعتريه شيء من الحزن، لم أقابله مرات كثيرة،

التقيته على طول الفترة السابقة ثلاث أو أربع مرات على ما أتذكر بسبب ظروف العمل حيث أثبت أنه طبيب رائع له نظرة علمية نافذة، ساعدني في حل لغز متعلق بجريمة اختطاف وقتل وكانت تكهناته عن القاتل ودوافعه وطريقة القتل صحيحة بشكل مثير، لم نتحدث في أمور شخصية تخص أيًا منا، كنا نكتفي بالتحدث عن عمله أو عملي أو موضوعات عامة أستمتع بسماع رأيه فيها، أحسست بأن صداقة قوية ستجمعني به وها هو القدر يرسل لي إشارة جديدة ليؤكد لي ظنوني، ابتسمت وتفاجأت حيث قال للنادل:

- هات لي شاي بس أرجوك بلاش قرنفل معاه.. كفاية أوي النعناع.

شردت لحظات ثم نظرت إليه متسائلًا:

- أنت مش بتحب القرنفل؟

- ولا بطيقه.

- ليه؟

- ليًا معاه ذكريات مش كويسة.. ولما بشم ريحته بيفكرني بيها.

ابتسمت ثم شردت فقال:

- أنت بتحبه؟

- مين؟

- القرنفل؟

أطلقت ضحكة صاخبة لا تستدعي الموقف قائلًا بمرارة:

- هو اللي ما بيحبنيش يا مصطفى.

نظر لي مبتسمًا ثم استرسل في حديثه يسألني عن حالي وأحوال العمل، كنت أرد عليه بإسهاب وبسعة صدر حتى إني تعمقت معه قليلًا في ما يخص شؤونه وبصراحة لم يخفِ الرجل عليَّ شيئًا تقريبًا حيث كان يتحدث منطلقًا دون أن تعيقه تفصيلة واحدة، أفضى بكل ما في جعبته

ولكني لاحظت خلال حديثه أن عينه زائغة بشكل غريب وقد غالبه التوتر، ينظر لساعته من وقت لآخر وكأنه ينتظر شيئًا أو شخصًا ما، أحسست بحرج فقلت:

- لو مستني حاجة أو عاوز تمشي.. اتفضل طبعًا.. أنا مش عاوز أعطلك.

فابتسم ابتسامة خفيفة ثم نقل بصره تجاه باب الكافيه قائلًا:

- أبدًا بالعكس.. ده أنا مستمتع جدًا بالقعدة معاك بس المفروض إني مستني حد والمفروض كان يوصل من ربع ساعة.

- الغايب حجته معاه.. أنت عارف المواصلات والزحمة وعلى العموم كلمه في التليفون وافهم اتأخر ليه.

نظر لي مفكرًا ثم أمسك بهاتفه وفي اللحظة التي قام فيها بالاتصال دلفت الكافيه فتاة أشبّه عليها، لقد عرفتها، إنها تلك الفتاة التي تقرب لزاهر وجاء بها لكي أتوسّط لها لتلتحق بعمل، كان سروالها من عند الركبة فيه بقعة متربة دامية، يبدو عليها التوتر والخوف الشديدان، تتلفت حولها بشكل عصبي، تعجبت قليلًا ولكني في النهاية ابتسمت لشعوري بالراحة تجاهها وتساءلت عن سر مجيئها لكن سرعان ما باغتتني الإجابة حيث جاءت من خلفي وألقت السلام على مصطفى الذي أغلق هاتفه سريعًا فاختفى صوت الرنة المكتومة التي تدق داخل حقيبة كتفها الصغيرة، أشار إليّ مصطفى قائلًا بابتسامة مشوبة بالقلق وهو ينقل بصره ما بيني وبينها:

- أعرَّفك يا ياسمين.. ده كابتن عصام الرشيدي.. صديق من الأصدقاء المحترمين اللي عرفتهم وكان ليه الفضل في إني أشتغل.

أومأت برأسي ومددت يدي لمصافحتها، تَمَلْمَلَتْ قليلًا في مكانها وبان في عينيها التوتر والقلق حتى أني لاحظت رعشة سرت بها، ابتسمتْ ابتسامةً باهتة وهي تنظر لي نظرة متفحصة وجلة، تلعثمت قليلًا ثم قالت وهي تمد يدها بعد برهة بنبرة بدت مرتعشة:

- أهلًا وسهلًا يا كابتن عصام.

ساورتني الأسئلة ونظرت لها مندهشًا، نقلت بصري إلى مصطفى وعلمت الحقيقة، إنهما على وفاق عاطفي، ربما مرتبطان، تجمعهما علاقة حب لكن يبدو أن ياسمين تخشى وجودي، هاجمتني بعض الأسئلة فجأة، ما الذي جمع بين المشرق والمغرب؟! ربما عرفها عن طريق عملها في شركة خاله! أعتقد أن ذلك هو الاحتمال الأقرب للحقيقة، لماذا أنكرت ياسمين معرفتي رغم أنها ليست المرة الأولى التي تراني فيها؟! ربما أحست بإحراج من وجودي وبأني كنت سببًا في عملها لدى خاله، ربما أصابها ذلك الضيق لمعرفتي المسبقة بأنها ليست أكثر من قريبة لأمين شرطة يعمل لديّ وتتصور بأن ذلك الأمر سينتقص منها! وربما أن مصطفى لا يعلم عن تلك الحقيقة أي شيء، ولم تذكره له وتخشى أن يفتضح أمرها فتخسر شيئًا مهمًا في تلك العلاقة، على كل حال الأمر لا يعنيني، احترمت خوفها لإحساسي الدفين بالعطف تجاهها وكذلك حبًا في مصطفى فآثرت الصمت واستأذنت في الإنصراف بعد دقائق لأتركهما وحدهما، حينما غادرت وقفت في الخارج للحظة ناقلًا بصري داخل الكافيه لأجدهما كما تصورت عاشقين لكن بان على ياسمين الضيق و الهم بشكل واضح، ركبت سيارتي وانطلقت في طريقي وقد ساورتني الشكوك والأسئلة.

في اليوم التالي كنت أجلس إلى مكتبي شاعرًا بانقباض في صدري، قلق غريب يجثم على صدري بلا مبرر أو سبب، كانت الأحوال قد هدأت قليلًا على الصعيد السياسي، قلت المظاهرات بشكل كبير وعاد المواطنون على استحياء لممارسة أعمالهم وحياتهم، كان الحذر والتفكير في المستقبل يشغلانهم، اتصل بي في هذه الأثناء اللواء مراد السيوفي، بعد تردد لم يطل رددت عليه بهدوء فوجدته يقول:

- أنت فين يا عصام؟! هي دي وصيتي ليك علشان سارة؟!

- وصية إيه؟! في إيه يا مراد بيه؟

- سارة تعبانة جدًا واتنقلت المستشفى.

لم أشعر بقدمي في هذه اللحظة، أحسستُ بأن الأرض تميد من تحتي، سمعت صوت أنفاسي المتسارعة فسألته بصوت متحشرج عن المستشفى الذي توجد بها، انطلقت كالمجنون بسيارتي حتى وصلت إلى المستشفى، دلفت بأنفاس متقطعة من شدة الرعب، المخاوف والهواجس السيئة تحاصرني حتى وصلت إلى الطابق الذي تمكث فيه فوجدت السيوفي واقفًا والقلق يعتصره، سألته بلهفة عن حالتها فقال بنبرة حزينة:

- مش عارف والله يا عصام يا ابني.. كانت كويسة وفجأة أغمى عليها من دون مقدمات.. في الفترة اللي فاتت وبعد زيارتك الأخيرة ليها حالتها بدأت تسوء وكل شوية يغمى عليها بس الموضوع كان بيعدي على خير.. لحد ما أغمى عليها المرة دي وما فاقتش.

أطرق إلى الأرض قليلًا وقد اعتراه حزن شديد ثم نظر لي بعينين دامعتين، لأول مرة أرى السيوفي القوي الشكيمة، المتماسك في أكثر المواقف صعوبة، منفعلًا حزينًا بهذا الشكل. قال بصعوبة:

- أنا مش عاوز أخسر سارة كمان يا عصام.. أنا ما عدش ليًّا في الدنيا غيرها.. مش هاستحمل يا ابني لو جرالها حاجة.

أنقذني قدوم الطبيب من تلك اللحظة الصعبة التي عجزتُ فيها عن الرد، أحسست في أعماقي بأن ما يحدث لها أنا السبب الوحيد فيه، ظل إحساسي ذلك يتنامى داخلي حتى شعرت بثقل غريب يهوي في أعماقي وبأني سأفرغ محتويات معدتي وبالحزن يطوقني، هرولت سريعًا إلى غرفة العناية المركزة، رجوت الطبيب أن يدخلني إليها وبعد تردد وافق على شرط ألا أتكلم أو أحدث أي صوت بجانبها، أمسكت بيدها برقة، كانت شاحبة تمامًا كأنها خالية من الحياة وجهاز التنفس الصناعي موصول بها، نظرت لها وقد اعتصرني الحزن والأسف على ما آلت إليه حياتي وحياتها، شعرت بأني كاللعنة التي تصيب كل من حولها، كالموت البارد المتربص

بضحاياه، ما سر وجودي إن كان كل من يرتبطون بي يموتون في النهاية أمام عينيّ وأنا عاجز لا أستطيع أن أفعل شيئًا لهم؟! لا أستطيع أن أمد لهم يد العون أو أصيح فيهم أن يبتعدوا ويحتموا من الخطر المحدق بهم المتمثل فيَّ أنا؟! سقطت دموعي، اعتراني الندم وأنا ألمس يدها الناعمة الرقيقة الباردة، نظرت بتوسل إلى الشاشة التي تقع على يمين سريرها وتعكس نبضات قلبها الضعيف وكأني أستحث قلبها على الصمود لمرة أخيرة، أجهشتُ بالبكاء وبهدوء تركت يدها بجانبها ثم انسحبت، نظرت لمراد السيوفي نظرة أخيرة مفعمة بالأسف، شاعرًا بالضآلة والخزي أمامه وسرعان ما انسحبت والضيق والأسى يعتصرانني.

****

لم أكن أعلم الوجهة المفترض اللجوء إليها حيث شرعت ثورة غامضة تصول وتجول داخلي، قُدتُ سيارتي بجنون حتى وجدت نفسي أمام القسم، دخلت وأغلقت باب مكتبي بقدمي دون أن أرد على زاهر الذي ألح بأسئلته عليَّ فصحت فيه بأن يخرس تمامًا فتقهقر في مكانه، سمعت بلبلة وضوضاء شديدين في الخارج فصحت في زاهر قائلًا:

- في إيه يا زفت؟ إيه الدوشة دي؟!
- ما فيش يا عصام باشا.. شوية عيال كانوا عاملين قلق في الشارع
- عيال!!
- عيال من بتوع الثورة.

حدجته بنظرة قاسية ثم صحت بانفعال:

- دخّل لي أي كلب منهم حالًا.
- يا باشا؟!
- بقولك دخّل لي واحد منهم.

اقتاد زاهر أحد الشباب إلى مكتبي وقد بدا عليه أنه ينتمي للطبقة

المتوسطة، كان متوسط الطول، شعره مجعّد طويل مكوم فوق رأسه في شكل نصف دائري فبدا شكله أقرب لجيل سبعينات القرن المنصرم، يرتدي تي شيرت بنصف كم ضيق يبرز جسده النحيل وسروال جينز، لم أعطه فرصة للتحدث إذ صببت عليه جام غضبي وصفعته على وجهه صفعة قوية فسقط على الأرض. وضع كفه على وجهه وسالت الدماء من أنفه وفمه ثم قال بنبرة أقرب للبكاء:

- أنت مش من حقك تضربني بالشكل ده.. إنتوا هتفضلوا بلطجية وعمركوا ما هاتتغيروا.. أنا هوديك في داهية.. الثورة لازم تخلصنا منكوا.

بمجرد أن سمعت كلمة الثورة وطريقته الوقحة في الحديث تساقطت الذكريات الكئيبة عليّ كالشهب من السماء وافترسني الغضب، غامت عيناي، وفقدت كل التحكّم بنفسي وبأعصابي، انهلت عليه ضربًا بقدمي ويدي دون أن أعير تأوهاته المتتالية انتباهًا حتى انقض عليَّ زاهر يبعدني عنه بكل ما أوتي من قوة وهو يقول:

- كفاية يا عصام باشا.. الواد هايموت في إيدك.. اهدى يا باشا.

لأول مرة يستبسل زاهر في مواجهته معي لكي يباعد بيني وبين الشاب الضحية الذي وقع في يدي في الوقت الخاطئ وبالشكل الخاطئ أيضًا، بذل مجهودًا مضنيًا وقويًا حتى يتمكن من التحكم فيّ بعد ما أغلق المكتب علينا حتى لا يرانا أحد، لم أحس بشيء وبعد برهة طويلة وجدت نفسي أدخن بشراهة وبيد مرتعشة، الشاب غارق في دمائه يئن بصوت ضعيف بينما زاهر بجانبه، نظر إليَّ قائلًا بلوم وبنبرة صادقة:

- حرام عليك يا عصام باشا.. أنت قسيت عليه أوي..

نظرت إلى زاهر مندهشًا من تلك الرقة التي أصابته فجأة، حدجته بنظرة نارية ثم قلتُ منفعلا:

- ولاد الكلب دول هما اللي ودونا في داهية.. وبعدين ما لك يا زاهر في إيه؟! أنت هاتنسى نفسك؟!

ترك الشاب على الأرض وهو ينقل بصره ما بيني وبينه متوترًا ثم قال:

- يا باشا أنت كده هاتودي نفسك في سين وجيم وسكة ما لهاش لازمة.. والوضع ما بقاش زي الأول وأنت سيد العارفين.. اهدى بس وقولي هانتصرف إزاي في المصيبة دي.. الواد خلصان من الضرب ولازم نلحقه.. وما تزعلش مني يا باشا لو كنت قلت حاجة تضايقك.. بس مش كلب زي ده اللي هاتودي نفسك في داهية علشانه.

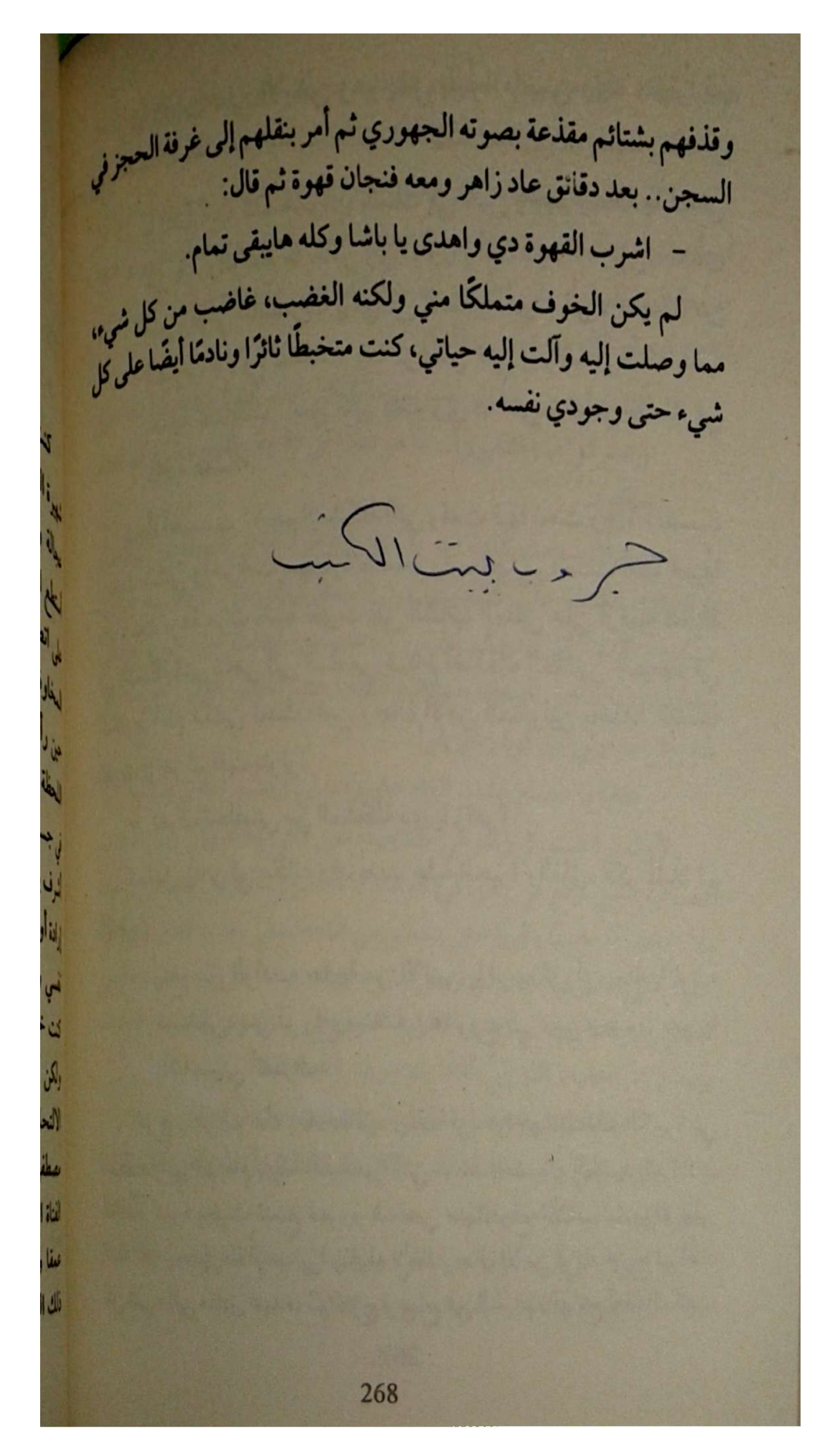
فجأة أحسست بحجم المشكلة التي وقعت فيها تحت وطأة الغضب، زممت شفتيّ وأخرجت سيجارة متنفخة وأشعلتها ثم أخذت نفسًا عميقًا منها، بعد برهة مرت ثقيلة نظرت إلى الشاب الملقى على أرضية الغرفة في اللحظة التي تناهى إلى مسامعي صياح أصدقائه الماكثين جميعهم في الخارج أمام مكتبي تحت أعين رجال الأمن المخولين بحماية القسم، نظرت لزاهر ثم قلت بتوتر:

- تعرف تخلصني من المشكلة دي يا زاهر؟

تململ زاهر في مكانه وقد بدت عليه الحيرة والقلق، فكر قليلًا ثم قال:

- ينفع بس الواد ده حاجة من الاتنين يا نرميه في أي حتة يا نوديه مستشفى. بس لو راح مستشفى هانروح في سين وجيم.. بص يا باشا سيبني أتصرف.

خرج زاهر ثم عاد بعد دقائق، وقف في مواجهة النافذة الكبيرة في غرفة مكتبي ثم قام بفك المسامير التي تربط القضبان الحديدية، كانت النافذة كبيرة بحيث تتسع لمرور شخص منها، رفع الشاب بسهولة على كتفه كأنه يحمل طفلًا صغيرًا وناوله لأحد رجال الأمن في الخارج ثم أعاد كل شيء إلى سابق عهده، ثم خرج وصاح في الشباب الهائج أمام المكتب



وقذفهم بشتائم مقذعة بصوته الجهوري ثم أمر بنقلهم إلى غرفة الحجز في السجن.. بعد دقائق عاد زاهر ومعه فنجان قهوة ثم قال:

- اشرب القهوة دي واهدى يا باشا وكله هايبقى تمام.

لم يكن الخوف متملكًا مني ولكنه الغضب، غاضب من كل شيء، مما وصلت إليه وآلت إليه حياتي، كنت متخبطًا ثائرًا ونادمًا أيضًا على كل شيء حتى وجودي نفسه.

الفصل 5

كنت على وشك الإفصاح لمصطفى عن كل شيء بعد مكالمة شهيرة المفزعة، هرولت وتخبطتُ، سقطتُ ونزفت، نظفت ملابسي على عجالة وانطلقت في طريقي إليه حسب موعدنا المتفق عليه سلفًا، لم أستطع التفكير في شيء آخر سواه، كنت أتلفت حولي مرتعدة ولم أجب على اتصالات شهيرة المتكررة. كنت مشتتة تنهشني الأسئلة وتصرعني المخاوف والخيالات السوداء، وصلت إلى الكافيه متأخرة، دخلت سريعًا حين رأيته ولم أنتبه جراء توتري أن ثمة شخصًا يجلس بصحبته حتى اللحظة التي وقعت فيها عيناي عليه، تسمَّرت في مكاني وسرت قشعريرة في جسدي، إنه الضابط عصام الرشيدي الذي كان سببًا في عملي لدى أشرف يونس، المحطة القدرية التي كانت سببًا في معرفتي بمصطفى، دون إرادة أو ترتيب مني وجدت نفسي أتنصل من معرفته، بشكل استغربت فيه نفسي وتساءلت كيف تمكنت من الكذب والتمثيل بهذه الطريقة؟! هل كنت خائفة من أن يُفشي عصام سري إلى مصطفى فأُظهر كاذبة أمامه؟! ولكن أي سر؟! جل ما يعرفه عصام عني أني قريبة زاهر ساعدها على الالتحاق بعمل شريف، ربما كان هذا كافيًا لأن يطيح بكل شيء، يستطيع مصطفى من مكالمة واحدة لزاهر أن يعرف أني لست قريبته ولست تلك الفتاة التي يعتقدها، هل كنت أخشى من أن يسأل عصام عني بشكل أكثر عمقا وينقب عن تاريخي لمجرد رؤيتي مع مصطفى؟! نعم أخشى فتح ذلك الملف الذي عانيت كثيرًا في إخفائه داخل ممراتي المظلمة، انتابني

إحساس مثقل بالهم والكآبة، انصرف عصام ولم تنصرف مخاوفي رغم إظهاره هو الآخر عدم معرفتي، طمأنني ذلك بعض الشيء وعلى جانب آخر أفزعني أيضًا، لماذا لم يصرّح مثلًا بمعرفتي فور رؤيتي؟! هل شعوري بالتوتر وتنصّلي منه دفعاه إلى ذلك؟! هل فهمني بكل هذه البساطة وأسدى إليّ هذا المعروف دون سبب يُذكر؟! من منطلق الشهامة لا أكثر ولا أقل، الأمر كله غريب بالنسبة لي، كنت صامتة بصحبة مصطفى، انتقلت من هم إلى هم، من مطاردة مجهولة ومفزعة إلى مأزق أكثر فزعًا، أنى للعلاقات أن تكون متداخلة بهذا الشكل؟! وكيف صار العالم صغيرًا إلى هذا الحد؟!

حاول مصطفى حثي على الكلام لمعرفة السر خلف توتري الواضح وهلعي الغريب ولكني انطويت على نفسي داخل أفكاري وهواجسي، لم أكن أدري ماذا أفعل، كنت بلا إرادة وتحت تأثير الهلع المتنامي داخلي، تركته وذهبت أمام ذهوله وضيقه بما يحدث، اتصلت بزاهر وأخبرته بمكالمة شهيرة، حاول تهدئتي وأمرني بعدم الذهاب إلى شقتي حتى يعرف من شهيرة ما يحدث تحديدًا، أخبرني أيضًا بأنه سيوافيني في الحال في شقته، وصلت إلى شقة زاهر الذي وجدته منتظرًا، شاب ترحيبه توتر زاد من هلعي، جلستُ حتى أعد كوبين من الشاي ثم جلس ونظر لي قائلًا:

- توحة بتتهمك بسرقة دهبها وأنا عارف طبعًا القصة كلها.. المشكلة إنها قدمت فيكِ بلاغ في القسم عندنا.. لكن اللي فهمته يا بنت الحلال إنهم حسوا إنهم انكشفوا أدامك وتقريبًا لما نهى رجعت من السفر وعرفت اللي حصل في غيابها مسحت بكرامة توحة الأرض لأنك بكده كشفتِ ورقهم وعرفتِ عنهم أكتر من اللازم والله أعلم ناوين على إيه.. والله ما أنا عارف يا ياسمين هما بيعملوا كده علشان خايفين منك لتبلغي عنهم مثلًا ولا إيه بالظبط! بصراحة أنا محتار ومش فاهم حاجة.

ارتعدت وأجهشت بالبكاء فطبطب عليّ زاهر قائلًا:

- جرى إيه يا ياسمين؟! ما تستهدي بالله كده.. أنا شايف إنك

تاخديلك أجازة من الشغل اليومين دول بحجة إنك عيانة ولّا أي

حاجة لحد ما ربنا يحلها والأمور تهدى وموضوع البلاغ اللي فيكِ

ده أمره سهل.. أنا اتصرفت فيه وقطعته بمجرد ما توحة مشيت.

- أنا خايفة يكلموا أهلي.

خرجت مني الكلمات مندفعة دون تفكير تحت وطأة الخوف فذُهل

زاهر ونظر لي نظرة طويلة مفعمة بالفضول ثم قال بنبرة ودود:

- وإنتِ ليه خايفة يكلموا أهلك يا ياسمين؟

تململت في مكاني وفجأة توقفت دموعي ثم نظرت له خائفة فاستطرد

قائلًا:

- إنتِ لسه خايفة مني.. قولي مش هاتخسري حاجة وما تخافيش

سرك في بير.. يعني بعد ده كله هابيعك مثلًا؟!

زممت شفتيّ وصمتّ ولم أنطق بكلمة واحدة فاسترسل قائلًا:

- طيب أهلك يا ياسمين يعرفوا إنك هنا؟

هوى السؤال عليّ كصخرة ضخمة فتفتت على إثرها رأسي لأجزاء

صغيرة متناثرة، بكيت بشدة وانتحبت، حاول زاهر تهدئتي بقدر الإمكان

ولكني لم أهدأ إلا بعد فترة طويلة، لم يتحدث زاهر ووعدني بعدم فتح

الموضوع مرة أخرى، جلست وحيدة تلك الليلة حيث ذهب زاهر إلى

منزلي ليقيم فيه بدلًا مني، وقضيت الليل بطوله ساهرة أنظر للباب من وقت

لآخر والخوف والأفكار الغريبة تحاصرني حتى مطلع النهار، وقفت في

الشرفة أنظر إلى الشارع أتابع الناس بحذر ثم أعود مرة أخرى إلى الداخل،

جاء وقت الظهيرة ولم أتلقَّ اتصالًا واحدًا من زاهر، ارتعدت بعد أن

اتصلت مرارًا به ولم يرد، كنت جائعة وخائفة. توالت اتصالات مصطفى

وشهيرة لكني لم أجب على أيّ منها، قررت في النهاية أن أرد على شهيرة،

حكيت لها بتلعثم ما حدث فانتابها خوف شديد وطلبت مني عدم الذهاب

إلى شقتي حتى يرد زاهر ونعرف ما حدث، الكثير من التساؤلات مرت بمخيلتي، مصطفى كان خارج تفكيري في هذا الوقت، أي حياة تلك التي ساهبها له وأنا لا أملكها؟ وأي استقرار يمكن منحه لفتاة تتهاوى مع كل خطوة؟! كان القلق يساورني إلى درجة أنني قررت تركه لحاله وعدم الاتصال به مرة أخرى حتى إني في لحظة ضعف مثقلة بالخوف مسحت رقمه من هاتفي بقلب حزين يعتصره الأسى.

لم أستطع الصمود أكثر من ذلك أمام ما يحدث فاتجهت إلى شقتي وأنا لا أتوقف عن الاتصال بزاهر، لم أنصت إلى شهيرة ورفضت طلبها بالبقاء داخل شقته، الخوف كان أكبر من أن أتحكم به وكأني صرت منساقة ومنقادة بتأثير من قوى خارجية، وصلت أمام باب الشقة فوجدته مواربًا، إنتابني الهلع، فدلفت مرتعدة، وجدت عصام الرشيدي في مواجهتي ينظر إليّ نظرة متشككة غاضبة، كان بعض رجال الأمن ينتشرون داخل الشقة يفتشونها، سألني بهدوء قائلًا وقد تحولت شخصيته فجأة إلى ضابط شرطة بعيدًا عن تلك الشخصية التي أعرفها، كأنه كان يرتدي زيًا تنكريًا في المرات السابقة التي رأيته فيها وقد خلعه الآن ويتصرف طبقا لشخصه الحقيقي:

- إنتِ اللي ساكنة هنا صح؟

ارتعدت ولم أرد وقد باغتتني العديد من الأوهام المزعجة ثم قلت متلعثمة بعد برهة:

- أيوه

- تمام

صمت ثوانٍ ثقيلة ثم قال:

- كنتِ فين ليلة امبارح؟

تلعثمت ثم قلت بنبرة مهزوزة:

- هوَّ فيه حاجة حصلت؟

أعاد سؤاله بحزم لا يخلو من ود فقلت:

- كنت في شقة زاهر بايتة هناك.

أطرق برأسه إلى الأرض ثم قال:

- الظاهر إن إنتِ اللي كنتِ مقصودة.. عمومًا زاهر لحّقناه وراح المستشفى.

صحت مرتعدة:

- إيه اللي حصل؟!

- ناس دخلت عليه ضربته.. ضربوه لحد ما فقد الوعي والجيران هي اللي بلغت.. ما تقلقيش أنا اطّمنت عليه بنفسي وهايبقى كويس إن شاء الله.. تعالي معايا هاوديكِ ليه.

لم ينطق بكلمة واحدة طوال الطريق حتى وصلنا إلى مستشفى الشرطة بالعجوزة حيث صمم على نقله إلى هناك ومعالجته بشكل جيد، أعتقد أن زاهر يعني له الكثير وليس مجرد أمين شرطة يعمل معه ويكن له الولاء المطلق، كنت خائفة والأفكار تتقاذفني وتحيط بي حتى وصلنا إلى المستشفى ودلفنا الغرفة التي يوجد بها زاهر، كان مستلقيًا على السرير وقد جُبِّرت يده اليمنى مع وجود كدمات واضحة في وجهه وهالة زرقاء قاتمة تحيط بعينه اليسرى، كما كان رأسه ملفوفًا بالشاش الطبي الملطخ بمادة البيتادين المطهرة، لكن كان هناك شيئًا واضحًا رغم آثار الجروح على ملامحه، شرخًا في كرامته، انكسارًا غريبًا يطفو في عينيه كجواد فشل في القفز من فوق الحاجز الأخير، جلس عصام الرشيدي بجواره بينما وقفت مترددة بالقرب منه، نظر لنا نظرة غامضة ثم ثبت نظره عليّ وأرسل لي نظرة تعني شيئًا، لم أكن أفهم تحديدًا ما يرمي إليه ولكنه في النهاية قال بصوته الجهوري المعتاد وكأن كل تلك الضربات لم تؤثر فيه:

- ما يقع إلا الشاطر يا عصام بيه.. ولاد الحرام كانوا قاطريني..

زي ما قلتلك ياسمين كانت بتزورني فقلتلها تستنى وأنا هاروح أجيبلها حاجة من البيت تلبسها لأني كنت هابيت في القسم الليلة دي.. وأول ما دخلت البيت كانوا مستنيني ولاد الكلب غدروني ونزلوا ضرب فيا.. الحمد لله على كل حال.

ابتسم الرشيدي ولم يرد، نقل بصره لي وأرسل نظرة متشككة غريبة أرهبتني، طبطب على زاهر بهدوء دون أن يرفع بصره عني ثم قال:

- شد حيلك علشان تقوم لنا بالسلامة يا زاهر.. أنت عارف إني ما استغناش عنك.. أسيبكوا شوية مع بعض بقى..

رن جرس هاتفي في اللحظة التي انتصب فيها الرشيدي واقفا ليغادر فنظرت إلى شاشة هاتفي سريعًا متوقعة أنها شهيرة ولكن كان هناك رقم آخر يطل على الشاشة، رقم مصطفى دون اسمه، رفعت رأسي فوجدت عصام يرمقني بنظرة هادئة تحمل الكثير من المعاني ثم ابتسم ابتسامة خفيفة مرعبة وانطلق في طريقه.

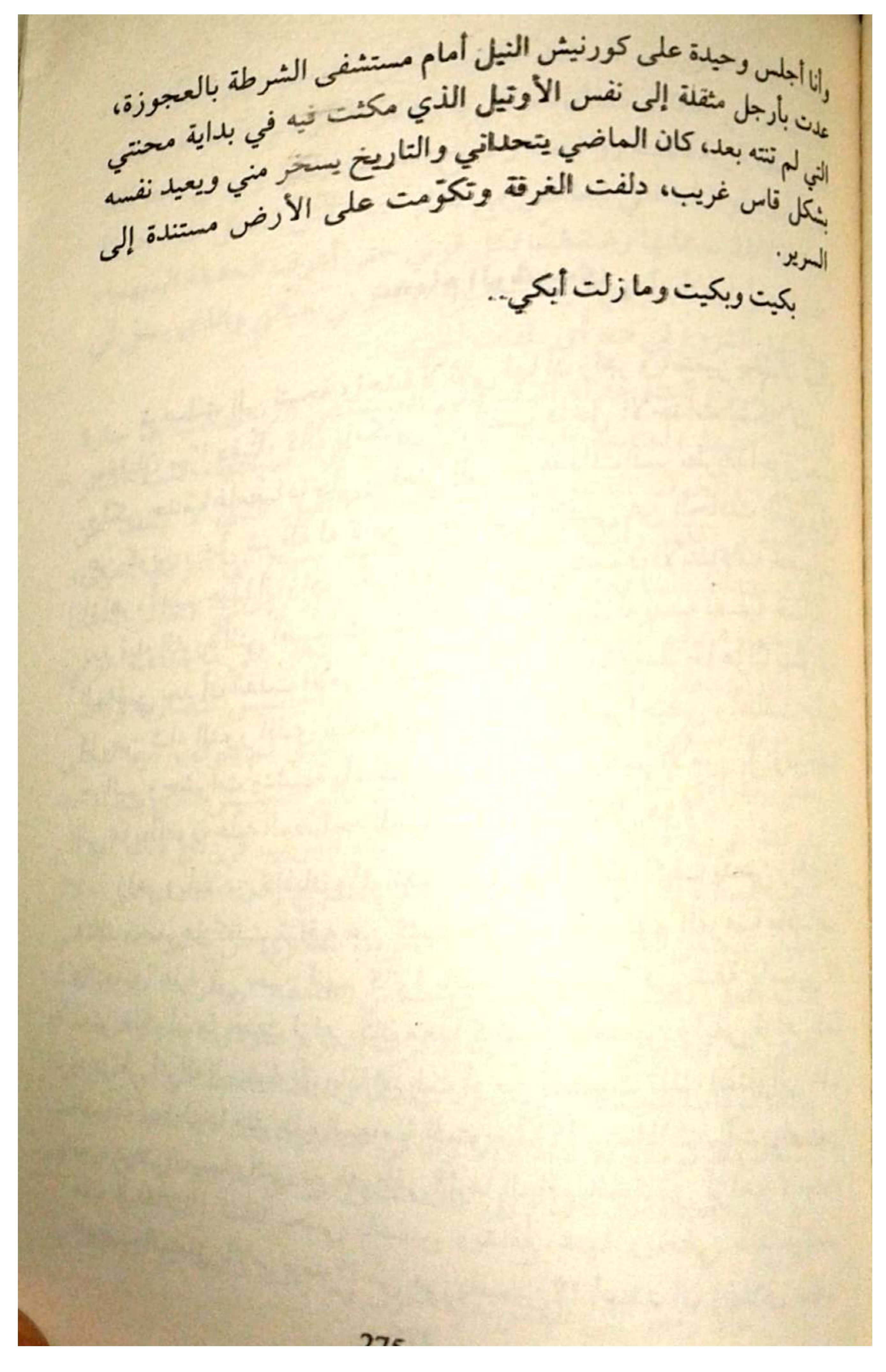
اقتربت من زاهر والشعور بوخز الضمير يتملك مني ثم قلت:

- ألف سلامة عليك يا زاهر.. أنا مش عارفة أقولك إيه!

لم يتكلم زاهر وظل صامتًا، كان الغضب باديًا عليه، زم شفتيه ورمقني بقسوة في النهاية، فانسحبت من مكاني مطأطأة الرأس والحزن يفترسني حين مغادرتي سمعته يقول:

- شوفي أي حتة تباتي فيها النهاردة واحمدي ربنا إنها جت على أد كده..

أومأت برأسي وسقطت مني دمعة، اسودت الدنيا في عيني، كرهت وجودي وحياتي وكل شيء حولي، اتصلت بشهيرة وأخبرتها عن محنتي فرشحت لي البقاء بفندق مؤقتًا حتى تهدأ الأمور، كانت مرتعدة خائفة، أحسستُ بأنها تخشى الحديث معي وتتعجل في الكلام، بكيت بشدة



وأنا أجلس وحيدة على كورنيش النيل أمام مستشفى الشرطة بالعجوزة، عدت بأرجل مثقلة إلى نفس الأوتيل الذي مكثت فيه في بداية محنتي التي لم تنته بعد، كان الماضي يتحداني والتاريخ يسخر مني ويعيد نفسه بشكل قاس غريب، دلفت الغرفة وتكوّمت على الأرض مستندة إلى السرير.

بكيت وبكيت وما زلت أبكي..

عصام الرشيدي

توصلت إلى نتيجة واحدة لا ثاني لها أن زاهر وياسمين يخفيان شيئًا، يخفيان سرًا دفينًا، كان بإمكاني أن أنقب داخل الأحداث بشكل قانوني ولكن حدسًا غامضًا داخلي يدفعني إلى معرفة ذلك السر بطريقة أخرى بعيدًا عن كوني رجل شرطة له كامل الحق في التقصي عن الحادث الذي وقع لزاهر، أعلم جيدًا أن زاهر مكروه من كثيرين ويتمنون الانتقام منه خصوصًا بعد قيام الثورة التي أصبحت جسرًا لكل من تسوّل له نفسه تصفية حسابات الماضي بعد أن انفلت الأمن وأضحت البلد مرتعًا ومسرحًا هزليًا يمثل فيه كل من شاء الدور الذي ابتغاه، فجأة انفجرت المراحيض وأطلقت علينا جراثيم وحشرات متشبهة بأشكال بشرية تحلل وتقيم الأمور بل وتوجهنا إلى ما يطلقون عليه المصلحة العليا للبلاد، بئسًا لكل هؤلاء.

زاهر وياسمين كاذبان وأقوالهما متعارضة تمامًا، كيف يدّعي زاهر أن هناك مجموعة كانت تراقبه عن كثب حتى سنحت لهم الفرصة باقتناصه والتعدّي عليه في حين أنهم كانوا بالفعل مختبئين في شقة ياسمين؟! معنى ذلك أن ما حدث لزاهر كان معدًا ككمين لياسمين وليس لزاهر كما ادعى في أقواله المتضاربة، ماذا اقترفت أو من أغضبت تلك الفتاة إلى هذه الدرجة ليعاملوها مثل هذه المعاملة المتوحشة؟! ولماذا تنصلت ياسمين من معرفتي حينما رأتني مع مصطفى؟! ما الدافع الحقيقي لزاهر لإخفاء هذه الحقائق؟! لماذا يحمي ياسمين ويدافع عنها ويخفي ذلك السر المريب المتعلق بالأمر برمته؟! من هي ياسمين؟! أعتقد أن إغلاق ملف

القضية بهذه الصورة هو أمر ضد القانون ولكن زاهر لم يتهم أحدًا بعينه حتى يتسنى لي التحقيق كما أن معرفتي به وعشرتنا تلزماني باحترام رغبته، هناك حلقة غريبة ناقصة وواضحة وضوح الشمس ولكن بقي لي فقط فك طلاسمها، لولا تعاطفي الغامض مع تلك الفتاة التي تحمل طلة حزينة غامضة لانقلبت عليها وضغطتُ بكل قوتي حتى أعرف الحقيقة المبهمة، عمومًا عليَّ أولا أن أنتهي من الموضوع الأهم في حياتي والذي يمثل لي البقاء قبل الشروع في فتح أي ملفات أخرى.

مر أسبوع كنت خلاله أتردد على المستشفى التي تمكث بها سارة لأطمئن عليها ولمتابعة الحال الذي آلت إليه صحتها، كنت أشعر بالضعف والخوف المشوب بذلك العجز الثقيل الذي لا ينفك عن الإطاحة بي كلما رأيتها نائمة شاحبة كشبح يسبح في عوالم أخرى، أمكث عندها بالساعات فيوقظونني من النوم إذ يباغتني النعاس أحيانًا وأنا بجوارها، لم أكن أفكر في أي شيء ولا يشغل بالي ما يحدث حولي من أحداث على الإطلاق، كانت تجتاحني أحاسيس متضاربة وأحس بأن موتها سيكون راحة لها من فقد طارق الذي لم يتوقف عن التجلي أمامي. يتراءى أمامي خصوصًا وأنا تحت تأثير الحشيش الذي بت أدخنه بشراهة غريبة فأقضي معظم وقتي غائبًا، الغريب في كل ذلك أني لم أذهب لسارة إلا صاحيًا متوضئًا وكأني أشتري رحمة الله لها من خلال تمثيلي المتقن أمامه، كم من مرة شعرت بالخزي من فعلي ذلك ولكني كنت أفعل ذلك بنية خالصة وإحساس صادق، في مرات أخرى كنت أتمنى لو أنها تبقى ولا تموت، تذكرت بدموع حارة وأنا بجوارها ممسكًا بيدها أوقاتنا الجميلة التي مررنا بها معًا وفجأة اكتشفت أني لم أعش يومًا يستحق تذكره أو استعادته إلا وأنا في صحبتها، ذلك الاكتشاف المباغت لم يأتِ فجأة من العدم بل كان مطمورًا داخل جزء مغلق مني و يظهر الآن.

عاد زاهر إلى العمل مرة أخرى وما زالت مسحة من آثار الضرب

ظاهرة عليه، كان هادئًا على غير عادته ينظر لي من وقت لآخر بشيء من الانكسار، شعرت بأن جرحًا عميقًا أطاح بكرامته وعزته التي طالما تباهى وتفاخر بها أمام الجميع دون استثناء، حتى أمام أعتى رجال الشرطة وأعلاهم رتبة ولكن كان الجميع يحبونه على نحو ما، لم أتطرق إلى ما حدث له أبدًا، فيما بعد تفانى زاهر بكل ما أوتي من قوة في عمله وخدمتي، لم يتركني أبدًا إلا حين خلودي إلى النوم أو بأمر مني، لم أعد كسابق عهدي معه، كنت أعامله معاملة فاترة ولم أعد أحكي له شيئًا يذكر عن حياتي. حتى الحشيش بت أحصل عليه من خلال أمجد.. ذات يوم وبعد مرور أسبوع من عودة زاهر ذهبت إلى المستشفى ليلًا لأطمئن على سارة، وجدت ضجة كبيرة بغرفتها، لقد عادت إلى الحياة وغادرت تلك الغيبوبة الطويلة القاسية، غمرتني سعادة لا توصف وأنا أقف وسط جمع الأطباء ووالدها الذي تهلل وجهه وعادت إليه الحياة بعد أن كان ذابلًا كمن ينتظر الموت، اقتربت منها فشرعت ضوضاء الأطباء تقل رويدًا عند وصولي، حتى إن والدها نظر إليَّ مبتسمًا ودمعة تسيل على خده وكأنه يهنئني على عودتها للحياة، التقت عينانا فشعرت بأن روحي تستعيد وجودها مرة أخرى، كيف تمنيت لحبيبتي الرقيقة هذه يومًا الموت كنوع من الرحمة؟! وكيف كنت قاسيًا إلى هذا الحد؟!.

أشاحت بوجهها عني فانسل الأطباء بهدوء من الغرفة ليتركوا لنا مساحة من الخصوصية فقلت بهدوء وانفعال من فرط السعادة والقلق أيضًا:

- حمدا لله على سلامتك يا سارة

لم تكن تلك هي الكلمات التي جهزتها طوال الفترة السابقة وأعدتها مرارًا في مخيلتي وتدربت عليها أمام المرآة لأقولها لها إن عادت، كان من المفترض أن أغرقها بالقبلات وأنا أحتضنها، أن أخبرها بمدى حبي لها، كان يجب أن أقول:

- حمدا لله على السلامة يا حبيبتي.. وحشتيني.

لكن الكلمات خانتني وهربت مني فجأة، تبخرت وصارت سرابًا، حدجتني بنظرة غريبة لم أفهمها ثم قالت بنبرة واهنة:

- الله يسلمك.. يا ترى نفذت طلبي؟

نظرت لها مستغربًا ولم أفهم ما ترمي إليه فقلت بقلق:

- مش فاهم يا سارة تقصدي إيه؟

- أنت فاهم كويس يا عصام أنا أقصد إيه.. أنا مش مستنية شفقة منك ولا من حد.

- سارة إنتِ بتقولي إيه.. أنا مش..

قاطعتني بصعوبة ووهن واضح فاستسلمت حتى لا تتأزم صحتها:

- أرجوك يا عصام نفذ ليا طلبي.. أنا مش عايزة حاجة منك أكتر من كده.. لو ليَّا معزة عندك أرجوك.

كانت الدموع تترقرق في عينيها الجميلتين فسادني صمت محدق ثقيل وشلني العجز أمام إحساسي بأن المجادلة في حالتها تلك ربما تعصف بي وبها، ورغم أن الغضب ملأني إلا أن إحساسي بالعطف كان أكبر من أي غضب فانسحبت بهدوء بعد أن رمقتها بنظرة طويلة وكأني أودعها وألومها أيضًا، كيف صارت قاسية إلى هذه الدرجة؟! وكيف أضحت النهاية كلمة تُكتب بهذه البساطة؟! كانت الأفكار تتسارع في عقلي ولكني لم أقوَ على التحدث واستسلمت أمام ضعفها خوفًا عليها، في النهاية جررت قدميّ جرا خارج غرفتها حيث كان والدها في انتظاري، لم أستطع مواجهته ولم أكن أسمعه على الإطلاق وهو يتحدث لي، غادرت المستشفى والحزن والأسى يبلغان مني مبلغًا عظيمًا.

كنت أقود سيارتي مهموما، شعرت بوحدة قاتلة وألم أسفل معدتي من شدة الاكتئاب، مر بمخيلتي الكثير من الذكريات التي بدلًا من أن

تخفف عني زادت على حملي المثقل بالهم وجعًا وكدرًا، قررت الذهاب لأمجد، قررت أن أدخن وأسكر حتى أنسى كل شيء، فما أشعر به صار ثقيلًا لدرجة شعرت فيها أني موشك على الموت.

وقفت أمام باب شقة أمجد طويلًا وأنا أدق الجرس وأطرق الباب لكن بلا رد يذكر، بالتأكيد أمجد بالداخل لأن سيارته مركونة أسفل العمارة وهو لا يتحرك من دونها إلى أي مكان، في النهاية قررت الاتصال به ووضعت أذني على الباب بنفاد صبر أسترق السمع، سمعت هاتفه يرن حتى النهاية بلا رد فتأكدت أنه بالداخل، شرع القلق يتملك مني وأنا لا أتوقف عن طرق الباب أو الاتصال به لكن بلا رد أيضًا فزاد قلقي، نزلت سريعًا وسألت حارس العمارة عنه فأخبرني بأنه لم يغادر منذ عاد أمس، أخذته معي سريعًا ليعاونني على كسر الباب وبالفعل كسرناه، دخلت مرتعبًا من منظر الشقة التي تعكس هيئتها ليلة معربدة استوطنت بين جدرانها، زجاجات خمر موضوعة في كل مكان وأثار لف سجائر الحشيش، بقايا هيروين متناثرة على الترابيزة الصغيرة في الصالة كما كان هناك قميص نوم ملقى على الأريكة في الخارج، كانت الأفكار السوداء تهاجمني حينما وجدته ملقى على الأرض بجانب سريره ومادة بيضاء غريبة تخرج من جانب فمه، جريت نحوه ورفعت رأسه، كانت عيناه شاخصتين في الفراغ بشكل مرعب، هل مات؟! أمسكت رسغه بيدي وتحسست نبضه فوجدته ضعيفا، أحنيتُ رأسي تجاه وجهه أنصت إلى أنفاسه فوجدتها رتيبة ضعيفة للغاية أيضًا، أخرجت هاتفي ورأسه فوق ذراعي ثم اتصلت بزاهر سريعًا وبمجرد سماع صوته صحت قائلًا:

- زاهر الحقني.. أنا عند أمجد وشكله مأفور.. أعمل إيه؟

جاءني صوته متلعثمًا ومضطربًا على الجانب الآخر وهو يقول:

- اسقيه بسرعة أي حاجة بملح يا باشا.. ولّا أقولك اعمله ميه بملح واسقيهاله وأنا خمس دقايق وهاكون عندك.

دخلت المطبخ سريعًا ثم أمرت البواب بأن يحضر طبيبًا في الحال مهرول مسرعًا، تخبطتُ داخل المطبخ وبعد وهلة كسرت فيها كوبين من شدة التوتر أعددت كوبًا كبيرًا من الماء والملح وقمت بإفراغه كاملًا في جوفه فشهق مرات عديدة بعد برهة قصيرة وخرج بعض من المحلول من فمه وأنفه بشكل مفزز، حملته إلى الحمام بصعوبة في اللحظة التي وصل فيها زاهر الذي صاح قائلًا:

- سيبهولي يا باشا.

تنحيتُ جانبًا وأنا أتابع زاهر مذهولًا ومأخوذًا مما يحدث، كان يقوم بعملية إفاقته بهدوء وإتقان غريبين وكأنه قام بذلك مرات عدة قبل ذلك، أفرغ أمجد في النهاية كل ما في جوفه وزاهر يشجعه على ذلك، كانت عيناه حمراوان ووجهه شاحبًا كالموتى وجسده هزيلًا كورقة مهترئة وقد حمله زاهر إلى فراشه كطفل صغير، وجاء الطبيب، أخبرته عن مهنتي كضابط حتى لا يتركه خوفًا من أن يموت بين يديه، قام الطبيب بعمل بعض الإسعافات الأولية ثم كتب لنا علاجًا وأمرنا بإحضاره سريعًا، كان أمجد مستلقيًا شاحبًا وبدا وجهه رقيقًا يكاد يرى ما خلفه، كان هزيلًا كمن حكم عليه بالحرمان من الطعام لشهر كامل، وغائبًا عن الوعي باردًا كالموتى، بعد فترة فحوصات نصحني الطبيب بنقله إلى المستشفى وأبلغني بأنه يحتاج للعناية والراحة التامتين، جلست في مكاني على كرسي في مواجهة أمجد المستلقي على سريره ووضعت رأسي بين كفيّ والدنيا تدور بي والأفكار تتآكلني، دلف زاهر بعد برهة بهدوء وفي يده الأدوية ثم قال:

- ما تقلقش يا باشا هايبقى كويس.. سيبه دلوقتي وتعالى ارتاح بره وأنا هاخد بالي منه.

نظرت لزاهر وكأن شخصا آخر ينظر له، انسقت خلفه حتى صرت في الخارج وجلست على الأريكة، عاد زاهر إلى الغرفة ثم خرج بعد قليل وهو يقول:

- هايبقى كويس.. أنا اطّمنت عليه واديته الدوا.

أومأت برأسي وأنا أنظر له شاردًا، أخرج علبة سجائر وناولني سيجارة منتفخة مترعة بالحشيش وأخرج لنفسه واحدة، لم أرفض وتناولتها منه، أشعلتها وأسندت ظهري إلى الوراء وشرعت أدخنها في صمت بينما كان زاهر يدخن بشراهة سيجارة منتفخة تلو أخرى حتى أغمض عينيه وتراخى جسده بشكل واضح ثم قال وكأنه يحدث نفسه:

- عارف يا باشا.. أنا عمري ما كنت حد وحش.. حتى أبويا وأمي الله يرحمهم كانوا دايمًا عارفين إني مهما عملت جوايا حاجة حلوة.. الدنيا ياما لطمتني وورتني أيام سودا.. الله يرحمه أبوك كان راجل جدع وشغلني في الداخلية ولولاه كان اللي يسوى واللي ما يسواش هيتحكم فيَّا.. علشان كده أنا عمري ما زعلت منك مهما عملت فيَّا.. وعارف إنك طيب رغم قسوتك عليَّا ساعات.. أصل أنا ماليش عيلة غيرك.. وأنا أكتر واحد زعل على طارق بيه الله يرحمه ونفسي آخد بتاره من اللي قتله زيك بالظبط.. بس بالله عليك يا باشا ما تخلي الحزن يغلبك وينسيك حياتك ومراتك.. أنا الحزن غلبني على واحدة كنت بحبها زمان وفي لحظة عصبية سبتها وما كنتش عارف إني سيبت معاها كل حاجة.. بقيت ماشي زي خيال المآتة.... صحيح يا باشا إني ما ليش لازمة.. وبخوف الناس بشكلي من بعيد بس.. كنت بستنى أي فرصة أعمل فيها حاجة كويسة وكنت لما بعملها أحس إني عملت حاجة كبيرة أوي.. كنت بعملها وبقول لنفسي يمكن يا واد يا زاهر ربنا يحن عليك ويسامحك على المصايب اللي عملتها.

مسح على وجهه من شدة التأثر بما يقوله، كنت متعجبًا رغم تأثير الحشيش بما يفيض به زاهر، شديد التركيز بقدر ما استطعت مع كل كلمة يقولها، تأثرتُ للغاية بحديثه الصادق الذي لم أسمع منه مثله

من قبل، كأني فجأة أرى زاهر على صورته الحقيقية، فجأة سمعنا أنينًا خفيفًا يأتي من داخل غرفة أمجد فهرولنا تجاهها فوجدت أمجد ينظر حوله بعينين مرتخيتين وبصعوبة بالغة وكأنه يتأكد من وجوده، جلست بجواره وحاولت طمأنته فابتسم ابتسامة حزينة باهتة للغاية ثم أغلق عينيه فوضعت يدي على قلبه وأمسكت بيده لأتقصى نبضه فعرفت أنه مرهق لا أكثر ويحتاج للراحة.

ابتسم زاهر وهو يومئ لي برأسه بما يعني أن الخطر قد زال ثم أخذ النفس الأخير من سيجارته، تاهت عيناه في الفراغ ثم قال بنبرة حزينة:

- أنا كدبت عليك يا باشا.. فاكر موضوع ياسمين..

فأومأت برأسي دون أن أجيب وقد اعتراني إحساس بالفضول والترقب، شرع يحكي لي كل شيء يعرفه عن ياسمين منذ أن رآها. يتكلم بصوت واضح وهو يروح ويجيء في الغرفة متوترًا حتى جلس على الأرض. وبعد أن انتهى من قص حكايته، أسند ظهره إلى الحائط وابتسم ابتسامة غريبة هادئة وكأنه تخلص من هم ثقيل كان يجثم على صدره.

فوجئت بالحكاية كاملة وشرعت أفكر فيها، شعرت بالإشفاق الشديد على ياسمين وتمنيت من قلبي أن تكون بخير، قاطع أفكاري صوت أمجد الواهن بعد مرور فترة ليست بالقصيرة فاقتربت منه وأنا أمازحه لكني في نفس الوقت كنت أفكر في ذلك المجتمع الغريب الذي دمر حياة فتاة مثل ياسمين، لم يكن شعوري بالعطف تجاهها ناتجًا من الفراغ، لقد خسرت تلك الفتاة كل شيء وما زالت الحياة تلقنها دروسا قاسية لا تنتهي، شعرت بالمقت والحزن، أحسست بأن رأسي مثقل بالقلق من أثر الحشيش، ومن دون وعي ذهبت في نوم عميق على الأرض بجانب زاهر الذي نام هو الآخر.

جروب بيت الكتب

الفصل 4

أنظر إلى السماء، كانت خالية من السحب، ويكاد الهواء يكون معدومًا، والأرض ساكنة لكنها كبركان خامل ينتظر اللحظة المناسبة لإطلاق ثورته، لقد مر يوم آخر ولا أعتقد أنهم سيستغرقون وقتًا أكبر من ذلك حتى يجدونا في تلك البقعة التي لم تعد بعيدة، كيف تصبح الحياة قاسية إلى هذه الدرجة دون إنذار مسبق؟! لك أن تتخيل أن حدثًا واحدًا، حدثًا واحدًا فقط يعصف بك بهذه الطريقة ويقلب حياتك رأسًا على عقب، لك أن تتخيل وأنت تنظر من شرفتك عبر الحقول في مدينتنا المترامية حجم المآسي التي مرت بها فتاة مثلي وتُجسدها أمامك كحدث حقيقي ثقيل وقع لك وعليك أن تتحمله وحدك. ماذا يمكن أن يدفعني للحياة حتى وإن برّأني القانون وطهّرني من تهمة الاغتصاب - التي لا ذنب لي فيها- ومن الهرب والقتل أيضًا؟! هل سأكون بريئة طاهرة في نظر أهلي؟! في تلك النقطة السحيقة من أفكارهم؟! وحتى وإن ادّعوا ذلك هل يمكن لي أن أصدقهم في ما عيونهم التي تداري خزيهم تفضحهم؟! هل سأكون بريئة من دون نظرة شك أو ظن في أعين حبيبي وأهلي والمجتمع الذي أصدر حكمه مسبقًا في حقي وشرفي دون مرافعة أو جلسة محاكمة عادلة؟! هل تضمن لي أن أعود إلى تلك الليلة التي تصدر فيها الإضاءة من الطابق السادس وفجأة ينقشع كل خوف ويزول كل ألم ثم أدخل من باب بيتنا كفتاة عذراء حرة، وببساطة أضم أهلي بين ذراعيّ فَرِحة لأنه لم يحدث شيء؟ دعك من كل ذلك، إحساسي البريء القديم، كيف يمكن انتزاعه

بتلك البساطة من داخل هذا الهول المفجع الذي وقع لي؟! نعم، تلك هي قطعة الشوكولا التي تسبق الانتحار، الإحساس بالسعادة المفرطة والهدوء المنساب المتسلل إلى كل خلية منك ليمنحك ذلك الرضا الكامل عن القفزة الأخيرة التي سينتهي معها كل شيء، عندي كل الدوافع التي تخبرني بهدوء وثقة بأن ما أنا مقدمة عليه هو نوع آخر من الحياة لن يفهمه أمثالك، الغريب أني لن أقتلك بل سأتركك الحياة تفعل، لن أمنحك تلك الفرصة الذهبية لتموت بتلك البساطة، سأتركك تعيش مع نذالتك التي كانت سببًا من أسباب كثيرة لأصير ما أنا عليه الآن، مغتصبة مهشمة هاربة خاطفة وقاتلة أيضًا.. دعنا من ذلك الآن لأكمل التفاصيل الأخيرة لحكايتي.

****

مكثت في غرفتي في الفندق يومين كاملين مرتعدة منطوية والأفكار تنهشني، لم أكن أخرج إلا لشراء الطعام ثم أعود سريعًا وأنا أتلفت حولي مرعوبة من أن يلمحني أحدهم، فكرت بمصطفى وشهيرة، ظل هاتفي مغلقًا طوال اليومين المنصرمين، لم أكن لأحتمل رنينه المتواصل الذي لن يتوقف وهو يحمل رقم مصطفى، ولم أكن لأحتمل صمته الرهيب دون أن أرى اسم شهيرة يظهر على شاشته ليخبرني بأن الأصدقاء ما زالوا بخير في هذا الزمن الغريب، تلاطمت أفكاري واحتدمت بشأن مأساتي وما يجب فعله، لا يوجد مخرج وما من سند يؤازرني في محنتي ليمنحني إجابة شافية أو يهبني نقطة نور أستطيع من خلالها تحسس طريقي المظلم، في اليوم الثالث أوشكت على الانهيار تمامًا وأنا حبيسة تلك الغرفة التي لم ترَ مني سوى البؤس والعذاب، فكرت في الخروج مرات عديدة وليحدث ما يحدث ولكنني كنت أمنع نفسي بصعوبة بالغة في اللحظة الأخيرة حتى انهرت تمامًا وبكيت. قررت عدم الخروج والإضراب عن الطعام حتى أموت جوعًا وينتهي كل شيء ومر اليوم الثالث وقد اعتراني شعور بخدر غريب يسري في أناملي وبأني غير متزنة على نحو ما، استيقظت في اليوم الرابع منتفضة على صوت باب يغلق بقوة مصدرًا صوتًا رهيبًا، نظرت

حولي مستطلعة لأكتشف بأني لست وحدي. كان هناك ألم رهيب وغريب في أسفل بطني فعرفت أنه ميعاد دورتي الشهرية، خرجت بهدوء حيث لم أكن أحتاج حتى ذلك الوقت لتبديل ملابسي، فقد تركت كل شيء من عالمي الجديد في شقتي التي لم أنتمي لها يومًا وعدت كما أنا لا أملك سوى ما يسترني فقط، غريبة هذه الحياة! تتقاذفنا وتوجعنا كما تريد وتعيدنا ببساطة إلى وجعنا الأول بقلب مدمى، دخلت إحدى الصيدليات لشراء الفوط الصحية ومسكن للصداع الذي يفتك برأسي ولكني تراجعت عن شراء المسكن، فما حاجتي للدواء إن كنت أنشد الموت وأتوق إليه، عدت مرة أخرى واغتسلت، وضعت في رأسي فكرة واحدة هي أن عليهم أن يجدوني نظيفة مستورة وأنا على فراش الموت، جلست وحيدة، الجوع والعطش يعتصرانني حتى انتهي اليوم الرابع، شرعت أدخل في خدر أقوى تملك من أطرافي فصرت أرى الأشياء بشكل مشوّش، في اليوم الخامس نهضت بثقل من على الأرض، حاولت تذكر الليلة السابقة، لم أدرك متى نمت رغم محاولاتي الحثيثة، في النهاية دخلت الحمام وبصعوبة خلعت كل ملابسي بعد أن شممت رائحة غريبة كريهة تفوح مني، وقفت تحت رشاش الماء فأصابتني قشعريرة غريبة، كانت الدماء تسيل من بين فخذيّ فجلست فجأة على الأرض وأنا أرتجف من شدة الخوف وقد باغتتني ذكريات مفجعة قديمة، بكيت بشدة حتى بللت دموعي شفتيّ. ورغم الماء المتساقط أحسست أن فمي جاف، فتمدد داخلي إحساس غريب بالحياة، شرعت ألتقط الماء المختلط بالدموع بنهم غريب بطرف لساني حتى رفعت رأسي قليلًا وأنا أشرب كل قطرة تستطيع النفاذ من بين شفاهي، نهضت وفتحت كفيّ وألصقتهما ببعضهما وكورتهما قليلًا حتى امتلأتا بالماء فشربته كاملًا، كررت ذلك مرات عديدة حتى شعرت بدوار غريب، خرجت عارية من الحمام وقدماي لا تستطيعان حملي حتى وقعت على الأرض، بعد فترة نهضت بصعوبة وطلبت طعامًا من خدمة الغرف، وما إن ارتديت ملابسي حتى وصلني الطعام، لم أفكر كثيرًا والتهمته بنهم غريب.

جلست داخل الغرفة بقية اليوم، أنظر من شرفتها على وسط البلد بجلبته الغريبة، على الباعة المنتشرين الذين لوثوا المشهد الراقي القديم لوسط البلد، أسمع الشتائم المقذعة التي صارت شيئًا عاديًا نستخدمه في أحاديثنا، الممح ركاكة الذوق العام، القمامة المنتشرة في كل مكان، أصوات الصياح المنكررة من الشباب الهائمين في الشوارع، أراقب الفتيات اللواتي يسرن خائفات وقد افتقدن روح الأنثى، داخلني شعور بالنفور والمقت لكل شيء، فجأة جاءتني فكرة غريبة ومدهشة، بأن أنتحر بيد غيري، أن أترك نفسي لمجرى الأحداث، أنتظر ذلك البطش الذي طال زاهر بدلًا مني حتى أستريح من كل ذلك العبث، لأحصد سلام إغلاق عيني في هدوء لتغيب الدنيا وتظلم الحياة وينتهي كل شيء.

في اليوم التالي خرجت من الفندق صباحًا في ميعاد عملي وكأني إنسانة أخرى. كنت خالية تمامًا، خاوية من أي أفكار، منقادة باتجاه فكرة بعينها لكنها لم تكن واضحة، خطواتي ثابتة أتقدم ولا تراجع يؤرقني، لا ذرة خوف تسري فيّ، باختصار لا شيء يعرقلني، مررت على مطعم جاد في شارع 26 يوليو واشتريت ساندوتش الفول، أخرجته وحدّقت في الشارع بعين متفحصة ثم أوقفت تاكسي وذهبت إلى عملي، دخلت مكتبي الذي كان خاويًا وجلست خلفه، فتحت الكمبيوتر وانتظرت حتى ظهرت البيانات أمامي، نظرت إلى مكتبي نظرة طويلة فلم أجد شيئًا تغير، طلبت شايًا من عامل البوفيه، وصل في هذه اللحظات أشرف يونس فاستوقفته رؤيتي وابتسامتي التي رسمتها بهدوء غريب وكأن شيئًا لم يحدث على الإطلاق، نظر لي نظرة متفحصة ثم قال:

- إزيك يا ياسمين؟

- كويسة.

- يا ريت لو هاتغيبي من الشغل بعد كده ابقي عرفيني.

- مش هيتكرر تاني.

فتحت هاتفي وما هي إلا ثوان حتى رن جرس هاتفي وظهر رقم مصطفى على الشاشة، بهدوء رددت عليه، جاءني صوته متلهفًا مفعمًا بالقلق:

- ياسمين.. إنتِ فين؟! حرام عليكِ.. كده تسيبيني من غير ما أعرف عنك حاجة.

أخذت نفسا عميقا ثم قلت بعد صمت ثقيل محاولة تدارك نفسي ومغالبة دموعي التي امتلأت بها مقلتايّ:

- أنا كويسة يا مصطفى، بس عاوزة أقولك حاجة.

- نعم.

- يا ريت ما تتصلش بيا تاني.. أرجوك..

- إيه؟!!

- أنت سمعتني كويس.

- طيب ليه؟

أغلقت الهاتف وقلبي تعتصره الخيبة الأخيرة، لكن من قال إن هناك خيبة أولى وخيبة أخيرة، فخيباتنا لا تنتهي في هذه الحياة، لا تكاد خيبة تنقشع حتى تظهر خيبة أخرى تُنسينا ألم التي سبقتها. ما ذنبه أن يتحمل خيبة ووجع إنسانة محطمة مثلي؟! ما الجريمة التي اقترفها ليأتي من نهاية العالم خصيصًا ليُمزِّق قلبه؟! غريب هو القدر وقاسٍ أيضًا، لم تلبث أفكاري أن تنتهي حتى وجدت هاتفي يرن مرة أخرى فوجدت اسم شهيرة يسطع أمامي، بعد ثوانٍ أجبت، كان صوتها قلقًا مشوبًا بالخوف وهي تقول:

- ياسمين.. اسمعيني وما تقفليش.. وحياة أمي غصب عني.. أنا كنت خايفة بجد وكنت مرعوبة عليكِ بعد ما عرفت اللي عملوه في زاهر والظاهر إن فيه حاجة حصلت لأن نهى سافرت تاني بعد ما اتخانقت مع توحة خناقة جامدة في المحل وتوحة جت تاني

يوم وعينها وارمة.. أنا مش فاهمة حاجة ومرعوبة.. أنا عاوزة أقابلك وأحكيلك.. البنات اللي عند توحة هما اللي حكولي كل حاجة.. الغلب مش هايسيبني حتى بعد ما خلصت من خلقتهم العكرة.. المهم إنتِ فين؟! طمنيني عليكِ.. إنتِ كويسة؟ ياسمين انتِ ما بترديش ليه؟!

- ولا حاجة يا شهيرة بسمعك.. المهم إنك بخير.. أنا في الشغل.. هابقى أكلمك لما أخلص.

- طب والنبي تطمنيني الأول إنتِ كويسة؟

- آه أنا كويسة.. ما تقلقيش.

أغلقت الهاتف ثم شرعت أعمل بجد ونشاط وكأني أدفن نفسي داخل الأرقام والكلمات حتى قاطعني نداء أشرف يونس، دخلت إلى مكتبه فوجدته منكبًا على عمله وقد علا وجهه الهم وبدا واضحًا أن فكره مشغول، نظر لي نظرة متفحصة ثم قال:

- المشروع الجديد بتاعنا واقف وشكله هايقف مدة يا ياسمين..

- مشروع العمارات الجديدة اللي على الصحراوي؟

- أيوه.

- ليه حصل حاجة؟

- لا أبدًا بس أنا مش هاقدر أستمر فيه بشكل كامل دلوقتي لأني محتاج سيولة في مشروع تاني أكبر منه أخدته من يومين.. عايزك تحصريلي المصاريف والميزانية. اطلبيها من رئيس الحسابات وعايزها تكون على مكتبي بكره بالكتير علشان أقرر هاعمل إيه وهانبتدي فيه شغل تاني إمتى.. أنا بلغت المهندسين يوقفوا شغل لحد ما أبلغهم بالمستجدات.

- تمام يا فندم.

حين مغادرتي مكتبه ناداني قائلًا بنبرة هادئة تحمل جانبًا كبيرًا من الود:

- ياسمين.

التفتُّ نحوه فقال:

- ابقي كلمي مصطفى.. كان قلقان عليكِ أوي اليومين اللي غبتِ فيهم.

ابتسمت ببرود على عكس ما توقعت من نفسي ثم أومأت برأسي قائلة:

- يا ريت يا فندم تقوله ما يتصلش بيا تاني.

نظر لي نظرة طويلة متسائلة ولكنه في النهاية أومأ برأسه ببطء دون أن ينطق بكلمة واحدة ثم دس رأسه في الأوراق التي أمامه كإشارة على انتهاء المناقشة. فانسحبت بهدوء إلى مكتبي، جلست خلفه وقد أذعنت لفكرة الفراق، أحسست بأن شخصًا غريبًا قاسيًا باردًا ينمو داخلي ويحتل شخصي وروحي، وأن شخصي القديم قد اندثر أو تلاشى دون إنذار مسبق، شعرت بحنين غريب تجاه أهلي وبلدتي، حنين إلى درجة أني كنت أعمل ودموعي تسيل على وجنتيّ، كنت منهمكة بشدة في عملي وفي نفس الوقت تلحّ الذكريات القديمة عليّ ولم تفارقني على مدار اليوم. حتى التقيت شهيرة.

مصطفى الشريف

ألعن تلك اللحظات التي تتضح فيها الحقيقة لتخبرني بأني لا شيء
أمامها وعليّ قبولها وتحملها كما هي. أحسست أنني منذور لمرارات
الفجيعة والبؤس. هناك أشخاص حيواتهم ممتلئة بالصراعات والآلام
الغريبة التي تنتهي بنهايتهم ليتذكرهم العالم بابتسامة مُقدّرة وكأنهم قدوة
ما أجمل الاقتداء بها ولكنهم في قرارتهم يشكرون الله أنهم لم يذوقوا
مرارات حسراتهم وأوجاعهم التي أودت بهؤلاء في النهاية.

حينما غادر عصام الرشيدي وتركني وحدي في شقتي بعد زيارة
مفاجئة ترك في منطقة بعيدة سحيقة في داخلي جرحًا كبيرًا عميقًا، لقد
أخبرني بحكاية ياسمين كاملة، أخبرني بأن نصف الحكاية عرفه من زاهر
أما النصف الآخر فقد عرفه عن طريق تحرياته. لا أحد، ولا حتى عصام،
كان يعلم السر الخفي وراء هرب ياسمين من أهلها وبلدها ولجوئها إلى
القاهرة حتى إن عصام لم يتكهّن بأي شيء، فقد أطلق الحقيقة صريحة
واضحة كلكمة قوية مباغتة من ملاكم محترف ثم انصرف وكأن شيئًا لم
يحدث، كأن قلبًا لم يُكسر وكأن وجعًا لم يُثر، لقد كان يشعر بالمرارة
على نحو غريب وهو يقص عليّ تلك التفاصيل التي بدت غريبة إلى
الدرجة التي جعلتني أعتقد حتى هذه اللحظة أن ما يقصه يخص شخص
وكيانًا آخرين غير ياسمين التي عرفتها، كنت مأخوذًا شاردًا وأنا أقف في
شرفتي أتابعه وهو يركب سيارته بعد ما ألقى نظرة طويلة على بنايات
وسط البلد وكأنه يبحث عن شيء ما أو يتأكد من وجود شيء لطالما

افتقده حتى التقت عينانا لمرة أخيرة فابتسم بمرارة ثم انطلق بسيارته، تابعته بعيني حتى غاب تمامًا ولم أكن قد خرجت بعد من نوبة شرودي أو صدمتي مما رواه ولم أشكك لحظة في أقواله أو حسن نيته فما هي نيته إن كانت هناك من الأصل نية مسبقة؟! عدت بذاكرتي قليلًا إلى حين التقى عصام بياسمين وهي بصحبتي وتذكرت ذلك الارتباك على وجهها حينما رآته، عقب ذلك الانفصال الأخير بيننا الذي على إثره ذقت مرارة الهجر والاشتياق، وذقت السهر والحيرة والتفكير الذي أضعفني على نحو غريب. لقد قضى عليّ بضربة واحدة مفاجئة قاتلة، لم يكن يهمني شيء وأنا أقف على الشرفة، لم تكن تعنيني كثيرًا مشاعري أو أكترث لكَمّ العذاب الذي لقيته طوال الليالي السابقة التي لم أعرف فيها شيئًا عن ياسمين، كان كل ما يقلقني ويرعبني خوفي على سلامتها فقط، فلطالما حدثني قلبي أن مكروهًا عظيمًا وقع لها. عدت مرة أخرى إلى كلمات عصام وحقيقته الثقيلة التي رماها عليّ بأسى ولكن بلا تشفّ أو نميمة. لقد رأى أنه من الواجب أن أعرف الحقيقة بحكم معرفته بي، وعليّ الاختيار ما بين مرارة هجرها ومرارة والبقاء معها، لكنه بدا غريبًا للغاية حينما قال:

- في الحياة يا مصطفى بنتعرض لمواقف معينة.. خصوصًا مع اللي بنحبهم.. مواقف صعبة أوي، صعب حد يستحملها بسهولة.. هنا بتبان قدرة الواحد وقوة تحمله وبيبان كمان هوَّ بيحب علشان غاية ولَّا بيحب من قلبه فعلًا. ونصيحة مني.. من أخ أكبر منك.. الدنيا علمته كتير بعد ما أخدت منه أكتر.. إياك تسمع لحاجة غير قلبك.. فيه حاجات لما بنخسرها مستحيل نعوَّضها ولو جينا نعوضها بيكون الأوان فات

- .. أنا قلت تعرف مني أحسن ما تعرف من حد تاني وأنت كده كده كنت هاتعرف.

نركتي مع هذه الكلمات وابتسم ابتسامة صادقة بعد أن ربَّت عليَّ
بحنو واضح. أحسسته للحظة يتحدث عن نفسه بعينيه اللتين غامتا داخل
الذكريات، لم يكن يدرك ولو للحظة واحدة كم هو عميق الحب الذي
أحمله في كل كياني لياسمين، لا يدرك أنه مهما كانت الحقيقة فلديَّ
القدرة على تقبّلها، في تلك اللحظة سمعت رنة الرسائل على هاتفي
تحجّطت عيناي وانطلقت مسرعًا نحو هاتفي فوجدت رسالة مفادها أن
هاتف ياسمين يمكن الاتصال به، دون تفكير اتصلت بها ودارت بيننا
محادثة ثقيلة مؤلمة لم تستمر إلا ثواني، طلبت مني فيها أن أتركها للأبد،
كانت نبرتها مكسورة وإحساسها ثقيلًا مهشمًا رغم الفتور والبرود اللذين
استبسلَتْ في إظهارهما. أردت أن أخبرها بأني عرفت الحقيقة وأني
أتقبلها كما هي، لا يعنيني ما حدث قبل معرفتي بها، وكل ما يعنيني هو
أني أحبها بكل نفس وكل خلجة مني، وآمل أنها تحبني وهذا كل شيء.
بعد أن أقفلت الهاتف نزلت سريعًا كالمجنون من شقتي وقد اتخذت قرارًا
بالذهاب إلى عملها بعد أن تناهى إلى مسامعي وأنا أعيد المكالمة في
ذاكرتي صوت لوحة المفاتيح والجلبة التي توحي بوجودها في الشركة.
اتصلت بخالي وأنا أفتح باب السيارة، وبعد اتصالات متكررة لم يرد عليَّ
فيها ردّ أخيرًا ثم أخبرني برسالتها التي تطلب مني ألا أستمر في ملاحقتها
وأن أتوقف عن الاتصال بها. لكني ركبت السيارة وانطلقت باتجاه مكتب
خالي في المهندسين غير مكترث بما قالته ياسمين لي أو لخالي. لقد آن
أوان الحقيقة وما عاد عليها أن تواجه الظلم الذي فُرض عليها وحدها، وإلا
ما قيمة الحب إن لم يكن علاجًا من الحزن والأسى، وسببًا للفرح وسندًا
لنا لمواجهة أي مصاعب تعترضنا في الحياة؟! ألا تدرك بأنها بذلك الحب
انتشلتني من حياتي الضائعة وصنعت لي حياة لم أكن أحلم بوجودها؟! ألا
تدرك بأن العذاب الذي لاقيته على يديها يؤكد لي بأني كائن حي يتفاعل مع
الحياة ككل الكائنات حوله بعد أن كان مجرد شبح غير مرغوب فيه؟! لن
أمنحها فرصة القتال وحدها ففي المعركة رجل يتوق للوقوف إلى جانبها

ومواجهة كل الذين ظلموها وبث الفرح في حياتها ومستعد لخوض تلك المعركة حتى الرمق الأخير.

دخلت إلى المكتب فوجدتها جالسة خلفه وأثر الدموع على وجنتيها، بدت مشتتة، ضائعة غائبة عن الدنيا، لم تشعر بوجودي كعادتها وبعد تردد طويل ناديتها همسًا فرفعت رأسها بصعوبة وكأنها تأبى مواجهتي فقلت بهدوء لمحاولة استمالتها:

- ياسمين.. ممكن تسمعيني؟ اديني خمس دقايق بس تسمعيني فيهم.

نهضت من مكانها واقفة ثم ردت منفعلة بصوت حاولت ألّا ترفعه لكنه كان محمّلا بالانفعال حد الارتجاف، وقالت:

- أنت ما بتفهمش.. بقولك مش عايزة أشوفك.

صمت وأنا أنظر إليها نظرات محمّلة بكل ما يختزنه قلبي من حب. كانت نظرات مستعطفة ومليئة بالعاطفة حتى اغرورقت عيناي.

أجهشت بالبكاء أمام صمتي ثم قالت:

- ارحموني بقى وسيبوني في حالي.. أبوس إيدك امشى من هنا يا مصطفى.. امشي وما تعرفنيش تاني.. أرجوك لو بتحبني ما تجيليش تاني.

كنت على وشك أن أخبرها بأني عرفت كل شيء عنها، وبأني أقبلها كما هي، أريدها كما هي، وأحبها كما هي، لكن استوقفتني دموعها وأضعفتني، في تلك اللحظة فتح خالي مكتبه بهدوء ووقف على بابه، نقل بصره بهدوء في ما بيننا، زم شفتيه دون أن ينطق بكلمة واحدة فتطلعت إليه ممتعضًا حزينًا وتقهقرت في مكاني بعد ما حدجني بنظرة قاسية وهو يشير لي برأسه بما معناه أن أبتعد عن ياسمين، عدتُ إلى الوراء في اللحظة التي كانت تقول فيها وكأنها تحدث نفسها وقد كانت تدفن وجهها في كفيها باكية:

- والله تعبت.. كفاية بقى.. وحياة أمي تعبت.

خرجت وأنا أمسك دموعي بصعوبة بالغة ثم اتصلت سريعًا بعصام وأخبرته بأني أريد رقم زاهر، لم يسألني عن السبب وبادر بإعطائي رقمه سريعًا، اتصلت به وأخبرته مَن أنا فرحب بي حذرًا. من صوته أحسست بدهشته المختلطة بالفضول، أخبرته بأني صديق لعصام الرشيدي حتى لا يتبرّم مني أو يتأفّف من مكالمتي، كان العديد من الأفكار تمور في عقلي ويجب الإسراع في تنفيذها حتى لا أفقد معركتي الأخيرة، طلبت منه رقم شهيرة إذ كنت أقدّر أن شهيرة تعرف كل أسرار ياسمين وأن بمقدورها التأثير فيها حتى تتسنى لي مقابلتها وإخبارها ببساطة بأني أحبها وعلى استعداد كامل لتحمل كل العواقب، أعطاني زاهر الرقم دون سؤال رغم نبرته المتسائلة لكني لم أمنحه جوابًا يريحه ويهدّئ ما يدور في خلده.

بالفعل اتصلت بشهيرة وقد كانت مرحة ومرحبة بي، طلبت منها لقاءها وبعد تردد لم يطل كثيرًا وافقت على لقائي. وبعد ساعتين تقريبًا تسنى لي مقابلتها، وقبل أن تنطق شهيرة بأي كلمة قلت مقاطعًا وبحزم:

- أنا عارف كل حاجة عن ياسمين.

جحظتِ عينا شهيرة وتسمرت في مكانها، لم تنبس بكلمة واحدة ثم قالت بعد برهة:

- عرفت إيه بالظبط؟

- كل حاجة يا شهيرة وبحب ياسمين بس هي رافضة تكلمني أو تسمعني وإنتِ الوحيدة اللي تقدري تقنيعها بحاجة زي دي.

تململت شهيرة في مكانها وأطرقت برأسها قليلًا إلى الأرض مفكرة ثم قالت:

- بس أنا ما شُفتش ياسمين بقالي فترة.. ده غير إنها مرت بظروف وحشة الكام يوم اللي فاتوا وأنا مقصرة في حقها ومش عارفة أساسًا هي هاترضى تقابلني ولّا لأ.

- باللهِ عليكِ يا شهيرة تحاولي تكلميها علشاني.. مش ياسمين تهمك؟! يبقى حاولي تساعديها وأنا مستعد لأي حاجة ومش فارق معايا موضوع هروبها من أهلها ده ولا فارق معايا اللي حصلها في عين شمس.. أنا بحبها يا شهيرة.

انبهرت شهيرة للحظات بكلماتي، ثم نظرت لي مبتسمة ابتسامة متوترة وقالت بعد تفكير:

- أنا هاساعدك.. عمومًا أنا لسه مكلماها من شوية وقالتلي إنها كويسة وهاتكلمني لما تخلص شغل.. بس زي ما قلتلك مش عارفة هاتقابلني بجد ولّا لأ..

- هتكلمك أنا واثق إنها هاتكلمك لأنها تعبانة وأكيد محتاجة تتكلم.. عموما ما تتصليش بيها.. وإنتِ هاتفضلي معايا لحد ما هي تخلص شغل وتحاولي تقابليها بأي شكل حتى لو رفضت لأني لازم أشوفها وأكلمها.

أومأت شهيرة برأسها بطريقة آلية، اصطحبتها لتناول الغداء في وسط البلد، وبالفعل جاءنا اتصال ياسمين وبعد إلحاح من شهيرة وافقت ياسمين على ملاقاتها واتفقت مع شهيرة على التفاصيل وعلى ما ستقوله لياسمين.

بعد مرور نصف ساعة كانت ياسمين تجلس بصحبة شهيرة، وكنت أراقبهما عن كثب من منطقة قريبة وقلبي يخفق حتى أظن أن الذين حولي يسمعون دقاته. كان الغضب واضحًا على ياسمين، بدا أن شهيرة تخبرها بما أخبرتها به ولكن يبدو أن ياسمين لا تتجاوب رغم محاولات شهيرة الجهيدة في استمالتها، لم أستطع الانتظار أكثر من ذلك فاقتحمت المكان سريعًا حتى وقفت في مواجهتهما، نظرت شهيرة نحوي بابتسامة هادئة بينما حدجتني ياسمين بنظرة مصدومة قاسية فانسحبت شهيرة بهدوء وهي تتمتم:

- ربنا يهدّي سركم.. أنا هاستنى بره.

فابتسمت ثم قلت برقة:

- ياسمين أنا بحبك ومش فارق معايا حاجة. سمعاني كويّس.

قالت بنفور وغضب وهي تهم بالمغادرة:

- أنت مش فاهم حاجة.

- ولا عايز أفهم حاجة.. كل اللي أنا فاهمه إني بحبك وإنتِ بتحبيني.. ليه بتهربي بقى؟! أنا عاوزك تثقي بيّ وأنا هاكون جنبك مهما كانت المصاعب.

لم ترد عليّ، بل نظرت لي نظرة حزينة وحين أوشكت على الذهاب جذبتها من ذراعها وأنا أقول منفعلًا وبنفاد صبر:

- إنتِ إيه ما بتفهميش!! بقولك مش عارف ومش عايز أعيش من غيرك وبحبك وعايز أكون معاكِ.

فاقتربت مني قائلة بهمس واضح ممتزج بالمرارة:

- عايز تكون مع واحدة مغتصبة؟!

حدجتها بنظرة جاحظة، صدمني ما قالت، شعرت بأن الأرض تميد من تحتي، وأن كرة من نار غاصت داخل أحشائي فأشعلتها، ارتخى جسدي وغامت عيناي داخل موجة من الذكريات الموجعة، كانت رائحة القرنفل تأتيني نفاذة من منطقة ما، صفعة قوية أودت بي، خارت قواي لدرجة أني كنت بلا إرادة أو شعور، رأيتها تسير أمامي مغادرة وكأنها تسير داخل كابوس مرير بينما كنت مشلولًا تمامًا وكأني مقيدًا في مكاني لا أستطيع اللحاق بها. غادرت ياسمين وتركتني بعد ما أسقطت حجرًا ثقيلًا عليَّ فأهلكني.

عصام الرشيدي

كنت موشكًا خلال الأيام المنصرمة على فقدان كل أمل في الحياة، ودعَّم ذلك الإحساس الاستدعاء الذي وصلني لأمثل للتحقيق الرسمي بشأن الشاب الذي اعتديت عليه بالضرب وخصوصًا بعد أن وصل الأمر إلى صفحات التواصل الاجتماعي وتناوله الشباب الغاضب بتهكم على صفحاتهم، لم أسأل زاهر عما فعله بشأن ذلك الشاب كما أنه لم يأت على ذكره على الإطلاق بل كان يتحاشى مجرد فتح أي شأن يتعلق بالثورة وما يحدث خارجًا لأنه كان يعلم تمام العلم بحكم عشرته الطويلة بي بأني أسبح بعيدًا عن التيار موجّهًا أشرعتي بلا وعي أو إدراك نحو نهاية حتمية لإنسانيتي ونفسي، لم يكن في استطاعتي تمييز ما يدور حولي، الصواب من الخطأ، الإيمان من الشك، التيقظ من السطل، غير مكترث بأي شيء، منكفئ على نفسي ومنزوٍ وخصوصًا بعد ما انتهى التحقيق وبعد تدخل الكثير من القيادات التي تحمل عرفانًا بالجميل لأبي وكذلك لحماي مراد السيوفي ليحولوا دون فصلي من العمل واكتفوا بتوجيه لفت نظر لي على أن تتوقف ترقيتي مع الحركة القادمة وبذلك أتخلف دفعة عن زملائي، في الحقيقة لم يكن المسئولين ضجرون بالشكل الذي تصورته حين التحقيق ومر الأمر عاديا على نحو غريب وكأنه بشكل أو بآخر حدث مُبارك، القيادة تبارك اعتدائي على الشاب الثائر! فكرت في الأمر كثيرًا واعتقدت أن ذلك الأمر استرضى القيادة السياسية على نحو معين حسب مفهومهم وتطلعاتهم السياسية غير أن العقاب كان من الصعب طمسه خصوصًا بعد

أن تم تصعيد الأمر على صفحات التواصل الإجتماعي حيث انتشرت الشعارات المنددة بالدولة مثل «الداخلية بلطجية» و «يا نجيب حقهم يا تموت زيهم» وغيرها من الشعارات التي انتشرت منذ اندلاع الثورة المجيدة المباركة التي ضاع معها كل ما أملك تقريبًا.

مرت خمسة أيام على لقائي الأخير بمصطفى، حاولت الاتصال به كثيرًا بعد ذلك لكنه لم يرد على مكالماتي وقد عرفت من زاهر ما فعله وما آلت إليه المكالمة التي دارت بينهما، كنت أشفق عليه وأتمنى لو أنه يرى الحقيقة واضحة أمامه حتى لا يخسر شيئًا، لست من هؤلاء الذين تؤثر فيهم العلاقات الرومانسية وتجردهم العاطفة من أفكارهم وتعزلهم بعيدًا عن العالم، أعتبر نفسي فاشلًا بجدارة في هذا الأمر وربما كان ذلك السبب هو العامل الرئيسي في سوء العلاقة بزوجتي مع أيامنا الأخيرة، لا أملك تلك الميزة التي تساعدني على التعبير عمًّا يدور داخلي ولسبب في نفسي ارتأيت أنه من الواجب أن أخبره بحقيقة الفتاة التي يحبها، لا أحد في قريتها يعرف حقيقة هربها حتى هذه اللحظة والله وحده يعلم تلك الحقيقة السرية التي أودت بها إلى ما هي عليه، كان إشفاقي على ياسمين لا يقل أبدًا عن شفقتي على مصطفى، أدرك تمامًا بأنها ضحية أخرى لمجتمع دنس سَقطتْ كما سَقطتُ أنا أيضًا، على كل حال لقد قبلت بقدري وحسب تفكيري أعتقد أن ما فعلته مع مصطفى كان ملزمًا كواجب مقدس يجب تأديته على أكمل وجه تجاه شخص يتمتع ببراءة وطهر لم أعهدهما في أحد منذ فترة ليست بالقصيرة، بشكل آخر كنت أتمنى لو أن مصطفى يعالج ما انكسر فيَّ من خلال علاقته بياسمين، فإن ما أمامي يثبت طهارتها وخصوصًا حينما عانت مع تلك الشبكة التي تديرها الملعونتان نهى وتوحة وأقسمت على الإيقاع بهن في القريب وبالفعل شرعت في وضع خطتي بالتعاون مع بعض الضباط أصدقائي ومع زاهر مستخدمًا المعلومات التي يعرفها حتى يتسنى لنا الإمساك بهن متلبسات وهن يمارسن الدعارة وعلى حسب المعلومات والشواهد والتحريات تأكد لي أن تلك الفتاة التي تدعى منة

تعمل لديهن فاتفقت مع أمجد الذي تعافى أن يطلبها لتحضر لكني لم أذكر له أبدًا أن الأمر يتعلق بالعمل وبالفعل اتجهت في تلك الليلة نحو شقة أمجد، وجدتها هناك ترتدي قميص النوم القصير يكشف أكثر مما يستر، حينما رأتني توترت وشعرت بالقلق ثم نهضت من مكانها دون أن تتفوه بكلمة واحدة وهي ترمقني بنظرة قلقة مشوبة بشيء من الخوف، جلست بجانب أمجد وأشعلت سيجارة حشيش كانت بحوزتي، لم أره منذ ذلك اليوم سوى مرة واحدة اطمأننت عليه فيها بعد أن اعتقدت أني فقدته للأبد، ربتّ على كتفه وأنا أرمقه بنظرة متفحصة فقال وهو تحت تأثير الهيروين:

- مثاء الورد يا ظابط.

فابتسمت وأخذت نفسًا عميقًا من السيجارة المتنفخة ثم مددت يدي وأعطيتها له فأمسكها بين إصبعيه ووضعها نصب عينيه ثم قال:

- شكلها ماركة أمان يا لالالي.

فضحكت ثم نظرت له في اللحظة التي انكفأ فيها ليسحب سطرًا آخر من الهيروين أمامه من خلال أنبوب صغير نهاية طرفه عند فتحة أنفه فقلت بعصبية:

- أنت يا أخي مابتخفش.. ما ترحم نفسك شوية بقى.. أنت نسيت إنك كنت هتموت.

فعاد إلى الخلف وأسند رأسه على الأريكة التي نجلس عليها، أغلق عينيه ثم ابتسم ابتسامة مريرة قائلًا بهمس مسموع وكأنه يحدث نفسه:

- وهو أنا كده مش ميت يعني؟!

في تلك اللحظة خرجت منة من الغرفة وقد ارتدت كامل ثيابها، تطلعت إلينا بنظرة طويلة زائغة متوترة ثم قالت بنبرة متلعثمة:

- أنا ماشية يا أمجد باشا.

فانتفض أمجد في مكانه وعيناه مرتخيتان قليلًا ثم قال:

- ماشية رايحة فين؟ هو إنتِ جيتي علشان تمشي؟!

نهضت من مجلسي بهدوء ثم اتجهت نحوها، وقفت في مواجهتها تمامًا ثم أمسكتها من شعرها بقوة وجذبتها داخل الغرفة فتأوهت وتأودت بميوعة في البداية إلا أنها رأت مني عكس ما توقعت فصرخت:

- في إيه يا باشا؟ ما لك؟ أنا عملت إيه بس؟

صاح أمجد من الخارج قائلًا:

- بالراحة على البت يا ظابط لتموت في إيديك.. كله بالهداوة.. كله بالهداوة أحسَن.

صحت في وجهها قائلًا:

- مين اللي مشغلك يا بت؟

جحظت عيناها وهي تقول:

- مشغلني فين يا باشا؟! أنا غلبانة والله وبجري على يتامى.

صرخت بها بصوت أكثر حدة وأنا أجذبها بشدة من شعرها:

- ما تحوَّريش معايا يا روح أمك.. مين اللي مشغلك يا بت؟ انطقي.

فانفجرت باكية وحاولت أن تنزل لتقبل قدمي ثم قالت:

- وحياة أمي يا باشا ما حد مشغلني.. أنا..

- بصّي بقى يا روح أمك إنتِ كده كده هاتشرفينا في القسم وهناك هاعرف أخليكِ تتكلمي كويس.. وحياة أمك ما هاخلي الدبان الأزرق يعرفلك سكة يا وسخة.

كانت تصرخ وأنا أجذبها من شعرها خارج الغرفة، راحت تقاومني وأنا أسحبها من شعرها من دون رحمة وأجرجرها على الأرض، وتنطق بجمل مفعمة بالبكاء لتستعطفني حتى قالت:

- السجن لأ يا باشا.. أبوس إيدك يا باشا.. أبوس رجلك السجن لأ.. يا باشا أنا ليا أهل وما لهمش حد يا باشا غيري.. وحياة عيالك يا باشا.

استوقفتني الجملة الأخيرة، تسمّرت في مكاني وأنا أشدّ يدي على شعرها، نظرت لها نظرة حادة غائمة حيث شردت فجأة وهاجمتني الذكريات، كنت أرى طارق يلعب في ركن الغرفة وينظر لي مبتسمًا، بلعت ريقي بصعوبة وقد اختفت كل الأصوات بل والوجود كله من حولي، كنت أدرك أن منة حسب التحريات بلا سند ولا تملك من نفسها شيئًا، تنساق بلا إرادة خلف توحة ونهى، تبيع جسدها من أجل المال حتى يتسنى لها العيش في بلد يعج بالمشردين والبؤساء والمومسات أيضًا، عرفت ظروفها جيدًا وأدركت أنها البوابة المتاحة والسهلة لاختراق تلك الشبكة والقضاء عليها بضربة واحدة، تركت شعرها وكانت تبكي بحرقة، عاد الوجود مرة أخرى أمامي واختفى طارق، انحنيت وأمسكتها من كتفيها، ساعدتها حتى وقفت على قدميها ثم نظرت إليها نظرة طويلة تسبر أغوارها وتختبر صدقها ثم قلت بهدوء مخيف:

- لو مش عاوزة تتسجني أنا مستعد أساعدك وأساعد أهلك وأجيبلك شغل محترم كمان تاكلي منه عيش بشرط تسمعي كلامي في كل اللي هاقولهولك.

وأومأت برأسها سريعًا ودموعها منهمرة، ولم تنطق بكلمة، في هذه اللحظة اقترب منا أمجد حتى وقف بيننا ثم قال:

- هو فيه إيه؟

فقلت بحزم وحدة:

- اركن أنت على جنب دلوقتي لحد ما أجيلك.

- أركن ماشي بث قولي فين لأن ما فيش ركنة.

فرمقته بنظرة تقذف شزرا ثم صحت:

- بقولك اركن يا أمجد.

فصاح قائلًا:

- أوامرك يا ثعادة الباشا.

عاد ليجلس على الأريكة مرة أخرى، جذبتها من ذراعها بقوة حتى دلفنا غرفة النوم ثانيةً، أجلستها على السرير ثم أخرجت سيجارة مارلبورو وأشعلتها، ظللت لمدة دقيقتين ساكنًا أمامها ألملم شتات نفسي وأسيطر على أعصابي ثم قلت بهدوء:

- بصي يا منة أنا عارف كل حاجة.. عارف الحكاية من طأطأ لسلام عليكوا.. يعني أي إنكار أو كلام عن الشرف والذكاء وقصة أمي وإخواتي والحوارات اللي ما تأكلش عيش دي هاديلك بالجزمة.. لأن كل ده مش هيدخل ذمتي بتعريفة.. هتطلعي كويسة بقى وتقوليلي على كل حاجة تعرفيها هيبقى ولا كأني شُفتك ولا عرفتك.. اتفقنا يا منة ولّا عندك كلام تاني.

أجهشت بالبكاء ثم قالت:

- هايقتلوني والله هايقتلوني يا باشا.

صحت قائلًا:

- ما تخافيش يا بت أنا معاكي بقولك.. قولي وما تخافيش من حاجة.

سكنت لثوانٍ وقد بان عليها التفكير ثم شرعت تمسح دموعها التي سالت بغزارة، كانت على نحو ما قد اقتنعت وأيقنت بأنه لا مفر من الاعتراف بكل ما تعرف، ناولتها منديلًا فأخذته مندهشة ثم قالت بنبرة متلعثمة مختلطة بالبكاء:

- أنا لما عرفت إنك ظابط خفت أقولهم أي حاجة.. خفت لتؤذيني أو هما يؤذوني وأنا غلبانة وماليش ضهر وكنت حاسة إن دي هاتكون آخرتها.. عمومًا يا باشا أنا مستعدة أقولك كل حاجة أعرفها بس توعدني ما تسبنيش.

نظرت لها طويلًا ثم فتحت شرفة الغرفة وألقيت سيجارتي منها وأنا أرمق الشارع بنظرة طويلة ثم التفت لها قائلًا:

أخذتْ نفسًا عميقًا بعد أن مسحت دموعها بالمنديل إلا أن دموعها لم تتوقف وهي تقص لي بشكل مرتبك ما تعرفه:

- أوعدك يا منة.. اتكلمي بقى.

- أنا عرفت توحة من سنتين تقريبًا.. كنت بادور على شغل وظروفي كانت زي الزفت والست فتحتلي قلبها وقربتني منها وكنت لما باحتاج فلوس كانت بتديني من غير ما تسألني على حاجة وشوية شوية الموضوع اتطور وكنت باروح بيوت أعمل ماكياج لستات في بيوتهم وفي يوم جت وعرضت عليًّا فلوس كتير لو سمعت كلامها ومشيت في الحرام.. الصراحة يا باشا رفضت في الأول فقالتلي براحتك وبدأت تقلل الفلوس اللي بتديهالي وتقفلي على الواحدة لدرجة إنها كانت هاتطردني وكنت عارفة إني مش هلاقي شغل كويس يوفر لي فلوس أصرفها على إخواتي.. كان فيه بنات شغالين عندها في الموضوع ده وكلهم كانوا بيزنّوا عليا.. وأنت عارف يا باشا الزن على الودان أمرّ من السحر وحط على ده بقى الظروف المنيلة.. في الآخر وافقت أشتغل معاها..

شرعت تبكي في صمت وهي تشهق شهقات متقطعة، ثم بعد قليل توقفت عن البكاء وهي تكفكف دموعها وقد ظهرت في عينيها لمحة من الذكريات، لم أنطق بكلمة، كنت أراقبها بهدوء، أخرجت سيجارة أخرى وأشعلتها فرفعَتْ رأسها لي واسترسلت قائلة:

- بعد كده عرفت إن اللي ممشي الليلة دي كلها مدام نهى وإن توحة يا دوب واحدة شغالة عندها.

- وعرفتي إزاي؟

- في يوم يا باشا توحة قالت لي إننا معزومين في حفلة كبيرة في فيلا في المنصورية.. وإن الحفلة دي بتتعمل كل أول سنة.. ليلة رأس السنة يعني يا باشا.. هناك لقيت دنيا تانية وناس تانية عايشين

في عالم تاني.. كنت مستغربة الوضع ومش فاهمة حاجة.. الحفلة كان فيها أشكال وألوان.. مصريين على خلايجة على ليبيين على أجانب على ناس ما عرفش منين وكانت نهى اللي عازمة الناس دي كلها.. في الحفلة اتعرفت على كام بنت زيي وعرفت بعد كده إننا جايين نِخدّم على الناس هناك وفي آخر الليلة فيه ناس روّحت لكن اتبقى شوية مش كتير مع البنات اللي زيي.. كل واحد من الناس دي اختار واحدة فيهم. اللي بياخد البنت مننا ويطلع بيها فوق ناحية الأوض وفيهم اللي بياخدها ويمشي وأنت فاهم الباقي بقى يا باشا.

- والحفلات دي بتتعمل في رأس السنة بس؟
- لا يا باشا وكمان في عيد ميلاد نهى.. ده اللي عرفته بعدين.
- وعيد ميلاد نهى إمتى؟
- قريّب، كمان أسبوعين يا باشا.
- ويا ترى بقى اتعزمتي في الحفلة ولّا لسه؟
- لسه يا باشا بس أكيد يعني هاكون موجودة.
- طيب إنتِ إزاي اتعرّفتي على أمجد أو شغلك بيمشي إزاي؟
- والله يا باشا ما أعرف.. أنا كل اللي بعمله إني بنفذ الأوامر.. يعني ممكن يعدّي أسبوع ما اشتغلش فيه ولا يوم.. وأسبوع تاني أشتغل فيه مرتين تلاتة.. حسب ما توحة تقولي.. العربية بتيجي تاخدني وتوديني للزبون وبقبض منه وبعد كده بدي الفلوس لتوحة وبتديني نسبتي.

نظرت من الشرفة مفكرًا قليلًا ثم قلت:

- طيب يا منة وهما آخرهم دعارة ولّا في حاجة تانية؟
- والله يا باشا ما أعرف أكتر من كده بس لو عايز تعرف كل حاجة..

عليك تشوف فهمي.. هوّ يعتبر الدراع اليمين لنهى.

- فهمي الأعرج اللي كانت نهى متجوزاه؟
- أيوه يا باشا هو..
- طيب يا منة.. إنتِ طبعًا تعرفي زاهر كويس.. هو هايبقى حلقة الوصل بيني وبينك.. أول ما تتعزمي على الحفلة وتعرفي المكان تعرّفيه على طول والباقي عليَّا.

نهضت منة من مكانها وبسرعة. أمسكت بيدي وشرعت في تقبليها وهي تبكي:

- وحياة عيالك يا باشا.. أنا مش حمل بهدلة والله العظيم ما كدبت عليك في كلمة ولا أقدر أكدب يا باشا..

انتزعت يدي منها ثم قلت:

- خلاص يا منة بقى.

وقفَتْ ثم رمقتني بنظرة تستدر عطفي فأشحت بوجهي عنها ثم أخرجت من جيبي مبلغًا من المال ودسسته في يدهاوأمرتها بالانصراف، سمعت صوت صرير الباب وهو ينغلق، خرجت فوجدت أمجد جالسًا وعينيه محلقتان في الفراغ فجلست بجانبه قائلًا:

- أنت قاعد كده ليه؟
- راكن.
- نعم!
- مش قلتلي اركن.. أديني راكن.

ابتسمت ابتسامة عريضة وربَّت عليه ثم قلت:

- أنت مش هاتخف الزفت اللي بتشمه ده بقى؟
- وأخفه ليه؟ هو هايخلث؟

- لا مش هيخلص بس أنت اللي هتخلص.

نظر لي نظرة لم أفهمها ثم قال:

- لو المفروض أموت هاموت..

صحت فيه قائلًا:

- أنت يا أخي إزاي كده؟! بتموِّت نفسك كل يوم وما حدش بقى طايقك.. وأبوك مش راضي عنك.. فوق بقى يا أخي من اللي أنت فيه.

ابتسم ابتسامة مريرة وهو ينظر لي نظرة نافذة ثم قال:

- وأنت يا عثام بتشرب ليه ومش عايز تفوق؟ ها.. بتنشى إيه أنت كمان؟ كلنا في الهوا ثوا يا ثاحبي

أطرقت برأسي إلى الأرض ممتعضًا ثم وضعت يدي على ظهره قائلًا:

- صدقني أنا خايف عليك.. كفاية اللي خسرته.

أومأ برأسه وظل صامتًا لثوان ثم نهض من مجلسه ومشى بصعوبة حتى وقف خلف البار وتناول زجاجة براندي، صب لنفسه كأسًا ثم تجرّعه دفعة واحدة، سرعان ما قهقه وهو يقول ساخرًا ومتهكمًا:

- كفاية اللي خثرته!! أنت عندك حق.. أنا بقى خثرت إيه؟ قل لي يا عثام باشا أنا بقى خثرت إيه؟ مش أنت ظابط مباحث وعارف كل حاجة..

سادني صمت ثقيل شاعرًا بالحزن، طأطأت رأسي فسمعته يقول:

- أنا ما خثرتش حاجة.. كل حاجة هي اللي خثرتني.. لا عندي بيت ولا عَيِل ولا أهل.. أخويا مرمي في مثحة.. أنت فاكر إني مش بشوفه طبعًا.. بس أنا بقى باروحله كل يوم وبطّمن عليه.. بث أنا في الحقيقة مش بطمن عليه.. أنا بروح مخثوث علشان أعرف أبويا راح له ولا لأ.. وللأسف...

طأطأ رأسه بأسى ثم استرسل قائلًا:

- نفثي في مرة يفهم إننا محتاجينه وملعون أبو فلوثه اللي ميت عليها دي.. عايز لعبة يا بابا.. خد.. عايز عربية يا بابا.. خد.. عايز أي حاجة في الدنيا يا بابا.. خد.. بث فين بابا؟! بابا مش موجود.. بابا على طول مشغول.. وما ينفعش يشوفنا علشان شغله مش بيخلث.. وفي النهاية بقيت مدمن زي ما أنت شايف عارف ليه؟

نظرت له مستفهمًا ولم أرد فاستطرد قائلًا:

- علشان بابا مش فاضي ياخد باله غير من شغله.. طبيعي إني أتجوز مرة واتنين وتلاتة على أمل إني أتنيل أبطل.. على أمل إني أحث إن فيه حد بيخاف عليا بجد.. يا راجل ده حتى لما وداني مثحة نثي إنه وداني ومجاش ولو لمرة يثأل عليا.. وطبعًا هربت من المثحة.. هبقى كويث لمين؟! وعلشان إيه؟! ما أنا كده كده ضايع..

طأطأ رأسه ثم تنهد تنهيدة طويلة، صب كأسا أخرى وجرعها دفعة واحدة ثم جاء وجلس بجواري قائلًا:

- ثيبك يا ظابط.. المهم يوم ما كنت تعبان ثمعت حكاية البت اللي شغالة عند أبويا ثكرتيرة.. البت دي طلعت غلبانة أوي وبثراحة أنا كنت رذل أوي معاها لكن أبويا كلمني وحذرني من إني أضايقها تاني وبثراحة اثتغربت وقلت إنه مقضيها معاها في الحرام بس الشهادة لله أبويا وثخ آه لكن ما لوش في النثوان.. ولما ثألته إيه الاهتمام الغريب ده؟ مارضيش يقولي ثبب فثوقت فيها لحد ما مثطفى ابن عمتي كلمني وهددني لو قربتلها تاني هايعمل معايا الثليمة.. تخيل حتى مثطفى اللي لثه جاي أبويا اشترى خاطره وبقاه عليا.. ما علينا..

تململت في مكاني ثم قلت:

- بس أنت غلط يا أمجد ومصطفى ابن عمتك طيب وما يستاهلش تعمل معاه كده.

- ما أنا جاي لك في الكلام أهو.. بصراحة أنا عايز أثالحه وخصوصًا إن البت ثعبت عليا وعايز أعتذرلها هي كمان ومش عارف أعمل إيه!!

- روح لمصطفى واعتذر منه وهو طيب وهيقبل اعتذارك..

- أنت شايف كده؟

قلت مبتسمًا:

- مش شايف غير كده

فأومأ برأسه دون أن يقول شيئًا وانهمك في إعداد سيجارة حشيش، نهضت من مجلسي وأخبرته عن نيتي في المغادرة، حثني على البقاء ولكن كانت لديّ رغبة عارمة في المغادرة، لم آتِ هنا إلا من أجل منة حتى أنفذ عمليتي على أكمل وجه، أحسست بهواء عليل ينفذ داخلي فانتعشت فجأة وأنا أسير على مهل في الشارع، أعدت الحوار الذي دار بيني وبين أمجد، ابتسمت لأنه ما زالت هناك بؤرة مضيئة بداخله، ما حدث مع منة أيضًا أعطاني إحساسًا بالزهو واقتراب الانتقام ممن غاصوا في الوحل وجذبوا معهن الكثير من الفتيات البريئات، كان الانتقام من نوحة ونهى ليس أكثر من عمل أفرّغ فيه طاقتي المكبوتة وإحساسي المتنامي بالثأر، ليس ثأرًا من أجل طارق فقط وإنما من أجل ياسمين ومصطفى أيضًا، وقبلهم جميعًا سارة حبيبتي التي انتهى بها الحال وحيدة عاجزة مزوية في غرفة معتمة، كانت ظلال العمل والجد تختمر داخلي كحلم بعيد، شرع إحساسي بالمسؤولية ينمو بشكل مثير غامض، كأني أستعيد جثماني من بين أنقاض كالحة محاولًا رمي قاذورات الماضي بإرادة جاءت من بؤرة غير مرئية بالنسبة لي، أشعر بها تتخلل وجداني وكأني فجأة أنقب عن نفسي رافضًا البقاء تحت التراب للأبد، ثورة داخلية غريبة شرعت تنمو وتكبر، هتافها بعيد كالهسيس لكني أسمعه وأشعر به، ثمة شيء يخبرني بأن هناك متسعًا من الحياة يجب الإبقاء

عليه، حينما ركبت السيارة أطلت أمامي صورة سارة مبتسمة، كانت تلك إشارة غريبة مفاجئة أبقت على ذلك التفاؤل داخلي ولكنه كان مشوبًا بشيء من الحذر والترقب، ببساطة كنت واقفًا على الحافة مبتسمًا لأن شيئًا ما يخبرني بأني لن أسقط.

الفصل 3

انقضت أربعة أيام منذ لقائي الأخير بمصطفى، وبعد ما أخبرته بحقيقتي الموجعة دون تفكير، لم أوجّه لشهيرة كلمة واحدة وهي تنتظرنا خارج الكافيه واكتفيت بإشارة حادة من يدي تأمرها بالتوقف والابتعاد عني، رغم شعوري العميق بالألم إلا أني كنت أحس براحة غريبة وخفة أشد غرابة كأن حملًا ثقيلًا سقط من فوق ظهري طالما أضناني حمله وقصم ظهري الضعيف، ذهبت إلى العمل خلال تلك الأيام الأربعة، كنت يوميًا أراقب بفضول باب مكتبي على أمل غريب أن أراه يقف على عتبته وتلوح ابتسامته الجذابة المتسامحة ليمنحني ذلك الأمل في الحياة، مرت عليّ الذكريات التي جمعتني به كلوحة رقيقة لكن تشوبها بعض الرتوش التي لا تتناسب مع رقتها وجمالها، أضناني وأرهقني الانتظار لأن يثبت لي القدر ولو لمرة واحدة بأن الخير ما زال موجودًا في هذه الحياة شديدة القسوة، لم يكن يعنيني البقاء أو الاستمرار معه في علاقتنا الماضية لأني كنت أدرك جيدًا بأن نتوءًا عميقًا قد أُحدث بها، شرخًا واضحًا لن يرممه الزمن ولن نستطع إغفاله وكأن شيئًا لم يحدث، لم أكن أسعى لنيل شفقته أو جذبه باستدرار عطفه مستغلة بذلك أخلاقه وبراءته الاستثنائية لكني كنت أرجو ألا يتكرر ما حدث، ألا يُغلق الباب الحديدي في وجهي وأسمع ذلك الصرير الموحش وترتعد معه فرائصي، ببساطة لم أكن أريد أن أتمزق، أهرب وأتألم بلا توقف لمرة ثانية شديدة القسوة.

في صبيحة اليوم الخامس، وبينما كنت أجلس خلف مكتبي وأستعد

لمباشرة عملي دق هاتفي فتفحّصته بنظرة طويلة لا تصدق ما تراه، مصدومة من ظهور رقمه على شاشة هاتفي بعد غياب ثقيل مضن، أمسكت الهاتف مرتشعة متلهفة ثم فتحت الخط لأقول بصوت مهزوز:

- أيوه يا مصطفى.

جاءني صوت آخر تحمل نبرته شيئًا من القلق والتوتر:

- أنا مش مصطفى.. إنتِ ياسمين صح؟
- أيوه أنا ياسمين.. مين معايا؟
- أنا زميل مصطفى في الشغل وهو تعبان من إمبارح بالليل.. يا ريت تيجي تشوفيه.

أحسست بأن سهمًا اخترق قلبي وبأن ثقلًا غريبًا يغور في أعماقي فقلت متماسكة:

- طيب ممكن أكلمه؟
- للأسف مصطفى سخن جدًا.. عنده حمى وعمال يهذي ومش بيطلب حد غيرك.. ياريت تجيله.. هوَّ في شقته.

أغلقت الهاتف بسرعة بعد أن قلت وأنا ألملم أشيائي من فوق مكتبي:

- جاية حالًا.

كنت أعرف جيدًا عنوان مصطفى في وسط البلد ولكني لم أذهب لشقته أبدًا كما أنه لم يدعني ولو لمرة واحدة احتراما لي، لم يكن يحمل تلك النيات الرخيصة تجاهي، كنت أدرك بأنه يخشى أن أظن به سوءًا كما أنه خلال معرفتي به لم يرد ولو مرة واحدة أن يُحدث أمرًا معيبًا أو يصدر عنه مجرد هفوة في حقي تدفعني إلى الابتعاد عنه، تذكرت خلال الطريق وأنا داخل التاكسي المعاناة التي لاقاها على يدي، والمرارات التي ذاقها دون أن يفهم كنهها، والقسوة التي طالما عاملته بها ولا تفسير لها عنده.. ورغم كل ذلك تحمل وقاسى بنفس سمحة، تذكرت زيارته ومحاولته

الأخيرة حينما جاء إلى مكتبي متحديًا جفائي وإعراضي عنه، ولجوءه لكل الحيل حتى وصل إلى شهيرة وكلماته التي ترن في أذني حتى الآن وهو يقول بصدق بالغ:

- ياسمين أنا بحبك ومش فارق معايا حاجة.

أجهشت بالبكاء وترجيت السائق أن يسرع، وبالفعل كنت واقفة أمام العمارة الشاهقة العتيقة التي يقطن بها، دلفت سريعًا وركبت الأسانسير ثم نزعت الجرس، لمفاجأتي وجدت الباب ينفتح عن وجه أمجد، ارتجفت رعدت خطوة للوراء، حدجته بتحفز، ساورتني الشكوك والأسئلة ولكنه نطعها بوجهه المتجهم الحزين وهو يقول:

- إنتِ لسه جاية؟! مصطفى ما عدش فيه نَفَس والدكاترة لسه ماشيين من عنده دلوقتي.

ثم تنحى قليلًا عن الباب الذي يسده بجسده ووضع يديه على وجهه وهو يقول بنبرة لائمة متحسرة:

- أنا غلطت في حقه كتير أوي.

لم أتمالك أعصابي ودلفت سريعًا إلى الشقة الواسعة، كان الهدوء الثقيل يخيم عليها، هرولت أفتح كل الغرف بسرعة كالمجنونة، كان الخوف يتسلل لي وأمجد يقف في منتصف الصالة دافنًا وجهه بين كفيه، وقفت أمام غرفة بابها موارب، نقلت بصري بين الباب وأمجد ثم سرعان ما صحت قائلة:

- هو فين؟!

لم يجب أمجد الذي شرع بكاؤه يعلو بصوت مسموع، اندفعت إلى تلك الغرفة فوجدت جسدًا ممددًا على السرير مغطى من رأسه حتى أخمص قدميه بملاءة بيضاء، لم أستطع حمل جسدي وشعرت بأن ألمًا عميقًا يغور في أعماقي وينتزع مني الروح، جرجرت قدميّ بصعوبة حتى جلست بجانبه على الفراش وأخذت نفسًا عميقًا ثقيلًا وأنا أمد

يدي المرتجفة تجاه رأسه ثم رفعت الملاءة ببطء، صُدمت وصرعني الرعب والخوف في تلك اللحظة حينما سمعت صدى ضحكات أمجد آتية من الخارج، لم يكن هناك شيئًا أسفل الملاءة سوى وسادة كبيرة، وقفت مرعوبة أحدجه بنظرة متحفزة مشوبة بخوف شديد، اقترب مني بخطوات ثابتة ثقيلة ثم قال:

- مش قلت لك هوريكِ إنتِ والمحروث بتاعك.

ثم تعالت ضحكاته بشكل مخيف، فصحت قائلة:

- لو قربت ليا هقتلك يا أمجد.

كانت صوتي يرتعد من شدة الخوف، حاولت العودة إلى الوراء ومشاعر وأفكار متناقضة تجول داخلي، لم أكن أفهم سر وجود أمجد في منزل مصطفى واختفاء الأخير أيضًا، ما الذي حدث؟! ما هذه المسرحية المخيفة ومن هم أبطالها الحقيقيون إلى جانب أمجد؟! أفزعتني الأفكار في ثوانٍ معدودة في اللحظة التي انقض فيها أمجد عليّ بكامل قوته وطرحني على الفراش، كنت أصرخ ولكنه كان يكتم أنفاسي بكلتا يديه وبكامل قوته، رغم جسده النحيل إلا أن جرأته وبأسه الشديدين كانا عاملين قويّين. كما أن مفاجأتي كانت مسيطرة علي بشكل غريب، حاولت التملص منه بكل الطرق الممكنة حتى مزّق لي القميص الذي أرتديه فكشف عن صدري تمامًا، ضربته بكلتا يدي لكن دون جدوى، قاومني بشراسة حتى تمكن من تكتيفي تمامًا بكلتا يديه وهو يقبل ويلعق شفتي ورقبتي بوحشية وكأنه حيوان يحكم القبضة على فريسته، بصقت بغضب في وجهه مرات عديدة، انتفضت بكامل قوتي ودفعت جسدي لأعلى لكي أتخلص منه لكن بلا طائل، كلها محاولات فاشلة، فرجت ساقي قليلًا فاتسعت ساقيه التي تطوقني وحاولت سحب جسدي بصعوبة حتى تمكنت من فك يدي اليسرى فضربته بها بكامل قوتي على أنفه فتأوه وعاد قليلًا إلى الوراء فضربته بقدمي بين رجليه فصرخ بشدة، لانت قبضته

دفعته ولكنه لاحقني، هرولت تجاه باب الشقة وحاولت فتحه لكنه كان موصدًا فسمعته يقول منفعلًا:

- هاتروحي مني فين يا وثخة؟ إنتِ بتاعتي النهارده.. أنا تضربيني يا تربية الشوارع.

جريت داخل الطرقة الطويلة حتى لمحت المطبخ، دخلته متخبطة ورحت أفتح الأدراج حتى وجدت سكاكين في درجٍ منها. وفي اللحظة التي أوشكت فيها على انتزاع سكين طوقني أمجد من ظهري بكامل قوته وهو يسب ويلعن بكل الشتائم المقذعة، صرخت مستنجدة:

- الحقوني.

وضع يده على فمي محاولًا بالأخرى تقييد يديّ خلفي لكني تمكنت في النهاية وأنا أمد يدي بصعوبة داخل الدرج من انتزاع سكين، في اللحظة التي استدرت فيها متملصة منه لم أشعر إلا والسكين يخترق صدره بطعنة نافذة، شهق أمجد وجحظت عيناه، المفاجأة الصارخة ارتسمت على وجهه بينما كانت يداه قابضتين عليّ، ارتجفت ويدي ترتخي على السكين من هول المفاجأة، شهقت أنا أيضًا، رمقته بنظرة مرتعدة والدماء تسيل بهدوء من الجرح في صدره، أفلتُّ السكين من يدي وكان أمجد ينظر لأسفل ببطء شديد ثم سقط على الأرض سابحًا في دمائه، عدت للخلف مرتعدة فاصطدمت بالدُرج فأحدث جلبة شديدة مرعبة، تراجعت وأنا أكتم صرختي بيدي، كانت عيناه شاخصتين في الفراغ تطل منهما نظرة مخيفة، لم يأت أو ينبس بحركة واحدة، تحول لجثة هامدة في ثوان معدودة، بعد وهلة مرت ثقيلة حاولت خلالها إدراك حقيقة ما حدث، انتحبت ثم نزلت على ركبتيّ منهارة. خرجت من المطبخ والرجفة تسري في كل أعضاء جسدي، شعرت ببرودة غريبة تتسلل إليّ، لم أستطع تهدئة نفسي أو تمالك أعصابي والسيطرة عليها، درت حول نفسي في الصالة وأنا أنشج بهمس مسموع. ثم توقفت فجأة وكتمت فمي بيدي وكأني انتبهت لشيء ما، ماذا

لو استفاق أمجد؟! كان سؤالًا وهاجسًا غريبًا كلما تذكرته تعجبت من نفسي، مشيت ببطء حتى وصلت إلى باب المطبخ بينما الخوف يفترسني، لم أكن خائفة من أن أجده حيًا كما تصورت لكني كنت خائفة من أن أجده ميتًا، تمنيت لو أنه يستفيق، لو أن الحياة تدب فيه مرة أخرى لأستعيد ما تبقى مني،لكنه كان ممددًا بلا حراك وسط بركة من الدماء وسكين نافذ في صدرِه بدا كجزء من جسده، تلفت حولي بسرعة لا إراديًا وكأنني أتقصى إن كان هناك من يراني، أفكار وهواجس متلاطمة مخيفة شرعت تتملك مني، ماذا لو جاءت الشرطة الآن؟! بالتأكيد تعرف كل ما حدث، الجميع يعرفون ما حدث، بأني ببساطة ارتكبت جريمة وصرت قاتلة.

انتابني الفزع، وقررت الهرب سريعًا، أخذت حقيبتي ولكن استوقفني أمر مفتاح الباب، فشعرت برغبة عارمة في البكاء، أدركت للحظة بأني مسجونة مع ضحيتي، جلست على أريكة في الصالة، أنفاسي مسموعة ودقات قلبي متسارعة بشدة، فكرت لثوان مرت ثقيلة صعبة، نهضت بصعوبة ودلفت إلى المطبخ والخوف يهز جسدي كاملًا، كان أمجد ما زال مستلقيًا على جانبه وبركة الدماء قد اتسعت قليلًا، وقفت ثم نزلت على الأرض بركبتي بعيدًا بقدر الإمكان عن الدماء بحيث أستطيع أن أمد يدي في جيوبه. بأيدٍ مرتعشة اقتربت، واجهتني فجأة نظراته الشاخصة المخيفة والمتحدية وكأنه يقول لي: «سأنتقم، سأنهض من مكاني وأغرس ذلك السكين في صدرك»، تراجعت مرعوبة وكدت أقع مغشيًا عليّ، تصبب العرق من جبهتي رغم البرودة التي سرت في جسدي، بعد ثوانٍ استطعت فيها بصعوبة بالغة التقاط أنفاسي، مددت يدي وفتشت جيوبه بعد أن تماسكت قليلًا وأشحت بوجهي عن نظرته المرعبة حتى وجدت مفتاحا وحيدًا في جيب سرواله، أخرجته بصعوبة، في تلك اللحظة شعرت بأني سأتقيأ لأن الأرض كانت تدور بي، حتى هذه اللحظة لا أعلم كيف تماسكت بهذا الشكل! تلطخت يدي بالدماء لكني لم آبه لذلك، خرجت مسرعة وفتحت الباب ثم نظرت في الرواق خارجًا فلم أجد أحدًا أو أسمع

سويًا، كان المكان يسبح في صمت مخيف ثقيل، أغلقت الباب بهدوء ثم
ركبت الأسانسير الذي كان منتظرًا وكأن أحدًا لم يطلبه أو يدخل ويخرج
من العمارة منذ وطأتها، أحكمتُ قبضتي على طرفَيْ قميصي الذي تقطعت
أزراره، زممته بشدة، انتابني ذلك الهاجس سرعان بأن هناك من رأى
وسمع ما حدث ويعرف بالجريمة، كان يختبئ في مكان ما يتابع كل شيء
عن كثب، خرجت مسرعة في اللحظة التي لمحت فيها رجلًا عجوزًا أسود
البشرة يرتدي جلبابًا أزرق يتجه نحوي، يحمل في يده كيسا ويرمقني بنظرة
مريبة متسائلة، لكني ومن شدة الرعب لم أبادله النظر سوى لتلك اللحظة
الخاطفة التي التقت فيها عينانا، كانت الرجفة والبرودة تتملكان مني بشكل
ناس ثقيل لدرجة أنني لم أكن أشعر بأطرافي.

كنت داخل التاكسي ولا أعرف إلى أين يمكنني أن أذهب! ولا ما
كيف أتصرّف في هذه اللحظات الصعبة! أفكاري متلاطمة غير منظمة،
كنت مخدّرة وإحساس بالوهن استشرى في كل جسدي، تراخت أناملي
والسائق يسألني عن وجهتي، لم أردّ فقد كنت سابحة في بحر مظلم تتلاطم
أمواجه وتقلبني على ظهري كلما حاولت الخروج منه.

مصطفى الشريف

لا أدري ما يحدث حقيقة حولي، ثمة شيء غامض لا أفهمه، الأرض تميد تحتي ورجال الأمن منتشرون في كل ركن من شقتي بينما يقف في مواجهتي عصام الرشيدي وقد ارتسمت على وجهه أمارات الدهشة والحزن، يوجه لرجاله أوامر متلاحقة بصوت هادئ وقد بدا عليه التفكير، كلما نظرت إلى جثة أمجد الممددة في المطبخ ولمحت السكين النافذ فيها انتابتني قشعريرة، لم تكن تخيفني الجثث على الإطلاق لأنها في النهاية طبيعة عملي ولكن فكرة أن يكون هناك شخص تعاملت معه وتعرفه ثم تكتشف جثته وحدك وداخل منزلك ملقى على أرضية مطبخك وسكين نافذ في صدره فهذا أمر آخر، كنت شاردًا وتائهًا، ليست عندي أدنى فكرة يمكن القبض عليها لتساعدني على حل لغز ما حدث، جلست على الأريكة وسط الضجيج في الشقة ورحت أراجع أحداث هذا الصباح.

كنت مصابًا بالإحباط، والاكتئاب يتملك مني. كنت قد قررت الاتصال بياسمين ومساعدتها، لم يكن قراري مدفوعًا بالشفقة أو الالتزام تجاه شخص أُكن له كل آيات الاحترام ولكنه كان مدفوعا بالحب والحب فقط، تخيلت حجم الأهوال التي مرت بها ورغبتها الدفينة في الإبقاء على نفسها كما هي دون أن يلوثها المجتمع الدنس الساقط، احترمتها وزاد إعجابي ببأسها الشديد، لا أستطيع إنكار أن جرحًا عميقًا أصابني حينما ألقت في وجهي الحقيقة البشعة لحادث اغتصابها، لم أكن أتخيل أن يكون الأمر سوداويًا إلى هذه الدرجة، جلست وحدي طوال الأيام السابقة

في منزلي منطويًا وتتآكلني الأفكار وتراودني الأحلام البشعة القاسية، تجسدت ياسمين كثيرًا في أحلامي في صور مقيتة ومقرفة تدفعني على النهوض صارخًا لأجد نفسي غارقًا في عرقي وأنا ألهث، كم مرة رأيتها تأتيني على صورة مومس لعوب. وأحيانًا تتجسد أمامي مقيدة إلى سرير وشخص لا تتضح ملامحه يغتصبها وسط صراخها الذي يرغم عقلي على دفعي خارجًا لأستيقظ وأجد نفسي داخل واقع أشد مرارة.

كنت أمسك بهاتفي وأحرك أصابعي على شاشته شاردًا، كثيرًا ما كان اسمها يظهر أمامي وفي اللحظة الأخيرة أعرض عن الاتصال بها، تمنيت لو أبكي وأستريح بعض الشيء، لكني كنت تائهًا لا أتناول إلا القليل من الطعام دونما أيّ إحساس بالجوع، كرهت النوم، كما كرهت العالم في الخارج فأغلقت جميع نوافذي ولم أذهب لعملي، كما أنني لم أجب على اتصال واحد من الاتصالات المتكررة التي أتتني من عصام ومن خالي أيضًا.

مرت أربعة أيام على هذا الشكل حتى جاءت تلك الليلة الأخيرة التي وصل فيها الصبر إلى منتهاه، أمسكت بهاتفي وقررت الاتصال بها لأخبرها بأنني أقف إلى جانبها، وأثق بصدقها رغم كل شيء، كان قرارًا في ظاهره يبدو شريفًا ويتمتع بنبل لا يضاهي ولكنه في الحقيقة كان قرارًا نابعًا من منطقة لا أدرك منبعها ولا كنهها، شيء ما يعصر قلبي كلما فكرت فيها، وأحسّ أني أرتكب عملًا خسيسًا كلما انتويت الابتعاد عنها، كان ذلك الشعور بالخسة والدناءة يطل أمامي ويلتهمني كلما تصورت قسوتي تجاهها.

تراجعت في اللحظة الأخيرة عن الاتصال بها وعاهدت نفسي على الذهاب إليها باكرًا، فذلك ليس بالأمر الهين الذي يمكن مناقشته عبر الهاتف، أغلقت هاتفي وظللت ساهرًا حتى الصباح حتى إني ارتديت ملابسي بالكامل وكأن الصبر شيء مستحيل الإمساك به، دقت الساعة

الثامنة صباحًا حين دق جرس الباب، انتفضت في مكاني، ظننت أني أتوهم حتى قاطع أفكاري إلحاح صوت الجرس، نهضت من مكاني وفتحت الباب، تعجبتُ كثيرًا حينما وجدت أمجد في مواجهتي وكان الإعياء ظاهرًا عليه بشكل غريب، لم أتفوه بكلمة واحدة، الفضول والتساؤل ينعكسان في عينيّ بينما يقف مبتسمًا بوهن، نظر إليّ نظرة تستدر عطفي وكرمي، سمعته يقول بهدوء بعد أن تردد قليلًا:

- مش هاتدخلني بيتك ولّا إيه؟! أنا في الأول والآخر ابن خالك.

زممت شفتيّ، ولم أتفوه بكلمة وأفسحت له كي يدخل، تفحص الشقة حوله سريعًا ثم قال وهو يتجه نحو الآرائك في الصالة:

- شقتك حلوة يا مثطفى وبتفكرني بأفلام زمان.. يااه أنا ما جيتش هنا من أيام ما كنت ثغير.. الأيام بتجري بثرعة أوي.

قاطعته قائلًا بحزم:

- أنت عاوز إيه يا أمجد؟

نظر خلفه وألقى نظرة عليّ ثم ابتسم، استدار بجسده وجلس على أريكة فجلستُ ببطء في مواجهته فقال مداعبًا:

- إيه يا عم مثطفى؟ جاي أثالحك يا أخي وأعتذر لك.

أشحت بوجهي ولم أرد فقال بنبرة جادة صادقة:

- ياه.. للدرجة دي زعلان مني؟! أنا ما قثدتش أزعلك بالشكل ده ولا كنت أعرف إن الموضوع كبير أوي كده.. أنا افتكرتها مزة بتقضيها معاها وأنا أولى من الغريب يعني.

حدجته بنظرة قاسية وتمالكت أعصابي بقدر ما استطعت فنهض من مجلسه محاولًا استمالتي:

- والله يا أخي ما تزعل بقى.. ده أنا جاي لك لحد عندك وفي بيتك.. ينفع تعاملني كده؟!

- ما حصلش حاجة يا أمجد.

- طيب احلف كده.

- يا أخي بقولك خلاص مسامحك.

- من قلبك ولا علشان تخلث مني؟

نظرت له نظرة لائمة ثم أشحت بوجهي فقال بعد صمت ثقيل:

- ممكن أتخدم الحمام؟

أشرت إلى مكان الحمام فنهض من مكانه بصعوبة حيث كان الإعياء بادئًا عليه، لاحظته يترنح، تحمله قدماه بصعوبة، بعد برهة طويلة ساورني فيها الشك والقلق بشأنه نهضت من مجلسي لأتقصى أمره ولكن قوطعت شكوكي وهواجسي بصوت باب الحمام ينفتح، خرج منه ووجهه مصفرًا يتصبب منه العرق، هرولت تجاهه وأمسكته في اللحظة التي كاد أن يسقط فيها على الأرض ثم سألته متلهفًا:

- مالك يا أمجد في حاجة؟

نظر لي نظرة واهنة ثم قال بصوت ضعيف:

- لا أبدًا.. تعبان شوية.. أنا هستأذن.. عملت اللي عليا.

شعرت بالشفقة تجاهه حتى إن ضميري وخزني وإحساس كبير بالعطف استولى عليّ فقلت له:

- تروح فين بالمنظر ده؟ استريّح شوية على الأقل لما تحس إنك أحسن.

- ما تقلقش عليا أنا هابقى كويث.

وبمجرد انتهاء جملته طلب مني بهدوء أن أجلسه على أريكة ليستريح قليلًا، جلست بجواره والقلق يتنامى داخلي، كان موضوع ياسمين يشغلني بشكل كبير كما أنني لا أطيق الانتظار وفي نفس الوقت لا يمكنني تركه في هذه الحالة، فقلت بابتسامة صادقة:

- باقولك إيه ما تستريح هنا في سريري ولما آجي نتغدى مع بعض علشان أثبتلك إني مسامحك يا سيدي.
- مش هينفع تدقني.. ورايا حاجات كتير لازم أعملها النهارده.
- طيب على الأقل استريح.. لأن أنا كمان ورايا مشوار مهم.. هاخلصه بسرعة وأجي لك وعمومًا خلي المفتاح معاك ولو حسيت إنك أجسن ابقى اقفل الباب وراك وسلم المفتاح لعم إسماعيل البواب وهو هايوصلهولي.

أطرق قليلًا مفكرًا ثم قال:

- بث أنا كده هاتعبك معايا.

ابتسمت دون رد ولعنت الظروف التي قادته إلى ما هو عليه من استهتار بصحته وحياته، لُمت نفسي مفكرًا، أدركت أن حياته الغارقة في الوحل تجعله دومًا يتصرف بالطريقة التي تفقده جميع من حوله دون أن يشعر، ساعدته حتى وصل إلى السرير، طلب مني زجاجة مياه لتكون بجواره فذهبت إلى المطبخ وأحضرتها ثم تناولت هاتفي من جانب سريري بعد ما استلقي عليه واهنًا في هذه اللحظات وانصرفت بعد أن ألقيت عليه نظرة أخيرة، أخيرة تمامًا.

ذهبت سريعًا إلى شركة خالي لألتقي بياسمين وأخبرها بقراري الذي حاربت نفسي من أجله وأجلها أيضًا لكني لم أجدها، أخبرني عامل البوفيه بأنها انصرفت بعد مجيئها للعمل بقليل دون أن تبدي سببًا واحدًا حيث كانت على عجالة من أمرها، أخرجت هاتفي وحاولت الاتصال بها بعد أن عدت إلى سيارتي، لم يكن الاتصال متاحًا لخطأ ما في هاتفي، ركنت جانبًا ونظرت إلى الهاتف متعجبا، فتحته فلم أجد شريحة الاتصال به، اندهشت بشدة، لم أجد تفسيرًا واحدًا لما يحدث، هل انتزعتها دون شعور حتى أفقد الاتصال بأي شخص كان وأنا تحت وطأة الحزن واليأس؟! أم أنني فعلت ذلك حتى لا أنجرف وأتصل بياسمين دون إعمال تفكير حقيقي

كيف أقف عليه حياتي ومستقبلي بأكلمه؟! بالتأكيد لم أفعل ذلك ولكن من
فعل ذلك؟! انتابني هاجس موحش حينما أعدت في ذاكرتي ما حدث في
الصباح ثم صحت بلا وعي:

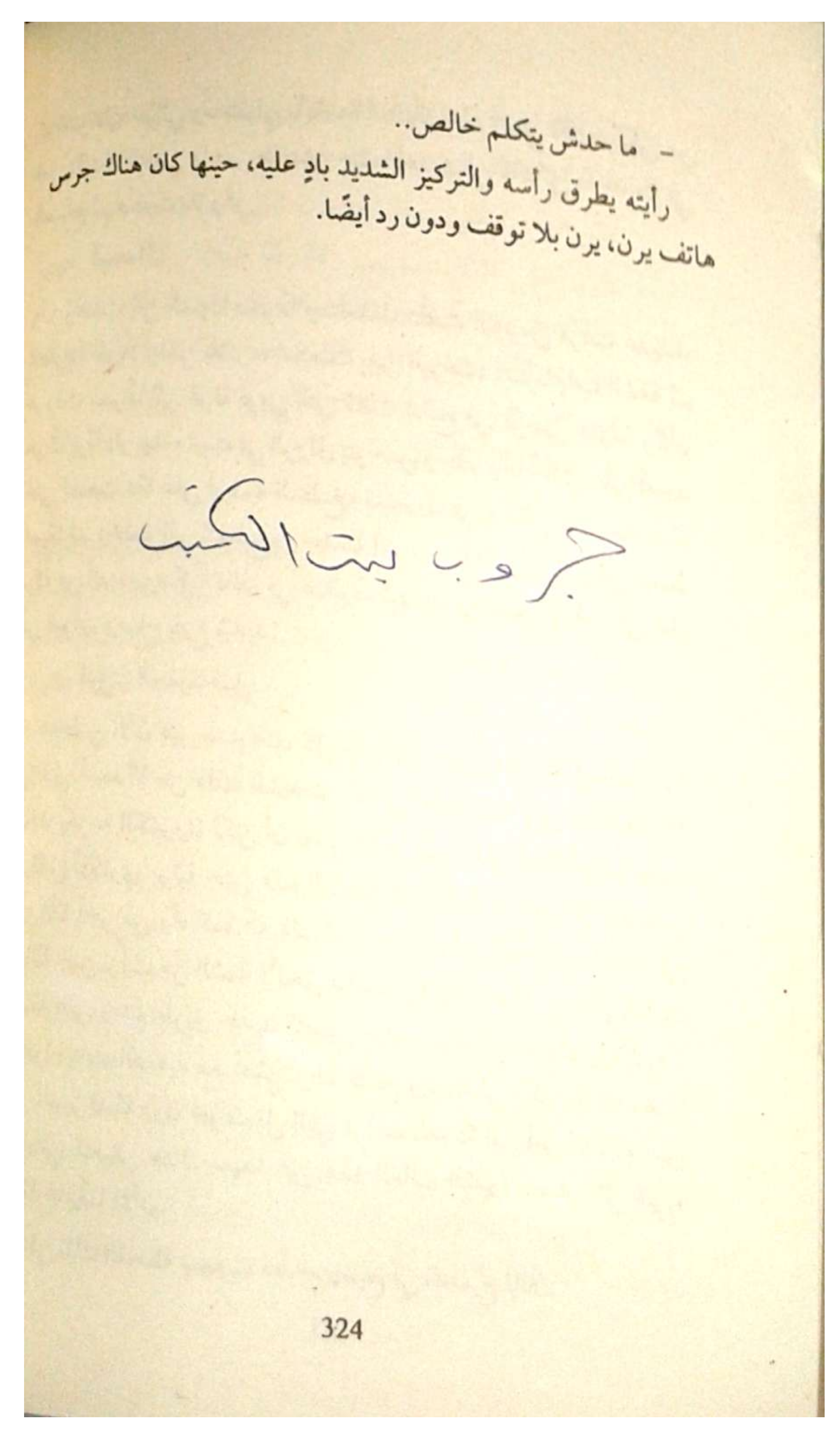
- أمجد!!

وصلت إلى المنزل مسرعًا ومتلعثمًا، دققت الجرس مرات عديدة،
انتظرت طويلًا ولكن بلا رد، استعنت بابن البواب، كسرنا باب الشقة ثم
هرولت مسرعًا إلى غرفة نومي التي كانت تسبح في فوضى عارمة وكأن
عراكًا قويًا دار بها، مشيت في الرواق بتوجس وحذر وأنا أنادي على أمجد
حتى لمحت دمًا على أرضية المطبخ، تسمرت في مكاني وأخذت نفسًا
عميقًا ثم دخلت إلى المطبخ، وجدت أمجد ممددًا على الأرض وسط
بركة من الدماء وسكينًا نافذًا في صدره، شهقت وعدت للوراء حتى جاء
ابن البواب وصاح بفزع شديد:

- قتيل.. الحقونا قتيل.

أجلس الآن غير مستوعب كل ما يدور حولي، ما الذي حدث؟!
من قتل أمجد؟! من ذلك الشخص الثاني الذي تبعه إلى هنا ليقتله؟!
أمجد يكرهه الكثيرون لكن أن يصل الأمر إلى القتل هذا أمر مؤسف،
لم تكن أفكاري مرتبة حتى هذه اللحظة كما كانت أصابع الإتهام تشير
لي، فأنا آخر من رآه كما أنه مقتول داخل منزلي وبالتأكيد كنت على
عجالة حين نزلت من الشقة لألحق بياسمين وربما هناك من رآني، كنت
مقدمًا على رسم طريق جديد لنفسي حتمًا سيكون مفروشًا بالأشواك
والمواجهات الصعبة مع أهلي والمجتمع ومستقبلي لكني كنت مصرًا
على السير قدمًا دون خوف بل إنني قررت العودة إلى أمريكا وياسمين
بصحبتي لتعيش هناك بعيدًا عن هذا العالم القذر.. صار كل شيء
معتمًا غامضًا الآن.

في تلك اللحظة سمعت عصام يصيح في الجميع قائلًا:



- ما حدش بيتكلم خالص..

رأيته يطرق رأسه والتركيز الشديد بادٍ عليه، حينها كان هناك جرس هاتف يرن، يرن بلا توقف ودون رد أيضًا.

عصام الرشيدي

كنت في حالة تأهب قصوى ونشاط غير طبيعي خلال الأيام المنصرمة، أعددت خطتي بالتعاون والتنسيق مع شرطة الآداب كما تم وضع نظام مراقبة محكم على نهى وتوحة القائمتين على شبكة الدعارة، حسب المعلومات التي وردتني هناك شخصية عامة تقف خلف هذه المجموعة القذرة التي من خلالها يقوم بإنهاء بعض الأعمال المشبوهة الخاصة به مستخدمًا ذلك الطريق القذر، ورغم كل الصعوبات التي واجهتني إلا أن السيوفي لم يتخل عني، وقف معي وساعدني بكل ما استطاع ومنحني كل الصلاحيات اللازمة لإتمام عملي على أكمل وجه كما أن القيادة في ذلك التوقيت كانت تنشد بعض القضايا المهمة للإيقاع بذوي النفوذ والأسماء التي لها رنين مميز من المنتمين للنظام القديم لتطل على الرأي العام كبطل قومي يخلص البلاد من قاذورتها التي عششت فيها وحولتها إلى ساحة عملاقة من الفساد والعار. الأمر كله منوط بمصلحة السلطة والإبقاء عليها، لا مصلحة الشعب. فاسدون جدد ينكلون بفاسدين قدامى، من يقصم ظهر من، من يضرب القاضية أولا، ومن يملك القوة ليستبيح أي شيء، باختصار الكرسي هو الغاية الأسمى والدافع الحقيقي الوحيد.

لم يكن يعنيني كل ذلك في شيء، ما كان يدفعني قدمًا هو ذلك الأمل الذي أسدل ستائره فجأة عليّ فمنحني دفئا وخلاصا طالما نشدتهما، ربما كنت أعوّض ما فاتني خلال فترات متقلبة أصبت فيها باليأس والسقوط في الهاوية، كما أن قضية ياسمين أثرت عليّ بشكل غريب، حينما حللتها

ووضعتها نصب عينيّ اقتنعت بأنها تخبرني بأن هناك أشخاصًا قليلين في هذا العالم ما زالوا ينشدون العفّة والطهر، فأنا لا أحارب وحدي، ولن أكون الأخير.

لقد آمن زاهر بالقضية، لم يفهمها فقط، لم تكن أمرًا ملزمًا بالنسبة له على قدر ما كانت انتقامًا ممن تطاولوا عليه وأهانوه بعد هذا العمر، أيقظت داخله تلك المنطقة المضيئة داخله وذكرته بأصله وكيف تلاعبت الحياة به ليصبح ما صار عليه الآن، جلسنا معًا وتناقشنا، لعبت على نقطتين، النقطة الأولى: أخبرته بأن جزءًا كبيرًا من تلك القضية معتمد عليه بشكل كبير كما أنه من خلال مساعدته المباشرة سيستطيع الانتقام ممن أوقع به وألحق به العار، أما النقطة الثانية فتتلخص في أن مساعدته ستجنبه عواقب التحقيق وربما السجن لو علم أحدهم بأنه كان على علاقة بتوحة وعلى دراية بما كانت تفعله وتديره في الظلام،فانتفض قائلًا:

- عيب عليك يا باشا.. أنا برضه هبقى قُرني؟! كل الحكاية إني كنت باشوف بس مش متأكد من حاجة وبعدين يا عصام باشا أنا إزاي هاقدر أدخل في وسطيهم تاني بعد ما عدموني العافية.
- مش أنت بتقول يا دنجوان عصرك إن توحة بتموت فيك؟!
- أيوه يا باشا والله زي ما بقولك وأنا واثق إن مالهاش دعوة باللي حصلي.
- خلاص يا بطل.. كل اللي مطلوب منك تكون قريب منها أوي اليومين دول.

ثم فتحت درج المكتب وأخرجت علبة صغيرة بها جسمان صغيران يشبهان شريحة الهاتف ولكن أصغر حجمًا، ناولتها لزاهر ففتحها بهدوء قائلًا بابتسامة بلهاء:

- إيه يا ده يا باشا؟! دي قنبلة ولّا إيه؟
- قنبلة إيه يا زاهر؟! أنت مسطول ولّا إيه؟! دول جهازين للتصنت

عايزك تحط واحد منهم بأي شكل في تليفون توحة علشان نسمع مكالماتها كلها وكمان ما تنساش زي ما قلت لك قبل كده موضوع البنت اللي اسمها منة.. أنا بصراحة مش هعتمد في قضية كبيرة زي دي عليها لوحدها.. عمومًا هي بتروح تنظف شقة نهى كل أسبوع مرة.. عايزك تديها الجهاز التاني ده وتخليها تحطه في تليفونها ومش عايز منها أكتر من كده.. المعلومات اللي عندي بتقول إن نهى رجعت تاني من السفر إمبارح.. طبعًا علشان ترتب لعيد الميلاد والعمليات المشبوهة إياها.. خلي بالك لازم منة تحط الجهاز ده في التليفون اللي بتتكلم منه توحة.. لأنه أكيد التليفون اللي بتم عليه الاتفاقات المشبوهة.. فاهم يا زاهر ولّا أقول تاني؟

- ولا يكون عند معاليك أي هم.. اعتبر القنبلة محطوطة في أم الجهازين من دلوقتي يا باشا.

بعد يومين آخرين وبعد محاولات متعددة باءت بالفشل للاتصال بمصطفى قررت عدم الاتصال به مرة أخرى وتركت الأمر للوقت كفيلا بأن يوقظه من غفوته وصراعه النفسي، كنت على يقين بأنه سيتصل بي حتما في يوم ما، فكرت كثيرًا بأمر ياسمين وأمره لكن مشاغلي حالت دون الولوج داخل منطقة أكثر عمقا تصيبني بالكآبة فتحول دون تركيزي الجديد المنعش.. وذات يوم جاءني اتصال مفاجئ يخبرني بوقوع جريمة قتل في وسط البلد ورغم أن الموضوع يخص قسمًا آخر إلا أن المتصل بي كان الضابط المخول بالقضية الذي أخبرني بأن الأمر يخصني بشكل شخصي، انقبض صدري وشرعت الهواجس السيئة تدور بمخيلتي، اتجهت سريعًا إلى العنوان وتبين أن الجريمة وقعت في شقة مصطفى وأن المجني عليه شابًا في مقتبل العمر، تمنيت أن يكون هناك خطأ ما خلال الطريق، فذلك الشاب لا يستحق القتل، ولكن من قتله؟ ولماذا؟! دخلت الشقة ملهوفا وقلبي تتسارع دقاته فوجدت مصطفى واقفًا في أحد الأركان، تغيرت ملامحي واستحالت إلى الدهشة، أحسست أن الأمر أكبر من ذلك، كانت

صدمتي كبيرة لدرجة أنها شلتني لمدة طويلة وأنا أقف في مواجهة جثة أمجد، كان لديّ من الشكوك ما لا نهاية له، شرعت أفكاري تتلاطم وتذهب هنا وهناك، لم أستطع لملمة شتات نفسي، هل يمكن أن يكون مصطفى قد أقدم على قتل أمجد وفي شقته؟! هل احتدم الأمر بينهما ليصل إلى هذه الوحشية؟! كيف تسنى لذلك المخلوق البريء الطيب أن يقتل؟! كيف مكنته وطاوعته يداه على الإقدام على فعل بشع كالقتل؟! كان مصطفى ساكنًا في مكانه شاردًا تمامًا، لم أحاول التحدث إليه، تركته داخل عالمه الذي لا يعلمه سوى الله وبعد مناقشة لم تطل اتفقت مع الضابط المخوَّل بالقضية أن يتركني أباشر القضية باحثًا في حيثياتها فقط لمعرفتي بالمشتبه به وبالمجني عليه بشكل شخصي، وقفت بجوار الجثة، نظرت في عينيّ أمجد الشاخصتين في الفراغ، زممت شفتيّ مفكرًا، امتعضت وغمرني الاكتئاب، تطلعت إلى السكين المنغرس في صدره للحظات ثم قمت بتوجيه أوامر متعددة لرجال الأمن داخل الشقة وخصوصًا رجال المباحث الجنائية المخولين بفحص البصمات والجثة والوصول إلى كل ما يتعلق بهذه الكارثة، تنقلت في الشقة قليلًا. دخلت غرفة النوم الكبيرة فوجدتها في حالة يُرثى لها وخصوصًا السرير، أصابتني الدهشة وشرعت أفكاري تتنقل من نقطة لأخرى، من حدث لآخر ومن ذكرى لذكرى أخرى تجمعني بمصطفى وبالمجني عليه، وجدت هاتف أمجد ملقى على الأرض في غرفة النوم بجانب الكومود، لم ألمسه ولكن ساورتني بعض الأسئلة، ما الذي حدث تحديدًا قبل الإجهاز على أمجد؟! وما سبب العراك الذي أدى في النهاية إلى فرار المجني عليه إلى المطبخ ليلقى حتفه بهذه الطريقة؟! الجريمة تمت في المطبخ وهناك عراك واضح في غرفة النوم، إذن المجني عليه هرب من غرفة النوم حتى وصل إلى المطبخ وتمت الجريمة هناك، في تلك اللحظة دخل عليّ أحد رجال المباحث الجنائية قائلًا:

- لقينا يا باشا آثار هيروين على الترابيزة الصغيرة في الصالة وكمان في الحمام.. وواضح إنها لسه جديدة.

صارت القضية أكثر تعقيدًا، خرجت من غرفة النوم وألقيت نظرة على مصطفى، فجأة دق جرس هاتف أعرفه جيدًا، إنها النغمة التي يستخدمها أمجد كنغمة رنين لهاتفه، صحت في الجميع بعدم إصدار أي جلبة، انتقلت سريعًا إلى الهاتف، وكان الرقم يحمل اسم الطبيب محمد زهيري، أمسكت الهاتف وفتحت الخط، وضعت أذني على السماعة دون أن أتفوه بكلمة فسمعت أحدهم يقول:

- إيه يا مصطفى اتأخرت على الشغل ليه؟

فأجبت بحذر:

- مين معايا؟
- أنت اللي مين؟
- مش أنت اللي متصل.. مين معايا؟
- مش ده تليفون الدكتور مصطفى الشريف..

أغلقت الهاتف ثم أخرجت هاتفي وقمت بالاتصال برقم مصطفى فرن الهاتف سريعًا، جحظت عيناي مندهشًا ثم قمت بالاتصال برقم أمجد فوجدته مغلقًا، خرجت سريعًا حتى وقفت في مواجهة مصطفى قائلًا بحزم:

- إديني تليفونك.

أمسكت الهاتف فوجدته مغلقًا، فتحته ومرت الثواني ثقيلة وأنا أنقل بصري بين مصطفى والهاتف حتى فتح فاتضح لي أنه لا يحمل شريحة اتصال فسألته عما حدث فقص لي بصعوبة ما جرى منذ الصباح وحتى لحظة اكتشافه للجثة، بعد تحقيقات موسعة استمرت لساعات عرفت أن هناك فتاة تحمل نفس أوصاف ياسمين لمحها بواب العمارة وهي تخرج على عجالة. ومن خلال التحقيقات أيضًا عرفت أن ياسمين تركت العمل هذا الصباح دون أن تترك سببًا أو أثرًا وراءها، لقد أنقذ مصطفى فيما بعد تقرير الطب الشرعي الذي أثبت أن الجريمة وقعت تقريبًا في الوقت الذي

كان فيه في شركة خاله، كما ظهر أن البصمات غير مطابقة لبصماته التي لطخت الشقة بأكملها والسلاح المستخدم في الجريمة كما أن رؤية الفتاة من قبل البواب أكدت أنه بريء تمامًا مما هو منسوب إليه وأكدت أيضًا أن القاتل هارب من العدالة.. لكن بئسًا لتلك العدالة.

اعتصرني الحزن على فقدان أمجد رغم عدم شعوري بالدهشة أن تكون نهايته على هذه الصورة، كنت أدرك بيقين قاطع وبحدسي الذي لا يكذب أن نهايته ستكون إما مقتولًا أو مرميًا في مصحة عقلية حتى يومه الأخير وللأسف حدثت الأولى سريعًا. جلست في مكتبي بعد خمسة أيام من رحيل أمجد بحضور مصطفى الذي كان باهتًا للغاية، ساكنًا يسوده الحزن والبؤس، كان ألمه لا يقل عن ألمي في شيء ولكن كان توجيه الإحساس مختلفًا، فقد كان يفكر في ما آلت إليه أمور ياسمين وكيف تحولت حياتها إلى هذا الجحيم، لقد أصبحت مطاردة من رجال الشرطة والله أعلم إن كانت مطاردة من أشخاص أُخر لهم حكايات أخرى معها، لا شيء يمكن التنبؤ به في تلك الحكاية التي تخرج علينا بجديد صارخ ومؤلم كل يوم، كنت محاصرًا بالتساؤلات والهواجس، أستعيد وأفند الأحداث ولكن بلا فائدة تُذكر، لقد قبضنا على صديقتها شهيرة وتم استجوابها ولكن الفتاة أقسمت بأنها لم ترها منذ فترة طويلة، بحثنا في كل الأماكن التي يمكن أن تهرب إليها، ولكن بلا جدوى، حتى إني كلفت المباحث بتقصي أمرها في بلدتها الأم إن كانت عادت إليها دون أن يدخلوا بيتها لأني أعرف بما لا يقبل الشك أنها لن تقدم على فعل خطير كهذا، كما أن الفتاة التي تتحمل كل هذه الويلات وهي بعيدة عن أهلها يمكنها أن تتحمل ما هو أقسى من ذلك كما أني أذعنت باسم الصداقة لطلب مصطفى بألا أفتش منزلها أو أشعل النيران المشتعلة سلفًا في قلوب ذويها. بصدق وحتى لا أخون عملي قمنا بعمل تحريات من بعيد حول منزلها للتأكد من أنها لم تستنجد بهم، بحثنا وبحثنا وللأسف لا أحد يعرف أين ذهبت الفتاة.

خلال كل تلك الأحداث حدثت مفاجأة جديدة حينما أخبرني زاهر بأن منة لم تذهب إلى العمل منذ أول أمس، حين تقصّينا عنها اكتشفنا أنها مفقودة منذ يومين، بعد التحريات الممكنة لم نصل إلى شيء، كانت إثارة الضجيج في هذا التوقيت حول توحة أو نهى بموضوع منة سيفقدنا فرصة القبض عليهما ولذلك أمرت بتأجيل الموضوع حتى لا يشعران بشيء يتغير خططهما، كان زاهر يُعلمني أولًا بأول بكل ما يدور بينه وبين توحة، عرفت أنه استعاد ثقتها حتى جاءت المكالمة المهمة التي عرفنا من خلالها أنهم سيغيّرون المكان الذي ستقام فيه الحفلة المشبوهة لكن المكان الجديد لم يكن سوى شيفرة سرية بين توحة ونهى، لا يفهمها غيرهما، فكل ما قالته نهى لتوحة عبر الهاتف:

- الحفلة هاتتعمل في العين يا توحة.. جهزي نفسك إنتِ والبنات.

حاول زاهر بقدر استطاعته معرفة سر كلمة «العين» لكنه لم يصل لشيء. كنت أفكر بكامل تركيزي في كل تفصيلة تتعلق بالقضية وحيثياتها ولكن كل الأبواب مغلقة في وجهي كما أن التفكير في ياسمين لم يفارق خيالي، تطلعت إلى مصطفى الجالس أمامي شاردًا ودموعه تلمع في عينيه، عرفت ما يشعر به، أحس به بشكل لا يتخيله، فما الفارق بينه وبيني، حبيبتي أيضًا هجرتني بعد ما اخترق سكينها صدري وتركتني ما بين الحياة والموت، طريقنا متشابه لا عودة فيه، كلانا أصيب بتلك الخيبة الكبيرة التي على إثرها تُظلم الحياة في أعيننا وتصير ذكرياتنا مزيجًا من المرارة واليأس، ووسط أفكاري المتلاطمة وذكرياتي المريرة نهض مصطفى من مكانه وتردد قليلًا قبل أن ينطق رغم ما كان يبدو عليه من رغبة شديدة في الحديث، لكنه أخيرًا قال:

- بالله عليك يا عصام.. لو قدرت توصل لمكانها تاخدني معاك.. أنا مش عايز حاجة منك أكتر من كده وأنا عارف إني تعبتك معايا الفترة اللي فاتت.

كانت الكلمات تخرج منه بصوت متحشرج واهن وحزين. ساد صمت للحظات ثم استطرد يقول:

- كل اللي طالبه منك ما حدش يمد إيده عليها أو يؤذيها.. إنت عارف كويس إنها قتلت وهي بتدافع عن شرفها.. أرجوك يا عصام.

نظرت له نظرة طويلة اختلط فيها الاحترام بالمواساة والشعور بالألم، غادر مصطفى لكنه ترك داخلي أسئلة عديدة، إلى أين يأخذنا هذا العالم القاسي؟! أين تكمن العدالة الحقيقية وسط كل هذا الهراء؟! كيف يمكن للمجني عليه أن يصبح جانيًا؟ وما الذي يقلب البراءة إلى توحّش فتمسك بالسكين وتقتل؟! كيف اختلطت الأمور في هذا العالم لتصبح المسألة معكوسة بهذا الشكل؟! لم نعد في حاجة إلى الشيطان ليُلقننا مبادئ الشيطنة والسقوط في القاع، لقد أصبحنا ببساطة نتمتع بكل المعايير القياسية لدس السم في العسل، ولتحويل الحقائق والتلاعب بها لتصير على المقاس المناسب لعقولنا المريضة. في رحلتي للبحث عن القاتل، عن الجاني والظالم، أدرك بأني أسير في الاتجاه الخاطئ. فمع أن القانون الآدمي يقول إن القاتل هو من يمسك بالسكين ولكن الحقيقة ليست كذلك، الحقيقة ببساطة تقول إن من حق المظلوم، المُهان واليائس من رحمة البشر، أن يحمل السكين، يحمله لأنه لا طريق آخر أمامه في عالم قاسٍ امتلأ بالمجرمين والقتلة وعديمي الضمير.

سادني همّ ثقيل وألم في رأسي من الصداع الشديد الذي أصابني منذ الصباح تحت وطأة التفكير، شعرت بالقرف من نفسي جراء كل ما فعلته خلال الفترة السابقة، تناولت سيجارة منتفخة من الحشيش من علبتي ووضعتها في فمي دون أن أشعلها، ثم قررت أن ألقيها من نافذتي بعد أن أحكمت قبضتي عليها ودهستها تمامًا، خرجت من القسم منفعلًا بخطى غاضبة، ما إن فتحت باب سيارتي حتى سمعت طلقات نيران، كان صوت الرصاص مدويًا وسمعت صفيرًا مؤلمًا في أذني، لم أسمع أو أشعر بعدها بأي شيء حتى وجدتني فجأة داخل العتمة.

الفصل 2

ها أنذا أجلس أمامك على حافة الهاوية كما تتصور وأستطيع أن أخبر كل من يتصور أن الانتحار نقمة ويأس وانحدار ولا يقوم بها سوى البؤساء والمشردين ومعدومي الإيمان بأنه مخطئ، مخطئ للغاية. أنتظر بشغف دخول قوات الشرطة، وبشغف أكبر أنتظر إلقاء نظرتي الأخيرة عليهم، حينها ستبدو وجوههم محتقنة وتختلط ملامحهم بأحاسيس متناقضة، سأمنحهم قسوة المشهد وأظهر عجزهم عن الإمساك بي. سأجعلهم يرون نتيجة عذابات هذا العالم وتلك الحياة البائسة التي عشتها، لا يمكن أن يكون الانتحار أبدًا شيئًا دميمًا بشعًا كما يتصور الجميع، أعتقد الآن أنك تدرك جيدًا ما هي الشوكولا التي تسبق الانتحار، دعني أستكمل التفاصيل المتبقية.

كانت تعتريني رجفة شديدة إثر البرودة الغريبة التي تسللت إلى كل جزء في جسدي فصرت كلوح ثلج طازج خرج لتوه من ثلاجة عملاقة، كجثة طال انتظارها داخل ثلاجات المشرحة، نظرت إلى يدي اليمنى فزعة حينما وجدت آثار الدماء تلطخها، فقدت التوازن تمامًا وشعرت بدوار بينما السائق يوجه حديثه لي قلقًا:

- ما لك يا أستاذة فيه حاجة؟ شكلك متعوّرة في إيدك! عليها دم!

قلت متلعثمة بصوت متحشرج بعد إلحاحه في السؤال:

- دم.. آه.. لا.. آ.. متعوّرة.

ناولني منديلًا والقلق والتوتر يستحوذان عليه فانتزعته من يده بحركة سريعة لا إرادية ثم قمت بتنظيف الدماء التي جفت قليلًا فوق يدي خلال تلك المدة القصيرة، حاولت تنظيف أظافري جيدًا من الدماء العالقة بها وبعد جهد مضن -إذ كان المنديل قد اتسخ تمامًا بالدماء- لم تنجح محاولاتي في إزالة تلك البقع الصغيرة المتناثرة، كنت أشعر وكأني داخل حلم يقظة غريب، عقلي مشتت ساخن وأفكاري متلاطمة، جسدي بارد يرتجف وكأني مصابة بحمى شديدة يستعصي علاجها، لم أسمع السائق يسألني مكررًا بنفاد صبر:

- ما قلتليش يا أستاذة رايحين فين؟

فكرت طويلًا محاولة بقدر الإمكان لم شتات نفسي، لمحت نقاط دماء واضحة ومتناثرة على ملابسي، فزعت وانتابتني فكرة غريبة بأني أنا الأخرى مطعونة في مكان ما، تحسست جسدي مرتبكة وكأني أبحث عن مكان الطعنة في اللحظة التي شرعت فيها السيارة تتحرك ببطء والسائق يعود ليسأل بإصرار. قلت بصوت مرتجف:

- عين شمس.

نظر السائق أمامه مستغربًا ودمدم بكلمات لم أتبينها، على طول الطريق انتابتني أحاسيس متناقضة، كنت أخفي نفسي عن الأنظار بقدر الإمكان وحينما تواجه عيناي أي شخص كنت أشعر بأنه يعرف تمامًا ما أقدمت عليه، وبأني القاتلة التي يبحثون عنها، المجرمة التي انتزعت سكينًا وغرزته في صدر ضحيتها، حتمًا وضعوا مكافأة للقبض عليّ، هلعت ورحت أدعو الله بلا توقف أن ينتقم لي.

حينما وصلت إلى الوجهة المقصودة توقفت أمام المحل الذي تعمل فيه شهيرة، ترجلت من السيارة متلفتة حولي بتوجس، يبدو أن شهيرة أحست بأن كارثة وقعت لي لأنها هرولت باتجاهي منفعلة قلقة، سألتني مرارًا عما حدث ورغم أني كنت أسمعها إلا أني كنت أشعر أن صوتها

بني من مكان بعيد. يتناهى لي كصدى صياح آت من مكان مقفر بعيد، لكنها أمامي وأرى حركة شفاهها ولكني لا أستطيع سماعها بشكلٍ جيد، تشويش غريب وصفير كصفير الريح ينفخ في رأسي، وكأني فجأة فُصلت من العالم، انتبهت بعد برهة بعد أن نهرتني شهيرة بشدة وقد بان عليها الجزع وهي تقول:

- بنت يا ياسمين.. فوقي.. ما لك؟ الله أكبر.. ياسمين ردي عليًّا.. ما لك؟

شهقت وكأني أخرج من تحت الماء بعد أن أوشكت على الغرق، نظرت في وجهها لا أعي شيئًا، كأنهم فجأة انتزعوني من تحت التراب بعد أن كنت مدفونة حية، عادت الضوضاء الكونية مرة أخرى، الحياة بضجيجها وأصواتها تخبرني بأني لم أُطعن بعد في صدري، ولم يتم القبض عليّ، ولم أشهق الشهقة الأخيرة التي على إثرها يتلاشى كل شيء، تململت في مكاني ونظرت لشهيرة نظرة متسائلة وكأني أتقصى أمر وجودي هنا، جمدت في مكاني فجأة ثم قلت بصوت واهن:

- شهيرة أنا عاوزة أمشي بسرعة من هنا.
- تمشي تروحي فين وإنتِ بالشكل ده؟!
- عاوزة أروح لأهلي.
- إيه؟
- عاوزة أروح لأهلي.
- طيب مش تفهميني الأول في إيه يا بنت الحلال؟ وجاية في إيه وجرالك إيه؟ وإيه اللي عامل في هدومك كده.. أنا مش فاهمة أي حاجة!!

سادني الصمت، أحسست رأسي ثقيلة للغاية، فجأة جذبتني شهيرة من يدي وأدخلتني غرفة تبديل الملابس داخل المحل قائلة بصوتٍ هامس خوفا من أن يسمعنا أحد:

- ياسمين.. إيه بقع الدم اللي على هدومك دي.. وإيه اللي مقطع قميصك كده؟!

بقيت صامتة ونظراتي زائغة ورحت أختار ملابس سوداء عبارة عن خمار لتغطية الشعر ونقاب أسود يغطي وجهي كاملًا عدا عيني حتى أستطيع الرؤية كما جلبت جلبابًا فضفاضًا بنفس اللون الأسود القاتم، دخلت مسرعة إلى غرفة تبديل الملابس وارتديتها في الحال، لم أكن أحمل من المال سوى مائتين وخمسة عشر جنيهًا، أخبرت شهيرة بأن تدفع عني على أن أعطيها المبلغ لاحقًا، استسلمت شهيرة لصمتي وبدت بائسة، أوقفت تاكسيًا وشهيرة تهرول خلفي والهواجس تتزاحم في أسئلتها التي انهالت بها، لكني لم أرد. عبر شباك التاكسي قلت لها:

- لو حد سألك عليا يا شهيرة وحياة اللي بينا تقوليله إنك ما شُفتينِي.
- طيب فهميني يا ياسمين في إيه؟
- هاتفهمي كل حاجة لوحدك في الوقت المناسب.

انسحبت السيارة بهدوء وطلبت من السائق أن يتوجّه إلى الشرقية، أخرجت هاتفي واتصلت بشيماء صديقتي لأول مرة منذ أن غادرت، كنت أحفظ رقمها عن ظهر قلب، ردت على الهاتف، صاحت فَرِحة بمجرد سماع صوتي، أوقفتها عن الحديث بشأن أي شيء وأخبرتها بأني في طريقي إلى الشرقية مهما كانت العواقب. ترجتني كثيرًا وأصرّت على عدم القدوم إلى الشرقية ولكني لم أنصت لها بل انفعلت ونهرتها فصمتتْ، كنت أشعر بأن ثمة شخص آخر يتحكم فيَّ ويدفعني دون إرادة مني وكأن وجودي اكتسب شكلًا آخر مختلفًا، شيء ما يخبرني بأن عليَّ السير قدمًا دون توقف، قوة غريبة لاحت في الأفق تؤازرني حتى أني أحسست بها وتخيلت أنه باستطاعتي القتل مرة أخرى لو حاول أحدهم المساس بي. كنت مملوءة بالغيظ والغضب والضيق، وكان الكره والوجع يعتصران قلبي، والألم يغوص في أعماقي كحجر كبير وثقيل فيُحدث داخلي

صرخات مدوية لا يسمعها سواي، لم أفكر في شيء سوى بالفرار من تلك المدينة التي لا ترحم. أنظر من وقت لآخر على الطريق أمامي خائفة من أن توقفنا لجنة ما ولكن في هذا الوقت لم يكن هناك حتى عسكري مرور في أي شارع أو طريق، البلاد تغوص في الوحل والفوضى، في الهمجية والطغيان لكل من استطاع، كانت حوادث الخطف والسرقة والقتل منتشرة في كل مكان، لست القاتلة الوحيدة ولا الهاربة الوحيدة أيضًا.

قبل أن تطأ قدماي الشرقية تخلصت من الملابس التي كنت أرتديها عند ارتكاب الجريمة، قمت بإلقائها على جانب الطريق من شباك السيارة وقد كنت وضعتها في كيس أسود عندما بدلت ملابسي في محل عمل شهيرة. وقطعت وسائل الاتصال بي تمامًا إذ ألقيت شريحة الهاتف من الشباك بمجرد انتهائي من مكالمة شيماء. لا أريد أن يكلمني أحد ممن يعرفون رقمي. دخلت أحد محلات الاتصالات التي أعرفها عن ظهر قلب في السنبلاوين واشتريت خطًا جديدًا ثم اتصلت بشيماء مرة أخرى، فطلبت مني أن أقابلها عند موقف السيارات.

وقفت أمامها للحظات مرت طويلة، داعبتني الذكريات، آلمني الرحيل والفراق، دغدغتني ضحكاتنا ودموعنا وأحلامنا القديمة وخذلتني خياتنا الأخيرة، احتضنتها وكأني أحتضن الماضي وحياتي الضائعة البسيطة الهادئة بعد فراق طويل، كان الحنين والشوق في أوجه يدغدغ كل جزء صغير فيّ، بكيت بحرقة وبكت شيماء أيضًا بحرارة. حاولنا أن نتكلم ولكن أي كلمات تعبر عمّا نحن فيه؟ وأي كلمات يمكن لها أن تصف ما أشعر به في هذه اللحظة التي ظننتها يوما مستحيلة؟! كنت أشعر وكأني أختبئ داخلها وبين ذراعيها من حرارة الحياة وسخونتها الموحشة، من جفاف الحنوّ والمودة والرحمة، لمحت في يدها اليمنى دُبْلة ذهبية تزين إصبعها فابتسمت ابتسامة عريضة ثم قلت:

- إنتِ اتخطبتِ يا شيماء؟

أومات برأسها بابتسامة هادئة مغرورقة بالدموع ثم أشارت برأسها على شاب يجلس داخل سيارة على مسافة قريبة منا، أعرف ذلك الشاب جيدًا، جمعتني به ذكرى لا أنساها، إنه ياسين، الخلوق الطيب الذي أنقذني من ضراوة الذئاب وانتشلني من ظلمة الكون في ليلة لا تُنسى أيضًا، احتضنتها سعيدة بشدة مباركة لها ونسيت تمامًا جريمتي وما آلت إليه أموري، كنت متطلعة بشدة لمعرفة ما حدث بينهما لتتم الخطبة كما تساءلت في نفسي، هل أخبرها ياسين بما حدث؟! لكني لم أسألها، كان هناك شيء يقف على لسانها تعجز عن قوله، يظهر في عينيها، ثمة شيء يدور في خلدها ويعكر صفوها، تتمنى لو تتخلص منه تمامًا بعد غياب طويل، كأنها كانت تنتظر رؤيتي منذ أن رحلت لتلقيه عليّ، ظللت صامتة تمامًا بعد أن تبادلنا السلام والسؤال عن الحال بكلمات قليلة وجلة، أحسست بالغربة تتسلل داخلي، بأني وبشكل ما لا أنتمي لهذا المكان، لهذا البلد ولا لأي بلد، قتلني شعوري بالوحدة وانتظاري الطويل لأن تفرغ شيماء ما في جعبتها حتى قلت بنفاد صبر:

- ما لك يا شيماء؟! من ساعة ما شفتيني وحاسة إن فيه حاجة عايزة تقوليها.

تململت في مكانها ثم قالت بعد تردد:

- تعالي بس الأول نركب مع ياسين ونمشي من هنا.

فقلت ممتعضة:

- ما تقولي يا شيماء في إيه؟

فنظرت في عيني مترددة ثم قالت بأسى:

- البلد هنا فاكرين إنك مخطوفة يا ياسمين.
- إيه؟!
- زي ما بقولك كده وفيهم اللي فاكرين إنك اتقتلتي زي بنات كتير أوي حصل لهم كده الفترة اللي فاتت.. غابوا فجأة وبعدها ما حدش عرف عنهم حاجة.

انتفضت صائحة:

- وأهلي يا شيماء، وأهلي عاملين إيه؟
- أهلك!

جزعت وتملك مني الخوف فقلت مرتعدة:

- ما لهم يا شيماء؟!
- كويسين الحمد لله.. بس.
- بس إيه؟!
- باباكِ ما بقاش بيقدر يتحرك ولا بيتكلم.
- إيه!! بابا اتشل؟!

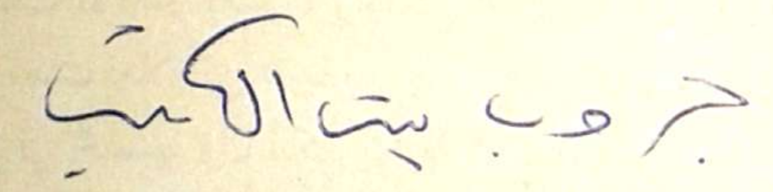
ولولت وانتحبت وبكيت وانهرت تمامًا لكنها جذبتني إليها واحتضنتني، كنت أصيح بصوت مسموع قائلة، «والله العظيم حرام.. والله العظيم حرام»، حاولت شيماء تهدئتي ومواساتي بشتى الطرق، شرع بركان من الغضب يطفو داخلي وأنا أسب وألعن بكل ما أعرفه من شتائم مقذعة، كنت منهارة لا أرى شيئًا، لا أسمع شيئًا حتى سمعت شيماء تقول:

- بس لما يشوفك الحمد لله رجعتِ بالسلامة أكيد هايبقى كويس.. يله نركب مع ياسين ونمشي من هنا بقى.. الناس بتبصّ علينا.

رفعت نظري لها، رمقتها بنظرة طويلة مفكرة، ساورتني الشكوك وتلاطمت الأفكار بعقلي، راودتني الذكريات القريبة واكتشفت فجأة وكأني نسيت فعلا بأني هاربة من جريمة قتل والجميع يبحثون عني، دفنت وجهي في حضنها وأنا أبكي بحرقة شديدة، دعوت الله أن يريحني من عذاباتي وآلامي، أن يمنحني السكينة بعد هذا العذاب الطويل الذي لاقيته وذقته بمراراته جميعًا، توسلت إليه أن يُشفي أبي ويأخذني عنده حتى يصبح غيابي منطقيا، تمنيت أن يلوذ بالسلام وهو يدفن جثماني كي يستريح من هواجسه وأوهامه السوداء وألمه الطويل الذي حتمًا لا يستحقه.

جلست في الخلف في سيارة ياسين وألقيت عليه السلام بنبرة فاترة مجهشة بالبكاء وكأن لقاء قريبًا قد جمعنا، ألقيت برأسي المثقل على الكرسي وانتابتني الكثير من الأفكار حينما تحركت السيارة، كان الهم والألم مسيطرين عليّ ولا أفكر في شيء سوى أبي وما آلت إليه أموري وحياتي، كرهت كل شيء حتى نفسي، فكرت في الانتحار، في الفرار من هذا العالم، سأحجز أول مقعد يأخذني إلى الجحيم فلن يكون الأمر مختلفًا كثيرًا عن الجحيم هنا على الأرض، قررت ذلك بالفعل ولكن في تلك اللحظة أحسستُ أن العالم توقف فجأة واعتراني صمت غريب موحش، أيقنت أنه من الواجب أن يعلم أبي والعالم كله الحقيقة كاملة حتى يتسنى لهم الحكم العادل بعد ذلك، ليدرك جيدًا أن فتاته لا يد استطاعت أن تمسها بسوء وإرادتها حاضرة، بأن طُهري ما زال قائمًا داخلي محافظة عليه وسط هذا الدنس الكوني الذي لطَّخ العالم أجمع، ما زلت تلك الفتاة البريئة العذراء التي لم يخدش غشاءها القهر أو الظروف أو تلك الأهوال التي مرت بها ودهستها ولكنها وقفت على قدميها ثانية لتعيد نفسها إلى الحياة من جديد على أمل لا يجيء أبدًا، لا يكاد يطفو على السطح حتى يغرق في القاع مرة أخرى ولكني هنا ما زلت باقية.

حينها كان السواد والأفكار المتداخلة القاتمة تعتمان عيني، كنت منهكة ولكني لن يغمض لي جفن حتى أنتهي تمامًا مما انتويته، حتى تكون النهاية منطقية، لها طعم الانتحار الذي لا يخلو من حلاوة الشوكولا.



مصطفى الشريف

أعتقد أن كل شيء كان معدًا لي منذ البداية بهذه الطريقة الغامضة والقاسية أيضًا، حياتي كلها خطة موضوعة بشكل مسبق ودقيق للغاية لألقى في النهاية العذاب والحسرة على كل فعل أقدم عليه، في اللحظة التي أجد بها نفسي وتصير الأحلام وردية يصدمني الواقع بقسوته حتى حينما ينجو الحب ويتسلل إلى قلبي للمرة الأولى أصطدم به يعذبني ويخبرني همسًا بضراوة أنها أيضًا المرة الأخيرة، هل كان أبي محقًا في ما سعى إليه حيث قيّدني إلى حياة خاصة مغلقة لا تتداخل فيها تلك التفاصيل المعقدة التي تصيب الإنسان في النهاية بالكآبة؟! هل قاسى في حياته إلى حد دفعه ليقاتل حتى يحول دون مواجهتي يومًا لذلك الواقع الملوث الدميم فعمد إلى تربيتي بشكل بسيط بعيدًا عن أهوال العالم السفلي؟! حقيقة لم أعد أعرف أين تكمن الحقيقة! لم أعد أدرك مغزى وجودي في مصر من الأساس! كانت كل تلك الأفكار متداخلة في عقلي بشكل يكاد يدفعني إلى الصراخ وأنا أقف في مواجهة جثة أمجد داخل المشرحة بعد أتِم تشريحها وكأني أبحث عن الحقيقة في وجهه وجسده الفاني، نظرت في وجهه لبرهة طويلة أتأمله وتخيلت مكره الذي رسمه ذاك الصباح لينفذ جريمته التي أدت في النهاية لمقتله ربما باليد التي لم يتخيل يومًا أن تكون نهايته على يديها، كان شاحبًا وباردًا، يبدو الأشخاص الذين نعرفهم مختلفون تمامًا وهم ميتون، نظراتهم غامضة ووجوههم شاحبة وثمة سر غريب تجمد على شفاههم وانحبس قبل أن يعلنوه في اللحظات الأخيرة، أعتقد أن كل الموتى الذين

قابلتهم يحملون سرًا معهم لا يعرفه غيرهم ويأخذونه أيضًا وحدهم إلى قبورهم ليدفن معهم إلى الأبد، تمنيت لو ينطق أمجد ويخبرني بالحقيقة كاملة، لو أنه يُثلج قلبي ويطلعني على ذلك السر الذي دفعه لارتكاب مثل هذه السخافة، لم أكن متعاطفًا معه بل على العكس كنت ناقمًا وغاضبًا عليه، تذكرت ياسمين وفجأة تحررت الدموع المنحسرة وأجهشت بالبكاء ثم ضربت جثته بقبضة يدي على صدره بيد منهكة من الحزن والإجهاد وأنا أغمغم قائلًا: «ليه يا أمجد؟! ليه تعمل كده؟!».

كان قد تمت مصادرة هاتفي من أجل التحقيق في القضية، شكرت عصام الرشيدي على منحي تلك الفرصة لألقي نظرة أخيرة على أمجد بصفتي مختصًا في علم التشريح رغم الشكوك التي تحيط بي لكني كنت أدرك تمامًا بأن عصام وفي داخله يعي بأني خارج نطاق الشك ولعل ذلك لم يكن واضحًا تمامًا من نظراته الطويلة التي طالما رمقني بها من آنٍ لآخر بتشكك حينما وجدنا الجثة، إنها سمة الضابط الذكي الذي لا ينفك عن الشك حتى بنفسه حتى يصل إلى طرف خيط يأخذه إلى تضييق دائرة الشك كما أن ملابسات الحادث التي يعرفها بشكل شخصي دفعته إلى ذلك ربما دون تردد مع الأخذ في الاعتبار أن أمجد كان صديقًا مقرَّبًا له لفترة طويلة وتلك التفصيلة لا يمكنني الإغفال عنها أو طرحها جانبًا وكأنها مجرد غبار ملتصق بزجاج نافذة.

جلست على كرسي قريب مرهقًا وخلعت الجوارب الطبية التي ارتديتها بعد أن ألقيت نظرة أخيرة على أمجد وكأني أودعه إلى مثواه الأخير فقد انتهت مهمته تمامًا على كوكبنا الحزين، كانت هناك جلبة في الخارج تتناهى إلى مسامعي، تأتيني رتيبة مشوشة وكأنها آتية من داخل حلم يقظة غامض، نظرت حولي بعينيّ المثقلتين ثم خرجت ومشيت داخل الطرقة الطويلة، كنت أتتبع صوت الجلبة بشيء من الحذر حتى ظهر الباب الزجاجي المغلق دائمًا على الأطباء في الداخل والذي يفصل ما بين غرف التشريح وبين الإدارة، رأيت كما لو كنت في الحلم ولبرهة خالي

وقد كان في ما يبدو يصرخ في رجال الأمن المخوَّلين بحراسة المكان ومنع أي فرد كان من الولوج إلى هذه المنطقة، تسارعت خطواتي قليلًا لأتأكد مما أراه وبالفعل تأكد لي ذلك حين صرخ مناديا عليَّ وقد كانت حرقة ولوعة غريبة -لم أعهدهما تتخللان صوته، شعرت بأسى وحزن عميقين، لقد كنت ناسيًا تمامًا خالي ولم أستطِع ولو للحظة واحدة التكهن بشعوره حين معرفته بالخبر المشؤوم، لم تكن علاقته بأبنائه واضحة لأنه في أحيان كثيرة كان يتحاشى الحديث عنهم، لم أحاول ولو لمرة فتح ذلك الموضوع، حتى حينما أخبرته بمضايقات أمجد لياسمين بان عليه الغضب ولم يبدُ مندهشًا على الإطلاق، أتذكر تمامًا حين شرع في سبه بشكل يكاد أن يكون فظًا وخاليًا من أية رحمة تذكر، لم أحس ذلك الإحساس الذي يعكس سخط الأب على أفعال أبنائه الطائشة ولكنه كان سخط رجل يكره رجل آخر، لم أتساءل كثيرًا وتغاضيت عن الأمر مع الأخذ في الاعتبار ندرة حديث خالي عن أي شيء يخص حياته الخاصة.

توقفت في مواجهته متسمرًا خلف الباب الزجاجي وقد علا وجهي تعبير بالأسى وأطرقت رأسي إلى الأرض حين سمعته يقول صائحًا بلوعة:

- أمجد مات يا مصطفى خلاص.. أمجد مات من غير ما أقوله ما تزعلش مني.. أمجد مات يا مصطفى.

كانت في نبرة صوته حسرة وندم فج حتى إني ذرفت الدموع في صمت غير قادر على مواجهته، كان رجال الأمن يمنعونه وقد كان واضحًا استبسالهم حيث بدا خالي قويًا كثور هائج وغاضب يحاول التملص بأي شكل، قاطع أفكاري وحزني الشديد صياحه الذي يقطع القلب:

- وحياة خالك يا مصطفى تخليني أشوفه.. أشوفه مرة واحدة.. دي آخر مرة يا مصطفى.. بالله عليك يا ابني تخليني أشوفه.

أوقفت الأمن واستأذنت الظابط المخوّل بإدارة المكان أن يسمح لي باصطحابه إلى جثة ابنه لتوديعه لمرة أخيرة كما أخبرته بأن الأمر استثنائيًا

ويخصني شخصيًا وقد كان الرجل متعاونا ولكنه اشترط أن يصطحبنا عسكري من عساكر الأمن وبالفعل قد كان، بدا خالي ساهمًا وهو يسير بخطوات ثقيلة وئيدة، كأنه مسحوب داخل عالم آخر لا ينتمي إلينا ولا يُشبهنا في شيء، عالم يعجّ بالآلام والحسرة والندم، دخلنا الحجرة التي توجد بها جثة أمجد والتي لم آمر بعد بنقلها داخل ثلاجات المشرحة، لم يكن وجهه مغطى بعد لكن كان جسده كذلك، تسمّر خالي في مكانه حينما لمحه نائمًا نومته الأخيرة يسبح في فلك آخر لا يعلمه إلا الله، تقوض وجه خالي محاولًا التماسك بقدر ما استطاع وجرجر قدميه جرا نحو السرير الذي يستلقي عليه أمجد، وقف بجانب السرير ونظر إليه في وجهه، كانت ملامحه خلالها تتقبّض بينما دموعه تسيل بلا توقف، أحسست للحظة بأن عينيه خُلقت كذلك من فرط الدموع التي تتساقط منها، شعرت بأنها مقيدة هناك لزمن طويل وآن وقت تحررها، كانت لمحات من الذكريات تطوف بعينيه الغائبتين وهو يلمس وجه ابنه وقد علاه تعبير يوحي بعدم تصديقه لما يرى، انتحب فجأة منهارًا، كان لصوت نحيبه أثرًا مؤلمًا وعميقًا في نفسي، وضعت يدي على كتفه محاولًا مواساته في هذه اللحظات الصعبة فنظر لي متوقفًا عن النحيب فجأة، أحسست للحظة بأن مَسًّا من الجنون أصابه:

- شوف جميل إزاي يا مصطفى.. أمجد نايم صح؟!

لم أجد كلمات تسعفني في هذه اللحظة الصعبة فأعاد سؤاله:

- نايم يا مصطفى صح؟! قل لي إنه نايم والنبي وهايصحى دلوقتي.

ثم عاد ينتحب بشدة مرة أخرى، لم تستطع قدماه حمله فسقط على الأرض فجأة وحينما حاولت مساعدته تأفف مني ودفع يدي بعيدًا بقسوة فانسحبت إلى مكاني صامتًا، سحب نفسه حتى جلس في أحد الأركان وظل ساكنًا على نحو غريب .

أجهش مرة أخرى بالبكاء، بكى بكاء صامتًا بعد أن أطرق رأسه ودفن

وجهه بين كفيه، نقلت بصري بين رجل الأمن وخالي ثم اقتربت من الأخير وانحنيت محاولًا مواساته، نهض بصعوبة، حاول بقدر الإمكان التماسك واقترب من وجه أمجد ثم منحه قبلة أخيرة بللت وجهه الشاحب بدموع تنضح بالأسى والحزن العميق، اتكأ عليَّ لا إراديًا فخارت قواه وفي لحظة خاطفة سقط على الأرض ونحن نسير على مهل داخل الطرقة الطويلة، صحت بأعلى صوتي طالبًا المساعدة، نقلته سريعًا إلى أقرب مستشفى، كانت حالته الصحية متدهورة ولكن طمأنني الطبيب بأنه سيكون بخير لكن يجب أن يخضع للعناية والمراقبة لمدة لا تقل عن 48 ساعة.

كنت تائهًا في وادٍ سحيق من الألم، فجأة انقلبت حياتي رأسًا على عقب، فقدت الأمل في الولوج إلى الحياة البسيطة الهادئة التي طالما حلمت بها بل تحولت إلى جحيم مفجع تتلألأ فيه النيران وتتوهج لتُحرقني بلا سابق إنذار، أخذت ما استطعت من شقتي بمساعدة عصام حتى يتسنى لي المبيت في أي مكان وبعد ما أصبحت شقتي مسرحًا لجريمة لم أقترفها، حاولت مرافقة عصام في جولته للتحرّي عن ياسمين ولكنه منعني بشدة موضحًا أن ذلك ليس من اختصاصي ورغم علمه بأن الأمر يخصني بشكل كبير وربما يمثل لي كل تبقى من الحياة إلا أنه أصرّ على قراره وحدجني بنظرة قاسية ليؤكد لي ما انتواه، أمسكت حقيبتي لمرة أخرى حزينا، وقفت وحيدًا وأنا أنظر إلى سيارات الشرطة وهي تبتعد عن ناظري، تذكرت تلك اللحظات التي كدت أطير فيها من فرط الفرحة المشوبة بالترقب كمراهق في انتظار الإقلاع على طائرة خاصة في رحلة طالما تمناها وحلم بها، حجزت غرفة في أحد الفنادق بوسط البلد، جلست في غرفتي وحيدًا أفكر في ما آلت إليه أموري، رغبت في البكاء بشدة ولكن لم تسقط دمعة واحدة وتعجبت من تلك الفلسفة المؤلمة التي تقول بأنه في الوقت الذي نحتاج فيه لإفراغ جعبتنا من الهم الثقيل الضاغط بشدة على كاهلنا لا تأتي الدموع، تحتبس وكأنها تصر على إيلامنا أكثر فلا تفرّج عنا، لم أستطع النوم، وفي اليوم التالي اتجهت إلى المستشفى التي

يمكث فيها خالي، طمأنني الطبيب مرة أخرى وأخبرني بأن حالته مستقرة وعلى ما يرام حتى هذه اللحظة ولكن الزيارة ممنوعة، رمقته من خلف زجاج الباب الذي يمكث خلفه داخل غرفة العناية، كان مظهره موجعًا وقاسيًا على قلبي، لقد تقدم في السن فجأة حيث بدا كهلًا هدَّه الزمن، مر في مخيلتي الكثير من الذكريات التي جمعتني به وآلمني أن ذلك العطف الذي منحه لي لم يمنحه يوما لأبنائه وربما ذلك كان السبب في مقتل أمجد من الأساس حينما أحس بأن أباه يُفضلني عليه فما كان منه إلا أن فكر في الانتقام على طريقته الخاصة، كيف تكون الأمور معقدة ومتداخلة إلى هذه الدرجة؟! مر ذلك السؤال على ذهني بلا إجابة شافية.

مرت ثلاثة أيام ولم أتلقَّ من عصام أيّ خبر. فحاولت متابعة القضية في الجرائد، لكن للأسف لم يُذكر عنها سوى القليل جدًا. وسط ضجيج الأفكار قاطعني وجود زاهر وأنا داخل عملي، ربت على كتفي فتعجبت الأمر كثيرًا ثم قال:

- البقاء لله يا مصطفى باشا.. المرحوم كان طيب وفي حاله بس الشيطان بقى..

كان عزاؤه غريبًا فدمدت بكلمات أنا بنفسي لم أتبينها فقال:

- بيني وبينك عملنا تحرياتنا وما وصلناش لحاجة لحد دلوقتي.. ما حدش لاقي ياسمين حتى سألنا عليها في بلدها.. الظاهر إنها ما راحتش هناك خالص بس هقولك على حاجة يمكن تهون عليك.. أنا عارف اللوكاندة اللي كانت بتقعد فيها في وسط البلد..

تململت في جلستي ثم نظرت له نظرة خاوية من أي شعور أو تفكير، أخبرني باسم اللوكاندة على حد قوله واستأذن في الانصراف، جمعت متعلقاتي من الفندق الذي أقيم به وذهبت إلى نفس الفندق الذي كانت تقيم فيه ياسمين ودون تردد سألت عن الغرفة التي مكثت فيها فتاة بأوصافها، تأفف مني عامل الاستعلامات لأنه تم استجواب طاقم العمل بالكامل في

نفية ياسمين في وقت سابق، أخبرته بأني تابع لوزارة الداخلية فتحول من
ساخط إلى متعاون يحكمه الخوف والدهشة معًا، دخلت الغرفة التي كانت
تمكث فيها ولم أخرج منها لمدة يومين، كنت أحاول تخيلها في كل ركن
فيها، شم رائحتها في الملاءات، في عبق الغرفة المحمَّل بالهواء الثقيل،
عانقت الوسادة التي نامت عليها وتخيلتها سليمة معافية بين أحضاني، كم
مرة تخيلت نفسي وأنا أحميها من بطش الحياة وقسوتها، بكيت بشدة بعد
انحباس طويل للدموع وأنا نائم على نفس السرير فبللت الدموع الوسادة
التي طالما نامت عليها، بكيت حتى غفوت دون وعي.

****

بعد مرور خمسة أيام من الحادث المشؤوم بينما كنت أتحدث إلى
الطبيب المسئول عن حالة خالي جاءني عسكري يخبرني بأنهم يطلبونني
على نحو ملحّ في العمل. وجدت بانتظاري رجلًا بدا صلبًا وحازمًا ومن
هيئته خمنت أنه ضابط شرطة لا يقل عن رتبة لواء، يرتدي زيًا مدنيًا عبارة
عن قميص لبني وبنطلون أسود وقد شمّر قميصه حتى مرفقيه فكشف عن
ساعديه المغطيين بالشعر الكثيف، عرَّفني بنفسه قائلًا بنبرة حازمة واثقة لا
تخلو من ود:

- أنا اللواء مراد السيوفي.. أكيد سمعت عني قبل كده.. عارف إنك
دكتور شاطر.. دخلتلك حالة دلوقتي.. محتاج منك تشتغل عليها
من غير ما تضيّع وقت لأنها تخص قضية كبيرة والقضية دي حسب
المعلومات اللي عندي تخصّك..

تملكت مني الحيرة وسألته عن التفاصيل، فناولني ملفًا فيه مجموعة
من الأسماء قائلًا:

- الملف ده في أسماء لناس كتير.. مش هاخبّي عليك.. كل الأسماء
دي تحرياتنا بتقول إنها مستهدفة.. الملف ده طبعًا مش من حقك
الاطلاع عليه بس أنا عارف بتعامل مع مين كويس.. من ضمن

الأسماء هتلاقي أسامي تعرفها كويس.. أظن إنك تعرف عصام الرشيدي وكمان ياسمين عبدالظاهر.

جحظت عيناي بعد أن وقعت على اسم ياسمين وسادني حزن مشوب بخوف شديد في اللحظة التي استطرد فيها:

- مش هاوصيك طبعًا تشتغل على الموضوع ده بسرية.

مد يده إلى جيب سترته وأخرج هاتفًا ثم ناوله لي فأخذته، قاطعني قائلًا وأنا موشك على سؤاله:

- ده تليفون خليه معاك.. حسب المعلومات اللي عندي إن مافيش معاك تليفون.. هاتلاقي عليه رقمي ورقم زاهر.. أكيد تعرف زاهر.. أي حاجة تحتاجها اتصل بزاهر وبالنسبة ليا ما تتصلش غير لما توصل لنتيجة تحليل الجثة.. الجثة تخص بنت اسمها منة عبد السلام بيومي.. كانت على صلة بأمجد أشرف يونس.. ابن خالك اللي اتقتل في شقتك.. واضح إننا أدام قضية كبيرة ولازم نحلها في أقرب وقت.. على فكرة عصام اتضرب عليه نار والحمدلله جت سليمة وهو دلوقتي في المستشفى.. لما تخلّص المهمة اللي كلفتك بيها تقدر تشوفه..

جزعت بشدة لكنه طمأنني بأن الإصابة طفيفة في كتفه ثم أمرني بأن أشرع سريعًا في عملي، دخلت غرفة التشريح وجلست في مكاني، ساورتني العديد من الشكوك، كنت أحس بهَمّ يثقل كاهلي، فاقدًا التركيز غارقًا في أفكاري، تناولت مشرطي ثم كشفت الغطاء عن الفتاة وتراجعت للخلف بمجرد رؤيتها، كانت ملامحها شبه ضائعة لا يتضح منها شيء وقد بدا واضحًا أنها تعرضت لما هو أسوأ من القتل، لم أنفك عن التفكير في ياسمين بينما أعمل وفي حالها وأين أخذتها الأقدار، تلاحق الأحداث بهذا الشكل الغريب جعلني في حالة من التشوش وانعدام التركيز، بعد ساعات من العمل المضني والمستمر وفي اللحظة التي جلست فيها لأستريح

قليلًا فاجأني اتصال من زاهر، نظرت إلى الشاشة طويلًا قبل أن أرد وكأني أستجمع قواي وأنفاسي المتلاحقة، كان عقلي مزدحمًا تتقاذفه الأفكار وتتأكله الصراعات والتكهّنات، فتحت الخط فأتاني صوت زاهر يقول على الجانب الآخر:

- إزيك يا مصطفى باشا؟! عايز أكلمك في حاجة ضروري.
- في إيه يا زاهر؟
- البنت شهيرة جاتلي مرعوبة وخايفة ليحصلّها حاجة بعد اللي حصل لمنة.. المشكلة يا باشا إني ملطوط في الليلة دي وما ينفعش أعمل لها حاجة وكمان ما ينفعش أسيب الباشا بتاعنا في المستشفى.. فلو يعني تكرمت وعرفنا نخبيها في حتة يبقى تمام..

لم أكن أفهم جيدًا ما يرمي إليه زاهر حيث فقد كنت مشوّش التفكير تمامًا، فاستطرد قائلًا:

- أنا عارف إن شقة سيادتك تحت الحراسة بس إحنا جهّزنا لسيادتك شقة بأوامر من مراد باشا على ما الموضوع يخلص.. ممكن آخدها للشقة دي يا باشا..

كنت تواقًا لإنهاء المكالمة بأي شكل لعدم رغبتي في التحدث فأجبت:

- ينفع يا زاهر.
- بس المشكلة إنها خايفة على أهلها يا باشا وبتقولي عايزاهم بعيد عنها علشان لو حصلها حاجة يبقوا بعيد.
- وأنت شايف إيه يا زاهر؟
- ما كنتش سألت يا باشا.

حاولت التركيز بقدر ما استطعت وتنهدت تنهيدة عميقة ثم تذكرت فجأة ياسمين وكم كانت تثق بشهيرة وتحبها، أحسست بشكل غريب أني

مدين لشهيرة وعليّ رد الدين، شهيرة جزء من ياسمين، تنتمي لها وتُذكرني بأني لم أكن أحلم يومًا رغم أن ذلك الحلم يتجسد أمامي ككابوس لا أستطيع النفاذ منه. طلبت من زاهر أن يؤجر لأهلها شقة بعيدًا عن الأنظار على حسابي الخاص فشكرني زاهر وأغلق الهاتف، عدت برأسي إلى الوراء وأسندتها إلى الكرسي، شعرت بأني أدخل بلا أدني إرادة أو وعي داخل حلم يقظة، أغمضت عينيّ وتركت ذراعيّ تتدليان جانبي، أخذت نفسًا عميقًا معبقًا بروائح الجثث والأدوات الطبية، كان الجو كريهًا منفرًا وسوداويًا إلى حد بعيد ولكني لم أكن أستطيع النهوض وأحسست أني عاجز عن تحريك أي عضو من جسدي، لا أفرق كثيرًا عن الجثث المحيطة بي فهم قد حصلوا على الراحة، بينما أنا لست أكثر من حي محكوم عليه بموت أشد بطشًا من الموت نفسه، فهناك من يولد ويموت شابًا ولكنهم يقررون دفنه عجوزًا مثل منزل قديم كئيب قرَّروا هدمه بعد أن أيقنوا أخيرًا بعدم قدرته على الصمود في وجه الظروف، فتحت عينيّ حين داهمتني فكرة غريبة، أخرجت هاتفي واتصلت على زاهر سريعًا وقلت بمجرد رده:

- زاهر.. شهيرة فين؟
- موديها عندك البيت يا باشا زي ما اتفقنا..
- أيوه يعني الشقة اللي هاقعد فيها فين؟
- في نفس العمارة يا باشا.. الدور الثاني.. البواب الله يصلح حاله قالنا دي بتاعة ناس مسافرة بلاد بره بقالها 15 سنة ما جتش..

أغلقت الهاتف سريعًا وركبت سيارتي ثم انطلقت إلى الشقة، لم أوجه كلمة إلى البواب الذي حاول التحدث معي، قرعت الباب حتى سمعت صوتًا مرتعدًا يأتيني من خلفه، كان صوت شهيرة فقلت وقد نفد صبري:

- افتحي يا شهيرة أنا مصطفى.

أصدر الباب صريرًا موحشًا فدلفت على عجل، نظرت إليها ثم قلت بلهفة:

- شهيرة إنتِ الوحيدة اللي عارفة ياسمين فين.. أرجوك تقوليلي ياسمين فين.

تململت في مكانها وتلعثمت، فوقفت في مواجهتها قائلًا بنبرة صادقة مفعمة بالحزن:

- بالله عليكِ يا شهيرة.. قوليلي ياسمين راحت فين.. إنتِ عارفة إني بحبها مهما حصل.. أنا عاوز ألحقها قبل ما تأذي نفسها ولا حد يعمل فيها حاجة.

نظرت لي نظرة طويلة متأملة وكأنها تستشف صدقي، أحسست بأنها أوشكت أن تقول شيئًا ولكنها سرعان ما قالت بنبرة بدت كاذبة:

- ما اعرفش.

أطرقت رأسي بأسى ثم جلست في مكاني وأنا أنظر لها، كانت تحاول التملص والهرب من نظراتي فقلت:

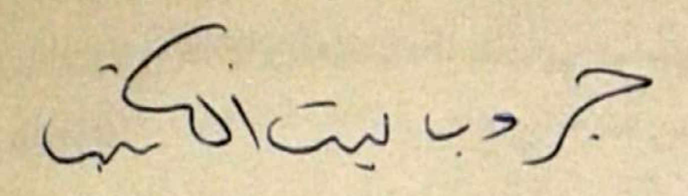
- يعني هو ده الرد على إحساني ليكِ!! ماشي يا شهيرة اللي تشوفيه.

اقتربت مني بعد تفكير لم يطل ثم قالت:

- احلف إنك مش هاتقول للحكومة.

- يا شهيرة أنا بحبها وعايز أحميها... خايف تأذي نفسها أو حد يأذيها.. بس قوليلي علشان ألحقها.

- هاقول لك.



عصام الرشيدي

مرّة أخرى لم تستطِع الرصاصات أن تنل مني، القدر غريب ويتطلع إلى إخباري بشيء غامض، رسالة ما يوجهها إليّ وعليّ فهمها، جلس زاهر يراقبني عن كثب بعينيه البراقتين الخضراوين ويتفحّصني بعناية والقلق والتوتر يتملكان منه، أكد له الطبيب أكثر من مرة أني بخير وأستطيع مغادرة المستشفى غدًا في الصباح، كانت أصوات الكثيرين من الزملاء تتناهى إلى مسامعي ولكن ثقلًا وتنميلًا غريبين يتحكمان في أطرافي، ابتسمت لزاهر ابتسامة رائقة فبادلني ابتسامة حزينة فقلت بصوت ضعيف بعض الشيء:

- هو أنا ما ما متش برضه؟!
- بعد الشر عليك يا باشا.. دي شوية خدوش بس والحمدلله.. ما لحقوش ولاد الهرمة يكملوا عليك لأننا ضربنا عليهم نار على طول وبعدين يا باشا أنت برضه معلم.. لولا إنك حميت نفسك ونمت على كنبة العربية كان الرصاص جابك.
- ومسكتوهم يا زاهر؟
- مسكنا واحد منهم بس مات ابن الهرمة قبل ما ينطق بكلمة واحدة.
- مات!!
- آه يا باشا ما هو اتضرب بالنار ووقع من على الموتسيكل لكن الواد التاني اللي كان سايق هرب الله يحرقه بس ما تقلقش يا باشا الداخلية مقلوبة على الحادثة دي ومراد بيه مش مخلّي في جهده

بجهد علشان يجيبوا الواد التاني.

حاولت تحريك ذراعي الأيسر لكن آلمني بشدة فقال زاهر:

- ماتحركوش يا باشا دلوقتي.. الرصاصة الحمد لله جت في اللحم بس وربنا ستر.

أطلقت ضحكة لكنني سرعان ما شعرت بوخز فقلت:

- هو أنا جت فيَّا رصاصة؟!

مسح زاهر على وجهه ثم قال:

- في اللحم يا باشا.

ابتسمت وأطرقت برأسي قليلًا ثم قلت بفضول:

- مين اللي بره يا زاهر؟

- البشوات زمايلك يا باشا.. أحمد بيه وسامح بيه وأسامة باشا وكمان مراد باشا السيوفي بره.

- ناديهم يا زاهر. عيب.

دخل الجميع إلى غرفتي ليطمئنوا عليَّ، فأكدت لهم أني بخير حال وشكرتهم على مشاعرهم الطيبة وحماستهم الشديد للنيل من المعتدي وزجه خلف القضبان بل وقتله إن تطلب الأمر، راودتني فكرة أحسست بأنها تتحكم بي. وعندما همّ الجميع بالمغادرة طلبت من السيوفي أن يبقى، وبعد مغادرة الجميع طلبت من السيوفي أن ينادي زاهر من الخارج، كان السيوفي متطلعًا ليعرف حقيقة ما يجري، منساقًا خلف طلباتي، شغوفًا ومنتظرًا لما سيحدث بشكل تعكسه ملامحه، طلبت من الاثنين الاقتراب مني ثم سألت بهمس مسموع وحذر:

- حد من الصحفيين هنا؟

- لا ما تقلقش.. كلهم بره وما فيش أي تصريح عن أي حاجة لحد دلوقتي.

- تمام يا باشا.. أنا بموت.

- يعني ليه؟ ما أنت كويس أهو

- يا باشا.. اشمعنى بالتحديد في التوقيت ده اتضرب عليا نار؟! ما أنا موجود كل يوم وما حدش قالي أنت فين! اللي ضربني بالنار عارف إني بنخوّر وراه.

- تقصد مين؟

- الشبكة يا باشا..

- نوحة ونهى؟

علّق زاهر:

- يا ولاد الكلب.

فاستطردت بهدوء:

- أيوه يا مراد بيه.. وأهو اللي حاول يقتلني يبقى ضرب عصفورين بحجر.. البلد شايطة ومش هايتقال عن الحادثة غير إنها تصفية حسابات.. منهم خلصوا مني وفي نفس الوقت لبسها أي حد تاني.

فقال بعد تفكير لم يطل:

- قصد كلامك إن اللي ورا علقة زاهر هما نفسهم اللي حاولوا يقتلوك.

- أيوه يا باشا.

وقف مراد السيوفي مفكرًا وشد قامته ثم زرع الغرفة جيئة وذهابًا بينما مال عليه زاهر وهمس في أذنه:

- ما بلاش موضوع العلقة ده يا باشا.. ما كانش شلوت وكام بوكس يعني.

- هششش.

- أوامرك يا باشا.
- ودي الوقت تلاقيهم بيفتشوا على البنت ياسمين.

لمعت عينا السيوفي قائلًا:

- معنى كلامك إن البنت ياسمين دي في خطر؟
- بالظبط يا باشا، وعلشان كده لازم نوصلّها قبل ما الناس دي توصلها.. لأنها الشاهد الوحيد، هي والبنت منة.
- بس فيه حاجة حصلت وأنت في المستشفى؟

تطلعت إليه منتظرًا أن يكمل، فقال:

- لقينا النهارده جثة مرمية في النيل وحسب المعلومات اللي عندنا.. الجثة بتتطابق أوصافها مع البنت المختفية اللي اسمها منة.

جحظت عيناي وساورتني الشكوك ثم قلت:

- يا باشا الموضوع كبير صدقني.. أنا واثق إنهم قتلوها لأنها اتكلمت معايا.. مش بعيد بعد موت أمجد لأنها كانت بتتردد عليه عرفوا إني صاحبه ومش بعيد برضه من خوفها على روحها وأهلها خبت عليهم فحاولوا يعرفوا منها الحقيقة ولما عرفوا قتلوها.
- وجايز يكونوا تقلوا العيار معاها في استجوابها وماتت في إيديهم
- كل شيء جايز يا باشا بس دلوقتي إيه العمل؟

في هذه اللحظة اقتحم الغرفة علينا دون استئذان شاب فارع الطول أعرف ملامحه جيدًا، ابتسم بحرج ابتسامة عريضة فقلت مبتسمًا:

- مصطفى.. أنت هنا؟! منوّر يا درش تعالى اتفضل.

قال زاهر:

- مصطفى بيه ما بطلش اتصال بيا علشان يطمن على صحتك.

سلم مصطفى على زاهر والسيوفي ثم قال بهدوء وقد كان الحزن متملكًا منه:

- ما كنتش عارف أمشي من شغلي.. النهارده كان فيه جثة بفحصها لبنت لقيوها مرمية في النيل واللي عرفته من مراد بيه إنها نفس مواصفات البنت المفقودة وما خبيش عليك أنا كل بنت بتيجي ليا بخاف تكون هي.

أطرق برأسه إلى الأرض لثوان وقد شرد بعيدًا ثم سرعان ما استجمع نفسه ونظر لي قائلًا:

- عموما الجثة اللي وصلتني كانت ملامحها ضايعة تمامًا.. حسب التوصيف المبدئي.. اتعرضت للتعذيب مدة ما تقلش عن 3 أيام.. فيه جروح عميقة في الرأس وكدمات في مناطق مختلفة من الجسم زي الظهر ومنطقة الحوض والفخدين.. وفي حروق في رأسها كمان في أكتر من موضع.. الحقيقة أنا مستغرب مين اللي عنده كل القسوة دي علشان يعذب بني آدم أيًا كان اللي عمله فيه بالشكل الوحشي ده.. عموما البنت ماتت من ضربة قوية على الرأس بآلة حادة.

أخذ نفسًا عميقًا ثم نقل بصره إلى السيوفي قائلًا:

- أنا كنت بتصل بزاهر أطمن عليك من وقت للتاني بعد ما مراد بيه جالي وفهّمني على الموضوع كله تقريبًا وطبعًا يا عصام أنت عارف الموضوع ده يهمني أد إيه.. اطمنت أكتر لما عرفت إن إصابتك مش خطيرة بس كنت لازم أخلص التقرير الأول حسب تعليمات مراد بيه وأول ما خلصته جيت جري أطمن عليك.

شكرته على طيبته وأثنيت على عمله، كنت أعلم جيدًا أن مصطفى تدور بعقله الكثير من الأفكار المرعبة وتتآكله الهواجس والأوهام، لم يكن بيدي أي شيء لأفعله من أجله سوى أن أنقذ ياسمين من مصيرها الأخير وأن تُقدم للمحاكمة بشكل لائق وعادل، بصراحة كان بداخلي رفض تام لإتمام مسيرتي في سلك الشرطة ولكني كنت أشعر وبشكل

يقين بأن قضية ياسمين بكاملها تخصني وأنا من يجب إتمامها على أكمل وجه بشكل عادل كما يمليه عليّ ضميري ويعينني الله عليه، شعور في نفسي يلحّ عليّ ويخبرني بأنه الواجب الأخير الذي يجب أدائه ليجلب بعض الراحة والسكينة إلى نفسي التي أضناها السقوط في المستنقع خلال الفترة الطويلة المنصرمة المثقلة بالتقلبات والهموم والحزن، نظرت إلى مصطفى الذي كان يتحدث إلى السيوفي في هذه اللحظات عن حيثيات حادث القتل الأخير وأدركت بأنه هو الآخر يسعى لإتمام مهمته التي ربما خلق من أجلها، أو تلك الرسالة التي أتت به خصيصًا من أمريكا إلى هنا، ليلقى تلك الفتاة ويحبها كما لم يحب من قبل، ليتعذب بشكل ما وليمنح الأمل أيضًا، بطريقة أخرى كنت أشعر بأن مصطفى كالرسول المرسل من بلاد بعيدة برسالة نورانية متسامحة بعد أن تردّينا إلى أسوأ ما يكون، في الحقيقة كانت نظرتي مثالية بشكل هزلي لدرجة أنه لو سمع بها طفل صغير في الشارع لسخر مني أشد سخرية، لكنها في الحقيقة كانت لحظات خلابة تلك التي مرت بي وهو يقف أمامي، رغم كل أحزانه وهواجسه وآلامه يقف مبتسمًا راضيًا وقانعًا بما يمر ويحدث له، لم يتأفف من قَدَره ولم ينخرط في الملذات بحجة النسيان، لم يفعل شيئًا من ذلك.

أخرجتني كلماته من داخل كل تلك الأفكار حين قال لي:

- أنا أخدت شهيرة عندي البيت.. البنت منهارة وخايفة بعد كل اللي حصل.. بصراحة كمان أنا خليت زاهر ياخد إخواتها وأمها وأجّرت ليهم شقة لحد ما الموضوع يخلص لأن ما حدش عارف البنت دي ولا أهلها مستنيهم إيه.

نظرت له بإعجاب وتساءلت كيف فاتني أمر تلك الفتاة، قال زاهر موضحًا:

- دكتور مصطفى بيه اتصل بيا وقالي أعمل كده النهارده واستأذنت من مراد باشا وشرحت له الحكاية وقال لي روح ونفذ على طول.

أمعنت التفكير في القضية برمتها ونقّلت بصري بينهم جميعًا ثم قلت بهدوء:

- يبقى أنا كمان ما بين الحياة والموت.

تطلعوا الي جميعًا فقلت مفسرًا:

- زي ما قلت لمراد بيه.. أكيد هما مستنيين يعرفوا أنا حصلي إيه لأنهم عرفوا إني بنخور وراهم والدليل إننا عندنا جثة أهو وضيفوا على ده محاولة قتلي.. يبقى زاهر لازم يكمل مهمته ويروح لتوحة عادي جدًا ويفهّمها إني ما بين الحياة والموت ومش بعيد أموت فعلا.. وأنت يا مصطفى كل اللي مطلوب منك إنك تحاول بأي طريقة تحصل على أي معلومة من شهيرة عن ياسمين.. البنت دي أكيد تعرف حاجة وياريت يا مراد بيه لو هايتنشر حاجة عن الموضوع يتنشر نفس الكلام اللي قلته من شوية وأنا واثق إن الشبكة دي وراها واحد من الناس التقيلة في البلد.

ثم وجهت كلامي إلى السيوفي قائلًا:

- أخبار مراقبة التليفونات إيه باشا؟

- زي ما إحنا وما فيش حاجة اتغيرت وهما كمان ما فيش عندهم جديد.. كل اللي لفت انتباهي النهارده وبيأكد كلامك إن الولية اللي اسمها نهى قالت لتوحة النهارده لو حصل المراد ها نبقى على ما إحنا في العين.

- يبقى أنا صح يا باشا.. العين!! هو ده السر اللي لازم نعرفه، خصوصًا إن ما بقيش إلا أيام على حفلتهم الوسخة.

استأذن مصطفى في الانصراف وتبعه زاهر، وقبل أن يغادر السيوفي اقترب مني وجلس على حافة السرير، ثم قال بهدوء:

- على فكرة سارة ما بطلتش اتصال علشان تطمن عليك.

أحسست بشوق ولهفة غريبة تتملكاني، وبأن الحياة تبتسم لي مرة أخرى، الفرحة تتسلل خفيفة كالفراشة داخلي، تمنيت لو أني أصبت منذ شهور لأعرف حقيقة مشاعرها التي تجاهلتها وفكرت فقط في نفسي ضاربًا بإحساسها الرقيق عرض الحائط، كيف تسنى لي أن أكون قاسيًا غليظ القلب معها؟! وكيف تجاهلت أنها فقدت حياتها برمتها؟! لقد كانت تنتظر شيئًا من الشفقة المغلفة بالحب الذي ظننت أني أحمله لها بين جوانحي، لكنها لم تلقَ مني سوى هجر وقسوة وعذاب؟! لقد تداخلت أموري وأحاسيسي واضطربت بعد فقدان طارق فنسيتها ونسيت نفسي بل ونسيت الله، اعتصرني الحزن وتمنيت لو أن أُكفّر عن أخطائي فترجيت السيوفي أن يأخذني إليها، لم يجادلني الرجل كثيرًا ثم قررنا أن نخرج خلسة من دون أن يرانا أحد إلى منزله فربما أكون مراقبًا، دخلت إلى غرفتها بعد أن قرعت الباب كعادتي القديمة ثلاث مرات، وبعد أن أخبرها والدها بأني جئت لملاقاتها، أحسست أن هناك حركة مفاجئة في الغرفة، كانت ذراعي مربوطة ومثبتة إلى رقبتي على شكل حرف L، انتفضت في مكانها بمجرد أن رأتني، نظرت إليّ نظرة يملؤها العطف والحب المشوب بشيء من القلق ولكنها سرعان ما أشاحت بوجهها وحركت كرسيها حتى أصبح ظهرها لي وكأنها تداري لهفتها وحبها، تحافظ على ذلك الجزء المتبقي من أنوثتها بعد ما تحطم على صخرة قسوتي، لمحت في هذه اللحظات الخاطفة من خلال المرآة توردًا على خديها واحمرارًا على شفتيها فابتسمت وتلعثمت وكأني أتعرف عليها لأول مرة، كأن لم يجمعنا بيت في يوم من الأيام، كان إحساسًا بالنشوة والحماسة يملؤني ويتملك مني، حاولت أن أقول شيئًا ولكن للأسف لم تطاوعني الكلمات كعادتي ولكني اقتربت منها ولمست على شعرها قائلًا:

- أنا مش عارف أقولك إيه بس.. بس..

أين ذهبت الكلمات وتلك المشاعر الجياشة التي طالما شعرت بها؟! يا الله أنقذني، كنت ساخطًا على نفسي، امتعضت وحزنت حتى أني قررت

المغادرة، ولكن سرعان ما تسلل إلى داخلي إحساس غريب بأن هذا المكان ليس مكاني وبأني غير جدير بها، ليس لها ذنب في أن ترتبط بإنسان يابس المشاعر، فاقد القدرة على التعبير بل فاقد القدرة على الحياة، سارة لم تعد تستحق ذلك الشخص المتعجرف القاسي، نظرت لها نظرة أخيرة كان خلالها قلبي يُعتصر وكأن قبضة فولاذية تقبض عليه، بهدوء وحزن أعطيتها ظهري وقطعت خطوتين تجاه الباب بخطى ثقيلة فسمعت صوتها الناعم يقول:

- عصام..

تسمرت في مكاني والتفت إليها، لم أكن أدري أن دموعي كانت تترقرق في عينيّ في تلك اللحظة الثقيلة وبأني أوشكت على السقوط ليس من أثر الرصاص ولا مواجهة الموت، وليس حتى على فراق طارق، إنما كنت موشكًا على السقوط بسبب فراقها الذي أحدث داخلي جرحًا كبيرًا وندبة آمل أن يستطيع الزمن إصلاحها، قاطعت كل أفكاري ابتسامتها التي امتزجت بالدموع وهي تقول:

- أنا بحبك يا عصام.

سرت رعشة قوية في كل أجزاء جسدي فاقتربت منها سريعًا ثم ركعت على الأرض لكي أتمكن من ضمها لصدري واحتضنتها وأنا أبكي بحرارة، وقلت:

- والله العظيم أنا آسف..

عدت للوراء برأسي ونظرت في عينيها، كانت تبكي فمسحت دموعها بكفيّ ثم قلت:

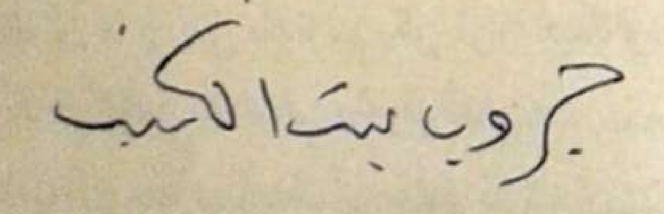
- البقاء لله يا أم طارق.. إن شاء الله ربنا يعوضنا.

بكت سارة بشدة وهي تحتضنني وتدفن رأسها في صدري، تتمسح فيّ كقطة صغيرة. كأنها اشتاقت وانتظرت بحزن عميق تلك اللحظة التي وجب حدوثها منذ فترة طويلة، لقد عرفت الآن الحقيقة الموجعة، لقد

كانت تنتظر العزاء والرحمة مني أنا ولكني كنت الوحيد الذي لم يسامحها على جرم لم ترتكبه، سحقتها بغضب لم تستحقه، كل ذلك لم أكن لأفهمه بتلك البساطة.

بشكل غامض حضرت أمام عيني صورة ياسمين وهي تنظر لمصطفى تلك النظرة المحبة البريئة وتذكرت مصطفى وهو يطلب مني ويرجوني أن أكون رحيمًا بحبيبته رغم كل ما عرفه عنها ورغم كل الهواجس التي ربما ستحضر بذهنه بعد كل ما عرفه، أيقنت بأن هناك أشياء في هذه الحياة تأتينا لسبب ما وأشياء أخرى نفقدها أيضًا لسبب ما، وما علينا إلا البحث عن الحقيقة والاعتراف بها حتى لا نخسر ما نملك، ولا نهدم ما بنينا، وحتى لا نتباكى عليها نحن المخطئين ونندم عندما لا ينفع الندم.

في تلك اللحظة وأنا بين ذراعيّ سارة قررت قرارًا عاهدت الله على تنفيذه في اللحظة المناسبة.



الفصل الأول

عدت إلى القاهرة مرة أخرى، أحسست بأن رابطًا غريبًا أو خيطًا خفيًا لا أراه يربط قدري بها، أمعنت التفكير بعد ما أخذني ياسين بحيطة إلى شقته مرة أخرى، تلك التي مكثت فيها سابقًا، لم أكن بعيدة عن عين شمس ولا عن مسرح الأحداث الكبير الذي تلقفني لتأدية الدور الأساسي في مسرحية درامية تنضح بالدموع والعذابات والحسرة، لم تكن شيماء لتفهم الحقيقة لو أخبرتها بكل تفاصيلها كما أنني لا أملك الوقت لأرويها لها كاملة، كانت عينا ياسين تنضحان بكل معاني العطف والشفقة، يدرك في أعماقه أن هربي من بلدنا لم يكن قرارًا هينًا، ويعرف أني لست مستهترة لأفرط في كرامتي وشرفي وشرف أهلي.

عرفت منه فيما بعد أنه حاول مرارًا أن يعرف السر الغامض وراء اختفائي الغريب حتى أنه دخل في مشاحنة مع أحمد ظنًا منه أنه السبب وراء ذلك، عرفت أيضًا بأنه لم يذكر أي شيء لأي إنسان ولا حتى لصديقتي وخطيبته شيماء عما حدث في تلك الليلة المشؤومة واكتفى أهل القرية الصغيرة بالتكهن بأنه تم اختطافي في تلك الليلة الليلاء الموحشة، فبحثوا عني في كل مكان، لكن بلا نتيجة تُذكر، حتى إن ياسين ساعدهم في البحث عني بحماس شديد، أحسست بأن قدري معدّ سلفا بدقة كدقات ساعة لا تخطئ أبدًا، انتهى ياسين من حديثه بعد أن أخبرني أخيرًا بأنه لم يتوقف أبدًا عن البحث عني آملًا أن يلقاني ولو مصادفة في شوارع القاهرة. وأنه في كل مرة كان يأتي فيها إلى القاهرة كان يكرس وقتًا للبحث عني

حتى إنه ذهب إلى منزلنا وأخذ صورة لي يلف بها شوارع القاهرة كلما استطاع أملًا في أن يجد ولو خيطًا ضعيفًا يقوده لي، انتهت كلماته وشرعت في سرد اعترافي الزائف الذي سيقودني حتمًا إلى تحقيق غايتي الأخيرة التي لمعت وأضاءت في عقلي المعتم والمثقل بالهموم، كان كل شيء واضحًا بالنسبة لي، سأخبر ياسين بالسر الذي لم يعرفه سوى مصطفى، بأني مغتصبة ولكني سأزيف بضمير مستريح حقيقة هوية مغتصبي الذي يجب الخلاص منه تمامًا، كنت أدرك بحدس شيطاني أن ياسين ما زال يحبني، يملك ذلك الجانب الضعيف الذي لا يستطيع مقاومته كلما رآني، لم أعر ذلك انتباهًا ولم تهمني أبدًا أحاسيس شيماء لأني كنت أدرك بأن الحياة ستنتهي بي قريبًا عند هذه النقطة، لقد بات الانتقام هو الشيء الوحيد المتبقي لي، تخيلت تلك المعاناة التي مر بها أهلى بينما شرعت معاناتي تطل أمامي بتفاصيلها الكبيرة والدقيقة وكأنها فيلم يعرض على شاشة أمام عينيّ، أحسست بسخونة في عقلي بينما جسدي يشتعل نارًا من فرط الانفعال والغضب فقلت بعصبية:

- أنا هربت لأن أحمد غلط معايا يا ياسين .. والله عمل كده غصب عني .. حاولت كتير معاه علشان يجي يتقدم لي لكن للأسف كان بيتحجج بأي حجة وفي الليلة اللي أنت شُفتني فيها دي كنت رايحاله علشان أحط حل لموضوعنا.. ضربني وقال لي أنا مش هاتجوز واحدة نمت معاها.

تطلعت إلى ياسين الذي كان مصعوقًا مأخوذًا من اعترافي الثقيل على كاهله، عليك أن تتخيل لو أن فتاة أخبرت حبيبها بأن شخصا يعرفه جيدًا اعتدى عليها، ماذا سيكون رد فعله إزاء ذلك الاعتراف؟! كان عليّ أن أضغط بشيء أكثر قسوة حتى يتم لي ما نويته فاستطردت بهدوء وقد لاحت دموع حقيقية في عيني، لم يكن رسم الدموع شيئًا مزيفًا أو صعبًا لأن لديّ رصيدًا يكفي لجعلها تنهمر إن أردت:

- وأديك شايف أنا وصلت لفين يا ياسين.. أنا اتبهدلت أوي أوي فوق ما تتخيل ومش عايزة حاجة أكتر من إنه يعترف بغلطته ويتجوزني.. أنا عارفه إنه هايرفض.. بس لما الدنيا ضاقت بيا أوي ما كانش أدامي حل غير إني أرجع تاني وأحاول تاني وما كنتش متخيلة إن ظروف أهلي بقت كده! هاقابلهم بأي وش بعد اللي حصل حتى لو أحمد اعترف بغلطته؟! وهايعترف بيها إزاي؟! كل التطورات دي شافها أدامه وما حاولش حتى ولو لمرة واحدة يدور عليًّا.. ده حتى يا أخي لما رحت تسأله عليا دخل فيك شمال واتخانقتوا.. هو فيه حد واطي أوي كده.. بالله عليك فيه حد منزوع من قلبه الرحمة بالشكل ده؟!

كانت عينا ياسين جاحظتين تشعان غضبًا في هذه اللحظات وقد بان انفعاله على ملامحه المتقوّضة حتى إنه عض شفته السفلى وضغط عليها بأسنانه محاولًا تمالك أعصابه، لم يكن باقيًا إلا إلقاء الكارت الأخير ليكتمل ما خططت له فقلت وأنا أجهش بالبكاء:

- شرف أهلي لازم يرجع غصب عنه يا ياسين، وأنت الوحيد اللي ممكن تساعدني.. مش طالبة منك حاجة أكتر من إنك تروحله وتحاول تفهمه إنك لقتني شبه خلصانة خالص وعاملة حادثة وبموت مثلًا.. أو أي حاجة تفكر فيها بس المهم إنه ما يشكش فيك.. لازم أخليه يعترف بغلطته.. لازم يا ياسين.

نهض ياسين من مكانه بعد فترة وجيزة من التفكير، كنت أراقبه بطرف عيني مدعية البكاء ولا أستطيع أن أقول إنه لم يكن بكاء حقيقيًا لأني استدعيت كل الظلم الواقع عليّ منذ اغتصابي حتى تلك اللحظة التي قتلت فيها دفاعًا عن شرفي وصولًا إلى هذه اللحظة التي تجلس فيها أمامي الآن بعد ما استطاع ياسين أن يجلبك إلى هنا، نحن هنا يا حبيبي.

لن يأتي أحد إلى هنا ولن ينقذنا أحد، أترى الشمس الغاضبة هناك

وهي تودع الأرض؟! إنها تخبرني بأن يومي الأخير قد اقترب، لقد سجلت اعترافي كاملا وقصصت لك الحكاية كاملة كي تصونها وتحفظها داخلك حتى يومك الأخير، عليك أن تعرف بما لا يقبل الشك أن إغلاق الباب في وجهي أسفر عن كل تلك الأوجاع لفتاة لم يكن لها ذنب سوى أنها أحبتك ووثقت بك دون أن تشك ولو للحظة بأنها تحب شخصًا دميمًا ونذلًا مثلك، لقد سلبتني قسوتك وادعاءاتك الباطلة كل أمل في الحياة، لو لم تغلق الباب لانفتح أمل جديد لي على هذه الأرض، لتكوّمت الأوجاع الناتجة عن اغتصابي بعيدًا ونسيتها مع الأيام. ولكنها، بسببك، تحولت لبركان غاضب يقذفني من ألم ليتلقفني ألم آخر أكثر حرارة وسوداوية عمّا مضى.

تركت «أحمد» ضحيتي مع أفكاره وهواجسه ودموعه الصامتة، تركته يرى الجانب الأسود لشخصه الزائف الذي طالما تفاخر به، وذُبت داخل أفكاري الأخيرة، أتساءل ماذا سيفعل كل من مروا في حياتي حينما يسمعون قصتي في آلة التسجيل تلك. يعيدونها لمرة أو اثنتين ليستخلصوا النتائج، ليبدلوا نتيجة بأخرى، ليُمعنوا التفكير في كل تفصيلة صغيرة حتى تتبين لهم الحقيقة كاملة، ماذا سيفعل هؤلاء؟! وماذا سيفعل أحمد؟! هل سيعيدني بناء الأحداث إلى ما كنت عليه؟! هل ستتمخض حكايتي عن منحي شفقتهم من جديد ليروني من جانب آخر لم يروه من قبل؟!.

فككت الكمامة من على فمه ونظرت له نظرة طويلة، كانت عيناه تسيلان دموعًا لا تنتهي، لقد عرف الحقيقة أخيرًا، أدرك بأن جرحه عميق لن يداويه الزمن، لم يستغث ولم يرفع بصره إليّ، لم يمنحني كلمة واحدة أو يستجدي عطفي لكي أتركه، في النهاية طأطأ رأسه ودموعه تسيل في هدوء تتخللها جهشات قوية من وقت لآخر، ابتسمت ثم أشحت بوجهي عنه وكان صوت بكائه يمنحني عزاء ورضا كبيرين.

سرت ببطء حتى وصلت إلى الركن الذي يقبع فيه المسجل الصغير

واطفأته، جلست وتكورت على نفسي منسحبة للوراء، أغمضت عيني منصتة لصوت الكون، تذكرت الأيام القديمة بشكل غريب وكأني صرت فجأة ذات سلطة على ذاكرتي تمنحني ما أشاء، تمنحني كل تفصيلة رنوت لها طالما أردت ذلك، بكيت بشدة وأنا أتذكر أبي وأمي وأخي، لكم تمنيت لو أحتضنهم جميعًا ولا أُنتزع أبدًا منهم إلا جثة هامدة، أنام النوم الأخير بين ذراعَيْ أمي لأبكي بحرقة على صدرها العطوف الذي يسع الكون بأكمله لأُسقط أحزاني جميعًا في دموعي المالحة على كتفها من أثر الفراق والألم والعذاب، لأصرخ في أخي عاليًا وأخبره بأن أختك شريفة لم يمسها ذيل الشيطان، ارفع رأسك فلا داعٍ لطأطأتها يا صغيري، فالجبناء وحدهم من يطأطئون رؤوسهم وأنا كنتُ شجاعة حتى اللحظة الأخيرة، رأيت دموع أبي في تلك اللحظة تجوب خيالي وتلسعني، رجوت الله أن يمنحه عطفه وكرمه، يمنحه نعمة النسيان لينسى خيبته الأخيرة التي طالته في فتاته الوحيدة، تمنيت لو أنحني على قدميه أقبلها وأخبره بصرخة مدوية بأني عذراء ما زلت.

مرت في مخيلتي تلك الأوقات القديمة الرقيقة كالحلم حينما كنت صغيرة أتجول في الحقول ويأتي المساء علينا أنا وصديقتي شيماء فنتساءل مرتعدتين عن الكلاب والحيوانات الضارية والأشباح أيضًا إن كانت ستعترضنا ونحن في طريقنا إلى منازلنا، لم نكن ندري أن الكلاب مخلصة رحيمة وأن الحيوانات الضارية تملك من الرحمة أكثر مما يملكه الإنسان وأن الشبح الحقيقي الذي عرفته في حياتي هو شبح الرحمة الذي لم أرهُ أو أحسه في أي كائن كان، حتى ذلك الرجل الذي أحببته، مصطفى، تبرأ مني وتركني لمجرد أنه علم أني الفتاة الخطأ التي ألقتها الأقدار في طريقه، أعدت مشاهد الحب المستتر، نظرات اللهفة والشوق التي مرّت بنا، لم أكن ناقمة عليه ولم أكن أكرهه، فلن أمنح كرهي للعالم، سأمنحهم قصة وجثة علهم يعتبرون وجل ما أتمناه أن يعلنوا تلك الحقيقة لتكون وسامًا على قبري، دعوت الله أن يمنح مصطفى الطمأنينة والحب لأنه يستحق

ذلك، فلقد كنت أدرك من البداية أن لا أحد يستطيع أن يتحمل العيش وفي كنفه فتاة مغتصبة وحتى وإن ادعى ذلك لفترة وجيزة فكيف يمكنه مغالبة كوابيسه التي تأتيه ليلًا لتُعيد عليه مشهد الاغتصاب كاملًا لمرات عديدة مؤلمة حتى ينهض صارخًا متأففًا من اختياره لاعنًا نفسه في أعماقه وعلى إثره لاح في خاطري مغتصبي المجهول، البطل المفقود في تلك الحكاية كاملة وتمنيت بكل جوارحي بأن يحترق في الجحيم.

جال في خاطري زاهر وما فعله من أجلي، الكثير من الأفكار المشوشة كانت متعلقة به لكني اكتشفت في النهاية أن ذلك الرجل الضخم، غريب الملامح الذي يبدو كوحش ليس أكثر من رجل متهدم سحقته الأقدار فانساق خلفها، وهو رجل في داخله طيبة لمستها منه. في النهاية تذكرت عصام الرشيدي بابتسامة راضية وقلب طُيب خاطره وتمنيت له كل خير لأنه الرجل الوحيد الذي منحني العطف حين ندرته والكرم حين انقطاعه.

أطرقت برأسي وانتظرت، انتظرت طويلًا، انتظرت ليومين حتى حدثت تلك الجلبة.. كنت أدرك أنها النهاية، ابتسمت في نفسي، كانت نظرات أحمد تلاحقني برعب وتوجّس كبيرين، نظرت من النافذة فاستطعت أن ألمحهم جميعًا يهرلون باتجاه المبنى، كان عصام الرشيدي يتقدمهم وفي صحبته مصطفى وياسين وزاهر أيضًا، ازدادت فرحتي وتهلّل وجهي، شعرت بأن إحساسًا ناعمًا عذبًا يسري داخلي، تسللت ريح غامضة خفيفة فتحركت معها خصلات شعري الطويل، أخذت قطعة الشوكولا التي احتفظت بها منذ البداية وحتى هذه اللحظة ثم خطوت الخطوة الأولى بثقة وقضمت قطعة صغيرة منها مبتسمة في ثبات..

أثنيت قدمي وخطوت الخطوة الثانية بهدوء غريب وأنا أحس بالشوكولا تذوب في فمي..

ثم كانت خطوتي الثالثة، جلست على الحافة أسترق السمع وهم

يصعدون السلالم، يهيجون الأتربة والغبار يلاحقهم مع خطواتهم الثقيلة المنفعلة..

لم يكن أمامي فعل أي شيء سوى أن أقدم على فعل واحد فقط..

الخطوة الرابعة.. الخطوة الأخيرة..

وقفوا جميعًا أمامي مشدوهين وأنفاسهم متلاحقة، عيونهم تملأها الحسرة والخوف الشديدين، نقلت بصري بينهم حتى تلاقت عيناي بعيني مصطفى المرعوبتين، منحته ابتسامة أخيرة في اللحظة التي صرخ فيها أحمد المربوط إلى كرسيه ليمنعني عما انتويته، في تلك اللحظة كنت سعيدة لأنهم جميعًا هنا، يشهدون اللحظة الأخيرة..

شعرت بشعور مبهج خفيف كفراشة وطعم الشوكولا يملأني وببساطة..

انتهى كل شيء..

جروب بيت الكتب

مصطفى الشريف

بصمت رحت أجمع متعلقاتي وأجهز حقائب السفر، كنت مصدومًا ومتهالكًا تمامًا كرجل عجوز ينتظر الموت، توقفت قليلًا وأعدت تذكر الأحداث بثقل وحزن في مخيلتي منذ اللحظة التي عرفت فيها وجهة ياسمين من شهيرة، لم أفوّت لحظة واحدة واتجهت مسرعًا باتجاه الشرقية، كان كلي أمل أن ألحق بها كي أخبرها الحقيقة، أن أقول لها إني أحبها وسأظل بجوارها أينما أخذتنا الظروف ومهما كانت العواقب، لا تعنيني تلك الحقيقة القاسية التي أطلقتها رغم الجرح العميق الذي خلفته في نفسي، لعنت نفسي على ذلك الصمت الموحش الذي أخرسني فجعلني عاجزًا عن الإقدام على أي تصرف منذ معرفة سرها وحتى اللحظة التي قُتل فيها أمجد، ربما لو كنت أخذتها بين ذراعيّ وأخبرتها بأن العالم ما زال بخير ما قُتل أمجد وما وصلت بنا الأحداث إلى تلك النقطة التي نحن نقف عندها الآن، حاولت بشتى الطرق خلال الطريق رسم خطة معينة لكي أُجنّبها وطأة الأحداث حتى لا تتعرض لما هو أسوأ من القتل والاغتصاب أيضًا، لكني لم أكن أدري كيف يمكن الوصول لها ولا أعرف شخصًا يمكنه مساعدتي، أحسست أنني غريب في بلد غريب أسير كالأعمى، أكثر ما كان يفزعني وجود اسمها ضمن تلك المجموعة الواجب الخلاص منها والتي أعطانيها مراد السيوفي، مجرد فكرة أن تكون حبيبتي واقعة تحت تهديد بالقتل كان يثير حفظيتي فيستشيط غضبي كإضرام النار في غابة كبيرة.

وصلت إلى منزلها، هناك انهارت كل معنوياتي حينما رأيت عائلتها

الصغيرة تسبح في بحر عميق من الحزن والألم اللامنتهي، لم يكن الوصول لمنزلها صعبا لأن الحكاية البائسة عن اختطافها منتشرة ومعروفة، دخلت غرفتها بعد أن عرَّفت أهلها على نفسي باعتباري أحد الضباط المخولين بالبحث عنها واستعادتها سالمة، فلم أكن أدري أنها ستعود لهم جثة هامدة. رأيت صورها منذ أن كانت فتاة صغيرة وصولا إلى صورها في الجامعة وبعض الصور الخاصة لها مع زملائها في العمل كما صورها الكثيرة مع شيماء التي عرفت أنها صديقتها المقرّبة. سالت الدموع من عيني وأنا أمسك بإحدى صورها وأنظر في عينيها الجميلتين الحزينتين اللتين ترمقاني أينما ذهبت، قبّلت الصورة وأنا أكتم البكاء. وقبل أن أعيدها إلى مكانها دخلت عليّ أمها ومعها الشاي ثم قالت بنبرة حزينة:

- دي آخر صورة اتصورتها قبل ما تتخطف..

تماسكت بقدر الإمكان ثم استدرت نحوها مبتسمًا ابتسامة باهتة وأومأت برأسي. استأذنتها في أخذ الصورة كي تساعدنا في عمليات البحث، وافقَتْ بإيماءة خفيفة وعيناها مفعمة بكل آيات الحزن، كان والدها ساكنًا، عيناه شاخصتان في الفراغ، لا يتكلم تقريبًا ولم يوجّه لي كلمة واحدة، تكهنت بأنه لم يدرك وجودي من الأساس، لم يكن أخوها بالمنزل لكني عرفت بأنه سافر منذ شهر تقريبًا إلى القاهرة بحثًا عن عمل ويمكنني تصور الحقيقة بأنه لم يغادر الشرقية إلا هربًا من العار الذي يلاحقه.

نظرت عبر الشرفة، لم أكن أسمع شيئًا ولا أرى شيئًا، كأني وسط بلدة عاجزة محكوم عليها بالموت، أخرجت صورتها من جيبي ونظرت لها لدقيقة ثم أجهشت بالبكاء بشدة، لم ينفك شكلها الأخير عن الظهور أمامي، تلك الابتسامة المتحدية التي ارتسمت على وجهها وهي ترمقنا جميعًا بعز وكرامة، نظرتها الأخيرة كانت تقول: بئسًا لعالمكم، لتعيشوا مع مرارة موتي، لتخلد قلوبكم جميعًا في الجحيم، لم تعد تعنيني مفاهيمكم

البشرية ولا تطلعاتكم المعقدة السوداء، أنا هنا في كنف الرحمن، القادر على رأب الصدع الذي سببه ظلمكم وغرائزكم.

كانت مستلقية على الأرض كالملاك وعيناها تنضحان بكل معاني الغفران والتسامح، لم يهون على قلبي المعصور من الهم والكدر والفراق سوى تلك النظرة الراضية القنوع بما أقدمت عليه.

ابتسمت ابتسامة باهتة وكأني أؤكد لها أني راضٍ بما فعلت، فلا أنا ولا غيري نستحق عالمها الذي لم تجد فيه حضنا يحترم معاناتها حفاظًا على كرامتها. أعدت الصورة إلى جيبي ثم خرجت متجهًا إلى عملي كي أنتهي من آخر قضية لي، قضية ياسمين، قضية حياتي، كنت أنا المخول بتشريح جثتها، عاهدت الله أن أرد لها جميل وجودها في حياتي، أن أعيد لأهلها شرفهم بجرة حبر مني حتى وإن كان ذلك يومي الأخير على هذه الأرض، على كل حال تلك قضيتي الأخيرة ولن يهمني شيء بعدها، تكفيني المرارات التي ذقتها طوال المدة القصيرة التي قضيتها هنا. وقفت أمام الجثة ولم أشرّحها، لم أستطع فعل ذلك، لن أشوه ذلك الجسد أكثر مما تشوّه، يكفي العبث بروحها. جلست وأعددت تقريري كاملًا ثم أرسلته إلى الضابط المسئول عن القضية، عصام الرشيدي الذي كان متفهمًا منذ اللحظة الأولى.

اتجهت إلى المستشفى لأطمئن على خالي. بدا عجوزًا للغاية وكأن سنوات عديدة أضيفت فجأة إلى عمره، أخبرني بهدوء عن نيته في الذهاب إلى أيمن، ابتسمت رغم الحزن المسيطر عليّ مؤمنًا على قراره، بكى كثيرًا بين يديّ، لم أكن أدري هل كان يبكي أمجد؟! أم يبكي أيمن أم يبكي على حاله الذي أوصله إلى ما هو عليه؟! حقًا لم أكن أدري ولكن دموع ذلك الرجل الصلب دموع غالية لا تسقط هباء.

انتهى كل شيء، انتهت أزمتي مع الحب بالفقد وانتهت لوعتي بالحسرة وباتت حياتي بؤسًا عميقًا، ذهبت ببساطة إلى إحدى مكاتب

الحجز وقمت بقطع تذكرة متجهة إلى أمريكا، تذكرة ذهاب بلا إياب، لن أعود إلى المدينة التي تغوص في الوحل وتعج بفاقدي الضمير، لن أغرق مرة أخرى في الظلمة ولن أرتدي زي الفارس النبيل الذي يحارب من أجل تحرير المدينة المقدسة، لست ذلك الفارس ولن أملك القوة لتغيير ذلك المجتمع البائس، جلست طوال الليل أبكي وأنا أتذكر كل ما مرَّ بي مع ياسمين، دعوت الله أن يرحمها، أن يسكنها فسيح جنته ليعوضها عن تلك الأهوال التي مرت بها، أخرجت المصحف وبصوت متحشرج شرعت في القراءة باكيًا:

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾

(كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾). - سورة الرحمن.

عصام الرشيدي

كنت جالسًا خلف مكتبي شاردًا أقلب النظر في تفاصيل المسجل الصغير الذي تركته ياسمين بينما يجلس مصطفى أمامي وقد اعتراه هدوء غامض ونظرات خاوية مغرورقة بالدموع، يتطلع إلى الجريدة المفتوحة بين يديه، يحبس أنفاسه وتنهيداته العميقة القوية بقدر ما سمحت له طاقته وقدرته على ذلك، آلمني التفكير في الماضي القريب لكني كنت مضطرًا لإعادة كل تفصيلة مرت عليّ لأخرج بمغزى الحكاية كاملة، أفكار عدة تدور في رأسي بسرعة كبيرة دون أن أثبت على واحدة منها، انتابني شعور بالحزن لم يدم طويلًا، تمالكت نفسي بقدر ما استطعت ثم تناولت ورقة بيضاء وشرعت أكتب بهدوء ما انتويته قبل حدوث كل ذلك.

لقد مرت أربعة أيام كاملة على الحادث الأخير، اتفقت خلالها مع سارة على كل شيء، كنت سعيدًا ولكن شرخًا كبيرًا وحزنًا عميقًا يدبان في نفسي، حتى زاهر الذي يجلس في ركن الغرفة مطأطئ الرأس بدا حزينًا وكئيبًا بشكل مثير لم أره طوال معرفتي به.

كان من المقرر كما اتفقنا أن نسعى خلف معرفة سر كلمة العين، وبعد مراقبة حثيثة ودقيقة، ليل نهار، عرفنا أن المقصود بالعين فيلا تقع في المنصورية، من حسن حظنا أن الفيلا معروفة في تلك المنطقة، يملكها شخص مرموق ذو سلطة في المجتمع، كان نائبًا في مجلس الشعب في العهد السابق كما أنه من رجال الأعمال المعروفين وذو صلة وثيقة بمعظم القيادات وذوي النفوذ في الدولة، يدير أعماله بحنكة

ويصل لأهدافه بأي طريقة كانت حتى لو كانت الدعارة إحداها، استعان بنهى - وكانت تعمل خلال تلك الفترة فتاة ليل - التي صادقته لسنوات طويلة بعد أن تعرف إليها في سهرة حمراء مشينة واستخدمها لمساعدته في تنفيذ أهدافه على مدار الفترة السابقة. كل التحريات والإفادات قادتنا إلى هذه النقطة، انطلقت مجموعتي ومجموعة الضباط المعاونين للقيام بالمهمة وتنفيذها، تولى إدارتنا جميعًا اللواء مراد السيوفي الذي أبدى قلقه الشديد بشكل غير مباشر من خلال الخطة المحكمة وأوامره الصارمة وعصبيته التي لم أرها فيه قبل ذلك، كان يخشى أن تتعرض الشرطة لسقطة أخرى يرجوها الجميع في هذا التوقيت الحرج، كما كان يخشى أن تتصاعد الأمور فتطيح به ويسرّحوه من الخدمة، كانت الأمور في البلاد لا تزال في حالة من عدم الاتزان والاستقرار كما كان هناك استياء شعبي من حال السلطة الجديدة وتردي أوضاع البلاد، لكن ما كان محيرًا بالنسبة لي هو تكاتف الإعلام كله على الهجوم على السلطة الجديدة بشتى الطرق، في النهاية لم أعر الأمر اهتمامًا لأن ما أقوم به ربما يكون عملي الأخير حسب اتفاقي مع سارة حيث انتوينا السفر إلى فرنسا من أجل إجراء عملية جراحية لها ربما تمنحنا بعض النور الذي غاب وسط الخيبة والحزن والعتمة القاتمة.

على جانب آخر كنت قد كلفت مجموعة أخرى بالقبض على ياسين بعد أن عرفت فيما بعد من مصطفى أن الوجهة الأخيرة التي قصدتها ياسمين هي بلدتها الأم الشرقية، لقد قرر مصطفى في نفسه بعد أن عرف الحقيقة من شهيرة أن يذهب وحده للبحث عنها خوفًا عليها من رجال الشرطة ومن المعاملة التي قد تقتلها قبل أن تنال حكمًا في المحكمة ربما يقودها إلى حبل المشنقة. كما أخبرني أيضًا بأنه لم يصل في النهاية لشيء، لكن كانت هناك مفاجأة في انتظارنا حيث عرفنا باختفاء شاب اسمه أحمد فتحي البسيوني، طبيب حديث التخرج، كان على علاقة عاطفية بياسمين في وقت مضى قبل اختفائها من بلدها، تابعنا

المعلومات القليلة التي بحوزتنا حتى وصلنا إلى شاب آخر اسمه ياسين وقد شوهد الشاب المخطوف لآخر مرة معه وبعد الضغط عليه استطعنا أن نعرف مكان ياسمين.

عند اقتحامنا للفيلا المقصودة في الساعة الثالثة فجرًا وبعد أن كنا مرابضين هناك لمدة ثلاث ساعات كاملة ننتظر إشارة مراد السيوفي وجدنا كل شيء كما تمنينا بل أكثر، كانت الفيلا مترعة بكل أنواع الملذات والفجور، زجاجات خمر في كل موضع تقريبًا داخل الفيلا، في البهو الفسيح، حول حمام السباحة الذي كان يسبح فيه مجموعة صغيرة من الفتيات والشباب عراة، مواد مخدرة، حشيش وأفيون، كوكايين وهيروين، ضجيج الموسيقى الصاخبة يرجّ الفيلا، فتيات عاريات في الغرف مع رجال. بدا من مظهر الرجال خاصة أنهم ينتمون لجنسيات مختلفة كما كانت نهى بجلالها وحنكتها هي الأخرى عارية في السرير مع رجل خمسيني عرفنا فيما بعد أنه مسؤول كبير في هيئة الجمارك. كانت معظم الفتيات ما بين سن الثامنة عشر والثلاثين، لم نجد أثرًا لتوحة في الفيلا ولم يتم العثور عليها حتى هذه اللحظة لكننا نكثف جهودنا للقبض عليها، انتهت القضية وانتهت مهمتي تقريبًا في ما يخص ذلك الموضوع، شعرت براحة غريبة وأنا أقف في مواجهتهم جميعًا، كان ضجيجهم لا يحتمل وهم يدافعون عن أنفسهم داخل قسم الشرطة حتى إني صحت فيهم بكل طاقتي، فساد صمت مضطرب تتخلله بعض الغمغمات، كنت قاسيًا وحادًا في معاملتي لهم، مشمئزًا من نهى، تمنيت لو أقتلها بيدي لتستريح نفسي، أقروا بعد مواجهات مع رجال التحقيق بالوقائع كاملة حتى إنهم اعترفوا بمحاولة قتلي والتعدي على زاهر، أنكرت نهى كل ما يخص ياسمين ومنة ولكن بعد ضغط كبير عليها اعترفت بواقعة منة وجزمت بأنها كانت تنتظر حتى يتسنى لها الأمر وتتخلص من ياسمين أيضًا لأنها لم تخضع لرغبتها كما أنها عرفت أكثر مما يجب ولتجعلها مثالًا لكل فتاة تتمرّد عليها.

كان شعور عميق بالألم يسري داخلي كلما نظرت لمصطفى، لا أستطيع أن أمنحه شيئًا ولا يستطيع أي إنسان أن يمنحه شيئًا، مسح دموعه بأطراف أصابعه ثم نظر لي لبرهة وقد بدا عليه السهوم والهدوء الغريبين، تململ في مكانه قليلًا ثم قال بصوت متحشرج:

- أظن إني عملت اللي عليا يا عصام صح؟

أومأت برأسي بهدوء ثم قلت:

- عملت اللي عليك وزيادة يا مصطفى.

نظرت لزاهر الرابض في الغرفة نظرة مغزاها أن يتركنا وحدنا فانسحب بهدوء في اللحظة التي أجهش فيها مصطفى بالبكاء فجأة وهو يقول:

- كان نفسي نلحقها.

نهضت من مكاني بصعوبة بعد ما تركت المسجل الصغير من يدي ودرت حول المكتب حتى وصلت إليه ثم ربتّ عليه قائلًا بعزاء وأسى:

- صدقني ما كانش بإيدينا حاجة أكتر من اللي عملناه.

- تفتكر إنها حبتني فعلًا؟

- ما عتقدش إنها حبت حد غيرك في حياتها.

تململ في مكانه وهدأت دموعه، بعد ثوانٍ قليلة نظر لي ثم قال:

- أنا راجع أمريكا تاني.. قدمت استقالتي النهارده الصبح.

لم أتفاجأ واعتراني الصمت للحظات ثم قلت:

- أنت متأكد من قرارك ده؟

- زي ما أنا متأكد إنك بتكتب استقالتك دلوقتي.

ابتسمت قائلًا:

- عايز أعيش في هدوء.. أنا خسرت أكتر ما كسبت.. كفاية كده.

أومأ برأسه متفهمًا ثم نقل بصره إلى الجريدة الملقاة أمامه على ترابيزة

منخفضة صغيرة مبتسمًا برضا وقد كانت دمعة تكاد لا تلحظ تنفرط من عينه، كانت الحقيقة واضحة بأننا في الحياة لا نحصل على ما نريد، وأن أهم ما في الحياة الحب. عندما نخسره تكون أكبر خسارة. الأمل والحب هما المتنفسان لاستكمال الحياة، نصاب بالخيبة تلو الأخرى وفي كل مرة نتصور أن تلك هي الخيبة الأخيرة ولكننا نأمل في ما هو آتٍ، تعاني أرواحنا لمرة أخرى غير أخيرة وتسكن في بئر عميقة من الألم والحسرة مع خيبة جديدة مفاجئة، لكن بالأمل نرمم الجزء االجزء المتبقي لنستعيد العافية، أدركت أن السر الحقيقي وراء كل ذلك يكمن في النظرية التي تعلمنا قيمة الأشياء، نظرية الفقد، تلك النظرية التي تعلمنا بقسوة أن قيمة وحقيقة الأشياء لا تتضح لنا إلا بفقدها.

تمنيت لأمجد الرحمة والمغفرة ودعوت الله أن يرأف بأشرف يونس ويعيده سالمًا إلى الحياة عساه يصحح تلك الأخطاء التي حادت به عن الطريق بل وانقلبت على رأسه في النهاية لتتجسد أمامه مقيتة مفزعة.

لقد كنت خائنًا لعملي، استقالتي التي أمامي هي اعتراف بذلك، لقد خنته حينما انسقت خلف ملذاتي متوهمًا أني لم أعش حياتي وأنه آن الوقت لذلك بعد خسارة ابني الوحيد، لقد خنته حينما استخدمت سلطتي وقتلت، حينما ضربت ذلك الشاب حتى الموت وأخونه الآن لكن بطريقة مختلفة تمامًا، لا أعرف حقيقة هل أنا خائن الآن أم لا لكن إحساسي يخبرني أنه العمل الوحيد الصالح الذي قمت به على مر خدمتي للقانون، لكن أي قانون ذلك الذي يجعل من الضحية قاتلة؟! ومن المجني عليها جانية؟! أي قانون ذلك الذي يُبيح أن تكون النهاية مجحفة قاسية بلا رحمة وبلا أمل لمن هم بعدنا؟!

ابتسمت وأنا أعانق مصطفى مودعًا. نظر في عينيّ نظرة راضية عليّ وأومأ برأسه إيماءة خفيفة وكأنه يشكرني على طريقته، أعطاني ظهره

ومشى بخطوات ثابتة واثقة وعيناه مغرورقتان تعبران بالدموع عما يجيش في داخله.

جلست شاردًا وبعد لحظات سمعت طرقًا على الباب ودخل زاهر قائلًا:

- الأستاذ اللي أنت مستنيه واقف بره.

- خليه يدخل بسرعة.

كنت أنتظر صديقًا، هو كاتب روائي معروف، أعرفه معرفة شخصية وأثق به وبنبل قلمه، رحبت به، وبعد عبارات الترحيب ناولته المسجل قائلًا:

- خلي العالم يعرف الحقيقة.

أخذ المسجل مبتسمًا ثم قال:

- الحقيقة دايما بتوجع.

أومأت برأسي دون رد.

لم يُطل صديقي الروائي جلسته، فقد كان واضحًا أنني لست في مزاج للكلام.

عندم خرج جلست في مكان مصطفى وألقيت نظرة على الجريدة:

مقتل نجل رجل أعمال معروف

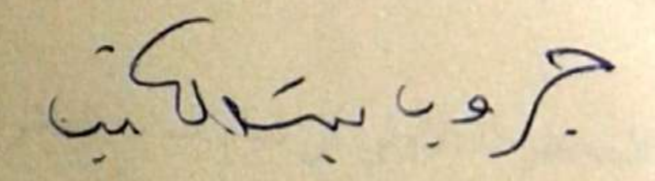
«نجحت أجهزة الأمن في التوصل إلى تفاصيل واقعة مقتل المجني عليه أمجد أشرف يونس نجل رجل الأعمال المعروف أشرف يونس، تبين أن وراءها شابًا يُدعى «م.ع» عاطل عن العمل قد سعى لسرقة الشقة فاصطدم بوجود المجني عليه حيث نشب عراك بينهما طعنه الجاني على إثره طعنة نافذة في الصدر أودت بحياته على الفور وقد أمرت النيابة بضبطه واحضاره».

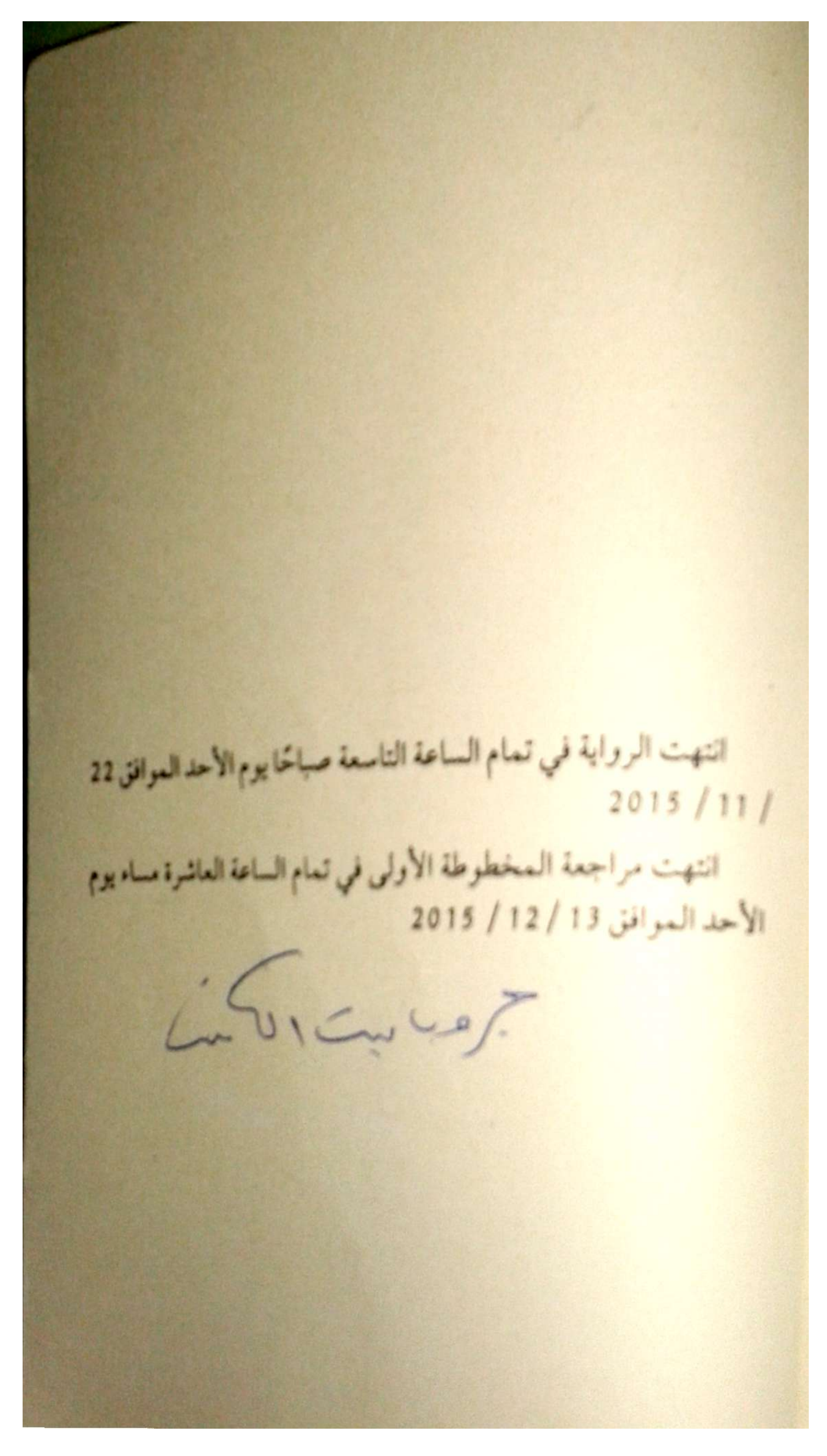
تبسّمت ثم أشعلت سيجارة وأنا أقرأ الخبر الذي توسط الصفحة:

فتاة تنقذ شرفها بالموت

«عثرت الشرطة على جثة فتاة ألقت بنفسها من نافذة بالطابق الرابع عشر دفاعًا عن شرفها وقد تبين فيما بعد أنها من محافظة الشرقية وتدعى ياسمين عبد الظاهر، حيث قامت مجموعة من الشباب باختطافها وإيداعها في مكان ناء به عقار تحت الإنشاء على الطريق الصحراوي قد توقف العمل به منذ فترة، هذا وقد أثبت الطب الشرعي أن المدعوة ياسمين عبد الظاهر قد لاقت حتفها على الفور إثر سقوطها وهي ما زالت عذراء، لم يمسها الجناة بينما لم يتم العثور على أي منهم حتى هذه اللحظة».

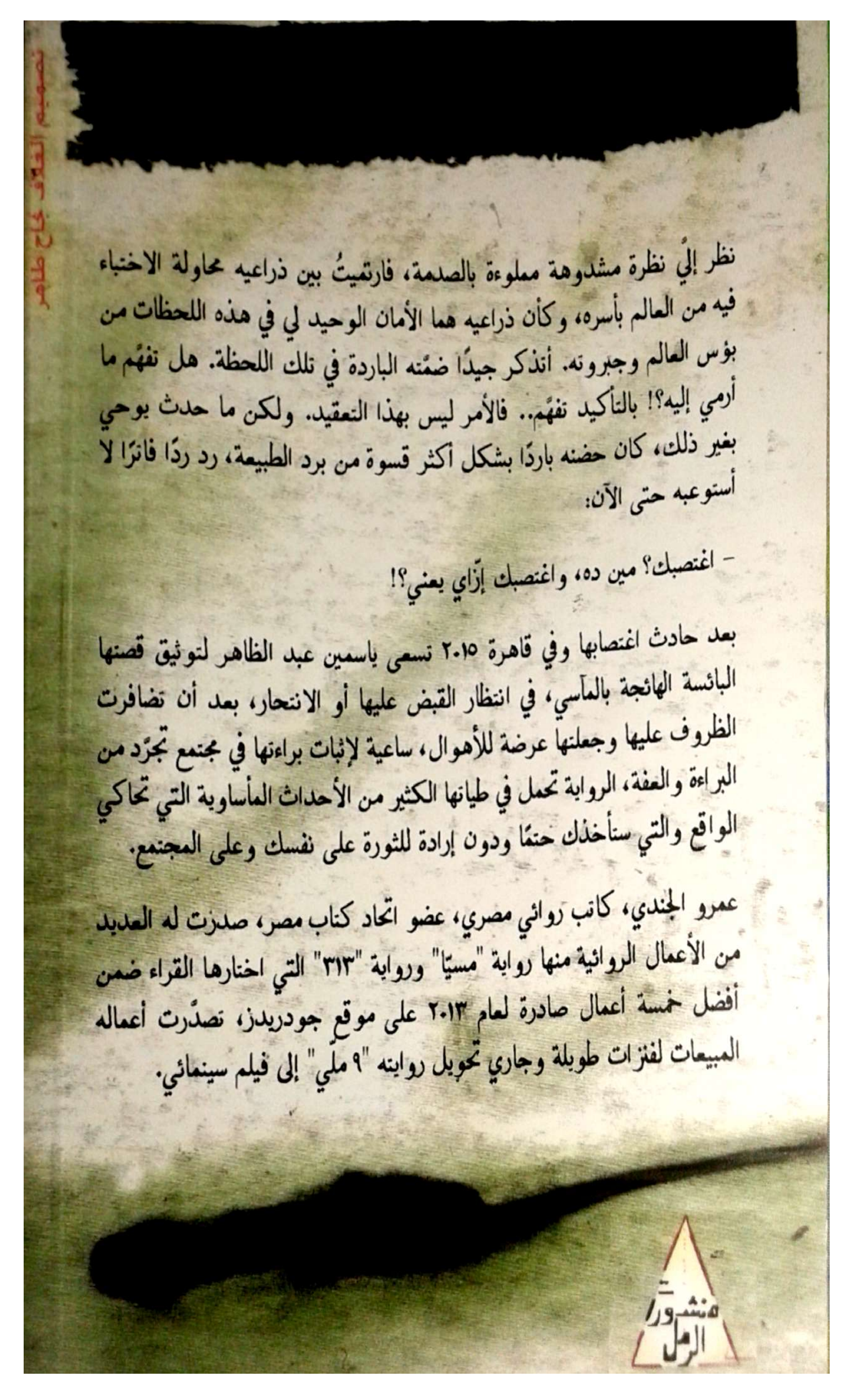
تمت بحمد الله





انتهت الرواية في تمام الساعة التاسعة صباحًا يوم الأحد الموافق 22 / 11/ 2015

انتهت مراجعة المخطوطة الأولى في تمام الساعة العاشرة مساء يوم الأحد الموافق 13 / 12/ 2015



نظر إليّ نظرة مشدوهة مملوءة بالصدمة، فارتميتُ بين ذراعيه محاولة الاختباء فيه من العالم بأسره، وكأن ذراعيه هما الأمان الوحيد لي في هذه اللحظات من بؤس العالم وجبروته. أتذكر جيدًا ضمّته الباردة في تلك اللحظة. هل تفهَم ما أرمي إليه؟! بالتأكيد تفهَم.. فالأمر ليس بهذا التعقيد. ولكن ما حدث يوحي بغير ذلك، كان حضنه باردًا بشكل أكثر قسوة من برد الطبيعة، رد ردًا فاترًا لا أستوعبه حتى الآن:

- اغتصبك؟ مين ده، واغتصبك إزّاي يعني؟!

بعد حادث اغتصابها وفي قاهرة ٢٠١٥ تسعى ياسمين عبد الظاهر لتوثيق قصتها البائسة الهائجة بالمآسي، في انتظار القبض عليها أو الانتحار، بعد أن تضافرت الظروف عليها وجعلتها عرضة للأهوال، ساعية لإثبات براءتها في مجتمع تجرَّد من البراءة والعفة، الرواية تحمل في طياتها الكثير من الأحداث المأساوية التي تحاكي الواقع والتي ستأخذك حتمًا ودون إرادة للثورة على نفسك وعلى المجتمع.

عمرو الجندي، كاتب روائي مصري، عضو اتحاد كتاب مصر، صدرت له العديد من الأعمال الروائية منها رواية "مسيّا" ورواية "٣١٣" التي اختارها القراء ضمن أفضل خمسة أعمال صادرة لعام ٢٠١٣ على موقع جودريدز، تصدّرت أعماله المبيعات لفترات طويلة وجاري تحويل روايته "٩ ملّي" إلى فيلم سينمائي.

منشورات الرمل